

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجبلاي اليابس - سيدي بلعباس
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية

الأوضاع الاجتماعية والثقافية في عمالة وهران 1945-1962

أطروحة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

تحت إشراف:
الأستاذ الدكتور محمد مجاود

إعداد الطالب:
محمد غربي

أعضاء لجنة المناقشة:

رئيساً	جامعة الجبلاي اليابس - سيدي بلعباس	- أ.د ولد النبية كريم
مشرفاً ومقرراً	جامعة الجبلاي اليابس - سيدي بلعباس	- أ.د مجاود محمد
مناقشاً	جامعة الجبلاي اليابس - سيدي بلعباس	- أ.د لونيبي إبراهيم
مناقشاً	جامعة السانانية - وهران	- أ.د غانم محمد
مناقشاً	جامعة السانانية - وهران	- د. خالد بوسيف
مناقشاً	جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان	- أ.د سعدي محمد

السنة الجامعية 2014-2015

كلمة شكر

من باب إرجاع الفضل لأهله، أتقدّم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الدكتور محمد

مجاود الذي أخذ بيدي طوال فترة هذا البحث، فكان نعم المرشد ونعم المعين، وما

عساي أقول أكثر ممّا قال المتنبّي :

وقد حملتني شكر لحويلا * ثقيلًا؛ لا ألصق به حراطلا

فإليك متّي أسمى معاني التقدير .

وإلى كلّ من أعانني بكتاب، أو بكلمة طيبة، أو بنصيحة أو بتشجيع.

الطالب: محمد غربي

إلى كل

إلى روح أبي الغالي.

إلى أمي الغالية.

إلى كلّ عائلتي وأخصّ بالذكر شقيقتي الدكتورة شميصة

والدكتور مصطفى وميلود.

إلى زوجتي وأبنائي.

إلى كلّ غيور ومحب لهذا الوطن الغالي .

مقاطعة

إن المتأمل في الدراسات والأبحاث والمذكرات التي كتبت في التاريخ الاجتماعي والثقافي لعمالة وهران سيجدها قليلة إن لم نقل تكاد تكون منعدمة، خاصة الكتابات التي تناولت أحداث الثورة الجزائرية. من هنا تداخلت عدة عوامل زادت من عزمنا على المضي في دراسة موضوع "الأوضاع الاجتماعية والثقافية في عمالة وهران 1945-1962" أولاها، ميولاتنا الذاتية إلى مثل هذه المواضيع التي لا تزال إلى يومنا تشكل مجالا خصبا لما لها من تأثير كبير على دعم ثوابت الأمم. وثانيها أن الأوضاع الاجتماعية والثقافية، والتحويلات التي أحدثتها الثورة الجزائرية، ساهمت بقسط كبير في إعادة بلورة العلاقات الاجتماعية والثقافية بين أفراد المجتمع الجزائري الذي جهدت فرنسا بكل ما أوتيت من وسائل لمحو مقوماته العربية الإسلامية الجزائرية. وثالثها أن الدراسات التي تناولت القطاع الوهراني، اهتمت بالجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية وأهملت الجوانب الاجتماعية والثقافية، بالرغم من أن مرحلة الثورة لم تكشف كلّ خباياها.

لا تزال الكثير من الدراسات تتساءل عن مدى تأثير الاستعمار الفرنسي على الأوضاع الاجتماعية والثقافية للجزائريين في عمالة وهران؟ وهل كانت المشاريع المختلفة التي وضعتها فرنسا مجرد مؤامرة للحد من الحركة الوطنية ثم الثورة التحريرية، أم كانت لترقية وتحسين الأوضاع الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري؟. للإجابة على هذه الإشكالية المحورية، اتبعنا المنهج التاريخي الذي يعتمد على جمع المادة المتعلقة بالموضوع وقراءتها، ثم تحليلها مع الاعتماد على أسلوب المقارنة بين المعلومات المستقاة من المصادر.

إن ما يصدد الدارس للوضع الاجتماعي والثقافي للجزائريين المسلمين في عمالة وهران، هو تعدد جلّ المؤرخين الفرنسيين الكولوناليين نعت المجتمع الجزائري المتنوع على أساس إثني وثقافي بأشنع الأوصاف المضلّة والمفتعلة والمنحطة، ليخلص إلى أنه مجتمع بدائي شبيه بقبائل متوحشي أمريكا. يعاني

قصورا فكريا، ويفتقد إلى الفضول العلمي والعمل الخلاق، و يحتاج دوما إلى الآلة القانونية الفرنسية التي تعيده إلى جادة صوابه. لذلك لا غرابة إن وجدنا في هذا الواقع المر، أن غالبية السكان الجزائريين المسلمين في عمالة وهران تتكون من البلوريتارية المعدومة الريفية والحضرية المحلية، هي الأفقر في العالم. تحولت إلى لا إنسانا على الإطلاق . تقيم في أحياء الصفيح و الأكواخ و الأعشاش. أجبر أصحابها للبقاء على قيد الحياة على التنشف، والكفاف، والبؤس، والعناء، والفقر، والعوز، والحرمان. مستواهم المعيشي في انخفاض مستمر، ويسعون جاهدين إلى اللقمة بألف سبيل وسبيل. يتسولون ويهوقون عربات الحمير، ويبيعون بضائعهم القليلة على الطرقات لجني قوت يومهم. فأصبح منهم الحمالون، وفيهم اللصوص، والخادmates لدى الأسر المرفهة.

تحاشى المؤرخون الفرنسيون الكولونياليون التعمق في إبراز الدور الذي لعبته جبهة التحرير الوطني في الميادين الاجتماعية والثقافية، واجتهدوا في الإشادة بالإصلاحات الفرنسية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لإخراج الجزائريين من بوتقة الفقر والجهل. بل وإن الكثير منهم حاول تطعيم كتاباته بحجج وبراهين، لإقناع القارئ بانعدام مقومات الشخصية الجزائرية الحضارية للشعب الجزائري عند احتلال فرنسا للجزائر. إلا أن الواقع يؤكد أن فرنسا ظلت منذ سنة 1830 وهي تحاول جاهدة طمس الهوية الجزائرية بدعوى أن المجتمع الجزائري يفتقد إلى حس التضامن الذي يُعتبر قاعدة ضرورية لتكوّن الأمم ، وأن الاستعمار كان ضرورة حتمية لتمدينه وتحضيره. وكثيرا ما تساءل هؤلاء المؤرخون إن كان يحط من قدر الجزائري أن يذكره الفرنسيون بأصوله الرومانية، وأن فرنسا جاءت لتعليمه المدنية الحديثة؟!، لأن كل ما يهم في الجزائر هو إعادة خلق شعب الجزائر الروماني، وإعادة مسيرة الزمن من جديد. والحق أن هؤلاء المؤرخين الأوروبيين

ومن حيث لا يدرون، قدموا خدمات جليلة للجزائر من خلال كتاباتهم وبحوثهم ودراساتهم حول تاريخ الجزائر الاجتماعي والثقافي.

من المصادر التي اعتمدنا عليها في دراسة موضوعنا:

- المصادر الأرشيفية الفرنسية: تتوفر محفوظات ما وراء البحار في بفرنسا على عدد هائل من التقارير الصادرة عن مركز الاستعلام والدراسات، والوثائق، والمطبوعات التي جمعت حول الجزائر من قبل المصالح التي تخصصت وكلفت بتسيير ومراقبة ومتابعة الأهالي في حياتهم اليومية. وقد كان لزاما علينا توخي الحيطة والحذر في التعامل معها - وإن كانت تختلف كما ونوعا عن ما أنتجه المؤرخون الجزائريون - لكن الحقيقة التي لا مفرّ منها، هي أن الاستعمار الفرنسي ترك رصيذا معرفيا هاما يتعلّق بالتراث الاجتماعي والثقافي، وعادات وتقاليد الشعب الجزائري من خلال الدراسات والبحوث التي أنجزتها المدرسة الاستعمارية بهدف معرفة خبايا المجتمع الجزائري والسيطرة عليه واستغلال ثرواته.

- قمنا بزيارات لمصلحة الأرشيف بوهران ومتحف أحمد زبانه بولاية

وهران، ومصلحة الأرشيف بولاية سيدي بلعباس، ومعسكر، ومستغانم. واستعنا بمركز الوثائق الأرشيفية بالجزائر العاصمة وقسنطينة قصد المطالعة والمقارنة في بحثنا بين العمالات الجزائرية لعلنا نخرج بنتائج ترضي طموحاتنا وشغفنا بالبحث، وتشبع القارئ.

- وظفنا بعض الشهادات الحية التي لم نجد عنها غنى عند تطرقنا

للأهزوجة، ولجوء الكثير من الجزائريين - خاصة الفقراء منهم - إلى الطب التقليدي (الشعبي) الذي استطاع أن يفرض نفسه كطريقة من طرق التكيف مع الارتفاع الشرس في معدلات انتشار الأمراض المزمنة . إما رفضا للتداوي عند الطبيب "النصراني/ الكافر"، أو تحت وطأة الظروف والشدائد ، أو بسبب العرف

والدين الذي يجعل الجزائري/الأهلي/المسلم ي توخى الحذر الشديد من كشف -
الطبيب الأجنبي - عن زوجته أو ابنته أو أخته.

- النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني 1954-1962، التي لا غنى

عنها في مثل هذه الدراسات. ويمكننا إجمالها في موانيق الثورة الجزائرية.

- الوثائق والتقارير الرسمية لجبهة التحرير الوطني التي أشرفت عليها

وزارة المجاهدين، وقد استفدنا كثيرا من غزارتها.

- الصحف والنشرات التي صدرت خلال مرحلة الدراسة، وهي من أهم

المصادر على الإطلاق لأنها لسان حال جبهة التحرير الوطني والمستوطنين. وبذلك

فهي تمثل السجل الحقيقي الزاخر بنشاط الحركة الوطنية وجبهة التحرير الوطني

وبجرائم المستوطنين الأوروبيين، خاصة في ميدان دراستنا، وفي غيرها من

الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية. وقد كان الهدف من تأسيسها هو نشر

الوعي بين الجزائريين قصد تعبئتهم وربطهم بثورتهم المباركة، وأن تكون همزة

وصل بين الثورة والجماهير الجزائرية في المدن والأرياف والقرى.

استجدنا بعدة مؤلفات باللغتين العربية والأجنبية حيث لاحظنا مدى دور

وبشاعة الاستعمار الفرنسي في عمليات التجهيل، والتفقير، والإفلاس، والأزمات

التي تعرضت لها الشرائح الاجتماعية الجزائرية التي لم يصلها إلا الفتات من

المخصصات المالية التي يمنحها الميتروبول إلى الجزائر. من هذه الكتب ما كتبه

فرحات عباس، وأحمد توفيق المدني، و محفوظ قداش ، وهنري كلود، وإيف

لاكوست، وعبد القادر جغلول، ومحمد بن عيسى أمير (Mohammed Ben Aissa

Amir)، ومصطفى الأشرف (Mustapha Lachraf)، ومانديس فرانس (Mandés

France)، وجورج روت (Georges Reutt) الذي أهمل في كتابه " La Région

"Agricole de Sidi Bel Abbes الصادر سنة 1949 الأوضاع الاجتماعية المتدهورة التي

كان يعاني منها الجزائريون، وأولى أهمية لدور المستوطنين في تطوير القطاع الزراعي.

و"سارج جوان" صاحب كتاب "L' école en Algérie de la régence Aux centres

"(1830-1962) sociaux éducatifs الذي ركز بصفة دقيقة على المراكز الاجتماعية التربوية التي لعبت أدوارا مهمة وكبيرة في سياسة الإصلاحات الفرنسية، وكتاب "La guerre d'Algérie (1954-1962) للألماني "Hartmust Elsenhans" الذي يعتبر من المؤلفات الهامة التي أولت عناية كبير للسياسات التي اعتمدها السلطات في الفرنسية في جميع المجالات والتي من بينها الجانب الاجتماعي، وأندرى نوشي (A. Noushi)، وشارل روبير أجيرون (Charles Robert Ageron)، وبيير بورديو (Pierre Bourdieu)، وفرانسيس وكوليت جونسون (Francis et Collette Jeanson) وغيرهم.

- لم نجد غنى عن الرسائل والأطروحات الجامعية التي وجدنا فيها ضالتنا لإنجاز هذا العمل، لما تحمله من مادة تاريخية دسمة.

على هذا الأساس قسمنا بحثنا إلى مقدمة، مدخل و بايين، وخاتمة وملاحق. تناولنا في المدخل، الأوضاع الاجتماعية والثقافية المزرية التي عانى منها المجتمع الجزائري من اغتصاب الأرض والجوع والفقر والأمراض. ثم قسمنا الباب الأول إلى أربعة فصول، منها الفصل الأول الذي عنوانه بـ " الواقع الديموغرافي في عمالة وهران " والذي تعرضنا فيه بالتفصيل إلى التركيبة السكانية في العمالة المتمثلة في الجزائريين، و الأتراك والكراغلة والموريسكيين الذين استوعبوا خصوصيات المجتمع الجزائري، ف امتزجوا و ذ ابوا وأثروا وتأثروا بالسكان الأصليين. وتعرضنا إلى الجالية المغربية ذات الطابع الريفي، الطيبة والصبورة في الأعمال الشاقة والدونية، المحرومة من أدنى حقوقها الاجتماعية، التي تمركزت في المناطق الزراعية مثل وهران وعين تموشنت ومستغانم وسيدي بلعباس. فاشتغلت في الزراعة والبقالة والبناء مقابل أجور - أحيانا - وفق نمط العمل وطول المدة التي تشتغل فيها. وقد استغل المعمر الفرنسي حاجتها للعمل في كسر الإضرابات الواسعة والقوية التي كان يقوم بها العمال الجزائريون للمطالبة بتوحيد الأجور والمنح العائلية. في حين احتكر اليهود . بعض الوظائف والمهن كصياغة الذهب

والخياطة وتصليح الأحذية، وتجارة الجملة والتجزئة، ومنح القروض والائتمان وتجارة الحبوب والماشية.

استفاد العنصر الأوروبي المتكون من الفرنسيين والإسبان من مؤسسات الخدمات الصحية والتعليمية، وفرضوا - قهرا - ثقافتهم وقيمهم وهيمنتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الأغلبية الجزائرية المسلمة.

تعرضنا في الفصل الثاني إلى المشاكل الاجتماعية الجوهرية التي عانى منها الجزائريون في الريف و المدينة. و الوضع الاجتماعي للمرأة الجزائرية ومحددات مكانتها. والحمام الطحطاحة، والمدينة الجديدة، والمقهى، كمكان يلتقي فيه السكان بعيدا عن العنصر الأوروبي لجني قوت يومهم، وإحياء ليالي الأعياد الدينية بنكهة جزائرية. والاستماع إلى فسيفساء متنوعة من الثقافات ، مثل المداحين والقوالين والشعراء ، والأغاني الشرقية لعبد الحليم حافظ وأم كلثوم. والجزائرية للشيخ حمادة، وعبد القادر الخالدي ، وعبد المولى بلعباس ، والشيخ مصطفى بن براهيم، والشيخ بن سمير التي كانت تحرض الجزائريين على الثورة ضد الاستعمار الفرنسي.

تناولنا في الفصل الثالث دوافع الهجرة الداخلية والخارجية، و التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي أفرزتها على مستوى العمالة. وإلى أحياء الصفيح وتريف المدينة ، وفرنسة المظاهر الاجتماعية والعمل الاجتماعي الخيري ، ونظام الحالة المدنية الصادر بتاريخ 23 مارس 1882 الذي يعبر عن القهر

الاستعماري و الجريمة الحضارية التي استهدفت مسخ الجزائريين وازدراءهم وتحقيرهم.

عند تناولنا بالتحليل للسياسة الصحية الاستعمارية في القطاع الوهراني في

الفصل الرابع، تساءلنا إن كان عملها إنسانيا أم أداة للتسرب الاستعماري السلمي؟ وخلصنا إلى نتيجة تمثلت في علاقة الطب والتبشير في خدمة الحركة الاستعمارية، والأمراض المنتشرة في المجتمع الجزائري المسلم، والأسباب والدوافع التي جعلتهم يلجأون إلى التداوي بالأعشاب، وزيارة الأضرحة، والخلط بين الطب والعرف والسحر والشعوذة. وكيف أن الثورة التحريرية المباركة أشرفت على إنشاء وتنظيم المصالح الصحية في عمالة وهران وعلى حدودها مع جيرانها. فكونت الممرضين، واستعانت بالمرشدين والطلبة الجزائريين المضربين، وأنشأت المستشفيات ومدارس التكوين، واقتنت الأدوية رغم القوانين الفرنسية الجائرة التي كانت تمنع ذلك.

تناولنا في الباب الثاني الموسوم بـ "الوضع الثقافي في القطاع الوهران

1945-1962"، الذي قسمناه إلى ثلاثة فصول، إشكالية التعليم ووضعية المؤسسات التعليمية بالعمالة، وسياسة التجهيل التي اعتمدها المستعمر الفرنسي للتعامل مع هذا الأهل الطبيعي المتوحش حسب تعبير الكثير من المثقفين الفرنسيين؟!، لاستبعاده عن مصدر القرار، وتمكين المستوطنين الأوروبيين من الاستقرار في العمالة دون خوف ورعب بتوظيف المدرسة لثقافة في اللامساواة (المدارس التطبيقية: التكوين التقني و التعليم الفلاحي)، واصطفاء الورثة المهجنين، و الاستلاب الثقافي والتغير الاجتماعي. من هنا سنلعب ا لمؤسسات التقليدية المتمثلة في الكتابات القرآنية والزوايا و جمعية العلماء المسلمين و التعليم المسجدي ، دور المقاومة الثقافية والسياسية والاجتماعية والدينية والتعليمية ل مواجهة المدرسة الفرنسية الكولونيالية التي دأبت على التلاعب بالمناهج والبرامج التربوية وطرق تدريسها لفرنسة الجزائر اقتصاديا وجغرافيا وسياسيا وثقافيا. ونعت الجزائريين ب ترسانة من النصوص الفرنسية، والأوصاف السوسولوجية التي تجعل الجزائري المسلم دون عتبة المدنية، والأطروحات الأيديولوجية ذات البعد العنصري في النظام التربوي

الاستعماري التي كانت ترى في تعليم الإنسان الجزائري، مخالفا لقانون التطور الثابت. غير أن قيادة جبهة التحرير الوطني وضعت نظاما تعليميا شمل القرى والمشاتى، وجعلت اللغة العربية لغة التعليم والإدارة والاتصال بالمواطنين. وفرضت إلزامية القراءة والكتابة، وألهمت مشاعر المثقفين الجزائريين الذين حملوا شعار الرفض للهمجية الاستعمارية في كل تجلياتها. فاصطبغ نتاجهم بالفعل الثوري وجسّدوه في مختلف الممارسات الكتابية السائدة من رواية ومسرحية وخطابة وشعر ومقالات. ساهمت جميعها في الإفصاح عن دور الثورة في النشاط الثقافي الذي لم يمارس باللغة العربية فقط، وإنما تجاوزه إلى التعبير باللغة الفرنسية لمقاومة الاستعمار الفرنسي بلغته، وهو الذي ظن أنه سينتصر ببسطها وترويجها. تجاوز اهتمام الثورة الجانب التعليمي لتولي اهتماما بالجوانب الثقافية الأخرى كالمسرح والسينما والقصة والشعر والرياضة التي وظفتها بشكل كبير من أجل تحسيس وتوعية الرأي العام الوطني والعالمي حول القضية الجزائرية وحققها في تقرير مصيرها.

ضمنا الفصل الثاني الموسوم بـ "الثورة الجزائرية والتحرر الثقافي"، تأثير الموروث الثقافي في تحديد مكانة المرأة، والإصلاحات التي اعتمدها الحكومات الفرنسية المتعاقبة لاحتوائها، خاصة بعد أن أصبحت مقتنعة بأن سياسة القمع والترهيب وحدها عمل غير مجد، لأنه لم يزد الثورة الجزائرية إلا تجذرا في أوساط الجماهير.

لم نغفل في الفصل الثالث دور الفضاء المسرحي في نشر الوعي الوطني من خلال بعض المسرحيات التي عرضت في عمالة وهران، والتي تعرضت إلى الحق والخير والجمال، والقيم والهمويّة والارتزاقية، والفُبح والسوء والكذب والخيانة والمجون والعمالة والفساد، والذل والخنوع والخضوع، والتمرد والثورة. كما تناولت بالتحليل توظيف الثورة للتراث الشعبي الذي وجدت فيه المرأة الصادقة لثقافتها ومملكة

وفكر المجتمع الجزائري الأصيل، ودعوته للوحدة الوطنية والحفاظ على الهوية الجزائرية المسلمة، وإعلان الحرب على فرنسا، وعمالها الخونة. وختمنا بحثنا بأهم النتائج التي توصلنا إليها في دراستنا.

خلاصة القول، إن هذا الجهد هو محاولة يمكن إضافتها لتفعيل دراسة الميادين الاجتماعية والثقافية. وأملنا كبير في أنه جاء ليسدّ الفراغ الذي تركه رواد المدرسة التاريخية الجزائرية الذين أولوا اهتمامهم للبحث في المواضيع السياسية والاقتصادية والعسكرية دون سواها. وأملنا أيضا أن تكشف هذه الدراسة للباحثين وخاصة الأجيال الصاعدة من أبناء الجزائر، جوانب نيرة من تاريخنا المجيد. بعيدا عن التشويه والتزييف الذي تعرض ويتعرض له سواء من طرف المعمرين، أو من طرف أعلامهم المأجورة. نرجو من الله أن يبارك خطانا... وأن يتغمّد برحمته شهداء الجزائر، وكل من عمل بإخلاص لإعلاء صرح جزائر الفاتح نوفمبر.

لا يمكننا فهم الأوضاع الاجتماعية للمجتمع الجزائري، دون الوقوف على الوضع المزري الذي عانى منه الجزائريون طيلة الفترة الاستعمارية. فسياسة

اغتناب الأرض التي أفرط المستوطنون المدعمون من الشركات والمؤسسات المالية الفرنسية، في سلبها من الجزائريين وطردهم وإرغامهم على التنازل عنها، دمرت البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري، وعرضت أفراده إلى الجوع والفقر والأمراض. حيث وصل دخله سنة 1954 إلى 17.691 فرنك مقابل 800.000 فرنكا للمستوطن الفرنسي¹. أما العلاقة الاقتصادية بين فرنسا والجزائر، فكانت تقوم

على أسس استعمارية تقتضي أن تكون الجزائر مصدرا للمواد الأولية وسوقا للبضائع الفرنسية، لهذا شكل انعدام الصناعة الوطنية عاملا آخر زاد من خطورة الوضع. وقد كان لهذه السياسة آثار مدمرة تمثلت في:

1 - الواقع الاجتماعي المؤلم للشرائح الاجتماعية الجزائرية في الريف،

والتي يمكننا حصرها في:

1 - 1 - الخماسون: يمثلون فئة الفلاحين المعدومين الذين تربطهم علاقة

التبعية بمالك الأرض الذي يؤجرها لهم لزراعتها بمساعدة أسرهم. يفرض عليهم سيطرته ويوفر لهم وسائل الإنتاج (الأرض ووسائل العمل) والسكن، ويقدم لهم سلفة في شكل أموال أو حبوب، ومؤونة غذائية مقابل حصوله على الربح الزراعي. فيقتصر دوره على استثمار أمواله في الريف أو المدينة¹. لذلك لن نستغرب مما كتبه جريد "L'indépendant"، متسائلة: "ما المستقبل؟ إنها ظلمة البؤس في معاش الأهالي فالحيرة تبدو معالمها بيّنة ورغم المساعدة.... سيؤول الخماس التعميس الذي تضغط عليه الحاجة إلى القوت إلى الخروج من كوخه الصغير لابتزاز المعمّرين"². والجدول الآتي يبين لنا العدد التقريبي للخماسين بمنطقة سيدي بلعباس.

¹ - مبارك نجاح، خصائص تطور التركيب الاجتماعي - الاقتصادي - في الجزائر (1946-1966) رسالة ماجستير، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، ص 126.

² - L' independent. N° 411. du 05/09/1908.

العدد التقريبي للخماسين بمنطقة سيدي بلعباس ¹			
السنة	النسبة المزروعة من طرف الخماسين	العدد	المنطقة
1925	-	785	بلدية مكرة المختلطة
1930	-	725	
1935	-	910	
1930	11200 هـ	2500	تلاغ
1935	12524 هـ	2400	
1937	12540 هـ	2312	

1 - 2 - العمال الموسميون: الدائمون وغير الدائمين: معظمهم يملكون

أرضا صغيرة يشيدون فوقها سكنا يسمى "القربي"، يُسمح لغالبيتهم بامتلاك بقرة وعدد من الغنم².. يتقاضون حوالي 360 فرنكا في السنة، ويحرمون من التعويض عن حوادث العمل والعطل المرضية، و إلى سنة 1953 كان قليل منهم يستفيد من المنح العائلية.

1 - 3 - الملاكون العقاريون الكبار: طبقة شبه ارسنقراطية، تتمتع بنفوذ

سياسي ضمن روابط العلاقات القبلية. سيما وأن حصولها على مساحات شاسعة من

¹ - A.W.O. Dossier. F35. Enquête de Khemessat: questionnaire du 28 Juin 1937

² - عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكك الاقتصادي الاجتماعي 1960-1830، تر: جوزيف عبد الله، ط1، بيروت، دار الحداثة، 1983، ص 218.

الأراضي بسبب توأطئهم مع سلطة المعمرين، جعلها تساهم في تعطيل مختلف الإصلاحات إلى أن عم الضرر جميع الطبقات الاجتماعية الأخرى¹.

1- 5 - البورجوازية الزراعية الكبرى الاستعمارية المتكونة من عدد قليل من كبار المعمرين المحتكرين الذين اكتسبوا الأرض بئمن بخس² عن طريق المضاربات الفلاحية الاستعمارية، وعمليات استغلال وقهر وإفلاس ونهب وتجريد الجزائريين من ممتلكاتهم الزراعية في عين تموشنت ومكرة والرمشي وأولاد ميمون ومعسكر³. فأصبحت طبقة مهيمنة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا.

2 - الشرائح الاجتماعية في المدينة:

2- 1 - البورجوازية الكولونيالية الكبيرة والمتوسطة: تقاسمت الهيمنة السياسية مع الطبقات النافذة في الميتروبول والبورجوازية الجزائرية الحضرية المتكونة من التجار الكبار والمتوسطين. اصطدمت مع البورجوازية الأوربية في صراعات غير متكافئة عند محاولتها اختراق الرأسمالي الكولونيالي بسبب قاعدتها المادية التي تقوم على أساس التداخل بين الرأسمال الزراعي العقاري والرأسمال البضاعي الصناعي الصغير.

2- 2 - البورجوازية الصغيرة الجزائرية: كانت المدن مركزا مشعا للحياة

الثقافية والثروة الحقيقية. فالتجار والصناع كانوا يعملون جنبا إلى جنب مع الطبقة الحضرية السائدة وبالخصوص في المدن الكبرى حيث كانت تلك الطبقة قوية التأثير من حيث العدد مثل معسكر وتلمسان.... فكانت تكثر بمنازلها الدكاكين والمخازن. وكانت شوارعها الكبرى محفوفة بالحوانيت ومعارض الصناعات التقليدية. وبها مطاعم صغيرة تبيع السمك للفلاحين، والمقاهي وأماكن للاجتماع مثل دكاكين

¹ - الذكرى، السنة أولى، العدد الرابع، تلمسان، الثلاثاء 21 رجب 1374 الموافق لـ 15 مارس 1955، ص 01.

² - هيبوليت باسي، خطبة في البرلمان، 21 أبريل 1835.

³ - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، الجزائر، المكتبة الوطنية للطبع والتوزيع 1979، ص 20.

الحلاقة والحمامات. وكانت تحتكر حرفا مثل قطاع النسيج وعددا من معامل الجلد والخشب والحديد¹.

ظلت هذه البورجوازية تبحث عن مواقع لها ضمن الإنتاج الكولونيالي للتخلص من المنافسة والاضمحلال والإزاحة. لذلك مارست مهنة تجارة التجزئة في المواد الغذائية والألبسة والآلات المنزلية، والخدمات مثل الفنادق والحمامات والحلي والنحاس. كما كان لها دور كبير في تحويل عدد من مدن عمالات وهران إلى مناطق تجارية استقطبت حركة المبادلات التجارية بين الجزائريين والوافدين من بني ميزاب والدول المجاورة مثل المغاربة.

3 - الطبقة العاملة: تعود أصولها إلى الريف الجزائري الذي عانى من قهر الاستعمار العسكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي. فاضطرت إلى الهجرة نحو المدن المجاورة طلبا للعمل². وقد استقدمت النساء والأطفال واستوطنت أحياء الصفيح، وتمايزت في الكفاءة والتعليم والجنس والسن.

عانت هذه الشريحة الضحية³ من الأعمال الوحشية⁴، والتشفيف والبؤس والفقر المتمثل في حرمانها من التطبيب والتعليم والتكوين المهني، ومن الإقصاء وارتفاع نسبة البطالة الطويلة المدى التي تصل إلى 12 شهر أو أكثر⁵ (مليون جزائري عاطل عن العمل، منهم 800.00 في الأرياف و 100.000 تقيم في الأحياء القصديرية، ولم تخصص فرنسا من الإعتمادات المالية لتحارب هذه

¹ - أندري برنيار، أندري نوشي، إيف لاکوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص ص 203-204.

² - Jean Serra. Le problème démographique Algérien. dans. la lutte des Algériens contre la faim. ouvrage collectif. éditions du secrétariat social d'Alger. Mai 1954. P: 22.

³ -Bouba-Mohamedi Tabti. Op. Cit. PP: 112-113

⁴ - اللجنة المعنية من طرف الملك في 7 جويلية 1833 - تقارير محضر، باريس 1834

⁵ -blandine destremau et pierre salama. mesure et démesure de la pauvreté. éd: puf. 1ere éd. Paris. 2002. PP: 90-95

الظاهرة سوى 400 مليون فرنك فرنسي). كان غذاؤهم النادر¹ يتمثل في القليل من الكسرة وشيء من اللحم والتين والحليب والبيض والقهوة والسكر، ووضع الماء بدل الزيت في الطعام.

حُرّم العمال الجزائريون كغيرهم من الجزائريين من الضمان الاجتماعي²، وقانون العطل المدفوعة الأجر، ومن الميزانية التي تبذل في تجهيز المعمرين لأنهم كانوا في نظر السلطات الاستعمارية غير قادرين على التفكير والتبلور. فحياتهم تقوم على الحياة الجماعية في الغرفة الواحدة المتميزة بانعدام نظافة المحيط، وقنوات صرف المياه القدرة، وتلوث المياه الصالحة للشرب³. ونادرا ما يغيرون ملابسهم بسبب الفقر، ولا يخلعونها عند النوم، ويرفضون التداوي عند الأطباء الأوروبيين، ويتجنبون شرب الأدوية خاصة في شهر رمضان مما يؤدي إلى إطالة أمد الأمراض لديهم⁴. غير أن الكثير من الدراسات أكدت بأن الأسرة الجزائرية المسلمة كانت أهم المصانع الاجتماعية التي تنتج الوجدان الثقافي الوطني، بواسطة شبكة من القيم تلقنه لسائر أفرادها بوصفها الآداب العامة الواجب احترامها. كما أنها الخلية الأولى التي يتكون منها نسيج المجتمع، والوسط الطبيعي الذي يتعهد الإنسان بالرعاية والعناية منذ السنوات الأولى من عمره تحقيقا لقوله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه"⁵.

تعد الأسرة أهم المؤسسات التربوية الاجتماعية التي لها الكثير من الوظائف، وعليها العديد من الواجبات الأساسية حيث تعتبر بمثابة المحضن الأول الذي يعيش الإنسان في كنفها أطول فترة من حياته. كما أن الإنسان يتلقى من ها عقيدته وأخلاقه

¹ - blandine destremau et pierre salama.Op. Cit. P: 205.

² - أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ط1، دار النشر، بيروت، لبنان، 1958، ص 131.

³ - Jean Serra. Op. Cit. P: 29

⁴ - A.Casset. Dans "Le Sud Oranais". Réveil Médical. 1911. P: 194.

⁵ - حديث شريف.

وأفكاره ومجموعة عاداته وتقاليده فضلا عن سلوكياته¹ الإيجابية لتحقيق عوامل الطمأنينة لجميع أفرادها حتى تتم عملية تربيتهم بعيدا عن القلق والتوتر والضياع ، والتفاعل مع من حوله من الكائنات، والتكيف مع من ما حوله من مكونات. لذلك كانت العائلة التقليدية الجزائرية المسلمة بمثابة الوحدة الاقتصادية التي تسيطر على الملكية وعلى الوظائف والأعمال التي يزاولها أعضاؤها. فممتلكات ووسائل إنتاج العائلة الممتدة كانت تعود إليها وليس إلى غيرها. إنها نموذج العائلة الممتدة الكبيرة الحجم التي تسكن في بيت واحد، ولا توجد في هذه العائلة حالات طلاق كثيرة وممارستها لنظام تعدد الزوجات². لكن هذه الأسرة سرعان ما سيصيبها العديد من التحولات الاجتماعية والثقافية التي مست البنيات التقليدية ، ب بروز مظاهر تحديثية أساسية كان لها أثر كبير على المجتمع الجزائري بشكل عام . فشهدت تراجعا كبيرا في تأدية مهامها التربوية بسبب تدني المستوى الاجتماعي والبطالة ونقص القدرة على الحصول على التغذية الملائمة. ومن هنا سرهأتي الإخفاق الثاني لمؤسسة أخرى أكثر حيوية في إنتاج الوعي التربوي، نعني المدرسة . أمام التزايد السريع لعدد السكان الذي وصل إلى 8.745.000 نسمة سنة 1954 ، بسبب الولادات الناتجة عن الخصوبة القوية والزواج المبكر. عجزت الإصلاحات الفرنسية المزعومة عن توفير مناصب الشغل رغم أن الإحصاءات الفرنسية تشير إلى أن 92% من القروض المالية المخصصة لتدعيم الصناعات الخفيفة سنة 1954، قدمت إلى

* تحقبا لقوله تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . سورة الروم، آية 21.

¹ - أحمد موسى بدوي، مجلة إضافات، العدد 9، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، شتاء 2010، ص 18.

² - William Goode. W. J. word. revolution and Family Patterns. The Free Press of Glencoe. 1963. P: 123.

65.000 مؤسسة فرنسية حصلت من خلالها على 375 مليار ف. مقابل 33 مليار فرنك قدمت إلى 100.000 مؤسسة جزائرية¹.

من الخصائص المميزة للمجتمع الجزائري منزلة المرأة التي رفع الإسلام مكانتها وجعلها شقيقة الرجل، ولم يجعل الرجولة في استعباد المرأة، بل في الإحسان إليها، وحسن صحبتها، والمحافظة عليها. لكن التأويل الاستعماري الخاطيء لتعاليم الإسلام⁴، والأعراف والجهل والفقر حَبَّبَهَا عن الشوارع وحرَمَهَا من التعلم والشغل، وجعلها مصدر الطهي والإنجاب، والاستغلال بصورة المختلفة بممارستها الأعمال المنزلية والخياطة والطرز وتربية الدواجن، وتربية بعض الحيوان وصنع الكسكسي²، والزرابي. لبييعها الأب/ الزوج/ الأبناء في الأسواق. وتتردد على السوق للشراء والبيع³ أو العمل لساعات طويلة في المصانع الصغيرة. روعيت حيوانات المستعمر أكثر مما روعيت المرأة الجزائرية. فحرمت من التعليم والتتوير⁴، وتحولت إلى خادمة البيت سواء عند العائلات الأوروبية والجزائرية الثرية أو في بيت أبيها، أو بيت زوجها. وحتى في حالة ترملها أو طلاقها، فإنها تعود إلى بيت أبيها لتخدم فيه مهما كان سنها، ومهما كان عدد أطفالها. فهي تربي وتنشئ، متشربة بهذه القيم والأفكار. وهي تكبر فتجد أمها وإخوتها وقربياتها الكبيرات على هذا الحال، فتألف ذلك وتعود عليه شيئاً فشيئاً، حتى إنه ليصبح طبيعة ثانية لها، فهي لا تتزوج إلا لتخدم زوجها وبيتها⁵.

1 - عبد الحميد زوزو، الهجرة ودورها في الحركة الوطنية بين الحربين 1919-1939، المؤسسة الوطنية لكتاب، الجزائر، ط 2، 1985، ص 335.

2 - A.Casset. Op. Cit. P: 174.

3 - عبد القادر جغلول، المرأة الجزائرية، مجموعة مقالات، تر: سليم قسطون، ط 1، دار الحدائق والطبع والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1983، ص 231

4 - محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، 1982، ص 48.

5 - نجد أن سلطة الدين والأخلاقيات التقليدية كانت لا تزال ذات جذور مُحكمة. أنظر: أريك فروم، الخوف من الحرية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ج 1، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، تشرين الثاني 1972، ص 172.

اعتبرت بعض الدراسات هذه الفئة من النساء نساء مجهولات. يعشن تحت سقف الزوجية في الأحياء والسكنات الفقيرة ، ويشكلن مجموعة من التساؤلات في مؤلفات الفرنسيين التي كانت تغذيها قناعات دينية وعصبية ناقمة على الإسلام والمسلمين¹.

كان للسياسية الاستعمارية آثار وخيمة على الأوضاع الصحية للجزائريين. حيث انتشرت الأمراض والوفيات، وكان 50% من الأطفال الجزائريين يموتون دون الخمس سنوات بسبب تدهور الأوضاع الاجتماعية، وتفشي الأمراض المعدية بشكل كبير في الأوساط الشعبية. خاصة وباء التيفوئيد و حالات الرمد والتراخوما ووباء الطاعون والجدري والجدام والسل ونوبات الملاريا التي حصدت أرواح الجزائريين في بضعة أيام سنة 1945². وقد عبّر عن هذا الكابوس المخيف الذي أصاب الجزائريين، الدكتور Levy - Valance عندما كتب في مجلة - Algérie Médicale مقالا يحمل عنوانا " داء السل في الجزائر ومصيره": " في استطاعتنا أن نقر أن الجزائر وعدد سكانها تسعة ملايين، تحوي من عدد المصابين بداء السل ما يعادل عدد المصابين به في فرنسا، التي يبلغ عدد سكانها 40 مليون نسمة. ومع هذا، فليس بالجزائر سوى 28 مصحة لمرضى هذا الداء... في حين يبلغ عدد المصحات المخصصة لمرضى هذا الداء في فرنسا 900 مصحة"¹. ومما يدعم تصورنا، الدراسة الاجتماعية التي قام بها السيد لويس شوفاليي و التي تؤكد أنه لم يكن بالقطر الجزائري سوى 1851 طبيبا و 660 قابلة و 611 صيدليا و 462 جراح أسنان، استحوذت المدن الكبرى خاصة، الجزائر و قسنطينة وهران على حصة

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (1830-1954)، ج 7، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص 180-181.

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 2، 1986، ص 189.

الأسد. بمعنى أنه كان بين 06 و 08 طبيب لكل 100.000 شخص، وطبيب أسنان واحد لـ 19.434 جزائري، وصيدلي لـ 14.553 شخص¹.

اضطر الجزائريون المسلمون إلى اللجوء إلى الطرق الشعبية التقليدية التي تعتمد على وصفات علاجية بالأعشاب، والرقيا والتمايم والأضرحة والكي بالنار². لأن المراكز الإستشفائية بعمالة وهران (المركز الإستشفائي الجهوي بوهران ، والمستشفى العسكري بأرزويو ، و المستشفى المدني بعين تموشنت ، و مستغانم، وباريغو، و حمام بوحجر ، وسيدي بلعباس..) عانت من قلة التجهيزات اللازمة والوسائل الضرورية للعلاج، وضغط الاكتظاظ³ في الأجنحة والأسيرة مما يضطر المرضى إلى افتراش أروقة المستشفيات لأنها كانت: "تكتظ بمرضى مصابين بأمراض مثل الملاريا...و حمى التيفوئيد وشلل الأطفال واليرقان وأعراض متلازمة"⁴.

حاول بعض غلاة الاستعمار الفرنسي تبرير أسباب تدهور وضعية الجزائري لأنه: " ظل متعلقا بتقاليده وبحقله الصغير ذي الإنتاج الضعيف، قانعا بحياة بائسة. فهكذا كان يعيش أجدادهم راضون عن أنفسهم... فهم في أغليبتهم لا يبذلون أي جهد ليغيروا ما هم عليه، مُسلمين أمرهم الله ولسان حالهم يقول أن أبناءنا سيكونون مثلنا"⁵.

لم يسلم الإسلام بدوره من الإنتقادات اللاذعة للمستوطنين، لأنه دين عنف وحروب واحتكام إلى السيف⁶ لذلك ما فتئ الآباء البيض يتناولون على المقدسات

¹ - ملحق رقم 04.

² - محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، مرجع سابق، ص 101

³ - A.W.O.Rapport sur Hôpital civil de Hammam-Bou-Hdjar. 1959. P: 35.

⁴ -Mohammed Ben Aissa Amir. l'Histoire Contribution à l'étude de la Santé en Algérie autour d'une expérience vécue en A.L.N. Wilaya V. Réflexions sur son développement. OPU. Alger. 1954 . PP:150-151.

⁵ - Mohamed Harbi. l'Enquête du demi-siècle(jan.1954) Document inédites rapports des Autorités locales de Telagh. P: 90.

⁶ - Barali Morc. La vie Quotidienne des Français en Algérie 1830-1914. Hachette Paris 1967. P: 188-

الإسلامية، ويسخّرون كل الوسائل لبناء الكنائس وتنصير أبناء الجزائريين. وتحويل الإسلام إلى مجرد طقوس، وتحويل أتباعه إلى سذج في غالبيتهم، مجبرين لا مخيرين. يولون قبلتهم نحو الطرق الصوفية والخرافات والشعوذة.

أمام هذا الوضع المأساوي الذي عانى منه الشعب، ولّى قبلته مدعماً من الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، إلى المقاومة الثقافية المتمثلة في الزوايا والمدارس والكتاتيب القرآنية لخلق قطيعة نهائية بينه وبين السلطات الاستعمارية.

وليتحول إلى رمز للكبرياء والفداء والتضحية من أجل الوطن، والحرية، والتضامن والروح الجماعية، والتفاؤل بانتصار الإنسان. ولتصبح الثورة الجزائرية ذاتها، نموذجاً للثورات ضد الظلم والعبودية، والخيانة والقلق، والضياع والجبن، والخوف والعجز، والاستغلال والاغتراب، والفقر والبؤس، والتعجرف والفظاظة، والقسوة والعنف، والاستغلال الاقتصادي وانتهاك العرض والتعدي على الشرف.

الباب الأول

الأوضاع الاجتماعية للجزائريين في عمالة

وهران 1945-1962

الفصل الأول

الواقع الديموغرافي في عمالة وهران:

1 - الجزائريون: ليس من السهل التعرض إلى هذا الموضوع بدقة، بسبب

ضعف التعدادات السكانية وشموليتها لكافة الوطن الجزائري. وعليه يمكننا تقسيم التعدادات التي أجريت في الفترة الاستعمارية إلى الآتي¹:

- المرحلة الأولى: (1845-1886) لم يشمل هذا التعداد القطر

الجزائري بأكمله لأسباب سياسية تتمثل في عدم استقرار الأمن، وعدم اكتمال احتلال الجزائر، وانعدام وجود عدّادين (إحصائيين) كافين، وصعوبة الاتصال والتنقل بين أنحاء القطر الجزائري لاتساع مساحته، وانعدام الطرق المعبدة، ووجود عدد من كبير من السكان الدائمي الترحال والتنقل الذين يجدون صعوبة في الإلتحاق بالبلديات ليشملهم الإحصاء.

استخدمت السلطات الفرنسية الطريقة التالية في إحصاء السكان:

- معرفة عدد سكان القرية الواحدة.

- تقدير عدد القرى والقبائل والدواوير على أساس تقدير وتعداد عدد أفراد

المسكن الواحد بستة أفراد وهو متوسط حجم الأسرة الجزائرية وفي أغلب دول العالم الثالث، وضرب رقم ستة أشخاص في عدد مساكن القرية، فيحصلون على عدد سكان القرية الواحدة².

- المرحلة الثانية: (1905-1986) كان هذا التعداد أكثر دقة من سابقه،

لكنه استثنى السكان المحليين، ولم يشمل سوى الفرنسيين والأجانب المتمثلين في الإسبان والإيطاليين والبرتغاليين والمالطيين واليهود فيما يخص تفاصيل الحالة

¹ - سعيد مربيغي، التغيرات السكانية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 37-40.

² - عبد القادر حليمي علي، جغرافية الجزائر، دراسة طبيعية واقتصادية وبشرية، ط 2، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1968، ص ص 37-38.

المدنية والتركيب العمري. علما أنهم كانوا يتوزعون على كامل التراب الوطني وخاصة في البلديات الكاملة الصلاحيات التي استقطب بعضها أكثر من 1000 فرنسي¹ أين وضعت الحكومة الفرنسية تحت تصرفهم كل الإمكانيات المادية من أراضي ووسائل إنتاج ومواد البناء وشركات وبنوك.

- المرحلة الثالثة: (1906-1936) تميزت هذه المرحلة باكتمال احتلال

الجزائر، وانتهاء المقاومة الجزائرية² مما ساعد فرنسا على الانتقال في التراب الجزائري بكل حرية وسهولة. وقيام الحرب العالمية الأولى والثانية، واهتمام السلطات الفرنسية بقوة العمالة الجزائرية التي صنفتها إلى ثلاث فئات:

1 - أفراد عاطلين عن العمل.

2 - أفراد بمهنة لكنهم عاطلين عن العمل.

3 - أفراد يمارسون مهنة.

بلغ عدد السكان الجزائريين 7.679.078 نسمة سنة 1936 منهم

1.623.356 في عمالة وهران³.

من المهم الإشارة إلى ظهور التركيب العمري والنوعي والمستوى التعليمي والجنسي، وأن إحصاءات الوفيات مسجلة ومبوبة بطريقة دقيقة مما يدل على اهتمام السلطات الفرنسية بالعوامل المؤثرة في التقليل من السكان المحليين، عكس نسبة المواليد التي لا توجد بها نفس البيات، وأن هناك نسبة صغيرة من صغار السن تتراوح بين 03.5% و 3.9% مقارنة بكبار السن، والمبالغة الشديدة في الإدلاء بالأعمار الكبيرة التي لا تكون إلا في الدول المتقدمة جدا⁴. لكن السبب في عدم إدلاء الأهالي بعدد مواليدهم يعود إلى التجنيد الإجباري الذي فرضته الإدارة

¹ - Robert Tinthoin. L'Oranie: sa géographie. son histoire. ses centres vitaux. librairie Fouque. Oran. 1952. P: 15.

² - IDEM. P: 141

³ - Annuaire statistique de l'Algérie. 1936-1947. Imprimerie Minerva. Alger.P: 22.

⁴ - سعيد مريبي، التغيرات السكانية في الجزائر، مرجع سابق، ص 40

الفرنسية¹، والخوف من الضرائب² التي كانت تُفرضُ على كل شخص بلغ سن البلوغ³، رغم تراجع المقاومات الشعبية، وارتفاع نسبة الولادات بسبب الزواج المبكر، وتعدد الزوجات، وتتباهي العائلات الجزائرية بكثرة الأبناء. هذا دون أن نغفل العوامل الدينية⁴ والاقتصادية التي تُمكنُ الأبناء من مساعدة وليّهم في العمل، وفطرة حب البقاء⁵ لدى المجتمع الجزائري الذي تعرض إلى الحروب والقتل الجماعي للسكان المحليين، وبؤس الأزمة الاقتصادية العالمية، وسياسة التهجير، وانعدام الرعاية الصحية، وبُعد القطاعات الصحية عن مناطق إقامتهم، وسوء التغذية والمجاعات التي غالباً ما كانت تجعل السلطات الفرنسية تتعت الأطفال الجزائريين بالمساكين⁶ والمعذبين في الأرض الذين يخسرون كل مرة إما بالطرد من العمل أو الموت جوعاً⁷. هذا وقد تعمدت السلطات الفرنسية عدم تسجيل المواليد الجزائريين للتقليل من تعدادهم، وعدم الاهتمام بهم بقدر ما كانت تهتم باضطهادهم وتشريدهم من أراضيهم مما أدى إلى ارتفاع عدد الوفيات لدى الجزائريين خلال

¹ - كان له تأثير سلبي على الإقتصاد الفرنسي سواء من حيث التكلفة في النفقات والاعباء التي أثقلت كاهل الباترونا الفرنسيون حيث ارتفعت تكاليف الإنتاج بنسبة 11%، وارتفعت أجور العمال وساعات العمل الإضافية وحلات البؤس. فارتفعت الأسعار وتراجع الإنتاج بسبب حجم النفقات وانخفضت الأرباح مما أثر سلبياً على حجم الصادرات وألغيت بعض المنح والمساعدات وزادت الرغبة في عصيان الأوامر الحكومة التي فرضت قانون الضرائب أطلق عليها "عملية + 20%". أنظر: Anonyme. les conséquences économique et financières de la guerre d'Algérie. Op. Cit. p: 37. & Michel Drancourt. Bilan économique de V république. Paris. édition de l'entreprise moderne. 1961. P: 29.

² - كانت هي الأخرى تقدم إحصائيات. أنظر: A.S.A. Direction générale de finances. Service des statistiques générale.

³ - سعيد مريبي، مرجع سابق، ص 124.

⁴ - يعتمد الكثير من الجزائريين عند الحديث عن الولادات على الحديث الذي يقول فيه ﷺ: "تناكحوا تناسلوا فإني مباهي بكم الأمم يوم القيامة.... لأن رزقهم عند الله كما تردد العامة في كثير من الأحيان.

⁵ - مصطفى الأشرف، مرجع سابق، ص 21.

⁶ - Robert Descloitres. et autres. l'Algérie des bidon villes. le tiers monde dans la cité. 2^{ème} série. document VI. éditions MOUTON & CO. Paris. France. 1961. P: 93.

⁷ - عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسولوجية، تر: عباس فيصل، ط 2، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان، 1962، ص 157.

الحرب العالمية الثانية من 111.580 نسمة سنة 1939 إلى 235.225 نسمة سنة 1945¹ أي بفارق 12.735 نسمة لصالح الأوروبيين².

ألغت الإدارة الفرنسية سنة 1947 جواز السفر بينها وبين الجزائر ليصبح السفر بالبطاقة الشخصية وبدون تصريح لتشجيع الهجرة الخارجية، وتشجيع حركية الإنجاب والتناسل والتكاثر لدى الكولون³ التي شهدت ارتفاعا منتظما (11.7%) إلى غاية سنة 1949، ثم بدأت في الاستقرار بنسبة 10.2% سنة 1954 بهدف تغليب العنصر الأوروبي على الأهالي في الجزائر. إلا أن ثقافة المجتمع الأوروبي المتطور حالت دون ذلك باعتبار أن تنظيم النسل والتقليل من الولادات يمنح الراحة والاطمئنان والحياة الرغدة، ويرتقي بالمستوى المعيشي للأسرة كما هو الحال بنظيرتها في أوروبا. لذلك لم تُرَجَّح كفة الولادات لصالح الأوروبيين. وإذا قارنا بين الولادات عند الطرفين، فسند أن ارتفعت لدى الجزائريين الضحية الأولى⁴ من 307.507 نسمة إلى 330.801 بين سنتي 1946 - 1947 مقابل 2.130.000 نسمة في عمالة وهران سنة 1948 أي بنسبة 79%⁵ مقابل ارتفاع طفيف لدى المواليد الأوروبيين من 20.936 نسمة إلى 21.000 نسمة⁶.

تضاربت رؤى المستوطنين حول ظاهرة ارتفاع نسبة الخصوبة لدى الجزائريين المسلمين، فمنهم من رأى فيها خطرا يدهم التواجد الفرنسي في

¹ - André Nouschi. L'Algérie Amère 1914-1945. Edition de la maison des sciences de l'homme. Paris. 1995. P: 99

² - André Nouschi. L'Algérie Amère. Op. Cit. P: 101

³ - Service Algérie. Quelques Aspects de problèmes économiques et sociaux. Op. Cit. P12.

⁴ - Bouba-Mohamed Tabti. Op. Cit. PP: 112-113.

⁵ - A.W.O. Brochure: Etude du développement économique de l'ouest Algérien. Institut pour l'étude et développement de l'industrie en Algérie sedia. Nov 1959. P: 95

⁶ - IDEM. P: 101.

المستوطنة، وآخرون رأوا فيها ظاهرة صحية وإيجابية توفر اليد العاملة الرخيصة¹ للاقتصاد الفرنسي داخل الجزائر وخارجها، وإن ظل البؤس والعناء والفقر والموت يلزمها ويزيد من عناء البؤساء² الذين لم تكمن مشكلتهم يوماً في النظافة والوقاية الصحية كما ادعى الأوروبيون، وإنما كانت مشكلتهم الأساسية تتمثل في تحطيم معنوياته والدوس على كرامته، وفي الجوع الذي عجز عن التخلص منه. وبحكم إقامته الطويلة في فرنسا، لم يستغرب الفيلسوف الجزائري السيد "قربيع نبهاني" من سلوك الكولون، لأنه لم يرى الفرنسيين يقدمون المساعدات للمتشردين والمحتاجين الجائعين³ من بني جلدتهم، فكيف يقدمونها للمسلمين الجزائريين؟!.

- المرحلة الرابعة: (1948-1960) جرى الإحصاء الأول سنة 1948

والثاني سنة 1954 في حين حالت الثورة التحريرية دون إجراء التعداد الثالث:

- اعتمد الفرنسيون على دستور 20 سبتمبر 1947، وركزوا على

المسلمين الجزائريين باعتبارهم مواطنين فرنسيين، لهذا يصعب علينا - في هذه الفترة - التمييز بين الجزائريين المسلمين والفرنسيين، وتتبع التحركات السكانية الداخلية والخارجية لذلك تشير الكثير من الدراسات إلى وتيرة النمو الديموغرافي التي ظلت شبة متساوية بين الأهالي والأوروبيين⁴.

- تميز تعداد 1954 بعدة أخطاء منها عدم ذكره للنساء. لكن ما يشد

الانتباه هو إشارة السلطات الفرنسية إلى الشريحة المهاجرة المولودة بين سنوات

1948-1954، وإلى مناطق الجذب المتمثلة في الشمال الجزائري.

¹ - Marcel Egretand. Réalités de la nation Algérienne. Paris. édition Sociale. Paris. 1961. P: 101.

² - Francis Jeanson et Collette Jeanson. L'Algérie hors la lois. ENAG. 1993. P: 157 .

³ - Nabhani Kouriba et autres. Des Africains s' interrogent. 1^{ère} édition. éditions de vieux colombier. Paris. France. 1955. P: 98.

⁴ - Jean Serra. Op. Cit. P: 157.

- تفوق عدد الذكور على عدد الإناث في تعداد سنة 1948، وقد يعود ذلك إلى إهمال تسجيل النساء لأن العرف والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع المحلي تجعله لا يرغب في الإدلاء بأي معلومة عن المرأة لدى الأجانب الذين اعتبرهم على الدوام كفارا ونصارى.

- ارتفاع نسبة النساء الناشطات في هذه الفترة (1948 و 1954) كثير منهن ربّات بيوت¹. وقد أظهرت دراسة أجريت سنة 1946 على 92 عائلة أخذت صدفة، أن 37 امرأة تلازم بيتها. وأظهرت دراسة أخرى سنة 1954 تهميش المرأة الجزائرية المسلمة² واقتصار دورها على الإنجاب والقيام بأشغال البيت، والأنشطة الحرفية (الخباطة، الخزف، الرسم على الفخار، الزرابي، النسيج...)، وخروجها إلى العمل نتيجة انخفاض العمالة بسبب الهجرات الداخلية والخارجية، وانخفاض دخل الولي، والمستوى المعيشي، وقدرتها على الأعمال التي لا تتطلب التنقل والاختلاط، وإتقان القراءة والكتابة، والمهارة والتقنية.

- شمل تعداد ما قبل 1956 الأوروبيين فقط³، في حين يعتبر تعداد 1956 أول تعداد حقيقي خضع للإدارة المدنية والعسكرية، وخص كامل التراب الوطني خاصة الشمال الجزائري.

- اهتمام الإدارة الفرنسية في الجزائر بالتوزيع الجغرافي للسكان أكثر من اهتمامها بخصائص وتركيب السكان (التركيب العمري والنوعي)¹.

¹ - République Algérienne démocratique et population (R.A.D.P). Commissariat national de recensement de la population (C.N.R.P) Recensement de la population. 1966. PP: 64-65

² - Caroline Brac De La Perrierre. Derrière les héros...Les employées de maisons musulmanes en services chez les Européens à Alger pendant la guerre d'Algérie. 1954-1962. collection Histoire et perspective méditerranéennes. 1^{ère} édition. l'harmattan. Paris. 1987. P: 35.

³ - GG. de l'Algérie. D.G. de finances. Service de statistique générale. Résultats Statistique Du Dénombrement de La Population. effectué le 31 Octobre 1948. Volume I. Population légale ou de résidence habituelle. P: 12

- انخفاض نسبة المواليد، وارتفاع معدل الوفيات إلى ما بين 12 و 16% سنة 1954 منها 30% في معسكر و 28% في وهران و 23% في سيدي بلعباس و 22% في مستغانم بسبب انعدام الرعاية الصحية، والتجنيد الإجباري خلال الحرب العالمية الثانية في صفوف البالغين من الرجال، أو التحاقهم بصفوف جبهة التحرير الوطني وعزوفهم أو تأجيلهم للزواج.

- النقص الفادح في تسجيل نسبة الوفيات خاصة بعد 1956 بسبب المشاكل التي يلاقيها السكان في حالة التبليغ عن الوفاة سيما في القرى والأرياف². ومع ذلك شهدت الجزائر زيادة سنوية قدرها 320.000 مولود كل سنة³، وهي نسبة أعلى مما كانت في فرنسا أو أوروبا.

- تفوق العنصر الأوروبي على السكان المحليين في عمالة وهران قبل سنة

1954 ب 20.9% (أوروبيون) مقابل 18.4% (أهالي)⁴.

سكان مدينة وهران 1954/10/31 ⁵			
عدد أفراد العائلة	العائلات	السكان	
3.75	41.631	156.527	فرنسيون غير مسلمين
4.70	342	1.607	فرنسيون مسلمون (الأحوال المدنية)
4.35	21.486	94.015	فرنسيون مسلمون (الوضع المحلي)
2.60	6.375	16.630	أجانب غير مسلمين
4.35	5.084	20.033	أجانب مسلمين
-	-	4.454	السكان غير المسلمين بشكل منفصل
-	2.342	-	السكان المسلمون بشكل منفصل
-	-	178.011	مجموع السكان غير المسلمين
-	-	120.997	مجموع السكان المسلمين
-	48.006	-	العائلات غير المسلمة
-	27.112	-	العائلات المسلمة

¹ - السعيد مريبيعي، مرجع سابق، ص 53.

² - المرجع نفسه، ص 144.

³ - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op. Cit. P: 156

⁴ - لمزيد من المعلومات أنظر: السعيد مريبيعي، مرجع سابق.

⁵ - D. Mohammed Ben Aissa Amir. Op. Cit. P:326

- اختلاف نسبة الوفيات لدى الفئات العمرية. إذ نجد أن أكبر نسبة الوفيات لدى فئات صغار السن وخاصة الرضع (0-4 سنوات) بلغت 58% سنة 1948، مقابل 29% لدى الشيوخ (60-64 سنة). وتقل هذه النسب لدى فئة الشباب بسبب مقاومتها لتأثير الحوادث التاريخية والظروف الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية¹.

يعتبر البربر السكان الأصليين للجزائر. والمعروف عن الرجل البربري خضوعه للعرف في حل القضايا الجنائية والمالية، ولنظام العائلة في الزواج والطلاق، وهو مسلم هو شديد العداء لمن يؤذيه وشديد الصبر على أمور الحياة. لم يسلموا بدورهم من النعوت و الازدراء والعنصرية للتقليل من شأنهم². أما العرب فتعود أصولهم سواء في عمالة وهران أو الجزائر أو في شمال إفريقيا إلى الفاتحين المسلمين في عهد أبي المهجر دينار والقائد موسى بن نصير³. خاضوا حروباً وصراعات مع البربر من أجل نشر الإسلام في شمال إفريقيا⁴. بلغ تعدادهم سنة 1936 حوالي 1.216.876 عربي، كانوا يتوزعون في مختلف عمالات الجزائر من الشرق إلى الغرب⁵، ومن الشمال إلى الجنوب. ومن مميزاتهم قدرتهم على احتواء البربر والامتزاج بهم والمصاهرة معهم. وقد نشأ بفعل ذلك ظهور العامية والإنسان الجزائري العربي/ البربري الأشد إقبالا على التعليم في الزوايا⁶.

1 - السعيد مريبي، مرجع سابق، ص 147.

2 - Moncer Roussi. Population et Société au Maghreb (horizon maghrébin). office des publications universitaires. TUNIS. 1983. P: 28.

3 - عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج 1، دار النشر موفم، الجزائر، 2002، ص 172.

4 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 120.

5 - من أشهر القبائل العربية التي استقرت في عمالة وهران، بنو هلال ووحميان وبنو عامر التي استفاد يغمراسن من خدماتها. أنظر: أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 7، دار القلم، بيروت، 1978، ص 175.

6 - Caom. Archives Aix en Provence. Ppulation D'ALGER. Carton S13-20. P: 01.

إضافة إلى العنصر المحلي الوافد من مختلف الأقاليم المجاورة للمدينة لتجديدت بمستغانم¹ للبحث عن العمل أو التجارة لكسب لقمة العيش ثم يغادرها في المساء. منهم بني ميزاب الذين يعتقدون الدين الإسلامي على المذهب الإباضي . هاجر ثلث (1/3) الإباضيين مناطق ولادتهم ليستقروا في العديد من مناطق عمالة وهران مثل سيدي بلعباس وتيارت ومعسكر ووهران². يتميزون بالاستقامة لذلك لم تجد السلطات الفرنسية ما توجه لهم من التهم والانتقادات، ويشتهرون بالسلوكات البسيطة الحاضرة في نظرهم للحياة وتدبيرها الحاضرة في أفراحهم العامة سواء كانت أعراس الازدياد أو الختان أو الزواج ، وفي مستواهم المعيشي والاجتماعي ، وتضامنهم الاقتصادي داخل الطائفة، و نشاطهم الدعوب، وحيويتهم، ونظامهم، ووزنهم المالي حيث احترفوا التجارة ومهنة الجزاراة والبقالة والمقاهي والدكاكين ومطاحن الحبوب وتسيير وإدارة الحمامات العمومية³ التي جعلت منهم أثرياء مقارنة بغيرهم من السكان الأهالي بسبب توظيفهم لأقاربهم المهاجرين الذين التحقوا بهم، وما كانوا يحصلون عليه من أرباح معتبرة⁴ التي يجيدون استثمارها وحسن توظيفها⁵.

¹ - ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 96.

² - Pierre Bourdieu. Sociologie de L'Algérie. Ed. PUF. Paris. 1974. PP: 37-38.

³ - إلى يومنا هذا لا تزال الكثير من الحمامات يطلق عليها اسم "حمام المزابي".

⁴ - Pierre Bourdieu. Sociologie de l'Algérie. Op. Cit. P: 45.

⁵ - IBID. P: 46 .

تعداد سكان عمالة وهران بين 1948 و 1954 ¹						
الدوائر	الأوروبيون	الجزائريون	المجموع	الأوروبيون	الجزائريون	المجموع
وهران	242.371	388.088	630.459	232.083	324.622	556.705
معسكر	21.590	226.085	247.675	22.114	245.097	267.211
مستغانم	34.912	369.189	403.201	36.406	417.418	453.824
تيارت	12.956	208.926	221.882	12.556	206.209	218.765
تلمسان	29.725	320.792	350.517	27.636	347.904	375.540
س. بلعباس	41.026	146.138	187.164	44.066	162.561	206.627

2- الأتراك والكرغلة: تشير سجلات المحاكم الشرعية إلى احتكار العناصر

التركية للجيش والسياسة إبان الحكم العثماني للجزائر، واختلاطهم بالسكان المحليين عن طريق الزواج، والامتزاج بهم إلى درجة أن المرء أصبح لا يفرق بين العربي والبربري والتركي².

3 - الموريسكيون: نُذكر بادئ الأمر بالإحصائية التي قدمها المؤرخ

الفرنسي هنري لابيير في دراسته المونوغرافية "جغرافية إسبانيا الموريسكية" والتي أكدت على أن المهجرين العرب من الأندلس بلغ عددهم 275.000 نسمة، استوطن عدد منهم مدن وهران ومستغانم، وأرزيو وتلمسان، ومازونة وندرومة، فرارا من الاضطهاد والمضايقات والتنصير القصري، ومراكز التعذيب، ومحاكم دواوين التفتيش³.

¹ - GGA. Annuaire Statistique de l'Algérie 31 Octobre 1954. Op. Cit. PP: 12-14.

² - علي خلاصي، قصبة مدينة الجزائر، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، ج 2، الجزائر، 2007، ص 33.

³ - عبد المجيد التميمي، مصير المورسكيين من سقوط غرناطة إلى طردهم من الأندلس، مجلة الفيصل، العدد، 282، ذو الحجة 1420هـ، الموافق ل أبريل 2000، السعودية، ص ص 65-66.

طاب المقام لبعض الأندلسيين بعمالة وهران وكانوا يومئذ عنصر إثراء على جميع المستويات لأنهم حملوا معهم مهنا جديدة مدعومة ومعززة بخبرة فنية عالية جدا، غير معروفة في عالم المهن الجزائرية التقليدية منها: صناعة الخزف والنسيج وصناعة الزرابي، والسروج الجلدية الثمينة، والبلاغي (الأحذية) الرجالية والنسائية، والشاشية التي احتلت حيزا كبيرا من المعاملات التجارية المحلية . وأدخلوا أصنافا من الغناء أهمها الموشحات الأندلسية والمالوف، وأنماطا موسيقية تعتمد على الأداء الآلي القائم على الوترية والصدمات وبصفة خاصة على الرباب والعود والطار¹.

4 - المغاربة: توافدت الجالية المغربية ذات الطابع الريفي على وهران

وعين تموشنت ومستغانم وسيدي بلعباس للعمل كموسمين في الزراعة لجنبي العنب عند الكولون²، وفي فترات الحصاد عند صغار الفلاحين الجزائريين مقابل أجر لا تتجاوز 17 فرنكا، ووفق نمط العمل وطول المدة التي تشتغل فيها. وأحيانا يُدفع الأجر مقابل الهكتار الواحد، أي 120 فرنكا لهكتار القمح، و140 فرنكا لهكتار الشعير مقابل ساعات عمل تصل إلى 16 ساعة³ *. وهذا ما يذكرنا بسلوك الاستعمار البغيض والعدواني، المتمثل في عمليات حرمان المغاربة من أدنى حقوقهم الاجتماعية التي نصت عليها المواثيق الدولية وحقوق الإنسان. لم يفوت المغاربة أيضا فرصة العمل في البناء والحوانيت لبيع المواد الغذائية والتوابل⁴. خاصة وأنهم امتازوا عن السكان المحليين بكونهم يدا عاملة

¹ - عبد المجيد التميمي، المرجع السابق.

² - Nora Chaouia Benallague. Algérie Mouvement ouvrier et question Nationale 1919-1954. OPU. Alger. 2005. P: 52.

³ - IBID. P: 53

* استعان بهم المعمر الفرنسي خاصة في الفترات الحرجة أثناء الحرب العالميتين، أو عندما كادت الورشات الفرنسية أن تغلق أبوابها بسبب انتشار الثورة الجزائرية. ولم يجد هذا المعمر حرجا في أن يفرض على العامل منهم في يوم واحد فقط ما يعادل عمل يومين. أنظر: Bernard Droz. Evelyne Lever. Histoire de la Guerre d' Algérie. 1954-1962. 1^{ère} éditions Seuil. Paris. France.S D. P: 143

⁴ - Ahmed Abid. Op. Cit. P: 190

طبيعة وصبورة في الأعمال الشاقة والدونية. تقبل الأجور الزهيدة ولو كان ذلك من أجل كسر الإضرابات التي كان يقوم بها العمال الجزائريون للمطالبة بتوحيد الأجور والمنح العائلية¹ * التي لم يحض بها القطاع الزراعي الذي كان يوفر العمل لنسبة كبيرة من الجزائريين²، الشيء الذي سينعكس سلبا على العلاقات بين العمالة المغربية والجزائرية والإسبانية. حيث تدخلت "النقابة العامة للعمل" لدى السلطات المحلية الفرنسية في العديد من الدوائر والبلديات للمطالبة بضمان الشغل لليد العاملة المحلية الجزائرية والإسبانية، ودفعت السلطات الفرنسية إلى فرض حذر على الهجرة المغربية، وإصدار عامل عمالة وهران تعليمية شدد فيها على منع أصحاب الأراضي الزراعية من توظيف اليد العاملة المغربية³، مستثيا في هذه التعليمات العمال الموسميون الذين يشتغلون في مواسم الحصاد والذين يخضعون بدورهم إلى عقد عمل فردي يثبت مكان إقامتهم⁴.

¹ - Oran Républicain du 17/07/1947. N° 3623.

* ارتفعت قيمة المنح العائلية التي كان يستفيد منها الأطفال الجزائرية إلى 300 فرنك فرنسي سنة 1960. أنظر: Elsenhans Hartmust. la guerre d'Algérie 1954-1962 la transition d'une France à une autre. Editions Publsud. Paris. 1999. P: 723

² - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op. Cit. P: 170

³ - Emploi irrégulier de la main d'œuvre étrangère Oran. Arrêté. N° 6881. du 29 Juillet 1949

⁴ - Section local de l'offre départementale de main d'œuvre de la C.M de Ain Temouchent. lettre du 4 mai 1950.

تعداد الجالية المغربية بعمالة وهران		
1954	1948	وهران: رأس العين، عين الترك، بونليليس، المرسى الكبير، السانيا
1.433	-	تلمسان: بني صاف
14.086	-	سيدي بلعباس: بعض الأحياء بالمدينة منها حي هواري بومدين حاليا
15.519	* ¹ 67.301	المجموع

5 - اليهود: تتكون الجالية اليهودية في الجزائر من فئتين رئيسيتين هما:

"توشافيم" (الأهالي بالعربية)². وقد انصهرت هذه الفئة في المجتمع الجزائري، ولولا اختلاف الدين والطقوس والطبائع النفسية المكتسبة من سنين التشرّد لأصبحوا جزائريين بعمق الانصهار. و "الميجورشميم"، (تعني المطرودين) من يهود إسبانيا الذين استحوذوا على المراكز الديناميكية للجالية اليهودية³ بفضل تكوينهم الديني، وإمكانياتهم العددية والثقافية العلمية النابعة من البيئة الأندلسية. خضع يهود الجزائر لوضع "الذميّين" خلال الفترة العثمانية، وحصلوا على الجنسية الفرنسية بموجب مرسوم "كريميو". وقد أشارت التقارير الرسمية للإدارة الفرنسية إلى أن عددهم بلغ في عمالة وهران* حوالي 8580 سنة 1851 منها 5073 يهوديا في مدينة وهران، و499 يهوديا في مستغانم، وقد بلغ عدد اليهود في تلمسان سنة 1940 أزيد من 5000 نسمة فيما يذكر آخرون أنهم بلغوا عشرة آلاف،

¹ - Ahmed Abid. Op. Cit. P: 190

* لم نحصل على التفاصيل، لذلك اكتفينا بتسجيل الإحصاء الكلي للعمالة.

² - منتديات تمناست.

³ - يهود الجزائر بين الإرث التاريخي والعيش المشترك www.manar.com

مع العلم أنها كانت المركز الإقليمي ليهود شمال إفريقيا¹. علاوة على يهود معسكر الذين بلغ عددهم 320² نسمة. و عشية الحرب العالمية الثانية ارتفع عددهم إلى حوالي 120.000 يهودي³ استقر نصفهم بمدينة وهران ليصبح العدد 140.000 سنة 1955 في الجزائر⁴. وبلغ عددهم في سيدي بلعباس نحو 600 نسمة سنة 1865، وارتفع في الثلاثينات من القرن العشرين إلى 3159 هوديا لم يحافظ سوى 168 يهودي على هويتهم فيما تجنس الآخرون بالجنسية الفرنسية⁵. وأسسا أول مجمع ديني لهم سنة 1865، ضم أعضاءه جاكوب سانيناس رئيسا، ودافيد سانيناس، ونسيم بيدوك، أبراهام اكنين، ودافيد أكريش، ومسعود أكريش. استوطنوا وسط المدينة حيث كانت لهم حماماتهم وأفرانهم، و عدة معابد أهمها المعبد الرئيسي بطريق اللورد بيرون، وآخر بطريق قامبيطا وثالثا بطريق كاتينا والرابع بطريق فاردون⁶. وتذكر نفس التقارير أنهم كانوا يمارسون عباداتهم بحرية مطلقة في الوقت الذي فرضت فيه الإدارة الفرنسية رقابة شديدة على المسلمين الجزائريين لمنعهم من التعليم ومن تدريس اللغة العربية أو بناء مساجد بدون رخصة⁷. وأن بعضهم يرتدون الزي الأوروبي، ويحتكرون الوظائف الحرة وصناعة الحلوى والمجوهرات والألبسة المنسوجة من الصوف، وتجارة ملابس النساء التقليدية مثل

¹ - مصطفى بن حموش، يهود الأندلس في مدينة تلمسان قصة النزوح والإقامة، موقع:

<http://www.medinanet.org>

² - فوزي سعد الله، يهود الجزائر موعد الرحيل، ج 2، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 2005، ص 112.

³ - موقع: American jewish committée

⁴ - IDEM

⁵ - Jacques Gandini. Sidi Bel Abbes de ma jeunesse 1935-1962. édition Jacques Gandini. Nice. 1988. P: 11.

⁶ - Léon Adoue. La ville de Sidi Bel Abbes. histoire. légende. anecdotes. Imp. René Roidot. P: 153

⁷ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، (1900-1930)، ش.و.ن.ت، الجزائر، ص

"الكراكو" و"الفرقاني" و"القفتان"، والتعاملات المالية (المصارف وسوق الأوراق المالية والقروض)¹، وتجارة الجملة والتجزئة في درب اليهود بوهران والشارع الكبير بمستغانم، وسوق المقامرة ومنح القروض والإئتمان وتجارة الحبوب والماشية والتحف والخشب، وكان البسطاء منهم يحترفون مهن الخياطة وتصليح الأحذية² بصنع النعال من مطاط العجلات البالية والرادع للحمير والبغال، وبعضهم يصلح ويلحّم برّادات الشاي والغلايات وأواني أخرى³.

بعد هزيمة فرنسا في يونيو/حزيران 1940، شهدت الجزائر إحياء معاداة السامية والكراهية الشديدة لليهود، لانتراعهم من قبضة أحبارهم المتزمتين الذين يهددون العالم، وإدخالهم دائرة الحضارة رغما عن أنوف مجامعهم⁴. فتم اضطهادهم اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. وانتشرت المنشورات والملصقات والشعارات التي وصفتهم بالعناصر الانتهازية والمتطفلة و الجشعة والمخادعة والمعتادة على التصرف بدناءة⁵. فحرضت عليهم في أنحاء عديدة من مدن العمالة التي كانت مركزا استيطانيا مهما بالنسبة للعمليات الأخرى⁶، وحملتهم المآسي التي كان يعاني منها المجتمع الجزائري لأنهم: "المتسببون في غلاء المعيشة" و "عدوك هو اليهودي"⁷، ودعت إلى مقاطعة محلاتهم التجارية.

¹ - تمثلت آلية السيطرة الاقتصادية اليهودية في شركة بكري كوهين و نفتالي بوشناق أو بوجناح وهي مؤشر موضوعي لقياس مدى التغلغل اليهودي و نفوذه في المؤسسات العليا للبلاد، و تأثيره على مجريات الأحداث. أنظر: موقع ناس تمنراست.

² - Karl Ritter. Les Races en Afrique et dans Alger. P: 142.

³ - محمد لمقامي، رجال الخفاء، مذكرات ضابط في وزارة التسليح والاتصالات العامة، تر: علي ربيب، منشورات ANEP، 2004، ص 51

⁴ - Benjamin Stora. Histoire de l'Algérie coloniale. 1830-1954. ENAL. 1996. P: 37

⁵ - IBID. P: 37

⁶ - Robert Tinthoin. les artisans de l'Oranie. S. G. A. P. O. T 68. 1^{ère} partie. 1947. P: 587

⁷ - C.H. Ageron. Histoire de l'Algérie Contemporaine. T 2. de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954. PUF. Paris. 1979. P: 368.

ألغت حكومة "فيشي" مرسوم "كريميو" ¹، الذي يمنح اليهود كافة الحقوق المدنية مساوياً بينهم وبين الفرنسيين. فألغيت بذلك الجنسية الفرنسية لليهود الجزائريين²، وحظر القانون عليهم ممارسة عدد كبير من الوظائف وممارسة بعض المهن كصياغة الذهب، والدباغة. ولم يُسمح لهم بالامتلاك والإشراف وإدارة الأعمال. وصُرفوا من وظائفهم في وسائل الإعلام، وحُرم الطلاب اليهود من التمدريس في المدارس والجامعات الحكومية العامة³.

إن كلمة يهودي تعني في اللاشعور الجمعي الجزائري إنساناً يعتنق الديانة الموسوية، اغتصب أرضاً عربية إسلامية، وتعني للكثير منهم حوصلة لكل الشرور البشرية على وجه الأرض على مدى آلاف السنين، وهذه الفئة هامة من حيث عددها⁴. لأن الجزائريين لن ينسوا أبداً وقوف يهود الجزائر إلى جانب المحتل الفرنسي إبان الاحتلال الفرنسي، وما تلا ذلك من حالات غضب أزهدت أرواح العديد من الجزائريين. وليبرهنوا على موالاتهم للاستعمار الفرنسي، قاموا في صباح عيد الفطر لعام 1956م بمذبحة في حق الجزائريين⁵، وبعده أعمال إجرامية خصوصاً في مدينة وهران وضواحيها بعد دعوة الجنرال إيدمون جو هو أحد الانقلابيين ضد الجنرال ديغول من أجل إبقاء الجزائر فرنسية⁶. فقتلوا "العديد من الجزائريين المسلمين في إطار نشاطاتهم شبه العسكرية داخل خلايا المنظمة المسلحة السرية (OAS) التي كان من أبرز عناصرها حينذاك اليهوديان إيلي عطار

¹ - A.W.O. Boite 1717. correspondance du GGA à la Direction de l'économie algérienne portant les catégories et genres d'activités interdits aux juifs d'Algérie. le 11/01/1941

² - لم يطبق هذا القانون على يهود فرنسا، فبقوا مواطنين فرنسيين.

³ - أعيد قانون كريميو بعد التدخل الشخصي من رئيس الولايات المتحدة روزفلت في 20 أكتوبر 1947.

⁴ - فوزي سعد الله، اتجاهات سياسية تصف نفسها بالبربرية تروج للأطروحات الصهيونية، جريدة النصر، العدد 14360، 13 أبريل 2014 الموافق ل 13 جمادى الثاني 1435

⁵ - المرجع نفسه.

⁶ - المرجع نفسه.

وأزولاي¹. وتشير الكثير من التقارير الفرنسية إلى إنشاء يهود تلمسان ووهران وأفلو ومغنية مكاتب للتجنيد في الجيش الإسرائيلي²، وإلى السعادة التي كانت تغمرهم في تلمسان ومستغانم بمناسبة هزيمة الفلسطينيين أمام الصهاينة. لم يلتحق بالثورة التحريرية، سوى عدد محدود من المثقفين اليساريين اليهود أمثال هنري علاق الذي فضح التعذيب الوحشي الذي مورس ضد الجزائريين خلال "معركة الجزائر"³، والطبيب دانيال تيمسيت ابن القصبة السفلى، وآخرين ماتوا وهم يحملون السلاح من أجل تحرير الجزائر⁴.

تعداد الجالية اليهودية في عمالة وهران			
مناطق العمالة	1941 ⁵	1950 ⁶	1955 ⁷
وهران	29.512	29.512	30.000
معسكر	3.364	3.364	-
مستغانم	2.931	2.931	2.300
سيدي بلعباس	3.159	3.159	-
تلمسان	8.193	8.183	5.000
تيارت	3.254	3.264	2.000

¹ - المرجع نفسه.

² - A.W.O. BP 201. SLNA. Rapport mensuel. Février 1947

³ - صالح بلحاج، تاريخ الثورة الجزائرية، الجزائر، دار الكتاب الجديد، 2008، ص 262.

⁴ - فوزي سعد الله، مرجع سابق.

⁵ - فوزي سعد الله، مرجع سابق، ص 115.

⁶ - المرجع نفسه، ص 122.

⁷ - الجاليات اليهودية في المدن الجزائرية خلال عهد الاحتلال الفرنسي، أنسيكلوبيديا جوداكا، 1971، مجلد 2، ص ص 618-917.

6 - الأوروبيون:

6 - 1 - الفرنسيون: يعتبر القطاع الوهراني من أهم العمالات التي

استقطبت العديد من الفرنسيين نظرا لسياسة الاستيطان التي انتهجتها السلطات الاستعمارية الفرنسية قصد تعمير الجزائريين بالعنصر الفرنسي¹ ليتفوقوا على السكان المحليين². "يشتركون مع سكان الولايات المتحدة الأمريكية في أكثر من صفة. فهم يرون مثلهم بأنهم خلقوا ليكونوا سادة وليكون غيرهم عبيدا، وأن أية محاولة لتغيير هذه الفروق غير الطبيعية، يعتبر عملا يستهدف نشر الفوضى وخرق قانون الغالب والمغلوب. وإن العطف على الخدم (الأهالي من العرب والبربر والأتراك) الذين يهددون وجودهم³، لا يكون إلا إذا أظهر هؤلاء العبيد رغبة للبقاء دائما ضمن العبيد والخدم"⁴. ويكفي أن نذكر بأن زهاء مليون نسمة من الأوروبيين معظمهم من الفرنسيين ستفرض ثقافتها وقيمها وهيمنتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية على 5.8 مليون جزائري مسلم سنة 1954⁵.

6 - 2 - الإسبان: تعود هجرتهم إلى عمالة وهران لأسباب:

تاريخية: الكثافة السكانية المرتفعة على السواحل الجنوبية الشرقية

الإسبانية خاصة في فالنسيا وأليكانت وموريسيا وغيرها من المناطق⁶، والفرار من الحرب الأهلية الإسبانية التي زادت من متاعب الإسبان وخاصة المعارضة منهم¹

¹ - عمار بوحوش، سياسة الإدماج ومصادرة الأراضي في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، المجلة التاريخية المغربية للعهد الحديث والمعاصر، العدد 12، جويلية 1978، تونس، ص 225.

² - G. Yver. Alger. In. E.I. Paris. éditions. 1913. P: 260

³ - Mahfoud Kaddache. Histoire du nationalisme Algérien. T II. ENAL. Alger. 1993. P: 439

⁴ - جوان غليسيبي، الجزائر الثائرة، تر: خيري حماد، ط 1، منشورات الطليعة، بيروت، لبنان، 1961، ص 24.

⁵ - محمد طويلي، الملتقى الدولي حول أصدقاء الثورة الجزائرية، 1954-1962، مجلة الثقافية، العدد 91، جانفي/فبراير 1986، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، ص 52

⁶ - عبد القادر حليمي، مرجع سابق، ص ص 150-151.

طبيعية: تشابه المناخ وخصوبة التربة.

اقتصادية واجتماعية : إقامة المشاريع الصناعية، وانتشار مؤسسات الخدمات الصحية والتعليمية². وكونهم يمثلون الطبقة الكادحة الأكثر فقرا وحرمانا عند الأوروبيين³.

جغرافية: استواء السطح وصلاحيته عند استخدام الوسائل الحديثة وقلّة التضرس وسهولة تسويق المنتجات بوجود موانئ مهمة. و إطلالة القطاع الوهراني على البحر المتوسط وقربه الشديد من إسبانيا .

- زادت هجرتهم إلى مناطق عمالة وهران حيث بلغ عددهم 83.000 نسمة

منهم 12.400 نسمة في سيدي بلعباس من حدة ضعف الأجور التي كان الكولون يدفعها للعمالة الجزائرية والمغربية⁴.

¹ - حنيفي هلايلي، امتداد الحرب الأهلية الإسبانية في الجزائر، تاريخ منطقة سيدي بلعباس 1830-1962، الجزء الثاني، مكتبة الرشاد للنشر والطبع والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 138.

² - سعيد مريبيعي، مرجع سابق، ص 70.

³ - من هنا كان الجزائري يوجه شتيمة "ولد سُبُلِيُون" إلى من يرغب في التقليل من شأنه.

⁴ - الحسين بوظيلب، الهجرة الدولية بالريف الشرقي وانعكاساتها، مجلة أسيناك، عدد مزدوج، 4-5، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2010، ص 65.

الفصل الثاني

الوضع الاجتماعي في الريف والمدينة:

إن مفهوم "الفلاح" دون تحديد الشروط والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يعيش في ظلها لا يدل سوى على الانتماء إلى الحرفة التي يمتنها. وهناك أكثر من خطأ في الأدبيات التي تستخدم مفهوم "الفلاح" في شكل تمزج فيه بين الملاك العقاري والفلاح، وذلك استناداً على المعايير الثقافية التي يجري بها التمييز بين "المجتمع الريفي" و"المجتمع الحضري". يقول عالم الاجتماع المكسيكي رودلفو ستافنها: "المجتمع الريفي بالمعنى الحقيقي لا يوجد إلا من خلال علاقته بمجتمع كلي شمولي أوسع يشكل جزء منه، وأن التفرغ الثنائي بين مدينة وقرية يستخدم لتحديد مكان الطبقة الفلاحية ضمن إطار أشمل على أساس أن (الفلاح) قد أعتبر من جانب ذوب بعض الاختصاص على أنه مزارع تقليدي (قديم) ينبغي تمييزه عن المزارع العصري"¹. وإن أمكن وضع تعريف ل (الفلاح) فيمكن أن يعتمد على مقياسين هما: حجم الملكية وأسلوب الاستثمار القائم للأرض حيث تتلشى الحاجة إلى عمل الآخرين، ويصبح المالك وأفراد عائلته العاملين الوحيدين في ملكيتهم. وهذا لا ينطبق إلا على الفلاحين ذوي الملكيات الصغيرة التي يتناسب فيها حجم الملكية مع قوة العمل.

إن الإدعاء بأن الجزائريين كانوا يعيشون في ظل نظام مشاعي بدائي، هو من وحي أدبيات الأوروبيين الغزاة الذين كانوا بحاجة إلى نهب الأرض، وتبرير استحوادهم عليها بدعوى أن نموذج المشاع والإقطاع في العملية الاقتصادية يُشكل عقبة في سبيل الرقي والتقدم.²

¹ - A. Hanni. Op. cit.p: 69

² - يوري. ف. كاتشا نوفسكي، عبودية إقطاعية، أسلوب إنتاج آسيوي، ترجمة د. عارف دليلة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1990، ص 108

1 - في الريف الجزائري:

1 - 1 - الخماسون : ينتمون في واقع الأمر إلى فئة الفلاحين الذين لا يملكون وسيلة من وسائل الإنتاج¹، أو الفلاحين الذين اضطروا إلى ممارسة نظام الخماسة لأنهم كانوا يزرعون أراضيهم الصغيرة التي لا يكفي مردودها إعالة أسرهم، ويعتبرون اليد العاملة والفئة المنتجة المباشرة التي لا يمكن الاستغناء عنها وإن كانت أقل مرتبة من الأقدان في عهد الإقطاع، لأن هؤلاء -الأقدان- كانوا يدفعون الريع العيني أو النقدي. أما الخماسون فيكتفون بالعمل في الأرض كمحاصصين يحصلون على خمس المنتج الزراعي الذي يعبر عن ضمان الدَّين. وهكذا يصبح من حق صاحب العمل الذي يقتصر دوره على استثمار أمواله في الريف أو المدينة²، احتكار الخماس إلى أن يدفع ما عليه من ديون³. وفي فترات الجفاف أو ارتفاع عددهم أو غيابهم أو إصابتهم بمرض، يتم الاستغناء عن خدمات الكثير منهم، فتوكل عملية الحرث للمهرة منهم بينما يقوم الآخرون بعملية الحرث أو جمع الكلاً للحيوانات. وأحيانا كانوا يقدمون خدمات إضافية للملاك في غير مواسم الزراعة دون أي مقابل نقدي ليصبحوا مثابة عمال "السخرة". ومن خلال هذا "الإكراه الاقتصادي" يصبح مفهوم العلاقة بين الخماس ومالك الأرض هو "السيد والعبد" الذي يظل في نظر ج. دريش: "شيطان فقير يحصل على تسبيقات في المواد الغذائية والملبوسات* التي يجب أن تسترد عند التوزيع في حالة تصفية الحبوب من قشورها. وهو أحيانا مُجبر على المشاركة في دفع الضرائب...وبما أنه لا يستطيع في هذه الحالة أن يدفع ديونه للمالك، فإنه مجبر على تجديد عقده في العمل ليصبح

¹ - لذلك كانوا في نظر المعمر الفرنسي الذي استفاد من القوانين التي تخدم المؤسسة الفرنسية، عقبة في سبيل الرقي والتقدم. أنظر: يوري. ف. كاتشا نوفسكي، المرجع نفسه، ص 108.

² - مبارك نجاح، مرجع سابق، ص 126.

³ - T. Siari. Khemessat et différenciation sociale dans les compagnes algériennes in actes du 3^{ème} congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb. Oran 26 Novembre 1983. P: 69.

* السكن ووسائل الإنتاج (الأرض ووسائل العمل)، وسلفة في شكل أموال أو حبوب ومؤونة غذائية مقابل حصوله على الريع الزراعي

هكذا قديماً حقيقياً، غريباً عن المنطقة وعن عائلة المستخدم، يُشكّل الفئة الاجتماعية الأكثر فقراً والأكثر خضوعاً للاستغلال من قبل البورجوازية العقارية¹.

اختلفت حصة الخماس من منطقة إلى أخرى حسب طبيعة الزراعة وممارستها. فكان الإنتاج يوزع على أساس حساب المنتج الفلاحي الصافي دون اقتطاع البذور، فيحصل الخماس على خمس إنتاج القمح والشعير، وربع إنتاج الحمص، وتثلث الذرة البيضاء. في حين يتم اقتسام منتج البطيخ والبطاطا والتين والزيتون بالتساوي بين الطرفين². لكنه كان يجهز منزله، ويمكث عند صاحب الأرض حوالي إحدى عشر شهراً، لا يكون خلالها مسئولاً عن ضياع أو سرقة وسائل الإنتاج. وعندما تسوء ظروف الإنتاج بإمكانه مغادرة مالك الأرض شريطة أن لا يحصل إلا على عشر (1/10) الإنتاج إذا أتمّ الزرع والحصاد³.

استخدام الخماسة في الملكيات الزراعية في الجزائر سنة 1951 ⁴			
حجم الملكية	عدد الملاكين %	حجم المساحة %	عدد الخماسين %
أقل من هكتار واحد	16	18	13
من 01 إلى 10 هكتار	05	05	16
من 10 إلى 50 هكتار	28	19	43
من 50 إلى 100 هكتار	55	35	12
أكثر من 100 هكتار	15	41	16

¹ - Secrétaria Social d'Alger.P: 69.

² - Djebari Youcef. Op. Cit..P: 65

³ - Robert Aron. les origines de la guerre d'Algérie. Paris. Edit Fayard. 1962. P: 185

⁴ - A.Hanni. Op. Cit.P 87

يتضح لنا من الجدول أن:

- أن نسبة 42 % من الملاكين الذين تتراوح مساحة ملكياتهم 50 هكتارا، يشغلون الخماسة في حوالي 38.7 % من المساحة الزراعية التي يملكونها.
- أن نسبة 13.2 % من الملاكين الذين تتراوح حجم ملكياتهم بين 01 و10 هكتار، لا يستخدمون الخماسة إلا بصفة قليلة بحوالي 14.8 % من مجموع قطعتهم أرضهم الزراعية. لأنهم يعتمدون في عملية الإنتاج على قوة العمل المباشر الفردي والعائلي. وبالتالي لا يستخدمون الخماسة إلا عند الحاجة.
- أن الفلاح الجزائري استعان بالخماس مهما اختلفت مساحة الملكية التي امتلكها. خاصة إذا تعلق الأمر بزراعة الحبوب لكونها الغذاء الأساسي للسكان، ولما لها من فوائد غذائية¹.

1 - 2 - العمال الزراعيون والدائمون:

- **العمال الزراعيون:** تشكلت هذه الشريحة الإجتماعية جراء سياسة التفتير المسلطة على الفلاحين الصغار. يتكون قسم كبير منهم من العمال الموسميين باعتبار أن الزراعة التجارية لا تتطلب الوجود الدائم والمستمر لهم. لذلك كان المستعمر يشتري قوة عملهم عند الحاجة ثم لا يلبث أن يستغني عنهم.
- صُنِّف العمال الزراعيون وفق إحصاء 1939² كما يلي:
- **الصنف الأول:** يضم العمال الزراعيين غير المتخصصين الذين يقومون بعمليات الحرث والدَّرس وقيادة الجرارات وحراسة الحيوانات وقطف العنب.
- **الصنف الثاني:** يضم العمال الزراعيين المتخصصين الذين يقومون بعمليات زراعة البقول والحصاد بالمنجل.
- **الصنف الثالث:** العمال الزراعيون الذين ليست لهم مؤهلات، منهم الرعاة.

¹ Robert Aron. les origines de la guerre d'Algérie. Op. Cit. P: 185

² - C.H. Ageron. Histoire de l'Algérie Contemporaine 2. Op. Cit. P: 72.

- الصنف الرابع: يضم العمال الزراعيين المتخصصين في زراعة أشجار الكروم، والعمال الذين يحوزون على شهادة من مصلحة الحاكم العام. جاء في تقرير اللجنة البرلمانية الموفدة إلى الجزائر سنة 1959 بأن أجر العامل الزراعي الذي ارتفع إلى 360 فرنكا في اليوم، لا يمكنه من إعالة يتراوح عددها بين سبعة أو ثمانية أفراد. ولكنه سيكون محظوظا إن وجد هذا المقدار من المال بين جماهير العاطلين الذين لا يحصى عددهم¹. وبذلك نخلص بأن هذه الشريحة كانت تمثل ذيل الشرائح الاجتماعية التي كانت تعيش متعرضة للفاقة واليأس والمجاعة. يعود بعضهم إلى قريته ليعيش وينفق ما جمعه خلال العمل في الوقت الذي كان فيه كبار الكولون والطبقة الاقتصادية والاجتماعية الجزائرية النافذة تتعم بالرخاء². والجدولان التاليان يظهران لنا تطور أجور العمالة الفلاحية، وتوزيع الأجور بين العمال الجزائريين:

تطور أجور العمالة الفلاحية ³ . الوحدة: (ف.ف)			
السنة	1937	1944	1947
الأجر اليومي	4.5	بين 40 و 50	بين 130 و 144

¹ - مصطفى محمد، علم السكان، مرجع سابق، ص 111.

² - هنري كلود، أندري برينان، إيف لاکوست، الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، تر: محمد عيتاني، منشورات مكتبة المطرف، بيروت، د.ت، ص 70.

³ - Registre de copie de lettre (1925-1947). ACML. et lettre du maire de Mercier Lacombe au S/Préfet de SBA. du 17/06/1947. N° 1088. concernant la situation des ouvriers agricoles dans les fermes de la commune d'Arshif DE LA COMMUNE DE sfisef

توزيع حصة الأجور بين العمال الزراعيين عام 1954 (مليار ف.قديم) ¹					
أوربيون			جزائريون		
الأجور المقبوضة			الأجور المقبوضة		
		العدد			العدد
في المتوسط	الكلية		في المتوسط	الكلية	
من	-	3.400		-	3.100
700.000	-	3.030	75.000	12	160 ألف
إلى أكثر من	-	1.974	22.000	09	400 ألف
02 مليون	-				

- يشير الجدول إلى التفاوت الكبير في توزيع الأجور بين العامل الزراعي الجزائري والعامل الزراعي الأوروبي الذي اضطر إلى البحث عن عمل آخر بديل.

- يحصل العمال الزراعيون الجزائريون الذين يشكلون ما يقارب 98.6% من مجموع العمال على 63% من المجموع الكلي للأجور بينما يحصل العمال الأوربيون الذين يمثلون 1.4% من المجموع على 27% من المجموع الكلي للأجور.

- يفوق متوسط الدخل لدى العامل الزراعي الأوربي 25 مرة نظيره الجزائري، ومما زاد من بؤس وآلام ومعاناة الجزائريين المسلمين في إقليم عمالة وهران، استقدام الكولون لليد العاملة الأجنبية من المغرب الأقصى في الوقت الذي كان الفلاح الجزائري يحرم من العمل.

- يرقى العمال الزراعيون الأوربيون إلى رتبة مسيرين ومشرفين على تنظيم وإدارة الوحدات الإنتاجية في حين يحرم العمال الزراعيون الجزائريون من

¹- مبارك نجاح، مرجع سابق، ص 135.

هذه الترقية ليظلوا في المراتب الأدنى لأن من مصلحة الاستعمار الفرنسي التعميق الهوة الاجتماعية والتفاوت الطبقي بين العمال الجزائريين والأوربيين.

- خلق هذا التمييز في العمل وهماً إيديولوجياً يقوم على أساس التمايز

العرقي، وخلق صورة عنصرية مفادها أن الجزائري بدائي لا يصلح لشيء، وأن الشعب الأبيض هو الأسطورة الذي أسس الجزائر الفرنسية¹.

- لم يرق مشروع قسنطينة ولا الإصلاحات التي سبقته أو التي تلتها إلى

الآمال والخدعة والإغراءات والإشهار والدعاية والفخر أمام الرأي العام المحلي والعالمية كما روجت السلطات الفرنسية لإنجاحها. حيث تم التأكيد وبشدة على

توزيع الأراضي على الفلاحين الجزائريين الذين لم يتحسن مستواهم الاجتماعي، وتعديل الفرق بين الأجور في الجزائر لجعلها تتساوى مع الأجور في فرنسا،²

وخلق وظائف جديدة³، ورفع قيمة الدخل بنسبة 88% رغم ارتفاع وطأة الفقر⁴،

والقضاء على التخلف الاقتصادي والاجتماعي في الجزائر، وفك السلاح من أيدي

الثوار المتمردين الذين رفضوا سلم الشجعان⁵، وذلك لربح قلوب وعقول⁶ الجماهير،

وان الإنسان في نظر "جاك سوستيل" "لا يعيش بالخبز وحده ولا يعيش بالقوانين

والمنظمات، بل يعيش بشيء آخر هو الكرامة. إن التطلع إلى الكرامة الإنسانية

¹ - Benjamin Stora. Histoire de l'Algérie coloniale. O. p. Cit. PP: 93-99.

² - L'Echo D'Oran. N° 30117. Jeudi 6 Janvier 1955. P: 01

³ - Francis Jeanson. la Révolution Algérienne. problèmes et perspectives. Felsinelli Editore Milano. 1962. P: 97

⁴ - Mandès France. Programme d'Actions Algérie. Au congrès National des 3-6 Novembre 1955. Parti Républicain-Socialiste. Paris. 1955. PP: 34-45.

⁵ - Charles De Gaulle. Discours et message avec le renouveau 1958-1962. Blanc. Paris. 1974. PP: 59-60

⁶ - عدة بن داهة، إسهامات منطقة معسكر في المجهود الثوري (1954-1958)، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة وهران، 2001، ص 118.

وإلغاء الخصومات.. يجب أن يكون شعارنا الوحيد في أعمالنا" ¹ حتى "تصبح هذه الثورة غير ذات مضمون" ² .

أكد الواقع أنه لا يمكننا تجاهل مدى ارتباط الواقع الاقتصادي بالميدان السياسي، وقناعات ووعي المجتمعات بالمشاريع التي تطرح أمام أعينها، وأن المستفيد الوحيد بامتياز كان سكان المدن الكبرى مثل وهران التي استفادت من المشاريع المرتبطة بالاستثمارات الكبرى والديون التي خُصصت لها ³، وأصحاب المصانع والمصالح الكبرى ⁴ الذين اعتقدوا أن من واجبهم ومن مسؤولياتهم تحقيق الأرباح ⁵ ليس إلا، لأن القوانين سنّت لحماية شخوصهم وممتلكاتهم ⁶. لكنهم كانوا في غفلة عن الأحداث التي كانت تتطور ⁷، والأخطاء التي ارتكبتها السلطات الاستعمارية والتي ستقودهم إلى الوضعية ⁸ التي أصبح فيها الحكومات لا تتمتع بثقة جميع الطبقات في الجزائر لأن فرنسا فشلت في إدماجها وجعلها منفتحة ⁹.

- **العمال الدائمون** : معظمهم يملكون أرضا صغيرة يشيدون فوقها سكنا يسمى "القربي"، يُسمح لغالبيتهم بامتلاك بقرة وعدد من الغنم ¹⁰. يتقاضون حوالي 360 فرنكا في السنة. أما العمال المزارعين غير الدائمين، فكانت أجورهم تتباين

¹ - Discours prononcé par Jacques Soustelle. Op. Cit . PP: 20-23.

² - محمد بن دارة، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية ما بين 1952-1962، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1999، ص 131

³ - La Dépêche Oranaise. 05 Mars 1955. N° 3819. P: 01

⁴ - Jacques Soustelle. Aimée et Souffrante Algérie. Plon. Paris. 1956. P: 80

⁵ - Yves Hugonnet. m. Mitterrand a exposé son plan de développement pour l'Algérie. L'Echo D'Oran. N° 30117. Jeudi 06 Janvier 1955. P: 03

⁶ - Thomas Opperman. le problème Algérien. Maspéro. Paris. 1961. P: 166.

⁷ - Jean Lacouture. De Gaulle. Le temps qui court. Seuil. Paris. 1965. PP: 345-346

⁸ - Mandès France. Programme d'Actions Algérie. Op. Cit. P: 45.

⁹ - Jacques Duquesne. De Gaulle et Salan. Le point. N° 921. 14 Mai 1990.

¹⁰ - عدي الهواري، مرجع سابق، ص 218.

بين 1.50 فرنكا و 1.75 فرنكا يوميا للرجال، ونصف فرنك للنساء والأطفال¹ بسبب المكننة الزراعية التي أثرت سلبا على سوق العمل الزراعي. في الوقت الذي كان في دخل الفلاح الأوربي يفوق 800.000 فرنك، كان دخل الفلاح الجزائري لا يتجاوز 17.691 فرنك. وبخلاف العامل في فرنسا، كان العامل الزراعي في الجزائر محروما من التعويض عن حوادث العمل والعطل المرضية، وكان قليل منهم إلى غاية 1953 يستفيدون من المنح العائلية* التي كان يسدها صندوق التأمينات التعاونية للقرض الفلاحي² كحرب نفسية وعقاب جماعي للريف الجزائري الذي كان وقودا للثورة الجزائرية³.

1-3 - البروليتاريا الزراعية:

اقتصرت البروليتاريا الريفية على الفلاحين الصغار الذي يزرعون قطعة أرضهم الصغيرة، ويربؤون عليها الدواجن وقليل من الماعز، وغالبا ما يعيشون في سلم اجتماعي أدنى من الخماسين، على مساعدات أقاربهم وأصدقائهم. بل تعدتها إلى أولئك الذين لا يملكون أرضا ولا أدوات عمل، ولا حيوانات عمل. يعانون من انتشار الفقر والبطالة، وارتفاع عدد العمال الأجانب خاصة المغاربة الذين كانوا في غالب الأحيان لا يجدون مأوى لهم أو لقمة عيش⁴ تقيهم آلام الجوع. كانت هذه الشريحة من المجتمع الجزائري تثير قلق المستعمر الفرنسي لأنها تشكل مصدر خطر عليه. فقد أشارت جريدة صدى وهران إلى سرقة الأهالي لمنزل

¹ - مغنية الأزرق، نشوء الطبقات في الجزائر، تر: سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1980، ص 64.

* كانت تكلف الخزينة الفرنسية 500 مليار فرنك سنويا. أنظر: Daniel Lefeuvre. Chère Algérie. 1930-1962. Societé Française D'histoire d'outre-mer. Paris. 1977. P. 11.

² - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op. Cit. . P: 170.

³ - André Gorz. Gaullisme et Néocolonialisme. In revue Temps Modernes. N° 179. mars 1961. P: 1153

⁴ - L' Echo d'Oran du 04 Janvier 1900. N° 10257

السيد "بوسر" في منطق ديسكارت التابعة لسيدي بلعباس¹، وأن "دوارا" يتكون من 400 عائلة من الأهالي في نواحي وهران، يعيشون من أيام عملهم فقط أو من عمليات النهب في ضواحي سيدي بلعباس². هذا ويعترف "روبير أجيرون" بأن تدهور مستوى الجزائريين إلى حالة البروليتاريا، يشكل خطرا جسيما بالنسبة للمستقبل على الأوروبيين. لأنه سوف يحرمهم من أقوى وسائل التأثير في الجنس المنقرض، أي الخوف من العزل. وسيثير في المستعمرة مسألة اجتماعية ستترافق مع كراهية عنصرية ودينية³. وستجعل من الريف مجالا للكفاح المسلح. إن ظهور بنية طبقية متميزة، وإخضاع المجتمع الجزائري لمنطق التبعية الكولونيالية، والتمزق والتحطيم (الموت، الهجرة، الغياب خلال الثورة...) الذي تعرضت له العائلات الجزائرية الفلاحية أدى إلى:

- صعوبة استغلال الأرض، وعدم تناسب حجمها مع حجم العائلة التي يتزايد عدد أفرادها بحكم العادات والتقاليد، وعمليات الإفقار والإفلاس والعمل القسري الذي تعرضت له هذه الفئة خلال الفترة الاستعمارية كان بفعل تجريد الفلاحين من أراضيهم⁴، والعجز المادي وبؤس الفلاح الجزائري الذي تراجع إنتاجه الغذائي من 163 كلغ سنة 1911 إلى 118 كلغ سنة 1953 بمعنى أن كل جزائري أصبح لا يستهلك إلا 326 غراما من الخبز في اليوم، وهذه النسبة الضئيلة بعيدة عن تحقيق الحريرات اللازمة التي يتطلبها جسم الإنسان⁵. وضعف الإنتاج الفلاحي حيث أصبح ثلثي ($\frac{2}{3}$) هؤلاء يعيشون في مرحلة الاقتصاد المعيشي ما قبل

¹ - L' Echo d'Oran du 04 Janvier 1900. N° 10257

² - Ch. R. Ageron. Op. Cit. P: 845

³ - Charles. R. Ageron. Charles. R. Ageron. Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919. T I. Paris. P.U.F. 1968. P: 542.

⁴ - تراجعت المساحة المملوكة للأهالي من 7.562.977 هكتار سنة 1930 إلى 7.349.100 سنة 1950 بسبب تجزئتها باستمرار والقوانين المجحفة وإنهاك التربة. أنظر: شارل روبر أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، تر: عيسى عصفور، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 130.

⁵ - R. Ainad Tabet. Op. Cit. P: 103

الرأسمالي، ليس لهم مداخيل ولا محاصيل ولا مواشي بكمية كافية. وانخفض متوسطهم السنوي من إنتاج الحبوب من 16 مليون قنطار بين سنوات 1921-1930 إلى 14 مليون قنطار بين 1941 و 1948، كما تناقص عدد رؤوس الأغنام من 5.300.000 بين 1921 و 1930 إلى 5.000.000 رأس بين 1948 و 1954¹.

وضعية إنتاج الحبوب في القطاع الوهراني 1945-1954 ²							
المنتج	المنبع	الإنتاج /	المساحة /	ق/هـ /	الإنتاج /	المساحة /	المرود /
القمح الصلب	الجزائريون	107.000	192.000	982	1.360.000	246.000	05.53
	الأوروبيون	-	91.000	3.70	171.620	144.000	11.86
القمح اللين	الجزائريون	-	52.000	0.80	498.100	3.078.200	06.18
	الأوروبيون	-	171.000	2.53	1.954.900	179.800	10.87
الشعير	الجزائريون	-	184.000	0.83	1.956.200	306.400	06.38
	الأوروبيون	-	90.000	3.08	855.800	69.800	12.26

- تفتتت المساحة الصغيرة من الأرض بحكم قانون الوراثة. ففي تسالا بسيدي بلعباس، اضطر الأبناء الثلاثة من عائلة "بوراد بلحاج" المالكة لـ 400 هـ، من توزيعها بعد وفاة والدهم. فحصل عبد القادر على 140 هـ وبودية على 130 هـ ومحمد على 130 هـ. وعلى إثر ذلك باع محمد نصيبه إلى شخص يدعى Sandras من مدينة وهران بمبلغ قدره 500 فرنك قديم للهكتار. وبعد وفاة عبد القادر وزعت الـ 140 هـ على أبنائه الذين كان نصيب بعضهم 27 هكتارا

¹ - شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، مرجع سابق، ص 129

² - GGA. Résultat statistiques du dénombrement de la population effectué le 31 Octobre 1954. imprimerie Victor Heintz. Alger. 1954. P: 99

ونصيب آخرين 07 هـ، لكن اثنين من ورثة عبد القادر باعا نصيبهما إلى أحد يهود الجزائر المدعو Mouchy بمبلغ 500 فرنك للهكتار. وبسبب القرض العقاري (تراكم الديون)* بيع ما تبقى من أراضي العائلة في المزاد العلني. تمكن أحد أبناء عبد القادر من توسيع ممتلكاته بشراء 31 هكتارا أضافها إلى 27 هـ التي كانت بحوزته، فزرعها حبوبا وابتاع الماشية لكن بسبب رداءة الإنتاج ماتت ماشيته ولم يتبقى لديه سوى 06 هكتارات¹.

- اشتداد عمليات المضاربة والمنافسة على شراء الأراضي بين المعمرين والعائلات الجزائرية الميسورة التي ذهب ضحيتها الفلاحون الصغار. وعلى سبيل المثال قام: المعمر "جان بيير فالنتان" نائب المتصرف الإداري لبلدية كاشرو المختلطة بمعسكر، بشراء قطعة أرض زراعية تقدر مساحتها بتسعة هكتارات من عائلة بوعلي وبوشنتوف وخليفي وهشمان بمبلغ قدره 400 فرنك². واشترى "بيار رؤول" قطعتي أرض زراعتين في البهاليل، شمال معسكر بمبلغ 50 فرنكا من السيد مرجي عثمان³. وابتاع "ترجمان جول" قطعة أرض زراعية بالحساسنة بلدية سعيدة، تقدر مساحتها بـ 05 هـ من السيد عمارة حاج خلاف بمبلغ 3.000 فرنك⁴.

ولا يسعنا إلا أن نشير في هذا الصدد إلى ما ذكره "النينين" عندما أجاب عن تساءل عن من يستأجر أكثر ومن يستأجر أقل، فأجاب بأن هذا يستأجر أرضه

* لاحظت الإدارة الإستعمارية أن الجزائريين كانوا ينفرون تحت وطأة الربا والديون طائلة، وأن المحاصيل الجيدة لن تكون إلا علاجا مؤقتا لهم.

¹ - Michel Launay. Paysans Algériens. Editions du Seuil. Paris. 1963. P: 91.

² - enregistré à Mascara le 1914. Co2. 2V. Etude de M^r Paradi Victor. Notaire à Palikao (Oran).

³ - Enregistré à Mascara le 06/02/1914. F19-c19-V. 153 bis.

⁴ - Enregistré à Mascara le 27/03/1914-F61-C07 – V. 153.

بسبب حاجته الماسة والضرورية إلى الطعام، والآخر يستأجر قطعة أرضه لأغراض تجارية.¹

الغذاء اليومي للفلاح. الوحدة: غرام ²	
300 غ من الدقيق	900 حريرة
120 غ من السكر	400 حريرة
90 غ من المواد الدسمة	04 حريرات
200 غ من عجائن القمح	694 حريرة

1 - 3 - الأرسقراطية الزراعية الأوروبية (الملاكون العقاريون الكبار):

يشكلون طبقة شبه أرسقراطية، يتمتع بعض عناصرها بنفوذ سياسي وبحيازتهم وسائل وشروط الإنتاج التي تمكنهم من فرض التبعية على الفلاحين بحكم امتلاكهم لوسائل الإنتاج سواء كانت حديثة ومتطورة أو تقليدية بسبب وفرة اليد العاملة الزراعية، وتواطئهم مع الإدارة الفرنسية التي ساهمت في تعطيل مختلف الإصلاحات إلى أن عم الضرر جميع الطبقات³، ومكَّنتهم من الحصول على مساحات شاسعة من الأرض، ومن أن يشكل دخلهم الإجمالي السنوي حوالي أربع مرات الدخل الإجمالي السنوي للمعمر الصغير. لذلك حافظوا على عملية التواصل مع بعض شيوخ القبائل ورجال الزوايا الذين لعبوا دور التنويم وبت الخرافات في أوساط طبقة الفلاحين التي: "لعبت دورا كبيرا خلال حرب التحرير وناقذت لدعم الثورة بعدما يئست من تحسن أوضاعها في إطار النظام الكولونيالي الذي حصر دعمه على الصعيدين المالي والتقني لكبار الملاكين، إلا أنها كانت بالمقابل أقدر من

¹ - مبارك نجاح، مرجع سابق، ص 105.

² - Michel Launay. Op. Cit. P: 201.

³ - الذكرى، مرجع سابق، ص 01.

كل الفئات الأخرى على إنفاذ التقاليد واللغة والثقافة، أو بتعبير آخر أقدر على إنفاذ الشخصية الجزائرية. ففي وسطها يتواجد العدد الأكبر من المعمرين، ومنها استمد جيش التحرير عددا كبيرا من كوادره¹.

توزيع الأراضي الزراعية في عمالة وهران بين سنتي 1946 - 1954 ²		
نوعية الأراضي	المساحة بالهكتار	
مجموع الأراضي الصالحة للزراعة	5.250.864	
أراض غير صالحة للزراعة	1.475.336	
الأشجار المثمرة	32.215	
أراضي غير منتجة	181.073	
أراضي الكروم	262.447	
مراعي	2.690.012	
توزيع الأوروبيين والجزائريين في القطاع الزراعي ³		
الملاكون والفلاحون الملاكون	الأوروبيون	الجزائريون
المستثمرون مقابل نسبة المحصول	900	2.100
أصحاب المزارع	300	800
الخماسون	000	57.600
المجموع	24.100	2.002.600
العمال الزراعيون غير الدائمين	100	24.400
العمال اليوميون	1.600	257.500
العمال الدائمون	200	77.100
المناظرون	3.100	4108.800
الإداريون	2000	2.300
المجموع	8.400	571.000
المجموع الكلي	32.500	2.573.600

¹ - عيسى شرايطية، مرجع سابق، ص 67

² - P. Laumont. Panorama de l'agriculture Oranaïenne (élevage et culture) Revue mensuelle de la vie rurale en Afrique du nord. N°134. 1960. P: 05.

³ - آلان سافاري، ثورة الجزائر، تر: نخلة كلاس، مطابع إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي، دمشق، 1961، ص ص 12-63

2 - في المدينة الجزائرية:

1 - الأوروبيون:

1 - 1 - البورجوازية الأوروبية الكبيرة والمتوسطة: المتكونة من

أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة والطبقة المهيمنة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا التي تسيطر على وحدات إنتاجية كبيرة تستخدم على نطاق واسع اليد العاملة الأجيرة الرخيصة بغرض الزراعة التجارية المتمثلة في الكروم والحبوب والحمضيات. والجدول التالي يظهر لنا البورجوازية الاستعمارية الزراعية الكبرى بمنطقة سيدي بلعباس:

البورجوازية (الاستعمارية) الزراعية الكبرى بمنطقة سيدي بلعباس سنة 1950 ¹		
اسم المستوطن	المساحة الزراعية	المركز
Ruiz Carlos (père)	700 هكتار لزراعة الحبوب	بلعربي - تيليوم 3800 هكتار، سعيدة.
Ruiz Hubert (fils)	4500 هكتار	تيليوم، وكان يصدر 120.000 ألف خروف في السنة، ذلك لقب ب "ملك الجروف)
Delorme	2000 هكتار لإنتاج الكروم	سيدي علي بوسيدي، سيدي خالج، بلعربي، بوشبكة، عين قادة وسعيدة.
Kraus	1500 هكتار	بوشبكة وعين قادة

¹ Ainad Tabet. Op. Cit. P: 83 -

تلموني، بلعربي، سيدي علي بوسيدي	1800 لانتاج الحبوب وبين 1000 و 2000 هكتار لانتاج الكروم	Décrio Gustave
تلموني، بلعربي، سيدي علي بوسيدي	حوالي 2000 هكتار	Chamboulive
تسالة	1200 هكتار	Bellat Lucien(père) et Bellat Paul (fils)
مسار، العمارنة، سفيذف، بوشبكة، واد المبطوح، بودججة	3000 هكتار لإنتاج الحبوب والكروم	BoucheConstant (père) Et Bouche Marcel et Bouche Ernest (fils)
تلموني، بلعربي، سيدي علي بوسيدي	1800 لانتاج الحبوب وبين 1000 و 2000 هكتار لانتاج الكروم	Décricion Gustave
تلموني، بلعربي، سيدي علي بوسيدي	حوالي 2000 هكتار	Chamboulive
سيدي لحسن، سيدي علي بن يوب	2000 هكتار	Chanifreau
سيدي بلعباس، تنيرة	حوالي 3000 هكتار لزراعة الحبوب والكروم	Laumet

<p>واد سفيون، تنيرة ومزرعتين في كل من بلعربي وسفيوز وسيدي علي بوسيدي</p>	<p>حوالي 3000 هكتار لزراعة الحبوب والأشجار المثمرة</p>	<p>Laforgue Henri et Laforgue Paul</p>
<p>تلموني، تنيرة، زاد سفيون</p>	<p>حوالي 1000 هكتار</p>	<p>Yerlès</p>
<p>سيدي بلعباس، سيدي لحسن، تلموني</p>	<p>مالك الملعب وعدد من المزارع avec cave</p>	<p>Paul André</p>
<p>واد المبطوح بسيدي حمادوش، بلعباس</p>	<p>بين 1000 و 2000 هكتار لزراعة الحبوب .</p>	<p>Courto</p>
<p>واد سارنو، تسالة.</p>	<p>مجموعة من المزارع</p>	<p>Husson Joseph</p>
<p>سيدي لحسن، سيدي علي بن يوب</p>	<p>2000 هكتار</p>	<p>Chanifreau</p>
<p>سيدي بلعباس، تنيرة</p>	<p>حوالي 3000 هكتار لزراعة الحبوب والكروم</p>	<p>Laumet</p>
<p>واد سفيون، تنيرة ومزرعتين في كل من بلعربي وسفيوز وسيدي علي بوسيدي</p>	<p>حوالي 3000 هكتار لزراعة الحبوب والأشجار المثمرة</p>	<p>Laforgue Henri et Laforgue Paul</p>
<p>تلموني، تنيرة، زاد سفيون</p>	<p>حوالي 1000 هكتار</p>	<p>Yerlès</p>
<p>سيدي بلعباس، سيدي لحسن، تلموني</p>	<p>مالك الملعب وعدد من المزارع avec cave</p>	<p>Paul André</p>

واد المبطوح بسيدي حمادوش، سيدي بلعباس	بين 1000 و 2000 هكتار لزراعة الحبوب .	Courto
واد سارنو، تسالة.	مجموعة من المزارع بين 1000 و 2000	Husson Joseph
سيدي لحسن، سيدي علي بن يوب	2000 هكتار	Chanifreau
الطابية	لزراعة الحبوب والكروم	Raphael
تسالة وعين تموشنت	مجموعة من المزارع	Mourin Albert
سيدي علي بوسيدي	مجموعة من المزارع	Pascal Eugène
سيدي علي بوسيدي	مجموعة من المزارع	Ballesta Alonzo
الطابية	بين 1000 و 2000 هكتار لزراعة الحبوب والكروم	Raphael
تسالة وعين تموشنت	مجموعة من المزارع	Mourin Albert
سيدي علي بوسيدي	مجموعة من المزارع	Pascal Eugène
سيدي علي بوسيدي	مجموعة من المزارع	Ballesta Alonzo
تسالة وعين تموشنت	مجموعة من المزارع	Mourin Albert

اهتم جل هؤلاء المعمرين الذين حولوا امتيازاتهم إلى حقوق بزراعة القمح والكروم¹ التي تعود عليهم بأرباح وعائدات وثروات كبيرة بسبب الاعتماد على

¹ - ينتج سهل سيدي بلعباس 90 % من محصول الخمر، و 60% من محصول الحبوب في عمالة وهران. أظر: Georges Reutt. Quelques aspects de l'économie rural de l'arrondissement de Sidi Bel Abbes. 1947. P: 45

الوسائل والتجهيزات الحديثة، ولكونها زراعة تقاوم التقلبات المناخية التي قد تدوم عدة شهور في المناطق الداخلية من عمالة وهران¹ مثل سهول وادي رهيو وسيق وتليلات التي لا يتجاوز التساقط فيها 400 ملم، وسيدي بلعباس ومعسكر وتيارت التي تقل فيها كميات التساقط عن 500 ملم ولا تتعدى 600 ملم سنويا في وهران، و900 ملم في أعالي تلمسان² بسبب الحاجز التضاريسي في كل من المغرب الأقصى وشبه الجزيرة الأيبيرية الذي يعترض وصول الرياح المشبعة ببخار الماء إلى المنطقة. بالمقارنة مع غيرها من مناطق شمال الجزائر³، حيث أن الشبكة الهيدروغرافية تتماشى مع طابعها المناخي المتميز بالأمطار غير المنتظمة⁴، وشدة تبخر المياه الناتجة عن ارتفاع درجة الحرارة⁵، إضافة إلى شدة نفاذ التربة والصقيع ورياح السيروكو التي تعرقل الكثير من الأنشطة الزراعية الأخرى في العمالة⁶. يقول أستاذ الزراعة السيد جيرون: "في وسط الجفاف العام، تبقى الكروم خضراء جميلة، وأنا على يقين مطلق بأن تطور هذه الزراعة، ستكون بالنسبة للمستعمرة المنتوج الأساسي، وسوف تتقدم كل المنتجات الأخرى خلال فترة قصيرة"⁷. ففي منطقة سيدي بلعباس حيث توجد حُمس (1/5) الأراضي الزراعية الأوروبية، وسُبع (1/7) آلات الجر الميكانيكي، أي 350 جرارا في شمال المنطقة و 50 آخر في

¹ - Georges Reutt. Op. Cit. P: 52

² - P. Laumont. Op. Cit. P: 5.

³ - Robert Tinthoin. Le département d'Oran. Encyclopédie mensuelle d'outre - mer. N° 35 Mars 1955 P: 4 .

⁴ - لم يواجه الكولون في الجزائر مقاومة بشرية فحسب بل أيضا مقاومة طبيعية، جعلته يقيم عدة سدود في عمالة وهران في الفترة بين 1926 - 1945، أهمها: سد الغريب بحجم استيعاب 280 مليون م³، وسد واد الفضة بحجم استيعاب 220 مليون م³، وسد بوحنيقية بحجم استيعاب 61 مليون م³. أنظر: عميراي أحمدية، آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1954)، الجزائر، 2007، ص69.

⁵ - عبد القادر حلّيمي، مرجع سابق، ص 82.

⁶ - P. Laumont. Op. Cit. P: 5.

⁷ - Victor démontes. L'Algérie agricole 130-1930. Paris. librairie Larose. 1930 . P: 195.

نواحي تلاغ وسفيون سنة 1948¹، سيعطي للعمالة قفزة نوعية سواء على المستوى التقني أو على المستوى الاجتماعي². وذلك ما يفسر ارتفاع مداخيل المزارعين الأوروبيين مقابل انخفاض مداخيل الفلاحين الجزائريين، ويعمق الهوة الاقتصادية والاجتماعية بين هاتين الفئتين الاجتماعيتين، ويجعل عمالة وهران التي تحتل المرتبة الأولى في إنتاج الخمر على المستوى الجزائري، وفرنسا على المستوى العالمي³.

معدل الإنتاج والمساحات المزرعة ⁴ (الكولون) سنة 1954 الوحدة: ألف هكتار							
النواحي	الأراضي المستغلة	أراضي البور	زراعة الكروم	زراعة الفواكه	المناطق الرعوية	أراضي غير منتجة	المجموع
الجزائر	782	403	109	79	1.848	103	3.333
وهران	1.228	743	271	30	1.580	174	4.027
قسنطينة	1.775	1.249	21	95	2.329	94	5.565

لم يتمكن معظم المستوطنين من الصمود أمام تطور زراعة الكروم⁵، فظهرت شريحة من المستوطنين امتلكت الثراء والخبرة ووسائل حديثة مكنتها من تحوّل اقتصاد الجزائر إلى اقتصاد مُصدّر للنبيذ، واستفادت من عائداته بواسطة

¹ - Georges Reutt. Quelques aspects de l'économie. Op. Cit. P: 55.

² - Victor démontes. Op. Cit. P: 202.

³ - Charles. R. Ageron. Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919. T I. Paris. P.U.F. 1968. P: 385.

⁴ - Annuaire statistique 1954. P 104.

⁵ - Chambre d'agriculture d'Oran. Novembre 1929. P.V des séances - Oran. Imp. Heintz. frères. 1929. P: 179

السماسة الذين بلغ عددهم 11 سمسارا في سيدي بلعباس. كانوا يتولون مهمة بيعه للتجار في وهران بسبب ارتفاع أسعاره في فرنسا وأوروبا، وزيادة تركيز كحول النبيذ الفرنسي وتعزيز طعمه¹. فقامت بعمليات نهب وشراء الأراضي الزراعية بأثمان رخيصة² مستغلة في ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية³. وفي سنة 1947 أعلنت لجنة مراقبة إنتاج الكروم عن بروز ظاهرة تجمع الأراضي في منطقة سيدي بلعباس⁴.

- 400 مصرح بأقل من 10 هكتار لإنتاج الكروم.
- 110 مصرح بمساحة تتراوح بين 10 و 50 هكتار لإنتاج الكروم.
- 100 مصرح بأكثر من 100 هكتار لإنتاج الكروم⁵
- واستحوذت على عشر زراعة الكروم في الجزائر⁶، وأصبح بها سنة 1952:
- من 08 إلى 20.000 هكتار من أشجار الكروم المنتجة.
- من 04 إلى 5.000 هكتار من أشجار الكروم الحديثة الغرس.
- من 08 إلى 10.000 من أشجار الكروم التي تعاني من الشيخوخة (قلة الإنتاج) وبالإمكان استبدالها⁷.

لتشجيع صادرات الخمور الجزائرية، نظم المستوطنون أول معرض للخمور إشهاري في الجزائر بمنطقة سيدي بلعباس بين 27 أبريل 14 وماي 1933. افتتح المهرجان كل من السيد "بيلات" رئيس بلدية سيدي بلعباس والسيد مارليي والي

¹ - Georges Reutt. Op. Cit. P: 68

² - Robert Tinthoin. Le département d'Oran. Op. Cit. Cit. P: 6

³ - Georges Reutt. Op. Cit. P: 44

⁴ - IDEM. P: 16

⁵ - IDEM

⁶ - Victor Demontes. L'Algérie agricole. Op. Cit. PP: 202-203

⁷ - Georges Reutt. Quelques aspects de l'économie . Op. Cit. P: 74

وهران. ونشطته الفرقة الموسيقية للفيف الأجنبي، واستدعيت عدة شخصيات رسمية فاعلة من سيدي بلعباس ووهران وكبار مزارعي الكروم¹. حين بدأ تصدير النبيذ الجزائري إلى السوق الفرنسية كبديل جزئي لأنبذة "ميدي"² الضعيفة، استخدم مزارعو الكروم المستعمرون تسميات لأنبذة الفرنسية الجزائرية وأصبحوا ينافسون مزارعي الكرمة في ميدي الذين ثار غضبهم، وذكروا الإدارة الفرنسية بأن الوظيفة الثانوية لأنبذة المستعمرة لا تستطيع أن تنافس "البرستيج" الغذائي لأنبذة الفرنسية، التي زُرعت من أجلها الكروم في البداية. وكأنهم بذلك يعترضون على الهوية الفرنسية لأنبذة المنتجة في الجزائر. كما شددوا على التباين بين ما دُعيَ بتخلف السكان الذين شاركوا في إنتاج المستعمرين، وحدثة إنتاج النبيذ في الجنوب الفرنسي³. لا لشيء سوى لأن المجتمع الكولونيالي هو "نظام طبقات، فهو متكون من مجموعتين متعارضتين ومتميزتين، فالانتماء إلى كلتا المجموعتين يحدّد بالولادة والمظهر الفيزيقي، طريقة الملبس اسم العائلة. فبمجرد النشأة في طبقة فوقية، تضمن أوتوماتيكيا امتيازات تُطوّر عند صاحبها إحساسا طبيعيا بالتعالي... فكلا المجتمعين يوجد في إطار العلاقة بين الفوقي والسفلي، مفصولان بمجموعة من العوائق التأسيسية أو العفوية... أبوية الفوقي هي نتاج إمتيازات هذا الأخير الذي يضمنها له النظام الاستعماري ما دام غير مهدد وقائم مكانه"⁴.

¹ - Bel-Abbes. Journal du 29 avril 1933. B° 156.

² -Giulia Meloni and Johan Swinnen, "The Rise and Fall of the World's Largest Wine Exporter and its Institutional Legacy", inLicos Centre for Institutions and Economic Performance Paper Series 327/2013. P: 6.

³ - موقع جدلية: Vineyards of Colonial Algeria: A History by Maïa Venturini

⁴ - عيسى شرايطية، مرجع سابق، ص 68.

لقد فضح إنتاج النبيذ الهيمنة الثقافية للمستعمرين¹ المسيحيين واليهود الذين

دأبوا على إبعاد العمالة المحلية عن المراكز التي تتطلب مهارة أكبر محتجين بتحريم القرآن للخمر وصناعتها. وعلى الرغم من أن الجزائريين رحّبوا بفرص التوظيف التي قدمتها زراعة الكروم، وخاصة أثناء الحرب العالمية الثانية التي أخذت المستعمرين الفرنسيين إلى ساحة المعركة، إلا أنه غالباً ما كان ينشأ جدل محليّ، حول العمل في مزارع إنتاج النبيذ، والارتباط بالمبادئ القرآنية التي تمنع المسلمين من المشاركة في صناعة الخمر والاتجار بها². وأسهمت العلاقة بين الطرفين (الأوروبيين مالكي الأراضي والعمال الجزائريين الدائمين) على إغناء التبادل الثقافي بين الطرفين. وربط النبيذ بشكل لا مفرّ منه بين الحياة اليومية للمستعمرين والسكان الأصليين وإن لم يكن بشكل عادل، ودفع اقتصاد الكروم السكان الأصليين إلى المجيء إلى مكان أقرب إلى جماعات "أصحاب الأقدام السوداء" والمراكز المدنية بسبب البطالة³. لذلك بدأ للفلاح الجزائري أن الكروم كاستثمار طويل الأمد أكثر أماناً⁴. فأراد - أيضاً - أن يحاكي الرجل نفسه الذي جرّده من أراضيه، لكنه عانى من اللامساواة والتمييز بين مالكي الأراضي الجزائريين والمستعمرين في صعوبة الحصول على مدخل إلى قروض بنك الائتمان الزراعي، واضطر إلى الانضمام إلى صناديق تمويل زراعية جماعية أخرى، كجمعيات السكان الأصليين للإدخار Sociétés Indigènes de Prévoyance، وجمعيات الإدخار الزراعية Sociétés Agricoles de Prévoyance * التي بقيت قروضها محدودة جداً.

1 - خلال الثورة الجزائرية، هاجم الجزائريون رمز ظلم نظام إنتاج النبيذ، الذي لم يمنح اعترافاً مهنيّاً أو فوائد اقتصادية مساوية للفلاحين المحليين.

2 - موقع جدلية: of French or Algerian Vineyards of Colonial Algeria: A History by Maïa Venturini Wine?

3 - IBID

4 - IBID

لتثبيت المعمرين، و تكثيف الإنتاج الزراعي التجاري المخصص للتصدير، وتحقيق الأرباح وإشباع السوق الأوربية ، والتغلب على الصعوبات التي يطرحها مناخ البحر الأبيض المتوسط في الجزائر . سخر الاستعمار كل طاقاته المادية والبشرية لتجهيز المدن التي استقطبت العدد الهائل من المعمرين والمراكز الصناعية بالمياه، فشرع في تهيئة وإنجاز مجموعة من السدود "السياسة المائية" الترابية الصغيرة الحجم والقليلة التكاليف لتأمين الاحتياطي من الماء، و سقي الأحواض الزراعية، أو لحبس أو تمويل المياه " ¹ منها سد واد الفضة: بحجم استيعاب 220 مليون م³، وسد بوحيفية بحجم استيعاب 61 مليون م³، وسد فرقوق بمعسكر بحجم استيعاب 18 مليون م³، وسد بني بهدل بتلمسان، وسد واد الشرف بسيق، وسد واد صارنو بسيدي بلعباس³.

خصص "للمدن 10% من طاقة استيعاب السدود إلى جانب بعض العيون وتخصيص بعض السدود مباشرة لتزويد المدن الكبرى كما هو الحال لسد وادي مفروش بتلمسان الذي حول لتموين مدينة تلمسان، وسد بني بهدل الذي حول نحو مدينة وهران وأرزيو" ⁴ ، وذلك جراء ارتفاع الاحتياجات السكانية والصناعية في مجال الشرب والطاقة خاصة في المدن الكبرى التي استقطبت المعمرين. لكن المعطيات الديموغرافية تؤكد أن 77,27 % من السكان الأوربيين يقطنون المدن، مقابل 22,73 % يقيمون في المناطق الريفية. أما سكان الحضر من الجزائريين، فإن إحصائيات 1954 تشير إلى أن نسبتهم لم تتجاوز 16,54 % من مجموع السكان

* بعد سنة 1951.

¹ - عبد اللطيف ابن أشنهو، تكون التخلف في الجزائر، محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية في الجزائر بين عامي 1830-1962، تر: مجموعة من الأساتذة، الجزائر، 1979، ص 107.

² - عميراي أحميدة، مرجع سابق، ص 105.

³ - Robert Tinthoin. L'Oranie. Op. Cit. P: 13

⁴ - أحميدة عميراي، مرجع سابق، ص ص 109-110.

الجزائريين، بينما الغالبية الساحقة منهم التي تمثل 83.46 % كانت تقطن الأرياف¹. لكننا إذا دققنا في هذه المعطيات، فإننا سنلاحظ فرقاً كبيراً في درجة التجهيز بين الأقاليم الثلاثة للجزائر، حيث يحتل إقليم وهران المرتبة الثانية² بعد الجزائر بـ 39.22 % من مجموع الشبكة للجزائر.

لم تدخر الإدارة الاستعمارية جهداً في "صيانة الممرات داخل الأرياف والطرق الرابطة بين المدن (تيارت، غليزان) / (معسكر، المحمدية)³ لفك العزلة عن المناطق التي يقطنها المزارعون المعمرون (وهران، عين تموشنت، سيدي بلعباس، معسكر، تلمسان، الشلف، غليزان...) . فأصبحت "الطرق الكبرى تغطي مساحة 14 حتى 15 مليون هكتار من إقليم التل بطول يقدر بـ: 2922 كلم"⁴.

الأمر الذي أدى إلى تنظيم حركة النقل من جهة وإلى الرغبة في فرض السلم وإحكام السيطرة أكثر العمالة من أجل سلامة المستوطنين. "فغدت الطرقات" السلاح القوي للتغلغل الاستعماري"⁵. كما أبرمت مؤسسة "كهرباء وغاز الجزائر" في جوان 1949، اتفاقية مع الحكومة العامة للجزائر⁶ من أجل تحقيق مكاسب اقتصادية، وتحسين الأداء الزراعي ورفع الإنتاجية، وتطوير المكننة الفلاحية بالاستخدام الواسع لوسائل الري، وتزويد مزارع الإنتاج الحيواني بالإنارة الضرورية، والورش الفلاحية، ومعامل تحويل بعض المنتجات الفلاحية أو بعض ورش الحرفيين بالطاقة

¹ - l'Algérie (1956-1957). Imprimerie Minerva. Alger A.S.A. Direction générale de finances. P:19

² - رغم كثافتها السكانية العالية، احتلت مدينة قسنطينة المرتبة الثالثة لأنها لا تضم بين سكانها سوى أقلية أوروبية قدرت بحوالي 28,38 % من مجموع سكان المدينة.

³ - عدة بن داهية، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962، ج 1، الجزائر 2008، ص 161.

⁴ - المرجع نفسه، ص 162

⁵ - Annie -rey-goldzeinguer. le royaume arabe. 1861-1877. Alger. 1977. P : 586

⁶ - Rapport de gestion de l'exercice 1949. Imprimerie La Typo-Litho et Jules CARBONEL réunies. Alger.P: 65

المحركة¹، وتفاذي الآثار السلبية للهجرة التي هي في غنى عن مواجهتها، وتزويد السكان الأوروبيين بالخدمات الضرورية التي توفر لهم الراحة وتحسن من مستواهم المعيشي. لكن الحقيقة أن المناطق التي كانت تقطنها أغلبية أوروبية هي التي كانت تحظى بأولوية التزويد بخدمة الطاقة الكهربائية أكثر من المناطق التي تقطنها أغلبية من المسلمين الجزائريين، وإن لم تميز بعض القوانين بين مواطن من أصل فرنسي أو من أصل جزائري أهلي كشرط للاستفادة من تلك الخدمة العمومية، إلا أن التمييز العصري بقي موجودا كممارسة كولونيالية يكشف عن الوجه الحقيقي للاستعمار الذي جاء لعصرنة المجتمعات البدائية القديمة المهترئة² التي أصبح أصحابها أسوء حال مما كانوا عليه سابقا. وهذا ما أثاره السيد" روبير ديلافينيات" في تقريره الذي قدمه إلى المجلس الاقتصادي حيث أكد في 28 جوان 1955 بأن المخصصات المالية التي يمنحها الميتروبول إلى الجزائر لا يصل منها إلى الفلاحين الجزائريين إلا الفتات. وأن مستواهم المعيشي في انخفاض مستمر³.

بما أن المستوطن كان يعيش في شكل قروي " Paysan" لكونه يسكن بمزرعته ويستعين في استغلالها بعائلته، فإنه غالبا ما كان يستعين ببعض الحيوانات مثل الحمار والبغل والحصان لتعويض نقص الآلات الفلاحية الحديثة. ففي بلديات سفيظف وتسالة ومكرة وسيدي علي بوسيدي، يضطر الفلاح إلى استخدام حيوان ل 17 هكتارا⁴ في السهول الخصبة مثل سهل وهران الساحلي الذي يمتد من شرق عين تموشنت إلى نهر الشلف غربا⁵، والسهول الداخلية مثل سهول مغنية وتلمسان ومعسكر، واليد العاملة الجزائرية وخاصة المغربية والإسبانية (لم يتوغب يوما أن

¹ - كلود ليوزو، جيل منصورون ، الاستعمار والقانون والتاريخ، الجزائر 2007، ص 86.

² - كلود ليوزو، مرجع سابق، ص 86.

³ - Anonyme. « Conclusions générales du rapport présenté au nom du Conseil Economique.

⁴ - Georges Reutt. la région agricole de Sidi Bel-Abbes- Oran - imprimerie Heintz-frères 1949. P: 56

⁵ - عبد القادر حلّيمي، مرجع سابق، ص ص 38-39

نشاطه ا اليد العاملة المحلية رأس مال المعرفة) الرخيصة المتميزة بالارتباط برب العمل¹، والتي تستخدم كورقة ضغط لتحطيم اليد العاملة المحلية، إلا أنها لم تلبى حاجيات المستوطنين الذي سيستعينون بتأسيس مدارس "التعليم الزراعي" بعين تموشنت وسيدي بلعباس²، بالإضافة إلى أن الهكتار الواحد من الكروم كان يقدر ب 4000 فرنك فرنسي مقابل 300 فرنك للطن الواحد من الحبوب. ورغم اعتماد المستوطنين على الوسائل الحديثة مثل الآلات الميكانيكية وانتقاء البذور الأسمدة، إلا أن معظمهم لم يتمكن من الصمود أمام تطور زراعة الكروم، فبدؤوا يتخلون عن زراعتها بالتدريج، فاتجه بعضهم نحو المدن حيث العمل أقل تعباً وشقاء، وتحول البعض الآخر إلى زراعات أخرى منها الكروم³. ففي سنة 1952 أصبحت بمقاطعة سيدي بلعباس:

- من 08 إلى 20.000 هكتار من أشجار الكروم المنتجة.
- من 04 إلى 5.000 هكتار من أشجار الكروم الحديثة الغرس.
- من 08 إلى 10.000 من أشجار الكروم التي تعاني من الشيخوخة (قلة الإنتاج) وبالإمكان استبدالها⁴.

ظهرت شريحة من المستوطنين حولت اقتصاد الحبوب الجزائري إلى اقتصاد مُصدّر للنبيذ. امتلكت الثراء والخبرة ووسائل حديثة وتقنيات زراعة الكرمة التي أريد لها أن تظلّ حكرًا في أيدي الأوربيين الفرنسيين والإسبان، الذين لم يرغبوا بأن يشاطرهم العامل المحلي رأس مال المعرفة. علاوة على ذلك استفادت هذه الشريحة من المستوطنين من عائدات الكروم بواسطة السماسرة الذين بلغ عددهم 11 سمسارا في سيدي بلعباس، الذين كانوا يتولون مهمة بيعه للتجار في

¹ - Georges Reutt. Quelques aspects de l'économie . Op. Cit. P: 16

² - IDEM. P: 52

³ - Chambre d'agriculture d'Oran. Novembre 1929. Op. Cit. P: 179

⁴ - Georges Reutt. . Op. Cit. P: 74

وهران¹ بسبب ارتفاع أسعاره في فرنسا وأوروبا، وزيادة تركيز كحول النبيذ الفرنسي وتعزيز طعمه². فقامت بعمليات نهب وشراء الأراضي الزراعية بأثمان رخيصة³ مستغلة في ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية⁴.

أهم المحاصيل الزراعية بمنطقة سيدي بلعباس وتوزيعها بين الأوروبيين والأهالي سنة 1947 ⁵					
المجموع	منطقة تلاغ - يوب		سهل سيدي بلعباس ونواحيه		نوعية الزراعة
	الأهالي/ه	الأوروبيون/هـ	الأهالي/ه	الأوروبيون/ه	
150500	18500	44000	33500	54500	الحبوب
4500	-	500	1000	3000	الزراعة المتنوعة
33000	-	3000	500	29500	الكروم
2000	-	-	500	1500	الزراعة المثمرة
75000	50000	7000	8000	10000	الممرات
112000	28500	33000	10500	41000	أراضي في راحة
377000	97000	86500	54000	139500	المجموع

¹ - IBID

² - Georges Reutt. Op. Cit. P: 68

³ - Robert Tinthoin. Le département d'Oran. Op. Cit. P: 6

⁴ - Georges Reutt. Op. Cit. P: 44

⁵ - IDEM. P: 43

1 - 2- البورجوازية الأوروبية الصغيرة : تتكون من فلاحين من أصول

الملكية العقارية الكبرى وممن يمتنون الفلاحة، ويملكون وسائل الإنتاج. سعدوا تدريجيا على السلم الطبقي مخترقين حلقات الرأسمالية الزراعية وخاصة رأسمالية العقار بعد سحق الفلاحين الفقراء الذين سيفقدون توازنهم النقدي حينما تدنت عائداتهم¹ بسبب سيطرة الكولون على الملكيات الزراعية الخصبة والشاسعة المساحة، وعدم وجود: "مدينة واحدة كبيرة للسكان الأهالي، وليست هناك بورجوازية غير الأوروبية. فالجزائر هي البلد حيث يُؤَطَّرُ خمسة ملايين من السكان من طرف 800 ألف بورجوازي أوروبي، ثم إن هذا التقدم الشامل"² سواء في عدد الأوروبيين البورجوازيين الذي سيرتفع بحوالي 560.000 أوروبي سنة 1951³، أو في معدلات الآلات والمعدات الفلاحية والري والتقنيات الحديثة آنذاك التي لم تشمل "غير المجتمع الأوروبي. إذ كان إقصاء المجتمع الإسلامي الجزائري يتردد تقريبا في جميع الخطب أو في المشاريع المرتبطة بالتقدم الاجتماعي أو الاقتصادي"⁴.

يمكننا تصنيف هذه الشريحة الاجتماعية إلى ثلاث أقسام:

1- الشريحة العليا من الفلاحين الصغار الذين يصل حجم ملكياتها الزراعية إلى 50 هكتارا. والتي لا تعتمد في عملية الإنتاج على الجهد الفردي أو العائلي فقط وإنما تلجأ إلى الاستعانة بالخماسة والعمل المأجور بصفة دائمة أو مؤقتة. وهذه الشريحة وإن كانت مؤهلة للانتقال إلى شكل الاستثمار الزراعي الرأسمالي، إلا أنها

¹ - Mustapha Lachraf. L'Algérie. Nation et Société. Alger. SNED. 1978. P: 168.

² - العربي إيشبودان، مدينة الجزائر، تاريخ عاصمة، تر: جناح مسعود، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص 245

³ - شارل روبيير اجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، مرجع سابق، ص ص 125-126

⁴ - العربي إيشبودان، مرجع سابق، ص 245.

لم يكن بإمكانها التفكير في إقامة مشاريع اقتصادية كبرى¹ في ظل الهيمنة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأوروبيين على الاقتصاد الجزائري.

2 - الشريحة المتوسطة من الفلاحين الصغار الذين تصل مساحة ملكياتهم

إلى 20 هكتارا. يملكون وسائل وشروط الإنتاج مثل حيوانات العمل، أدوات العمل ... وبسبب عدم كفاية العمل الفردي و العائلي وتباينه مع حجم الملكية، يلجأون إلى الاستعانة بالخماسة أو العمل المأجور لاسيما في فترات موسمية محددة.

3 - الشريحة الدنيا من الفلاحين الصغار التي لا تتجاوز ملكية الواحد منهم

10 هكتارات، تتساوى قوة عملهم مع حجم ملكياتهم لذلك تجبرهم الظروف الصعبة التي يمرون بها أحيانا على ممارسة نشاط اقتصادي موازي أو بيع قوة عملهم أحيانا أخرى. لأنهم يعتمدون على وسائل إنتاجية بدائية لتعويض الحاجيات المعيشية والاستهلاكية، وإنتاج مواد الاستهلاك المباشر، ويواصلون تقليم أشجار الزيتون وأشجار التين، وفقا للأشكال القديمة للاقتصاد التي لا تخوّل إلا مستوى منخفض من المعيشة²، ويجهلون زراعة أنواع أخرى من الأشجار المثمرة مثل الكروم والحوامض. بل معظمهم لا يحسنون تطعيم تلك الأشجار³ وأحيانا لا يتوفرون على حيوانات العمل، فيضطرون إلى استئجارها أو الاستعانة بوسائل وأدوات عمل الأقارب.

¹ - CAOM. R. Le Toutneau. le Développement d'une classe moyenne en Afrique du nord. Carton S3/13-20. P: 01

² - محمد منصور، مرجع سابق، ص 113.

³ - A.Hanni. Op. Cit. PP: 42 43.

جدول توزيع الملكيات الزراعية بمنطقة سيدي بلعباس ¹				
الأهالي		الأوروبيون		
متوسط المساحة	العدد	متوسط المساحة	العدد	
08	3017	03	195	أقل من 10 هكتار
34	1275	32	253	من 10 إلى 50 هكتارا
76	228	85	287	من 50 إلى 100 هكتار
222	46	243	617	من 100 إلى 500 هكتار
584	5	698	63	من 500 إلى 1000 هكتار
-	-	1159	21	أكثر من 1000 هكتار
-	4571	-	1436	المجموع

من خلال الجدول يتضح لنا:

- تجزئة ملكيات الأهالي التي تتضح جليا لدى الشريحة التي تملك أقل من 10 هكتار حيث يبلغ عددها 3017 فلاحا مقارنة ب 195 فلاحا أوروبيا. هذا التناقض الصارخ سيفرز لنا وضع اجتماعيا واقتصاديا مزرريا يتمثل في فقر هذه الشريحة بسبب امتلاكها ملكيات صغيرة واستخدامها الأساليب التقليدية ذات المردود الضعيف التي لن تزيد إلا من تعقيد أوضاعها.
- يوحى لنا الجداول بأن مساحة ملكيات المعمرين في عمالة وهران وعلى سبيل المثال بمنطقة سيدي بلعباس قد تقلصت، لكن بعض الدراسات تؤكد عكس ذلك لأن بعض العائلات الأوربية لجأت إلى تجزئة ملكياتها التي تتجاوز 500 هـ بين أبنائها للتهرب من الضرائب، وأحيانا أخرى تقلصت المساحات الفلاحية بسبب تجمع الأراضي في يد مجموعة من العائلات منها عائلة "بريتوندون" التي كانت

¹ - Georges Reutt. la région agricole de Sidi Bel-Abbes- Op. Cit. P: 58

تمتلك 947 هكتارا، وعائلة "كارلوس رويز" التي امتلكت 3800 هـ بمنطقة تيليوم (بلعربي) و3200 هكتار بسعيدة، وابنه الملقب "ملك الخروف"¹ الذي كانت بحوزته 3500 هكتار سنة 1946، والمستوطن "بوش هومار" الذي ترك لورثته زهاء 2000 هكتار². مع العلم أن كثيرا من هؤلاء المعمرين حققوا مكاسب وأرباحا كثيرة. فقد تمكن السيد "باستيد" من مضاعفة ثروته أربع مرات خلال ثلاثين (30) سنة بمعدل 2000 فرنك فرنسي فائدة سنوية³.

- معظم الملاكين المعمرين الزراعيين من أصول فرنسية ثم إسبانية، في حين استأثر اليهود بمجالات أخرى منها التجارة والمالية والأعمال الأخرى⁴. مع اتساع شريحة الفئات الاجتماعية المرتبطة والمعتمدة على "الدخل النقدي" تزايدت فرص نمو التبادل التجاري في الريف، وأدت إلى تشكل فئات اجتماعية مرتبطة بالإنتاج البضاعي مثل أصحاب الدكاكين والتجار الصغار والحرفيين والموظفين.

ظلت البورجوازية الفلاحية الصغيرة تتعرض إلى عمليات الاستغلال والقهر والإفلاس والنهب وتجريدها من ممتلكاتها الزراعية في عين تموشنت ومكرة والرمشي وأولاد ميمون وسيدي قادة ومعسكر⁵، من قبل الكولون بالتواطؤ مع أصحاب الملكيات الكبرى من الجزائريين والتجار الوسطاء. وعانت أيضا من التفقير والعمل القسري والخراب الشديد وهبوط أفرادها إلى مركز الفلاحين الفقراء وإلى الفلاحين المعدومين الذين لا يملكون أرضا. يعملون كعمال مزارعين أو كأجراء فلاحيين، يمارسون الخماسة أو يهاجرون إلى المناطق الجبلية القاحلة، وإلى

¹ - اعتبرت منطقة سيدي بلعباس من أهم المناطق تصديرا للخروف، فقد صدرت قبل الحرب العالمية الثانية 150.000 خروف نحو فرنسا، وكانت تمون السوق الداخلية (المحلية) ب حوالي 200.000 خروف. أنظر: Georges Reutt. Quelques aspects de l'économie rural . Op. Cit. P:91

² - Aïnad Tabet. Op. Cit. P: 82.

³ - IDEM. P: 104.

⁴ - IBID. P: 85.

⁵ - مصطفى الأشرف، مرجع سابق، ص 20.

المدن أو إلى فرنسا. الأمر الذي يوحي لنا باشتداد التناقضات الاجتماعية ليس فقط بين الفلاحين الكولون والفلاحين الجزائريين ، وإنما في داخل بنية الملكية الجزائرية نفسها¹ ، التي تسوء أحوال شريحتها الاجتماعية والاقتصادية نتيجة ارتفاع نسب القروض، وعوامل المناخ، ونقص الأمطار والإنتاج، وتضرر الماشية في سعيده ومعسكر وتلاغ..²، وقلة التموين بالمواد الغذائية المستوردة للسكان، وندرة المواد الواسعة الاستهلاك³، وارتفاع أسعار المواد الغذائية⁴ بسبب السوق السوداء، وارتفاع نسبة المسلمين الذين يعانون من الفقر والبطالة خاصة بين الشباب المؤهلين للعمل حيث قدر عددهم سنة 1954 بحوالي ثلاثة ملايين شاب جُهم من سكان الريف⁵ الذين يعتبرون المسؤولون الوحيدون عن إعالة عوائلهم⁶ ، في ظل أزمة قطاع الوظيف العمومي الذي قال عنه سوستيل بأنه: "القلعة المحصنة...المحاطة بمتاريس ومسندات...تسيرها قوانين ونصوص تشريعية معقدة وضعها أصحاب المصالح"⁷ ، ونزوح أعداد هائلة منهم نحو المدن وهجرة آخرين نحو فرنسا⁸ . حيث بلغ عددهم سنة 1954 حوالي 164.000 مهاجر، كان معظمهم في سن العمل أو القتال. حُمّلوا على ظهر البواخر نحو فرنسا دون أن يعرف أحد مصيرهم. ورغم كل التضحيات التي قدموها، فإن جزاؤهم كان سنّ قوانين الإقصاء والميزم العنصري والمعاملة

¹ - محمد لخضر بن حسين ، تفكير حول الأوضاع الاقتصادية للطبقة العاملة في الجزائر، مجلة العلوم الاجتماعية، عدد 3، أبريل 1980، ص 60.

² - Radouane Ainad Tabet. Le 08 Mai 1945 En Algérie. 1 place centrale Ben Aknoun. Alger. Sans date

³ - Préfet d' Oran. CIE N° 431. Aout 1941

⁴ - L'écho D'Oran 15 Février 1945.

⁵ - روجت السلطات الفرنسية أنها أنشأت المراكز الاجتماعية لرفع القدرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لسكان الريف من الأهالي. أنظر: A.W.O. Boite 389/2. Rapport sur Bilan Initial. 1959. P: 01.

⁶ - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op. Cit. P: 167

⁷ - IDEM. P: 80

⁸ - Marcel Larnaude. L'Algérie. Édit. Berger-Levrault. Paris. 1950. P: 103.

المشينة"¹. الشيء الذي جعل رئيس الحكومة الفرنسية المؤقتة "قوين" يؤكد في مداخلته أمام الجمعية الوطنية سنة 1946 بأن معركة التموين لم تنته، وهي لازالت قائمة².

عدد الجزائريين المهاجرين نحو فرنسا سنتي 1947-1948 ³				
عدد العمال المهاجرين سنة 1948		عدد العمال المهاجرين سنة 1947		
بالطائرة	بالسفن	بالطائرة	بالسفن	العمالات
22.258	36.555	18.604	28.430	الجزائر
-	14.163	-	14.674	وهران
1.556	6.137	326	3.427	قسنطينة
23.814	56.855	18.930	46.531	المجموع

قام معهد البحوث الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر⁴ بدراسة الأوضاع المعيشية للسكان الأهالي المسلمين الجزائريين والأوربيين، فانتتهت الدراسة إلى تعذر وجه المقارنة بينهما بسبب التمزق والتحطيم (الموت، الهجرة، الغياب خلال الثورة...) اللذان تعرضت لهما العائلات الجزائرية الفقيرة واللذان أديا إلى فقدان أهم القوى العاملة، وانعدام التكافؤ في منحنى الدخل والأجور⁵ التي كانت تكون شبه منعدمة

¹ - Benjamin Stora. il venait d'Algérie. l'immigration Algérienne en France 1912. éditions Fayard. Paris. 1992. P: 220.

² - A.W.O.dossier presse. Ain Sefra de Mostaganem. du 23 Mai 1946.

³ - CAOM. Notes et études Documentaires. Situation et évolution de L'Algérie pendant l'année 1948. N° 1.215 DU15Octobre 1949. Carton S3/13/20. PP: 26-27.

⁴ - L'Institut de Recherches Economiques et sociales d'Alger.

⁵ - Ahmed Abid. syndicalisme et lutte sociale en Oranie (1942-1951). Thèse Doctorat 3^{ème} cycle. Université de Paris. 1986. PP: 8-15.

عند الأهالي¹ الذين لم يجدوا من وسيلة للتعبير عن بؤسهم وتدميرهم وسخطهم سوى التظاهر والعصيان. ففي مارس 1945 هاجمت مجموعة منهم شاحنة تموين محملة بالخبز في بلدية Pélissier بمستغانم²، وفي نفس السنة تظاهرت زهاء 2000 من ربّات البيوت أمام مقرّ بلدية تيارت. وحملت 2000 امرأة أخرى في وهران، شعارات تتدد بمعاناة الجزائريين، وارتفاع أسعار المواد الغذائية، ونقص مادة الخبز³. وسار على نهجهم منتجوا الحليب الذين خرجوا في مظاهرات ضد قرار الحكومة الفرنسية بتقنين سعر الحليب وخفض سعره، ورفع الخبازون الفرنسيون سعر الخبز دون مراعاة تحذيرات حكومتهم، وبيئعوا الغلال والخضر.

لم يمس تدهور المستوى المعيشي الجزائريين المسلمين فقط، بل ضاق به درعا المعمرون أنفسهم من مختلف شرائح المجتمع الفرنسي، ونددت به نقابات العمال بسبب عجز الميزان التجاري الذي انتقل من 410 مليون دولار إلى 935 مليون دولار سنة 1956 ليصل إلى 1.050 مليار دولار سنة 1957⁴. فاتخذت الحكومة الفرنسية عدة إجراءات منها: فرض رسوم على الفنادق والمطاعم الفاخرة⁵، وضرائب جديدة بلغ مقدارها 4.447 مليار سنة 1958، ووقف المنح والمساعدات⁶ والعديد من المشاريع، وارتفاع الأسعار، وتدهور قيمة العملة خاصة في سنتي 1958-1957⁷، وزيادة واردات المواد الغذائية الأساسية، وإلغاء الرسوم الجمركية على الضرورية منها الشيء الذي سيحرم الخزينة من موارد مالية ضخمة

¹ - Documentation et Enquêtes Algérien. Revue Officielle du Centre de Documentation et d'Enquêtes en Afrique du Nord. N° 04. 1956. PP: 118-119. N° 04. 1956

² - A.W.O. Préfecture d'Oran. CIE. N° 122 du mois de Mars 1945.

³ - M. Kaddache. histoire. T2. Op.cit. PP 696-697.

⁴ - C. G. Gignaux. le rouge et le noir. in les deux mondes du 15 Fev 1957. P: 753

⁵ - IDEM. P: 452

⁶ - Michel Drancourt. Bilan économique de V république. Op. Cit. P: 81

⁷ - C. G. Gignaux. Op. Cit. P: 364

كانت في حاجة إليها¹، وارتفاع حجم النفقات العسكرية الضخمة في الجزائر التي كان يمولها الفرد الفرنسي بما يدفعه من الضرائب بما يعادل 12.000 فرنك سنويا²، واختلال السوق الداخلية، والمنافسة الأجنبية الإسبانية والإيطالية واليونانية³. وقد وصف "ميشيل دوبري" هذا الوضع المؤلم عندما قال: "إذا سألتني عن الأوضاع المالية الفرنسية، فإني أجيبك بأنه من الأفضل أن لا نخوض في هذا الموضوع، لأنها مسألة مؤلمة جدا، لقد وعدنا الوزراء بأن الحكومة ... عازمة على تغيير كبير... ولكننا لم نرى أي شيء... إما أن الحكومة كذبت علينا... وإما أن ماليتنا أصبحت على مشارف الإفلاس"⁴. إنها مقدمات الإفلاس والسير نحو الكارثة كما قال الجنرال شارل ديغول⁵ الذي سيجد صعوبة في التوفيق بين السياسة الاجتماعية وتطوير الصناعة والحرب على جبهة التحرير الوطني في الوقت نفسه، وسيسخر من هذا الوضع قائلا: "أيام زمني كان التجار والبقالون يصوتون على المحامين، أما اليوم فالمحامون هم الذين يصوتون على التجار والبقالين"⁶. إن خضوع الملكيات الصغيرة إلى النمط الرأسمالي في الاستغلال والإنتاج أدى إلى انخفاض الفلاحين الصغار. فأصبح الفلاح الصغير رأسماليا لا يقوى على تحويل فوائده أرباحه إلى رأسمال. ومن تم فهو رأسمالي لا يملك الإمكانيات لتحويل إنتاجه إلى سلع، مما اضطره إلى بيع أرضه إلى الرأسمالي الحقيقي، وبالتالي عملية البيع هذه تؤمن له دخلا لا يمكنه استثماره، فيتحول إلى خماس⁷.

¹ - C. G. Gignaux. Op. Cit. P: 446

² - عبد الله شريط، مرجع سابق، ص 838.

³ - عبد اللطيف ابن أشنهو، تكون التخلف في الجزائر، مرجع سابق، ص 356

⁴ - عبد الله شريط، مرجع سابق، ص 68.

⁵ - Charles De Gaulle. mémoire d'espoir. le renouveau 1958-1962. Paris. livre de poche. Plon. 1970. 178.

⁶ - André Noushi. Maurice Agulhon. la France de 1940 à nos jours. Paris. Nathan. 1942. P: 56

⁷ - A. Benaoum. Les Lois foncières et leurs effets en Algérie 1830-1930. R.A.S.J.E.P. Vol X n° 1 Mars 1973. P10.

لم تتمكن البورجوازية الأوربية الصغيرة من التجانس المادي يوما، بسبب التمايز في حجم الملكية الزراعية الذي يصل إلى 10 هكتارات لدى شريحة الدنيا منها، وإلى 20 هكتارا لدى المتوسطة وقد يتجاوز أحيانا 50 هكتارا لدى الشريحة العليا مما ينعكس على:

- فئة تحصل على دخل من الأرض يمكنها من إعالة أسرها.
- فئة تقيم بالمدن وتستعين باليد العاملة المأجورة في عملية الإنتاج.
- فئة تعتمد على الخماسة والعمال والموسمين. فئة يمكننا إصباغ صفة الرأسمالية عليها لأنها تقوم بعملية استغلال المستأجرين والخماسة، وتتهب أصحاب الملكيات الصغرى من خلال تقديم قروض لهم بفوائد فاحشة¹.

2 - الجزائريون:

2 - 1 - البورجوازية الجزائرية الحضرية:

بالرغم من عدم وجود علاقات غير متكافئة مع البورجوازية الأوربية، ومعاناتها من تقلب الأوضاع، والاصطدام عند محاولتها اختراق الرأسمالي الكولونيالي. فإن قطاعها شهد ازدهارا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، بسبب احتلالها مكانة هامة بين الأهالي غير الزراعيين، بسبب مصادرها المتنوعة، وقاعدتها المادية التي تقوم على التداخل بين الرأسمال الزراعي العقاري والرأسمال البضاعي الصناعي الصغير (النشاط غير التقليدي)، وحصولها على وزن نوعي في التركيبة السكانية للتأثير في المجال الاجتماعي والسياسة الوطنية، وتحسن مستواها المعيشي وفتح رصيد حسابي في البنوك² لكنها لاقت منافسة شديدة من الإنتاج

¹ - Sakina Demia. Pour une analyse critique du nationalisme Algérien.

R.A.S.J.E.P. Vol XI N° 04. Déc. 1974. P 30.

² - Ageron. Les Algériens Musulmans. Op. Cit. P: 120.

* لم تهمل التعليم الأوروبي لأبنائها، لذلك تمكنت من التأقلم مع الواقع.

البضاعي الكولونيالي الرأسمالي مما جعلها تسعى دائما إلى البحث عن مواقع لها ضمن الإنتاج الكولونيالي للتخلص من المنافسة والاضمحلال والإزاحة، والحصول على وزن نوعي في التركيبة السكانية للتأثير في المجال الاجتماعي والسياسة الوطنية*. وهكذا تكونت لديها صفات تجمع بين الحفاظ على إرثها القديم الذي يُثبت مواقعها الاجتماعية المتميزة في الريف بحكم ارتباطها بالزراعة العقارية، وبين العلاقة الحديثة في المدينة بحكم موقعها في القطاع الرأسمالي. وفي دراسة قام بها أندري بريان، حول الملكية العقارية المدنية والدور الذي يلعبه المدينيون في ملكية الأرض واستغلالها بناحيتي تلمسان وسيدي بلعباس، تبين أن هناك تنوع في حجم هذا النوع من الملكيات الذي يتراوح بين ($4/1$ ربع) و $1/5$ (خمس) المساحة الزراعية في الناحيتين) وتوزيعها وتنوع في شكل استغلالها، وتنوع في علاقات الاستثمار. وأن حصة الملكية العقارية المدنية من أراضي الخواص الجزائرية بناحية تلمسان تشكل 22.3% من مجموع المساحة الفلاحية بالناحية التي تضم 62.766 هكتار. وتحتل الملكية الكبيرة بنسبة 83 % من مجموع مساحة الملكية العقارية المقدرة ب 14.028 هكتار. يبرز من خلالها الملاكون العقاريون المدينيون جزءا من المنتج الزراعي في شكل ريع زراعي أو أرباح توظّف في مجالات أخرى أو تُبتلع في توسيع الملكية، أو تُوجه إلى الاستهلاك الطفيلي¹.

¹ - Ageron. Les Algériens Musulmans. Op. Cit. P: 12

حصّة الملكية العقارية المدينية من أراضي الخواص الجزائريين بناحية تلمسان 1962 ¹			
النسبة %	حجم الملكية المدينية	المساح الكلية (هـ)	المكان
63%	980.49 1	3301.63	تلمسان
68%	989.92	1448.57	حناية
61%	2.288	-	بني وزان
29%	1390.09	4735.63	يفري
29%	482.53	321.49 1	بيدر

- يتضح لنا من هذا الجدول أن الملكية العقارية المدينية تشكل 65.9% من مجموع المساحة الملكية في المنطقة.
- يشكل الملاكون العقاريون 40% من مجموع الملاكين المدينيين.
- يعتمد هؤلاء على الملاكون على أسلوب التأجير، لأن معظمهم ينتمي إلى الشريحة الاجتماعية المهنية التي لا تشكل الزراعة موردها الأساسي.

¹ - Annales Algériennes de Géographie. N° 3. Juin 1967. Op .CIT. P: 91 .

صيغ وأساليب الاستثمار الزراعي في الملكيات العقارية الكبيرة بتلمسان حسب الفئات الاجتماعية المهنية ¹				
حجم الأرض (هـ) صيغ وأساليب الإستثمار				الفئات
مزارعة بالمحاصصة	تأجير	مباشر		
%18	%50	%30	%2.347	تجار
%29	%30	41%	%1.534	أرباب صناعة
%16	%46	37%	%941	أصحاب مهن حرة
%16	62%	%22	%1.295	ملاكون عقاريون
-	-	%100	%1.247	مزارعون مستثمرون
%08	38%	%54	%370	حرفيون
%06	58%	%36	%332	موظفون إداريون

يتضح لنا من خلال هذا الجدول يتضح لنا:

- غالبية الملاكين العقاريين المدينين هم من الفئات الاجتماعية المهنية التي تزاوّل نشاطات اقتصادية واجتماعية في المدينة.
- يحصل غالبيتهم على فائض المنتج الزراعي عينا أو نقدا فقط عن طريق تأجير ملكياتهم الزراعية بمختلف الصيغ.
- لم يفقدوا سيطرتهم على الفلاحين رغم ممارستهم لنشاطات اقتصادية واجتماعية غير زراعية.

¹ - A. Prenant. Op .Cit. PP:91-92.

- تحدد الفوارق بين الفئات الاجتماعية المالكة للأرض على أساس أنتجة هذه الملكية.

ضم هذا القطاع التجار الكبار والمتوسطون منهم عائلة بن شنان محمد، مفوض مالي، و خليل محمد، وبن عبورة مختار، بن سفير محمد، بن مغنية لخضر من معسكر، وعائلة "برحال" بمدينة بني صاف التي كانت تملك خمس حافلات وخمسة خطوط بلدية قيما¹، وعائلة زرهوني التي كانت تملك مطحنة القمع و الشعير، وعائلي "كريتلي" و"بن عليوة" بمستغانم حيث كنت الأولى تملك مصنعين، أحدهما لصناعة الكبريت والثاني لصناعة الجلود. وكان لمصطفى حفيد العائلة الثانية مصنعا للصناعة التعدينية إضافة إلى نفوذه المالي القوي جنوب وهران وسعيدة ومعسكر. وكان لدى عائلة "بن ديمراد" في مدينة تلمسان مستودعات كثيرة في تلمسان و وهران ووسائل نقل للمسافرين نافست الشركة الفرنسية "ريفي الكبرى"².

ازداد حجم البورجوازية الصغيرة المهنية والتقنية خاصة في التجارة الداخلية التي أصبحت تضم متوسطي أرباب العمل والحرفيين³ الذين يزاولون مهنة تجارة التجزئة في المواد الغذائية والألبسة والآلات المنزلية، ويمارسون الخدمات على نحو الفنادق والحلي والنحاس التي كانوا يتعاملون فيها مع القرى والدواوير والأحياء الشعبية التي يقتني منها الجزائريون حاجياتهم. في حين احتفظ العنصر الأوربي لنفسه بتجارة الجملة⁴ التي كان يمارسها في المساحات الكبرى بوهران وسيدي بلعباس ومستغانم وغيرها من عمالة وهران.

بلغت نسبة البورجوازية الجزائرية الحضرية في وهران 70% من ضمن

451 بورجوازي. فكان لها الدور الكبير والفعال في تحويل المدينة الجديدة إلى

¹ - C. G. Gignaux. Op. Cit. P: 364

² - المرجع نفسه، ص 15

³ - شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، مرجع سابق، ص ص 68-97.

⁴ - Thomas Opperman. Op. Cit. P.56

منطقة تجارية تستقطب حركة المبادلات التجارية بين الجزائريين. وتمكن بعض القادمين من تلمسان والمغرب الأقصى والميزاب¹ من شراء المحلات التجارية الأوروبية في المنطقة².

2 - 2 - العمال : شريحة قليلة العدد بالنسبة إلى مجموع السكان غير

الزراعيين، لكنها كانت أكثر الفئات العاملة تحررا من جميع أشكال الملكية، وأكثرها اندماجا وانخراطا في سوق العمل سواء في المدن أو في الميترابول. تلازم نموها مع نمو القطاعات الإنتاجية والمشاريع الإصلاحية الشمولية التي قامت بها فرنسا لخدمة مصالحها. وكان من أهم مميزات تطور هذه الطبقة العاملة، هو تجددتها وتغذيتها من الفلاحين المعدمين ومن الفئات الجديدة كالتقنيين وعمال النقل والمواصلات، والشباب المتعلم المتسرب من المدرسة إلى عالم الشغل، التابعين في مواقفهم للزوايا صاحبة التوجيه الأيديولوجي³ الشيء الذي سيساعدهم على تأدية دور أساسي مهم، وسيحتلون ثقلا اجتماعيا وسياسيا.

لم يسعى الاستعمار الفرنسي أبدا إلى تغيير العلاقات التقنية في الجزائر. لأن استخدام أساليب متطورة سيكون لا محالة نتيجته الفشل ولا يُحقق من خلاله أي نتيجة⁴، بل عمل جاهدا على إحداث تغييرات في العلاقات الاجتماعية التي بلورت دورها حركة مزدوجة من التنوع والتجانس في تركيبة الطبقة العاملة (الكفاءة والتعليم والجنس والسن⁵) التي لا يشكل العمال فيها كتلة واحدة مكونة من أجزاء متجانسة بحكم عدم انتمائهم إلى نفس الأصول العرقية والدينية، وعدم امتلاكهم نفس

¹ - Redouane Ainad Tabet. Histoire de l'Algérie. Sidi Bel Abbés de la colonisation à la guerre de libération en Zone 5-Wilaya V(1830-1962). ENAG. Alger. 1999. PP: 123-124.

² - المرجع نفسه، ص 05.

³ - محمد الطيبي، الجزائر عشية احتلالها أو سوسيولوجيا قابلية الاحتلال، وحدة البحث الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 1992، ص 69.

⁴ - B.A.F. la préparation des mineurs coloniaux 1931.

⁵ - علي شامي، مرجع سابق، ص 203.

المعتقدات الأيديولوجية والسياسية. يتميزون بكثرة الأطفال¹ * ولا يتقاضون نفس الأجور، ولا يعمل جميعهم في نفس القطاع. يستقدمون نساءهم وأطفالهم للعيش في أحياء الصفيح بدل تركهم لعاداتهم البدائية²، ويُستخدمون بين 12 و 14 ساعة في اليوم³ في الأعمال الخطرة والمُرهِقَة (كالحراسة والكناسة...) التي لا تخلو من الحوادث، ودون أن تكون لهم ضمانات الاستقرار في العمل من قبل صاحب العمل. ويتجلى لنا هذا بوضوح في:

- الصناعات التعدينية في وهران وتيارت ومعسكر وسيدي بلعباس وسعيدة

التي تستقطب اليد العاملة الفرنسية المؤهلة، وقليل من اليد العاملة الجزائرية⁴.

- مصنع الجعة بوهران الذي يُشغل 49.41 % (84 عاملا) من الفرنسيين

و 24.11 % (41 عاملا) من الجزائريين و 21.17 % من الأجانب و 05.24 %

(09 عمال) من المغاربة. جعلت والي وهران يتساءل عن إمكانية الحفاظ على اليد

العاملة الفرنسية إلى نهاية الموسم، إن لم يتم التخلص من العمال الأجانب بما فيهم اليد العاملة الجزائرية التي لم تتعود على أجره العمل؟! لأن ما كانت تحصل عليه

يكفيها لمدة طويلة بسبب متطلبات حياتها البسيطة⁵. ومن هذا المنطلق أُجبر السكان

الأصليون على العمل بأبخس الأجور، ففي حين كانت الأسعار في الجزائر تقارب

الأسعار في فرنسا، كان العامل الجزائري يحصل على 40 - 70 فرنكا لقاء عمله

اليومي، مقابل ضعف الأجر الذي كان يحصل عليه العامل الفرنسي في فرنسا. هذا

¹ - B.A.F. la préparation des mineurs coloniaux 1931.

* في الوقت الذي كانت أجره الكراء تتراوح بين 1.500 ف و 2.000 ف¹، و الطعام 5.000 ف شهريا والمصاريف الأخرى: 1.200 ف. أنظر: Jean Serra. Op. Cit. P: 26

² - IDEM. P: 25.

³ - محمد حربي، الثورة الجزائرية سنوات المخاض، تر: نجيب عياد وصالح المثلوثي، الجزائر 1994،

ص 89

⁴ - Éléments sur les structures socio-économiques de l'Algérie communication au XXIV congrès international de sociologie. Alger 25 au 30 Mars. 1974. P: 51.

⁵ - Jean Serra. Op. Cit. P: 26.

إذا علمنا أن سعر "كيلو الخبز" في الجزائر يقدر بـ 48 فرنكاً وكيلو السكر 94، واللبن 25 فرنكاً فيما كان اللحم الرديء يباع الكيلو منه بـ 400 و 500 فرنك. ورغم ذلك "فقد كان العمال الجزائريون من مختلف فئات العمر... يقفون أمام أبواب المصانع طلباً للعمل"¹. ويرتّبون في آخر الهرم الاجتماعي لأنهم لا يصلحون لأي عمل² ويتعرضون إلى الطرد من العمل باستمرار لهذا لوحظ انخفاض في اليد العاملة في بعض القطاعات الصناعية التي وظفت عدداً معتبراً من العمال الأوربيين والجزائريين³. ففي صناعة التبغ، انخفضت نسبة عدد العمال الجزائريين من 55 إلى 40 عاملاً، ومن 110 إلى 95 في قطاع صناعة الحبوب الجافة، ومن 110 إلى 30 عاملاً في صناعة المرايا، ومن 195 إلى أقل من 55 عاملاً في صناعي مواد البناء، ومن 550 إلى 40 عاملاً في صناعة الطلاء.⁴ رغم ما جاء في أحد تقارير الأيام الدراسية التي عقدت بالجزائر بأن التأهيل المهني للعمال الجزائريين ليس بالأمر المستحيل لأنهم يرغبون في التكوين، لكنهم يفتقدون إلى أدنى شروط الثقافة العمالية⁵ (منها الغيابات المتكررة للعمال لأن متطلبات حياتهم بسيطة وأجرتهم القليلة تكفيهم لقضاء ما تبقى من أيام الشهر *؟!*) التي تنمو مع الفرص المتاحة للطفل في البيئة التي يعيش فيها. وإن العمل الدؤوب لتكوين عمال جزائريين مؤهلين للعمل في مصانع حديثة⁶ يتطلب - كي يساوي أو يفوق مردودهم إنتاجية العامل الأوروبي يتطلب:

1 - التغذية الصحية الجيدة والتمكاملة المتمثلة في تناول اللحوم

والخضروات، والسعيرات الضرورية لجسم وعقل العامل. لأن:

¹ - Éléments sur les structures socio-économiques de l'Algérie. oP. cit. P: 22.

² - IDEM. P: 21.

³ - Ch. R. Ageron. Histoire de l'Algérie contemporaine. Op. Cit .P: 43.

⁴ - A.W.O. F24 (29). Oran 27 Aout 1936.

⁵ - Jean Serra. Op. Cit. P: 21.

* مجرد ادعاءات لتبرير عدم إدماج الجزائريين المسلمين في المجال الصناعي.

⁶ - Jean Serra. Op. Cit. P: 25

- غرام واحد من الكربوهيدرات (glucides) يمنح جسم الإنسان أربع حريرات.

- غرام واحد من الدهون (lipides) يمنح جسم الإنسان تسع حريرات.

- غرام واحد من البروتينات يمنح جسم الإنسان أربع حريرات¹.

2 - الحركات الجسدية الآلية غير المُجهدة في العمل، لأن الأمم انتقلت من الثورة الصناعية في نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 إلى الصناعة الحديثة في القرن 20²، لكن القطاع الصناعي الكولونيالي بالجزائر ظل يعاني من تأخر كبير بمثله في³.

3 - اقتصار وجبات العمال الرئيسية على قليل من الخبز والكسكس، لأن ما يتقاضونه من أجر لا يمكّنهم وعائلاتهم من الحصول على وجبات مغذية. وغالبا ما لا يجدون أية فرصة لإدماجهم ضمن المجتمع العمالي⁴ بسبب مشكل الانفجار الديموغرافي التي شهدته الجزائر، والتقنيات الحديثة في الزراعة الكولونيالية التي تحتم الاستغناء عن عدد كبير من العمال وتحويل حياتهم إلى بؤس وشقاء وامتهان للكرامة الإنسانية دفعت بالإدارة الفرنسية إلى اللامبالاة في إحصاء عددهم بكل إمتهانية وعلمية واحترافية.

- **الأجور** : رغم الظروف القاسية والبائسة التي كان يعاني منها

الجزائريون، فإن المستوطنين والشركات الصناعية، رفضوا كل إصلاح تقدمت به الحكومة الفرنسية من قانون العطل المدفوعة الأجر الذي طبق في الجزائر بدءا من 20 أوت 1936، وقانون 40 ساعة من العمل⁵، بحجة عدم وجود يد عاملة جزائرية متخصصة، وأنه سيضاعف من الأزمة التي تعاني منها صناعة الحديد

¹ - Jean Serra. Op. Cit. P: 25

² - IDEM. P: 30.

³ - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op. Cit. P: 158

⁴ - IDEM. P: 158

⁵ - R.E.A. Chambre de commerce d'Alger. 5^{ème} Année. Op. Cit.

والصلب في الجزائر، لذلك سارعت فرنسا إلى إصدار مرسوم 21 أبريل 1939 القاضي ب 45 ساعة عمل في الأسبوع¹. ومع ذلك ظلت (الأجور) الأضعف بين جميع أجور العمال في العديد من الدول الأوروبية والعربية*. وأن الأوروبيين كانوا يعتمدون عدم توظيف الجزائريين المساكين² خوفا من هجومهم على المستوطنين ليلا³ لذلك لجأوا إلى اليد العاملة الإسبانية والمغربية. ولا عجب إن كتب "بيير بورديو" يحدثنا عن إسكافي جزائري أخبره أنه يوجد ثمانية بطالين من ضمن عشرة رجال قادرين على العمل. ومنذ أن دخلت الآلة إلى سعيده تعرض ثمانية رجال قادرين على العمل من ضمن عشرة أمثالهم إلى البطالة، وأن هناك من يقف طيلة شهرين كاملين في الطوابير الطويلة للحصول على عمل بسيط⁴. وأن العائلة الجزائرية كثيرة العدد، تضم في غالب الأحيان الزوجة والأبناء والجد والجدة والشقيقات صحبة أبنائهن إن كن مطلقات.

خلصت دراسة أجريت على عينة من العمال إلى أن 70 منهم أميين كليا، و10 يحسنون الكتابة والقراءة و 20 يقرؤون الأرقام، و 53 غادروا قراهم (bled) للعمل في المصانع و 47% من أصل حضري⁵، و18% يملكون منازلهم الخاصة و37% يقيمون في أحياء. وخلصت الدراسة إلى أن 79 من هذه العينة متزوجون، و16 عزابا و 04 مطلقين، و عامل واحد (01) أرمل، وأن عددا كبيرا من

¹ - عمار بوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا، دراسة تحليلية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975، الطبعة الأولى، الجزائر، ص 155.

* ظل الفرنسي يردد ويقول: "يكفيهم ما حصلوا عليه لأنهم سيطلبون بالمزيد، وإن فعلوا ذلك فهذا يدل على أن هناك شيوعيين بينهم" أنظر: Jean Serra. Op. Cit. P: 25.

² - خليفة الجندي وآخرون، حوار حول الثورة، المركز الوطني للتوثيق والصحافة والإعلام، ج 3، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، 1986، ص 296.

³ - Michel Launy. Pas d'emploi pour les indigènes. paysans Algériens. la terre. la vigne et les Hommes. le Seuil. 1936. IN. l'Histoire. N° 140. Janvier 1991. P: 67.

⁴ - Pierre Bourdieu et autres. Travail et travailleurs en Algérie. Paris. Mouton et co. 1963. Note (1). P: 268

⁵ - Jean Serra. Op. Cit. P: 21.

المتزوجين شبابا لهم 220 طفلا¹. وأن مفهوم العائلة مرسخ في ذهنية هؤلاء الجنس البشري البدائي، غير القادر والقابل للتفكير والتبلور، الذي لا يتورع أبدا عن استقدام زوجاته وأبنائه إلى أحياء الصفيح بدل تركهم لأسلوب معيشتهم البدائية² القائمة على الحياة الجماعية في الغرفة الواحدة، وانعدام نظافة المحيط، وتلوث المياه الصالحة للشرب³. والغريب أن نفس الدراسة تؤكد⁴ أن التخصص وعدم قدرة العمال الأهالي على مسايرة التكنولوجيا الصناعية لا علاقة لها بالعرق أو الدين أو ثقافة المجتمع⁵.

إننا في حقيقة الأمر نؤيد ما ذهب إليه "جورج أوفيد" عندما قال "بروليتاريا، بورجوازية، رأسمالية.. هذا بالنسبة لنا مجرد كلمات مستورة وبلا معنى...فليس عندنا طبقات ولكن سلالتين، واحدة محظوظة وتملك كل الامتيازات، والأخرى مستعبدة وتحمل كل الأعباء. سلالة مقموعة، تحدُّ من حريتهم القيود الاجتماعية، تتألم وتكدح وترى سلالة أخرى محظوظة تستولي، بلا وِخْرَاتٍ ضمير، على اعتبار عملها، وتفرض عليها أن تبقى في الجهل - الذي يُعتبر وصمة عار بالنسبة للإسلام - وتحرم من أبسط الحقوق الإنسانية"⁶ لأنها جنسا بشريا منحطا، لا يصلح إلا للأعمال الشاقة وبدون أجر، وليست جديرة إلا بالإرهاق والقهر⁷، والأمر والطاعة.⁸ والتفاني اللامحدود في خدمة الوطن الأم. يقول أحد نواب وهران في البرلمان الفرنسي. "إن تعليم القراءة والكتابة لأهل البلد يعتبر من الأشياء الكمالية

Jean Serra. Op. Cit. P: 21

² - IDEM. P: 29.

³ - IDEM. P: 29

⁴ - IDEM. P: 29

⁵ - IDEM. P: 29

⁶ - Georges Oved. La Gauche française et le nationalisme marocain. 1905-1955.

Partie2. Paris. L'Harmattan. 1984. PP 41-42.

⁷ - عمار هلال، أبحاث وآراء ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)، ديوان

المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 132

⁸ - Philippe Tripier. Op. Cit. P: 510.

وتعليم أكثر من هذا، يجعلهم في درجة لا تليق بهم" ¹ ويؤكد على ذلك مفتش التعليم الابتدائي بقوله : "لا حاجة إلى وضع تعليم شامل للجزائريين الصغار لأننا لا نود أن يصبحوا علماء مُتَعَطِّلِينَ مُرْتَبِّين في درجة لا يستحقونها لأن المناصب المرموقة محجوزة كلها للفرنسيين لا غير" ² .

3 - صناعة الفقر في المجتمع الجزائري وانعكاساته:

يعتبر الفقر من الظواهر الاجتماعية شديدة التعقيد بسبب تداخل وتفاعل عوامل مختلفة، وهي لا تقتصر على جزء جغرافي محدد، بل هي جزء من الريف والمدينة معا بتفاوت ملحوظ ينساق إلى حدود التفاوت بين الفقر في الريف الذي يكون أكثر انتشارا عما هو عليه في المدينة ، ويكون بين المتعلمين أقل منها بين الأميين. هذا إذا علمنا أن العلاقة بين الأمية والفقر أخذت طابعا عالميا، حيث لا تختلف الآراء كثيرا في هذا الاعتقاد. " فنلاحظ أن ظاهرة "الفقر المزمن" بين العديد من العائلات ترجع بشكل أساسي إلى الأمية، ونظرا لضعف تعليم الوالدين وقلة إدراكهم لأهمية التعليم، أو عدم امتلاكهم الموارد التي تسمح بتوفيره لأبنائهم... فإن الأولاد يكونون أيضا غير متعلمين ، ما يعزز استمرار ظاهرة الفقر من جيل لآخر ضمن العائلة الواحدة." ³

وهو أيضا مكسور الفقار . والفقار عظم الظهر ، والدخل الذي يحصل عليه الفرد عندما يكون مقيدا في قوائم الإعانة الاجتماعية بسبب الحاجة والعوز وحالة من لا تكفيه موارده. أو بسبب عدم قدرته على تحقيق مستوى من المعيشة المادية والحد الأدنى المعقول والمقبول في مجتمعه في فترة زمنية محددة . ويفسر الفقر بما يتبع ذلك من تناقضات في العلاقات التي تملك والتي تكون مجبرة على بيع ممتلكاتها وبيع عملها الذي تتحكم فيه الطبقات التي تحوز على وسائل الإنتاج في

1 - الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، موفم للنشر، الجزائر، 1993، ص 20

2- المرجع نفسه.

3 - المرجع نفسه، ص 22.

المجتمع. و قد ذهب الدكتور عبد الرزاق الفارس إلى أن للفقر مكونان مهمان لابد من أن يبرز في أي تعريف لمفهوم ه، وهذان المكونان هما مستوى المعيشة الذي يزيد من القلق الزماني¹ والحق في الحصول على حد أدنى من الموارد. ومستوى المعيشة يمكن التعبير عنه بالاستهلاك لسلع محددة مثل إنفاق الأسرة وتحديد حجم استهلاكها² لأي سلعة، واحتساب معامل تشارك الأسرة في بعض السلع مثل مكان إقامة الأسرة، والطعام، والملابس، والأحذية، وأدوات النظافة المنزلية والشخصية، والاتصالات، والخدمات الصحية، والمواصلات... التي تمثل الحاجات الأساسية للإنسان³ وتسمح بتصنيف أي فرد لا يحققها ضمن دائرة الفقر. أما الحق في الحصول على الحد الأدنى من الموارد، فهو لا يركز على الاستهلاك بقدر تركيزه على الدخل، أي الحق في الحصول على هذه الحاجات أو القدرة على الحصول عليها. وليكتمل قياس الفقر بمعناه المادي يجب أن نضيف إليه ببعض مؤشرات الإنسانية الاجتماعية الأخرى مثل نسبة الأمية، وأساليب التربية المنتهجة، وحجم الأسرة، وفرص التفاعل الإيجابي المتوفرة في ها، وعدد العاملين والمُعَالين فيها باعتبار أن " حجم الأسرة التي تعيش تحت سقف واحد يتناسب تناسباً عكسياً مع معدل استهلاك الفرد ودخله... ورغم أن صحة هذا الرأي لم تثبت بعد بصورة قاطعة، فالمفترض عادة أن أفراد الأسرة المعيشية الكبيرة وأعمارهم الصغيرة في الغالب هم من أفقر الناس. وفي حال الأسر الفقيرة، فإن حجم الأسرة الكبيرة وبالتالي وجود أسرة معيشية كبيرة الحجم، يؤدي إلى الاكتظاظ والأحوال المعيشية غير الصحية وتردي نوعية الحياة"⁴، ويزيد من معدل وفيات الأطفال الرضع،

¹ - Jean Lebens. "sociologie de la pauvreté". édition Gall iman. paris. 1978. P: 74

² - إن حدود الاستهلاك هي محور التفضل الذي يحدد خط الفقر باعتبار أن الموت وقلة التغذية يُسببان الحرمان المادي.

³ - حاجات مادية مثل الطعام والسكن والمرافق العامة والملابس والمياه المأمونة النظيفة ووسائل التعليم والصحة خاصة نسبة ناقصي الوزن من الأطفال دون سن الخامسة، والحماية الاجتماعية، وتركيب الأسرة العمري والنوعيو حاجات غير مادية مثل حق الحرية الإنسانية و العدالة الاجتماعية.

⁴ - Blandine Destremau et Pierre Salama. Op. Cit. P: 71

وتوقع الحياة عند الميلاد، ومعدل الالتحاق بالمدرسة، والتكوين العمري والنوعي، والحاجة إلى الاقتراض أو التسول الذي لا يسمح لأي حراك اجتماعي لها، والتعرض لمخاطر العنف والكوارث والانتزاع من المدرسة ، وعدم قدرة الشخص على إسماع صوته وانعدام حيلته، وانعدام الحريات المدنية و السياسية¹.

إننا حين ندرس للأوضاع الاجتماعية للجزائريين في عمالة وهران، نكتشف بدون عناء أن مجموعة المؤشرات المعتمدة في قياس ظاهرة الفقر متوفرة فيهم منها نسبة الأفراد الذين تحتل وفاتهم قبل سن الأربعين بسبب الحرمان من القدرة، والجهل وتدني الحالة الصحية، وارتفاع نسبة البطالة الطويلة المدى التي تصل إلى 12 شهر أو أكثر² و مستوى وفيات الأطفال دون خمس سنوات ضحية لسوء التغذية والنقص الحاد في كمية السرعات الحرارية التي يجب أن يحصل وا عليها، والبقاء على قيد الحياة إلا لمدة قصيرة . فسوء التغذية يهاجم طاقات الأفراد وأجسامهم ويقصر من حياتهم . والجهل الذي تتحمل النساء والفتيات العبء الأكبر من الفقر ، يغلق عقولهم ويقفل مستقبلهم، والأمراض تهاجم أطفالهم، والقذارة والتلوث تحيط ببيئتهم.

رغم ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية الصعبة والقاسية، كان إقبال الأهالي على الجمعيات الخيرة التي أنشأها المعمرون قليلا وغير مشجع لأسباب عديدة. منها حساسية المجتمع الجزائري التي لم كن يرى في هذه المشاريع مجرد أعمال خيرية، وعدم تجاوب وتعاون النخبة التي تمثل هذه الشريحة من المجتمع³، وضعف مستوى وتكوين وخبرة المنتخبين المحليين وعجزهم عن القيام بالمهام التي توكل إليهم، لأنهم لم يُستدعوا للمشاركة فيها. والظروف المالية الصعبة التي تعاني منها ميزانية دوائر وبلديات عمالة وهران. منها على سبيل المثال دائرة سيدي بلعباس التي كانت

¹ - المرجع نفسه، ص 165.

² - Blandine Destremau et Pierre Salama. Op Cit. PP: 90-95

³ - A.W.O. Rapport: L'Organisation Familiale en Oranie . Op. Cit. P : 04.

تعاني من النمو المضطرب لسكانها، وعجزها عن تقديم أي مساعدات للقيام بالنشاطات الاقتصادية والاجتماعية لمجتمع ي عاني من الأمية وعدم القدرة على تحقيق الحد الأدنى من مستوى المعيشة التي تمكنه من ا لتجاوب مع الشروط الأساسية للمجتمع المتحضر، وإشباع الحاجات المختلفة¹. لأن الفقر والتمييز والظلم والاستبعاد الاجتماعي الذين يلزمون أفرادها ولا يسمحون لهم بتحقيق غاياتهم. يحولون دون مشاركتهم في صنع القرار وفي الحياة المدنية والاجتماعية والثقافية²، وإشباع حاجاتهم الأساسية للمحافظة على بنائها المادي والنفسي والاجتماعي . فتطغى على هذه الأسر عدة مشاكل اجتماعية مثل التفكك الناتج عن عدم قدرة رب الأسرة على تحمل المسؤولية والتي تؤدي بدورها إلى اللجوء إلى نزول الأطفال إلى مجال العمل وترك الدراسة لمساعدة سد احتياجات الأسرة من مأكّل وملبس ، وانتشار الجرائم مثل القتل والسرقات التي أثارّت مخاوف "سوستيل"، واضطرته ليصرح عند زيارته لوهران في شهر مارس 1955 قائلاً: "تمر الجزائر في هذه اللحظات بفترة قلقة بحيث أن هذه الوضعية تعطينا درساً، لذا يجب أن نكون محتاطين ومُتّحدين لكي نحقق سلامة فرنسا"³ بوضع مخططات تكون من أولوياتها توفير الخبز والعمل لكل بطل بفضل الاستثمارات التي حظيت بها الجزائر في برنامجها!⁴.

إن ما يصدّم الدارس هو هذا الوبّ الشاسع بين أقلية من السكان سريعة الثراء تعيش في بحبوحة من العيش وحياة مادية مترفة⁵. تمارس وظائف متعددة، وغالبية السكان المتكونة من الب روليتارية الريفية والحضرية المحلية، الأفقر في

¹ - عبد الرزاق الفارس، مرجع سابق ، ص22

² - عبد القادر العلمي، مرجع سابق، ص 13.

³ - Jacques Soustelle. Op. Cit. P: 84.

⁴ - La Dépêche Oranaise. N° 3819. Samedi 5 Mars 1955. P: 01

⁵ - P. Berthault. Op. Cit. P: 09

العالم¹، المقيمة في أحياء الصفيح و البراريك وأكواخ وأعشاش بنيت في عفوية فوق قطع أرضية مهجورة بطرف المدينة. يحاول أصحابها من خلالها تعويض الكثير من الحرمان، لأنه م يعيشون على الحد الأدنى الضروري للبقاء، والتكشف والكفاف والبؤس والعناء والفقر والعوز والحرمان والموت الملازم لها. تسعى إلى اللقمة بألف سبيل وسبيل. منها الحمالون، وفيها اللصوص، والعاهرات والخادمت لدى الأسر المرفهة.

كانت "الضحية الأولى الشعب الجزائري"² الذي لم تكمن مشكلته يوما في النظافة والوقاية الصحية كما ادعى الأوروبيون، وإنما كانت مشكلته الأساسية تتمثل في تحطيم معنوياته والدوس على كرامته، وفي الجوع الذي عجز عن التخلص منه. لهذا لم يستعرب الفيلسوف الجزائري السيد "قريبع نبهاني" من سلوك الكولون الذين لم يقدموا المساعدات للمتشردين والمحتاجين الجائعين³ من بني جلدتهم، فكيف يقدمونها للمسلمين الجزائريين؟! الذين لم يكن يصلهم إلا الفتات من المخصصات المالية التي يمنحها الميتروبول إلى الجزائر مما يجعل مستواهم المعيشي في انخفاض مستمر⁴.

استمرت معاناة الجزائريين من شبح الفقر المزمن والتشرد والضياع والمجاعة التي تسحب أصحابها بألم وقسوة وعنف نحو الوفاة، لأنهم لا يملكون شيئا إلا الأجر المؤقتة، المتدنية والمهينة التي لا تمكّنهم من ضمان القوت اليومي لعوائلهم الكثيرة العدد التي تعيش على جذور الأشجار كطعام، أو تدخل في صراع مع الكلاب حول فضلات طعام الأوروبيين. وإن حالفهم الحظ فالقليل الموجود من

¹ - Nadir Marouf. Statut de la paysannerie à travers l'évolution Socio-juridique des structures agraires. IN . Congrès Internationale de sociologie. T III. Alger. 1975. PP: 312-313.

² - Bouba-Mohamedi Tabti. Op. Cit. PP: 112-113

³ - Nabhani Kouriba et autres. Op. Cit. P: 98

⁴ - Anonyme. « Conclusions générales du rapport présenté au nom du Conseil Economique. Op. Cit.

خبز الشعير وحبّات الذرى والماء والتمر أو العنب¹، وقليل من الحبوب تمنحه السلطات الاستعمارية إلى خمسة من أفراد العائلة الواحدة دون أن تمنحهم حق الضمان الاجتماعي في عملهم² الشبيه بنظام العبودية. وأكل اللحوم إلا في الأعياد، والاستغناء عن التين والحليب والبيض والقهوة والسكر، ووضع الماء بدل الزيت في الطعام. لباسهم على الدوام أسمال بالية وثياب رثة. وذنّبهم الوحيد أنهم ولدوا في بيئة عائلية تقليدية حرمتهم فرص العمل والتطبيب والتعليم والتكوين المهني التي تساعدهم على خلق ظروف اقتصادية جديدة تساهم في بلورة وتحسين مستواهم المعيشي³، أو تمكنهم من الاستفادة من الإصلاحات التي نادى بها السلطات الاستعمارية. إنها ضريبة باهظة لإبعاد الجزائريين المسلمين عن ممارسة السياسة والمطالب الوطنية وعدم الانخراط في الأحزاب الوطنية للمطالب بتحسين الأوضاع الاجتماعية والمعيشية والحقوق السياسية المتمثلة في الكرامة الإنسانية والاستقلال التام للجزائر. بل وسيزيد بسرعة كبيرة وسريعة من الهوة والبون الشاسع بين الأهالي والمستوطنين الأوروبيين⁴، وتجعل أحد الفرنسيين يصرخ قائلاً: " لقد كنت خجولا من كوني فرنسيا"⁵.

3- 1 - الأطفال الجزائريون (عمالة الأطفال):

كان العهد الاستعماري أسودا قاتما، فرض على الجزائريين منذ الولادة إما الموت في حرب لفائدة فرنسا، أو الخمول في دواويرهم كرعاة غنم أو خماسين يقنعون بخمس محصول الفلاحة. فلا وجود لمدرسة إلى غاية الثلاثينات، ولا مستوصفا ولا طبيبا ولا منشآت ولا ماء ولا كهرباء. فكان بعض الشباب يبتدئون بحفظ القرآن الكريم عند الطالب. ومن أسعفهم الحظ وتوجه إلى المدرسة. يقول

1 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 189.

2 - أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مرجع سابق ص 131.

3 - Jean Serra. Op. Cit. P: 13

4 - Bouba-Mohamedi Tabti. Op. Cit. PP: 112-113

5 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 189.

هنري علاق: "في منتصف النهار عوض أن نذهب إلى منازلنا كنا نتغذى كنا في المطعم المدرسي. كان نصيبي من الأكل مغرفة من الحمّص¹ وغالبا ما كنا نعاني من الجوع لذلك كنا نضطر إلى البحث عن الطعام في النفايات، وإذا أسعفنا الحظ وحصلنا على أوراق القُرُون، كنا نتخذها طعاما لسد رمقنا²، "نجلس على جهة خاصة ونأكل في صحون حديدية ويجلس أربعة منا على مقاعد خشبية في حين كان زملاؤنا الفرنسيون يأكلون في صحون فخارية، ويجلس كل فرنسي على مقعد واحد"³. وهذا ما جعل الأطفال يرون في المدرسة العمومية مضیعة للوقت، فكان الكتاب مفضّلا عندهم إلى سنّ معيّن. وهمهم الوحيد العمل في الحقول ورعي النّعاج العجاف وبعض الماعز وجمع الحطبّ اليابس من الغابة للمطبخ، واقتلاع جذور الدوم لاقتباس المادة الخام للحصير وجمع الحلفاء من الغابة، والتقاط ما تبقى من الجوز أو الزيتون بعد جني محصول الفلاحة لبيعها لتجار القرية، وبيع الأكياس في الأسواق وحمل القفّ. حوّل الكثير منهم إلى ماسح للأحذية، والتسوّج والعمل في المقاهي⁴، والعمل خادمت في البيوت.

كان لزاما على الذكور ممارسة أسوأ أشكال عمل الأطفال، والمساهمة في آلية دعم اقتصادي لدخل العائلة الفقيرة دون أن يكون لهم أي اختيار⁵. وبموجب علاقات قسرية تشبه الاستعباد والاتجار بالبشر. يكون العمل مكوّنًا من جميع

* إلى غاية 1952، لم تُبنَ في مجموع دواوير بلدية ندرومة خلال خمس سنوات سوى مدرسة واحدة، وقسم واحد في دوار الحوانت، ولم تُبنَ أيضا بمدينة سيدي بلعباس سوى ثمانية أقسام، وقسمين في سفيزف وقسم في تلاغ، وقسم بأولاد ميمون أنظر: A.W.O. Boite 6988. Rapport sur les constructions scolaires de la commune mixte de Nedroma. Le26/05/1952 & A.W.O. Boite 6988. Rapport sur les constructions scolaires de la commune mixte de Nedroma. Le 26/05/1952.

¹ - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 20.

² - Henri Allege et d'autres. La guerre d'Algérie. T II. Paris. Temps actuels. 1981.. P: 179.

³ - Fanny Colona. Op. Cit. P: 132

⁴ - بسبب عدم قدرة الأهل على تلبية مصروفات التعليم الذي يتعتبر عبأ اقتصادياً.

⁵ - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 21.

الأنشطة لليد العاملة خاصة في مزارع الأسرة كـ "تضامن أسري". فيتعرضون جميعا (الفتيان والفتيات) بشكل مضاعف إلى مخاطر الاستغلال والعنف والمعاملات المأساوية اللاإنسانية ، ويصبحون عرضة للأمراض المعدية خاصة إذا توفرت حوافز الطلب في أسواق العمل والتي يمكننا إجمالها في:

أ - **الثقافية:** كمهنة الأب، ومستوى تعليم الوالدين ، و النظرة الدونية إلى التعليم الذي تعتبره عبأ اقتصاديا . وقصور متابعة الآباء للأبناء، وحجم و ضعف مستوى الأسرة ودرجة تماسكها. وعليه ينشأ الطفل في هذه البيئة نشأة اجتماعية، صعبة، حتمية، وتقريبا مطلقة¹، تجعله يعاني من مركب النقص والدونية، وتتعكس على تكوينه الأيديولوجي . ولعل هذا ما يفسر كثير من مشاعر النقص والانحراف والدونية التي توحى لها وجوه بعض الأطفال من الأسر ذات المستوى المعيشي الضعيف. وحتى لا يتطور هذا العنف إلى تمرد، أصدرت فرنسا قانون 10 أوت 1942² الخاص بمنحة الامتحانات الخاصة بشهادة الدراسات الكلاسيكية وشهادة الدراسات الحديثة المتطورة ، وذلك بدفع رسوم الامتحان المقدرة بـ 40 ف مع إعفاء فئة التلاميذ الحاصلين على حقوق المنحة. فكان بإمكان العائلات المسلمة الميسورة تسديد تكاليف مستحقات الامتحان، والتقدم في المدارس الفرنسية³ دون عناء مادي ، أما الابن من العائلات ذات الدخل المحدود والظروف الاقتصادية الصعبة، والتي يحظى أبناؤها بمنحة التمدرس مع إعفائهم من دفع رسوم الامتحان، فإن الفرنسيين كانوا على علم بأنهم كانوا ملزمين بممارسة

¹ - blandine destremau et pierre salama. Op. Cit. PP: 122-123.

² - M. Janier Emille. Les medersas Algériennes. Centre de hautes études d'administration musulmane. 14 mai 1948. P: 17.

³ - إن ثلاثة أرباع من الداخلين الفرنسيين في الثانويات والمدارس الابتدائية في ربوع الأراضي الفرنسية يتحملون تكاليف غذائهم، و لا يوجد إلا ربع له الحق في المنحة. ويطلق على هؤلاء في فرنسا "رؤوس الأقسام". أنظر: M. Janier Emille. Op. Cit. P: 25.

مهن هامشية أخرى¹.*

ب - ال نفسية: الإحساس بلإحباط والانعزال، والمشاركة في تحمل العبء

الأكبر داخل الأسرة لكي يُوقّر لها متطلبات الحياة اليومية. يترتب عن ذلك سوء إشباع حاجات الطفل النفسية، وظهور مجموعة من المشكلات الاجتماعية تواجهه يوميا، تجعله في حالة عدم انسجام وتوازن في علاقته بالمحيطين معه، وتجاوبه معهم.

ج - الإدارية: مثل موقف الوسط الإداري منه، ومنعه من تكرار السنة²،

وعدم الإحساس بالحب والتقدير والاحترام من قبل عناصر المجتمع المدرسي حيث يبقى

الطالب قلقاً متوتراً فاقداً الأمن النفسي . يقول أحد الطلبة أنه عندما أراد الالتحاق

بالمدرسة الابتدائية، اضطر والده إعطاء مديرها³ البيض والديكة كهدية أثناء مرافقة ابنه. أما عندما انتقل إلى المرحلة الثانية من التعليم، فلم يجد الوالد مصاريف الإقامة مما اضطره إلى بيع رأس ماله الوحيد المتكون من بقرة امتلكها منذ ثلاث سنوات لشراء الأدوات المدرسية وسدّ نفقات الدراسة. وبما أن هذه المدرسة كانت الوحيدة في المنطقة التي تفتح أبوابها أمام الجزائريين، فقد اضطر الوالد مرة أخرى إلى تقديم كيس من التين إلى السيد المدير. ويسترسل الطفل في وصف ظروف تدرسه ليؤكد بأن سرواله المرّقع حال دون خروجه من المدرسة يوم الأحد ولو لفترات قصيرة لرؤية المدينة⁴.

د - الاجتماعية : منها ضيق أماكن السكن، وازدحامها بالأفراد، وتكاليف

المدرسة المستحيلة بالنسبة لمجتمع يعاني من شدة الفقر المدقع، زادت حدة بعد

1 - هي إمتداد لظاهرة سوق العمل غير النظامي.

* - بقول أحد الطلبة بأنه حصل على منحة، ف خصّص جزءا منها لكراس سكن ، والجزء الآخر للمأكل والمشرب وشراء الكتب الخاصة به، واضطر إلى مزاوله حرفة مكمله. أنظر: Henri Allege et d'autres. Op. Cit. P: 179

² - Charles Robert Ageron. Histoire de l'Algérie contemporaine. Op. Cit. P:538.

³ - Henri Allege et d'autres. Op. Cit. P: 97.

⁴ - Henri Allege et d'autres. La guerre d'Algérie. Op. Cit. P: 179.

المدارس عن منطقة السكن. لأن الطالب الجزائري لم يكن يجد: "مأوى إلا بصعوبة، ولو وجد لفرضت عليه أسعار فاحشة في بعض الفنادق لبعض العائلات المعروفة. فمن ترى كان يرضى بتأجير غرفة لمن كانوا يسمونه من قبيل الاحتقار والازدراء LES BICOTS"¹ وفي غالب الأحيان كان مؤجرو الغرف يرفقون عروضهم بشرط عنصري اعتبرته الإدارة الفرنسية سلوكا وممارسات فردية "هنا لا يقبل المسلمون"². إضافة إلى النظرة المتخلفة والدونية إلى تعليم الإناث لدى المجتمع الجزائري التي تدلُّ على حضور قيم اللامساواة الجنسيّة وإرادة الإبقاء على وضعيّة المرأة على ما هي عليه وترسيخ قيم الجنسانيّة والتمييز، وانتشار الكثير من الأمراض المعدية الكوليرا والحمى الصفراء وغيرهما.

هـ - الاقتصادية: نقصد بها الحاجيات التي يفرضها الوسط القروي على الآباء الذين يعطون أسبقية لموسم الحصاد والعمل في الضيعات ورعي الأغنام، وأعباء المصاريف المالية التي تجاوزت القدرات المالية للعائلات الجزائرية، واضطرارها إلى دفع الأبناء إلى أشغال إضافية للتخفيف من الفقر. مما يؤدي بالضرورة إلى الشعور بالتوتر الانفعالي، وعدم الارتياح، وعدم القدرة على التعامل معهما. إضافة إلى قلة المخصصات المالية في الموازنة الحكومية الفرنسية لقطاع التربية والتعليم³ الذي أدى إلى ضعف كفاءة العملية التربوية والتعليمية وبالتالي تعرض الأطفال في هذه المرحلة إلى مخاطر كبيرة يمكننا إجمالها في ما يلي:

- العنف الجسدي من قبل أصحاب العمل، لأن تاريخ الاستعمار هو تاريخ العنف.

- الحصول على الأجور الزهيدة عن ساعات أو أيام عمل طويلة وشاقة.

¹ - غي بارفلي، النخبة الجزائرية الفرانكفونية (1900-1962)، تر: محمد سعدون وآخرون، دار القصة، الجزائر، 2007، ص 77.

² - المرجع نفسه، ص 95.

³ - Anonyme. « Conclusions générales du rapport présenté au nom du Conseil Economique. Op. Cit.

- انتشار ظاهرة الانحراف مثل السرقة والتدخين والمخدرات والعنف،

المرتبطة بظاهرة ارتفاع نسبة الفقر¹، وهذا ما أطلق عليه فرانسوا بيرو سنة 1955 "أثمان البشر: التغذية، الصحة والتربية"². وبقصد بذلك حالة فقدان المعايير التي تنشأ حينما يشهد النظام الاجتماعي العام ضربا من التفكك و الانحلال بسبب عدم إخضاع طموحات الناس وبطلعاتهم لمتطلبات النظام الاجتماعي الجمعي . فالمصدر الأساسي لحالة فقدان المعايير هو ذلك التوتر القائم بين السلطة الأخلاقية المجتمعية وبين المصالح الفردية . وفي هذا المجال يتحدث أحد الطلبة الجزائريين المسلمين عن اضطراره إلى مزاوله حرفة مكملة ليتمكن من متابعة دراسته الابتدائية³، لم يكتف الاستعمار الفرنسي بذلك، بل سعى إلى ابتلاع كل ما يرمز إلى الجزائر من المحيط الاجتماعي⁴، والتغيير العمدي المشوه والممسوخ للمعالم الثقافية الجزائرية، وبناء محيط اجتماعي⁵ وثقافي جديد ودخيل وغريب عن المجتمع الجزائري. يطمس جميع معالم الهوية الوطنية ، و يبتلع كل آثارها من المحيط الجزائري، ويحرف تاريخ الجزائر المجيد لنقلها من الطابع الشرقي إلى الطابع الغربي⁶ المسيحي، ويخلق في وجهها أي منفذ قد يتسلل منه إشعاع المعرفة والعلم والوعي السياسي والفكر الإسلامي بمختلف فنونه، وهذا ما نلمسه جليا في تغيير أسماء المدن والشوارع. وتعويضها بأسماء معروفة رومانية وفرنسية، ذات سمعة مسيحية أو تاريخية مثل: بلديات Mercier Lacombe و Baudens و Chanzy، و Rochambeau و Boukhanefis و Parmentier و Bedeau و شارع Molière، و شارع Jules-Ferry ، و شارع Lafontaine ، وطريق Lord Biron ، وطريق

¹ - Blandine Destremau et Pierre Salama. Op. Cit. PP: 127-128

² - IDEM. P: 71

³ - Henri Alleg et d'autres. Op. Cit. P: 179.

⁴ - خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، تر: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 27.

⁵ - المرجع نفسه، ص 27.

⁶ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، مرجع سابق، ص 70.71.

Verdun ، و Place Mangin ، ومدرسة Marceau ، و Victor Hugo ، و Turgot ، و Saint- Exupery¹.

لم يسلم قانون الألقاب العائلية الفرنسي (نظام الحالة المدنية) الصادر بتاريخ 23 مارس 1882²، الذي يجسد القناعة والشعور بالميول السادية، ويُعتبر واحدا من كبيرة الكبائر، بل و "لعنة البشرية" كما قال "مفدي زكرياء"³ و "عار الاستعمار" أو "القهر الاستعماري"⁴ والجريمة الحضارية التي استهدفت مسخ الجزائريين، و"تجريدتهم من جنسيتهم، وجعلهم "صلصالا في يد صانع الآنية"⁵، وتحضيرهم للانصهار في الجنسية الجديدة⁶.

إن هذا القانون المصاغ من قبل أفراد اعتقدوا أنهم أذكىء بطبيعتهم، سيظل من أبشع جرائم الاحتلال الفرنسي التي ارتكبتها في حق الشعب الجزائري وفي الهوية الجزائرية من خلال إجباره على تغيير أسمائه التي كانت في أغلبها ذات دلالات دينية أو اعتقادية⁷ (محمد، إبراهيم، يوسف، زواوي..)، أو دلالات طبيعية (خضرة، وردة، زهرة، فلة)، أو دلالة تاريخية (عبد القادر وصنهاجي وبوعلام⁸ وفتيحة⁹)*. و استبدالها بأسماء ذات اشتقاقات وأوصاف متعمدة. هجينة، وبشعة،

1 - تقع جميع هذه البلديات والشوارع والطرق والساحات والمدارس بسيدي بلعباس.

2 - ألغي في الجزائر سنة 1966 بمقتضى الأمر رقم 307/66 المؤرخ في 1966/10/14.

3 - مفدي زكرياء، اللهب المقدس، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ط 2، الجزائر، 1973، ص165.

4 - عبد الله العروي: الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1995، ص

17.

5 - أريك فروم، الخوف من الحرية، مرجع سابق، ص 119.

6 - شارل روبيير أجيرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا، ج 1، 1871-1919، المنشورات الجامعية الفرنسية، باريس، 1976، ص 343.

7 - لجأت إلى هذا المصطلح لإعتقاد المجتمع بكرامة أولياء الله الصالحين، وتسمية أبنائهم بأسمائهم تيمنا بهم لأسباب متعددة.

8 - فرحة بحمل العلم الوطني خلال الثورة الجزائرية

9 - تيمنا بالانتصار على الفرنسيين، شهادة: فقير ميهوب.

* تيمنا بالاستقلال الوطني

ومشينة، ونايية، ودينية، وأحيانا ذات دلالات جنسية¹ مدمرة نفسيا وفكريا، وحقيرة كحقاتها حتى إنه يتعدّر التلفظ بها. تمارس حربا نفسية محسوبة على الجزائري المسلم، وترسخ في نفسيته صورة محقّرة لما يجب أن يكون عليه، وترسم صورة كاريكاتورية قاتمة ومختلة ومضلّلة لتراث وحضارة المجتمع الجزائري بكل أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وحتى البيولوجية، وتكرّس الإحباط وال فشل الناجمين عن هزيمة الجزائريين أمام فرنسا قصد تهجينهم وتقدير واقع تأخرهم التاريخي، وعدم إيقاظ وعيهم لتشخيص أعطاب "الأنا" أو إبداء أي مقاوم للاستعمار الفرنسي. "والغاية من ذلك مسخ الأهالي وتحطيم معنوياتهم وتفكيك نظام القبيلة، لتسهيل الاستيلاء على الأراضي، وإبراز الفرد كعنصر معزول ، وتغيير أساس الملكية إلى الأساس الفردي بدلاً من أساس القبيلة، وطمس الهوية العربية الإسلامية"². فتبدأ "في أخذ معنى اجتماعي تحقيري، فينجح التمييز... إلى السخرية والتحقير، معتمدا... على اللغة الحاصرة للآخر. إن هذا هو الأساس التاريخي لسخرية الفرنسيين... يحقرون من شأن ما هو جزائري وعربي، في القول والعمل والتقاليد والأزياء والمحيط. فصوروا كل ما هو عربي مسلم: مضحك وكائن قبيح، ناقص، غير صالح للتطور. ومن ذلك قولهم: "الطبع العربي" و "العمل العربي" و "القوربي العربي" و "البقرة العربية" و "التين العربي أو البربري"³، تكاثر الشحاذين و المتسولين الذين هم تحت راية محمد. وكثيرا ما كان ذلك التشويه مُتعمداً وخاضعا "لنزوات الكتاب في البلديات الأثر الأكبر في تحريف أشكال نقل الأسماء المشروعة"⁴.

¹ - لا تزال بعض العائلات في الغرب الجزائري تحمل ألقابا تحمل التسمية الصريحة للأعضاء التناسلية، وقد تعدّر علينا كتابتها لما فيها من حرج كبير.

² - مقابلة أجراها الدكتور جمال يحيوي مع "العربية نت"

³ - صالح بن القبي، مآسي اللغة العربية طيلة الاحتلال الاستعماري ومآثرها، اللغة العربية، عدد ممتاز، المجلس الأعلى للغة العربية، 2005، ص 211.

⁴ - شارل روبير أجيرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا، ج 1، مرجع سابق، ص 343.

إن الواقع يؤكد بأن ثقافة أصحاب الأقدام السوداء¹ تجاهلت وأُنكرت قيم المجتمع الجزائري. ذلك أن الاستعمار حين غزاه، كان يعرف "القيمة الطبيعية" الكامنة في أفراده مثل الشجاعة والأخلاق والإحساس بالقوة والإيثار والعدالة بمنتهى الكرامة الشخصية²، والتضحية بالمصلحة الشخصية في سبيل العائلة التي تمثل الحصن المنيع لحماية قيم الآباء وتقاليدهم³. وضبط النفس والعرف والعادات والتقاليد التي تنتشر القيم العميقة التي تحمي الأهالي من هيمنة فرنسا⁴ الصليبية المسيحية والذوبان في ثقافتها. والدين الذي يمثل وحدة المجتمع ويحمي هويته من العدوان والانتقاص⁵ والتلاشي والذوبان في الحضارة الغربية. كل ذلك شكل الحصن المنيع الذي يحمي الفرد من الانحراف، والأمة الجزائرية من الانهيار. وجعلته يعتز بلغته ويحب وطنه ودينه وعلماءه الذين حملوا لواء نبذ الأفكار والقيم التي حاول الاستعمار الفرنسي غرسها من أجل طمس الهوية الوطنية حتى بعد رحيل المحتل⁶. أصبحوا مجردة أسطورة في الفكر الفرنسي سواء كان هؤلاء مرابطين أو إصلاحيين لأنهم جُنْدٌ يخدمون الإسلام والعروبة في بلد الجزائر⁷، ولأنهم يتحكمون في الخطاب الثقافي الديني الذي جعلهم يقفون درعا منيعا أمام تأثير الثقافة المسيحية الفرنسية التي جعلت من احتلال الجزائر مهمة سامية، وواجبا مقدسا في جملته إنسانيا عميقا⁸، مدفوعا بعناية إلهية باركت أعمالهم وكانت ستؤدي حتما إلى إثارة

¹ - فرانس فانون، مرجع سابق، ص 19.

² - A.Casset. Op. Cit. P: 198.

³ - Lettre du Maire de Mercier Lacombe au s/préfet de SBA. DU 14/01/1943.

⁴ - NADIR Marouf. Identités culturelles et identité nationale. In quotidien d'Oran du 18/09/2006. N° 3573.

⁵ - أحمد محساس، التعليم والثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، مجلة الثقافة، عدد 84، يناير- فبراير 1985، ص ص، 57-67.

⁶ - عبد القادر فضيل، محنة اللغة العربية في فترة الاحتلال الفرنسي ومعاناتها بعد الاستقلال، اللغة العربية، عدد ممتاز، المجلس الأعلى للغة العربية، 2005، ص 253.

⁷ - Ali Merad. Regards sur l'enseignement des musulmans en Algérie 1880-1960. In confient. Juin-Juillet 1963. P: 306

⁸ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، مرجع سابق، ص 17.

الفتن الداخلية والخلافات القبلية والعشائرية بغية تمزيق الأمة، وتفكيك البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري أكثر مما تسعى إلى توحيده¹.

يعكس الجزائري المسلم/لأندينا في الأنثروبولوجيا الكولونيالية محاولة المستعمر تكريس حالة النفي مع المستعمر الأهلّي في محاولة منه للتدليل على دونيته وعدم امتلاكه القدرة وتقرير مصيره في الجوانب كافة. لأنه يعاني قصورا عن التمتع بالاستقلال². ونذلا وعاجزا عن التصرف بمفرده³. يمثل مجرد أجسام مترهلة لا تشبه شيئا من الأشياء، وكتلة سمراء متكاسلة مستلقية تحت الشمس⁴. يقتدي بأجسادها في الاكتفاء بأسلوب حياة متواضعة. يميل إلى الكسل*⁵، ويفتقد إلى أسس المدنية وغير قابل للتطور ولا يستطيع الفرار من هويته لإيمانه الأعمى بالقضاء والقدر⁶. وقد جاء في توصية سيدي بلعباس المشهورة أن أغلبية الأهالي يتكونون من عرب مقاومين للتطور الاقتصادي،

¹ - Mostefa Bouchentoufe. La société Algérienne en transition. OPU. 2004. P:19.

² - Charles André Julien. Histoire de l'Afrique du nord. Tunisie. Algérie. Maroc : Des Origines à la conquête arabe. Payot. Paris. 1956. P: 49.

³ - اعتمادا على هذه الأوصاف العنصرية المخلة بالإنسانية، سنت فرنسا القوانين الاستثنائية لتحكم الجزائريين بالحديد والنار. ولا يسعنا هنا إلا أن نشير إلى ما قاله رئيس وزراء فرنسا سنة 1892 عن المعمر الفرنسي الذي جاء بمهمة تمدين الجزائريين: "لقد فحصناه... ووجدنا أنه محدود للغاية، ومن المحق أنها ليست القدرة الذهنية هي التي تسمح للمستوطن أن يصبح المتحكم، ولو إلى حد محدود في مصير الأهالي وهو لا تنقصه الفضائل، إن له كل فضائل العامل المجد والوطني ولكنه لا يملك ما يمكن أن يسمى فضيلة الحاكم". أنظر: جوان غليسي، مرجع سابق، ص 22.

⁴ - فرانز فانون، مصدر سابق، ص 18.

* بفعل الكتابات الفرنسية الإستعمارية العنصرية، ارتبطت صورة الجزائري بكل أنواع السخرية في مخيلة الفرنسي. فهذا جزائري كسول عاطل عن العمل، دخل إلى المكتب الوطني الفرنسي للشغل وخاطب الموظفة: من فضلك يا مدام، أبحث عن عمل فهل لديكم شغل لي؟ بالطبع- أجابت الموظفة- سنجد لك قريبا عملا مناسباً حيث ستتقاضى أجره مرتفعة وسنجد لك حتى السكن بالقرب من مكان عملك! هل تتهكمين علي يا مدام؟ نعم لأنك أنت الذي بدأت بالتهكم مني!! إنها صورة المتهم والمستفز بالجزائري المتبطل الكسول الذي لا يكلف نفسه عناء البحث عن عمل بل "يطمع" دائما في العيش على الإعانات الاجتماعية!. وأخرى تقول: "دخل محمد إلى المكتب الوطني للشغل، وتوجه نحو الموظفة قائلاً: أبحث عن شغل من فضلك يا مدام، لدي تسعة أطفال فقاطعته الموظفة: وهل تعرف القيام بشيء آخر غير هذا؟". أنظر: حسن نرايس، الضحك والآخر.. صورة العربي في الفكاهاة الفرنسية، مجلة العربي، عدد 474، وزارة الإعلام، الكويت، 1998/05/28.

⁵ - La tribune de Bel Abbés. Du 20/06/1941. N° 9741.

⁶ - Jacques Berque. Le Maghreb entre deux guerres. Paris. Le seuil. 1962. P: 45.

الاجتماعي، الثقافي الأخلاقي الضروري لتكوين دولة¹ " لا وجود لها سواء كانت أهلية أو عربية بل هي مجرد تجمع طارئ مُفكَّك، وحالة طبيعية متوحشة تمثل الصورة التجريدية عن الشرّ، وشعبا لا يحب الناس ولا يحبونه، عنيفاً بطبعه وغير متحضر، يعود الفضل إلى الفرنسيين الذين اكتشفوا الأرض التي يعيش عليها، لأنها كانت "غير صالحة، تنتشر فيها الحجارة والأشواك، وتتبعث مها روائح المستنقعات القاتلة. دفع المعمرون الأوائل² الملايير، والغالي والتفيس لتصبح مضيافة وكما هي عليه الآن³. أما النساء الأعرابيات، وهو مصطلح مثير للنفور والسخرية والدونية، فهنّ مجرد حريم مُغريات وسمراوات*، بعيدات عن أعين الرجل والغريب، ومخلوقات قاصرات لا لشيء إلا لكونهن سلعا وكائنات مقهورات وناقصات عقل ودين في عالم الذكورة، وفي صحراء دائمة التبديد للطاقات وعفن المشرق وجماله الخادع الغدار. والأكثر من ذلك فهن وضيعات ومومسات و"على قدر كبير من الشهوانية والفجور"⁴، خُلِقن للمتعة. يتاجر بهن آباؤهن بالزواج لأنهن ضحايا سلبيات القهر الأبوي والثقافة المحلية والغيرة التي ينبغي التخلص منها. لذلك تلازم بيوتهن⁵ ولا تخرجن إلا ثلاث مرات، مرة من بطن الأم ومرة من البيت الأبوي نحو بيت الزوجية ومرة الثالثة إلى المقبرة⁶.*

¹ - Hadri. Nationalisme et anti-impérialisme : La place du maghreb dans la stratégie soviétique au cours des années vingt. P: 315.

² - Bel-Abbes. Journal du 24/07/1932. N° 18.

³ - Mahfoud Kaddache. Histoire. T1. Op. Cit. P: 50.

⁴ - غراماي. ج، الجزائر العاصمة بين القرنين 16 و 17م، دار سيرف، باريس، 1998، ص 515-537.

⁵ - Jean-Henri Roy & Jean Deviosse, La bataille de Poitiers. Paris. Gallimard. NRF. 1966.

⁶ - من الأحاديث الموضوعية التي تمثل الذاكرة الشعبية، ليس في الجزائر فقط وإنما في الوطن العربي قاطبة.

* ما تتعاضى عنه الكتابات الفرنسية أن حضارتهم / المسيحية / الغربية جاءت من غرباء ينتمون إلى ثقافة مختلفة أساسا عن ثقافة المرأة الجزائرية التي تحتفظ بنظام علاقاتها الإجتماعية ومعاييرها الأخلاقية، لأن المجتمع الجزائري تسيطر عليه "ثقافة العادة بحيث لا يستطيع الفكك من معايير السلوك التي تم تنشئته عليها. ومن هنا فإننا نعتقد جازمين بأن نشاطات الأوروبيين في الجزائر لم تسبب غير الضرر فقط.

إن المقصود من هذه الافتراءات، تسميم الأذهان وتبرير وتثمين الغزو الكولونيالي. وتزيين العمل الاستعماري وإحاطته بغشاوة من التضليل، وتجذير فكرة أن "أن تستمر حياة الجزائر في حياة فرنسا"¹، لأن سعادة الجزائر لا تكون إلا وهي فرنسية، وأن الجزائر بدون فرنسا ستكون الجحيم، وأن الجزائر لم تكن شيئاً يُذكر بدون فرنسا التي ظلت في صراع وتوتر مع هذا الأهلي/البربري المتوحش الذي لا يرقى لأن يسمى إنساناً جزائرياً²، ومع ذلك فعليها أن تتحمله.

لقد ظل المعمرون " دائماً محتارون أمام هذا، لأن الجزائري المسلم مهما حدث له، يُرجع كل شيء لإرادة الله"³ فهو دائم الاعتقاد بأن الإنسان ليس له تأثير في مستقبل لا يمكن الهروب منه، لأن كل شيء يرجع إلى مشيئة الله⁴. فالله وليس الإنسان هو الذي يستطيع أن يحسن حاله لأن معتقداته ومقدساته وكتبه الدينية تُسهم في الاتجاهات القدرية وتغذيها. وهذا منافي للحقيقة، لأن " عملية أي تغيير عملية مقصودة تحدث من داخل الإنسان وبإرادته ووفق اختياره. والله سبحانه وتعالى يُعين الإنسان على إحداث التغيير الذي اختاره بنفسه وبإرادته الحرة ... كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾⁵. فالتغيير الاجتماعي يُل

على أنه يبدأ من داخل الإنسان بتغيير الأنماط القيمية والعقائدية والمعمارية . لذلك تغافل الاستعمار الفرنسي عن أن المجتمع الجزائري مجتمع مسلم، وأن للدين الأثر الفعال في تطور هيئته الاجتماعية عبر الزمن⁶، وأن التغيير في الإسلام: "فكر فعال يجيب على التساؤلات المطروحة على الإنسان ويزوده بالأدوات المنهجية التي تمكنه

¹ - Ahmed Mahsas. Le mouvement révolutionnaire en Algérie. De la 1^{ère} guerre mondiale à 1954. Edit. Barkat. Alger. 1990. P: 94

² - Jean Planchais et Patrick Evens. la guerre d'Algerie dossier et témoignages. haplonic. Alger. 1990. P: 42

³ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الجزائر 1986، ص112.

⁴ - يتغافل الفرنسي عن التفريق بين التواكل والتوكل.

⁵ - سورة الرعد، الآية 11.

⁶ - إبراهيم الحداد، فلسفة الاجتماع، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ب ت، ص43

من كشف سنن الآفاق والنفس والهداية وإحسان الاستفادة منها وهذا الفكر لابد أن يتحول إلى واقع اجتماعي وإمكان حضاري يجسد طموحات الإنسان ويشبع حاجاته الروحية والعقلية والسمعية¹ لتكون من نتائجه إحداث مواقف جديدة وبرؤية وجوانب أعمق وأوسع للأحداث². وهذا ما أكدته لنا تجارب التاريخ التي ما برحت " تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه، ويستطيع الفرد أن يستغني عنه في علاقته بتلك الجماعة أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عن حوله، ولو كان أقرب الناس... وكل ما عداه من العوامل الأخرى في حركات الأمم وإنما تتفاوت فيه القوة، بمقدرة ما بينه وبين العقيدة الدينية من التشابه في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة"³.

ظل هذا التصور الفكري يقلق ويثير هلع الاستعمار الفرنسي* الذي أبى إلا أن يظل الجزائري المسلم المتوازن طفلاً كبيراً، وكائناً كثيراً التشاؤم⁴، مشوهاً في إنسانيته. إن رأى كلباً أسود أو بومة أو سمع نعيق غراب ظنه نذير شؤم لأنه سيتلقى خبراً سيئاً، أو أن مكروهاً سيصيبه، أو كارثة قادمة. و إن رأى في حلمه البوم يعب فإن ذلك يعني الإيذان بشراً كبيراً.

اتفق الناس في المدن والقرى على هذا النوع من السلوك والعادات والتقاليد الصالحة والطالحة، وعلى هذه الطريقة في العيش والحياة التي يتوارثونها أبا عن

1 - الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط3، دار الشهاب، الجزائر، 1993، ص 12.

2 - سعيد جودت، حتى يغيروا ما بأنفسهم، ط 8، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1989، ص 7.

3 - عباس محمود العقاد، حقوق الإسلام وأباطيل خصومه، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1982، ص 15 .

* لأن الجزائري الأهلي المسلم بدأ يكفر بالفكر الثقافي والسياسي الفرنسي، عالم الحروب والمنافسات الدموية، وأوهام المجد الكاذب وسيطرة الأشياء وشحوب الروح والعقل وانسحاق فردية الإنسان في مواجهة المؤسسات القوية التي تقوم بوظائف الإستثمار وتغذية أرواح الاسر وعقولهم بالخرافات أو الثقافات الكاذبة أو تجنيدهم للدفاع عن المؤسسات غير الإنسانية". أنظر: شامي خشبة، قضايا المسرح المعاصر، الموسوعة الصغيرة، العدد 4، مشورات وزارة الإعلام، العراق، 1977، ص 10.

4 - غالباً ما يطلق عليه "الطيرة"، وقد وردت في الأحاديث النبوية لقوله ﷺ لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاث، في المرأة والدار والدابة". حديث شريف.

جد، وجيل بعد جيل . يتباهون بها أمام الملاء، ويحافظون ويعتنون بها . وجعلوا منها أمرا محتوما دون تبرير النتيجة¹، إلى أن أغرقوا مجتمعاتهم في أحوالها . فأصبحت واقعا مُرّاً، وإن لم تلقى "القبول والرضا من كثير من التلمسانيين لأنها لا تواكب الحاضر والقدر الحضاري، وتضر الكثير منهم ولا تخدم إلى القلة القليلة من أهل تلمسان"².

كان خطاب الاحتلال بعيدا كل البعد عن الواقع الفعلي، لأن التفسير الحقيقي "لهذه الحالة المزمنة من التخلف" لا تكمن في ما اعتبره محمد حافظ دياب تنافذ بين الدين الشعبي غير الرسمي والمعتقدات الشعبية للطبقات الدنيا. لكن الحقيقة تكمن في أن جوهر التخلف يكمن في الأسباب السياسية والاجتماعية ، وسياسة التعليم التي جعلت "ستيغان غزيل" يتساءل قائلاً "علينا أن نعرف سبب الرخاء الذي عرفه شمال إفريقيا أثناء الاحتلال الروماني، أهو الطقس الذي كان أكثر ملائمة للزراعة أم هو نشاط وذكاء الإنسان؟ هل لنا فقط أن نرثي ماضيا الذي لن يعود أم هل نستطيع أن نستخلص منه دروسا ننتفعنا في الحاضر"³ ثم يجيب عنه تساؤله بايديولوجية استعمارية أصابها ظاهرة الشيخوخة قائلاً بأن الطقس لم يتغير تغيرا محسوسا، مما يدل بأن فرنسا وارثة رسالة روما الحضارية⁴* التي أسعفت الجزائريين على ولوج عتبة التاريخ لاحتضان الحضارة والاستفادة من تياراتها المختلفة . كما تكمن - الحقيقة - أيضا في تأثير التصوف على الفكر الإسلامي. هذا التصوف الذي جعل

* يكون سببا في وفاتهما.

¹ - منها حساسية المجتمع الجزائري الذي كان يرى في كل عمل يتقرب به إليه المعمر الفرنسي، أنه مجرد "عمل خيري" ليس إلا. أنظر: A.W.O. Boite 389/2. Rapport sur Bilan Initial. 1959. P: 03

² - Le petit Télémcenien du 15/02/1931.

³ - Stéphane Gsell. Op Cit. P: 40.

⁴ - IDEM

* باعتبار أن التاريخ سيضفي طابع المشروع على غزو الفرنسي، لأنه لا يقوم إلا باستعادة عمل متوقف. وهذا يعني استمرارية الفرضيات التي وجهت الكتابات الفرنسية وأطرت أحكامها حول تاريخ الجزائر وتطور مجتمعاته . أنظر: امحمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1994، ص 34.

المجتمع الجزائري في عمالة وهران بصفة خاصة والجزائر بصفة عامة، يحرف عن التعاليم القطعية التي وردت في الدين الإسلامي، وجعلتهم يعتقدون أن لمخلوقات الله سلطة على تصرفاتهم، ينسجون حولها معتقدات وأساطير وقصصا في غاية السذاجة.

رغم تمثّلنا لكثير من الإهانات* الاستعمارية المتناقضة، غير العلمية والنابعة من عقلية عنصرية* أصابتها ظاهرة الشيخوخة وانحلال مشروعيتها خطابها*، التي لم تعد تتمّ إلى الحقيقة بشيء والتي كانت موجهة للجزائريين في المثل الهزلي الذي يقول فيه "أمارتيا صن": "يستطيع الشخص نفسه أن يكون مواطنا بريطانيا، ومن أصل ماليزي، وله خصائص عرقية صينية، وسمسار بورصة، وغير نباتي، ومصابا بالربو، ومتخصصا في علم اللغة، ومدرب كمال أجسام، وشاعرا، ومعارضاً للإجهاض، وهاوٍ لمراقبة الطيور، ومنجما، ويعتقد أن الله خلق دارو يي لاختبار السذج"¹.

فعلا، نجح الاستعمار الفرنسي في ترويح صور وظواهر تافهة للجزائري، اكتست أهمية حاسمة من منطلق معايير خارجية أغفلت في سياقها العديد من الحقائق التي يمكن تفسيرها بالرجوع إلى القيم التقليدية التي تحملها الأمة الجزائرية، وقدمت عبرها مشاهد مزيفة حافلة بالغرائبية والتصورات الموهومة مثل: "notre tête et la France" و "notre mère est la France" و "Nos ancêtres les gaulois" و "Saïd baisse la tête" و "Bahloule et la porte"² و "فاطمة تنظف مطبخ السيدة ليون" و "عمر يعمل في مزرعة روبير" و "علي يغسل سيارة السيد ديبو"³* الهدف منها إحداث شقوق في

¹ - أمارتيا صن، الهوية والعنف، تر: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 352، حزيران 2008، ص 38.

² - بهلول: صفة للجزائري، ترمز للجنون والدونية. والقصة تحكي عن طفل جزائري أرادت والدته الذهاب لعرس، فطلبت منه غلق الباب بإحكام، لكن من شدة حمقه خلع الباب من مكانه وحمله معه معتقدا أنه بحمله للباب يحرس المنزل. وقد روى لنا السيد كمون محمد بأن هذه القصة كانت تدرس لهم في الفترة الاستعمارية.

³ - المقررات الرسمية الفرنسية كانت ملاً بهذه المهاترات.

شخصية الجزائريين وطمس الحقائق بما يخدم المصالح الاستعمارية لـ "ينشياً" فيها الإنسان الجزائري، وتتحول صفاته الإنسانية إلى أشياء على حد تعبير حسين محمد فهيم. يُمتَهَن فيها جسده، ويحدث انتكاس لقيمه وتقاليد المتوارثة، ويدب الانهيار في أخلاقياته¹. فيفقد هويته ويشعر بأنه مجرد شيء أو موضوع أو سلعة.

3 - 2 - المرأة الجزائرية وواقعها في برامج الإدارة الفرنسية:

أ - الأوضاع الاجتماعية للمرأة الجزائرية:

من المواضيع التي استأثرت باهتمام الباحثين، صورة المرأة في خطاب الثقافة الشفهية التقليدية/الشعبية التي لها طقوسها الاجتماعية ودلالاتها الخاصة الموجّهة "بأفكارها وتصوراتها ومثلها ... لسلوك الجماهير في حياتنا اليومية"²، والتي لا تتوال تجسد عقليات وذهنيات وسلوكات الإنسان الجزائري، وانتقالها من جيل لآخر، وامتلاكها سلطة خارقة في الانتشار السريع بين مختلف الفئات الاجتماعية³، وطبيعتها المتميزة بالتكثيف وقدرتها المجازية الكبيرة⁴ في التعبير عما يعتمل في صدور الناس. وباعتبار أن الأمثال الشعبية في جوهرها خطاب ينتظم وفق الأفكار والمعتقدات، وقوانين اجتماعية شبه ملزمة تسن المعايير التي يخضع لها الجميع في التفكير وبناء الواقع الذي نؤمن به أنشطتنا وتصرفاتنا وتجاربنا. فقد اضطررنا إلى طرح عدة تساؤلات منها: ما هي الصورة التي يرسمها المجتمع الجزائري في مخيلته للمرأة؟ وما هي دلالات هذه الصورة وانعكاساتها على واقعها في الأسرة والمجتمع؟ وهل تختلف هذه الصورة باختلاف وضعية المرأة ودورها وسببها؟.

* يتم التركيز على أسماء لها مدلول عربي إسلامي بطولي للتقليل من قيمتها التاريخية والروحية لدى أطفال الجزائر.

¹ - حسين محمد فهيم، هذا الإنسان وعالمه - دراسة أنثروبولوجية ثقافية - المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2001، ص 66.

² - علي أفرار، صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، دار الطليعة، بيروت، 1996، ص 5.

³ - علي أفرار، مرجع سابق، ص 57-58.

⁴ - المرجع نفسه، ص 57-58.

تقدم لنا الكثير من العادات والتقاليد البالية والمعتقدات الخرافية التي ليست من الإسلام في شيء صورة متناقضة عن المرأة . تحط من شأنها وتجعل منها مصدرا للعار ومدعاة للشؤم ومجلبة لسوء الحظ ، وتجعلها "أكثر أهل النار" ¹!! . وتسحق طبيعتها منذ صباها وشعورها الإنساني الرفيع وكرامتها السامية بشكل كبير، فتحرمها من طلب العلم والرقي في سلم العلم والعمل رغم أن يسد أمامها أبواب الترقّي وفرص التعلم والعمل، ويعرضها لأصناف من التمييز المجحف وألوان من الحرمان الظالم. يحجر عليها ويعطل نشاطها الأدبي والاجتماعي ويغلفها تغليفا تاما إذا خرجت من بيتها كي لا تلغى قوامه الرجل ورجولته ومهابتة. وكي تظل في تصوره نموذجا ل "الخدّامة الممتازة" التي تعتنى بالمنزل الكبير ، وتساهم في اقتصاد العائلة بنسج الملابس، وتربية الحيوانات. وفي ذلك يقول المقل الشعبي على لسان الرجل : "بنّك لا تعلمها حروف ولا تسكنها لغروف" ² لأنها ستنتقل من بطن أمها إلى بيت زوجها ثم إلى قبرها، و"البنّت إما رجلها وإما قبرها" ³. باعتبار أنها ستزوج يوما وتغادر البيت العائلي نحو البيت الزوجية، وسيكلف زواجها متاعب مادية (جَهَازٌ) لن يستفيد منها إلا زوجها الذي سيستقبلها بالمثل الشعبي القائل "إلى تعبي" ⁴ عبّ المسكينة ولو تجيب لها غير الخبز والسردينا".

إنها مجرد سلعة بلا ثمن ، تحتاج دوما إلى تسلّط و سلطة الرجل والعادات والتقاليد. تُعطى "العين الحمراء" لكي تمشي باستواء، ولا تخرج من المنزل لأنها تتعرض طوال الوقت إلى التجسس وكمّ الفاه وحبس الأنفاس وقتل الوغبلت والتجرّد من الميول، وعدم الإدلاء بوأى يخالف أهلها. وعدا ذلك يعتبر سلوكا مرفوضا من طرف العائلة ⁵ : "المراّ اللي تطوف ما تغزل الصوف" ¹. وزواجها المبكر هو

¹ - توظيف الأحاديث النبوية في غير مكانها بسبب الجهل بحقيقة الرسالة المحمدية، وعدم اللجوء إلى الدراسات العلمية المختصة.

² - الغرف .

³ - السيدة سعدي حليمة.

⁴ - تزوجت.

⁵ - Pière Bourdieu. Sociologie de l'Algérie. Op. Cit. P: 44 .

الخلاص من العار ، لأنه "يخضع لمنطق محدد بغياب آفاق أخرى بالنسبة لهن غير الزواج وبالخوف من رؤيتهن يسقطن في الدعارة" ² ، لهذا يقال: "ربي بناتك تتكي حسادك" ³. لأنه الشائع في المجتمع الجزائري أنها في سن 13 سنة تكون قد دخلت مرحلة البلوغ والنضج وتهيأت نفسيا وبيولوجيا لتكون زوجة مجبولة على الطاعة والوفاء ⁴ والهدوء، والوداعة. يسهل السيطرة عليها، لأن ما تملكه من أرض وعقار وحلي يتصرف فيه الزوج لضمان اسم وثروة واستمرار نسل العائلة ذات النظام الأبوي* "خذ بنت الخيمة الكبي مرة ⁵ ولو كانت هبيلة ⁶". إنها الزوجة الصالحة والأم التقليدية التي تسهر على تربية أطفالها، والاعتناء بمنزل قد يضم أفراد أسرة يصل عددهم إلى ستين شخصا ⁷: "خذ المرا الأصيلة ونام على الحصيرة"، و"قصاص" ⁸ و"لا نصاص" ⁹ ولا شي من لعنابي ¹⁰.

من المتفق عليه أن المرأة التي تلد الذكور تكون محببة إلى زوجها ، تُستقبل بالزغاريد والأحضان ، لأن الإله ذكر والملوك ذكور، والأنبياء ذكور والشخصيات التاريخية والقادة ذكور . ذكورة التاريخ والأساطير والمجتمعات. والذكور هم حماة

- السيدة سعدي حليمة ¹.

² - Malika el Belghiti. le rôle de la femme dans le développement socio-économique. In les indicateurs du rôle nouveau des femmes dans le développement . éd UNESCO .1984. P:22.

³ - استغنيا عن ذكر الكثير من الأمثال الشعبية لأنها تثير الإشنزاز، ولا يحق لنا التلطف بها أو كتابتها.

⁴ - Pierre Bourdieu. Sociologie de L'Algérie. Op. Cit. 1974. P: 14

⁵ - العائلة الغنية.

⁶ - حمقاء.

* سيكون للعائلة باعتبارها الخلية الأولى التي تحتضن الفتاة، دور كبير في توعية المرأة خلال ثورة الفاتح نوفمبر 1954. ونقصد هنا العائلة الممتدة داخل المسكن الواحد، والتي تتكون من الأب والأم والإخوة والجد والجدة والأخوال والأعمام (قبل الزواج في بعض الأسر)، وتمتد أحيانا إلى الجيران الذين يُعتبرون من العائلة بحكم التكافل الاجتماعي والعلاقات الحميمة التي كانت تربط المجتمع الجزائري.

⁷ - مصطفى بوتفوشة، العائلة الجزائرية، التطور والخصائص الحديثة، تر: دموي أحمد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 78.

⁸ - المرأة.

⁹ - الأطفال.

¹⁰ - عتبة البيت

الشرف والقيم¹ واسم العائلة ولقب العشيرة ، اعتقادا أن مولد ابن ذكر يعزز وضع الرجل، في حين أن مولد الأنثى يخفض رأسه². لذلك أنتجت مجتمعنا أمثالا وأهازيج تعكس مشاعر هـ، كما تعكس أعراض تفشي الظلم الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي للنساء، وتشكل ضغوطا هائلة عليها خوفا من العنف والهجر والطلاق والأسى والتأسف والشفقة على ما يخبيئ لها الدهر . لأن الخلل دائما يكون فيها، ويدفعها إلى إتباع خرافات ومعتقدات شعبية.

إذا بلغت الفتاة سن اليأس ولم تتزوج، عانت من سلوكات تحقيرية ودونية واستفزازية داخل المجتمع الجزائري: "العاتق³ في الدار عار" ونعتت ب "البابرة". يُضرب بها المثل القائل: "العاتق إلى بارت على سعدها دارت"⁴. و"شدو علينا أولادكم راها بنتنا قهرتنا"⁵ لكثرة ما تثيره من مشاكل، وما تجلبه من العار لأنها أصبحت مصدر شؤم ولا بركة فيها.

تجد الأنثى منذ ولادتها قريباتها خاضعات لسلطة الأعراف القديمة، وتكريس صورتها السلبية، باعتبارها كائنا أكثر "خضوعا للتقاليد والأعراف والعادات وللموروث الثقافي"⁶. وفاعلا أساسيا في مجال التنشئة الاجتماعية، والأكثر استنساخا وترديدا للأمثال الشعبية.

في ظل توارث هذه النظرات حتى عند بعض المنقفين، تحلم الفتاة كثيرا بالزواج معتقدة بأنه هو الحل لمشكلتها وحريتها، إلا أنها في الواقع تصطدم بعد الزواج بأشخاص آخرين يمارسون عليها سلطة أشد من الأولى ألا وهي تلك المتمثلة في سلطة الحماة والزوج الذي تقبل به من "المهد إلى اللحد"، لكي يحميها

1 - اعتمادا على المثل الشعبي القائل: " تموت حرة وتوفر صرة" أي لا تتسبب في الفضيحة لأهلها.

2 - لقوله تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ سورة الزخرف، الآية 17.

3 - العازبة.

4 - السيدة شحرور نبية.

5 - السيدة سعيدي حليلة.

6 - علي افرفار، مرجع سابق، ص 56.

ويحافظ عليها ويدافع عن كرامتها¹ مهما كانت خصاله وأوصافه ومواصفاته وحالته المادية "ظل راجل ولا ظل الحيط"، التي قد توقعها في مزلق يصعب عليها الخروج منها. وما عليها إلا الصبر، لأن "الخير امرأة والشر امرأة"، وأن لا تفكر في العودة إلى بيت والديها حتى وإن استعمل الزوج سلاح الزواج بأخرى لتهديدها وتأنيبها وتأديبها إن هي قصرت في واجباتها. أما إن حدثت وكانت المرأة عاقراً ولم تتجب الأطفال، فستظل لا شيء في المجتمع الذي لا يمكن أن تندمج فيه إلا بفضل الطفل²، وتصبح كالخيمة التي لا وتد لها، المعرضة للطلاق في كل حين "المرا بلا ولاد بحال"³ الخيمة بلا وتد، وستكون سبباً يحرم الرجل من كتابة تاريخه السلالي النسبي⁴ بإنجاب الولد الذكر "الله يعز البيت اللي يخرج منو بيت". وأما إذا تعرضت للطلاق، فيقال لها: "بقاي في الدار ولا زواج العار"⁵، "لحم الهجالة"⁶ مسوس ولو دِير⁷ لوالملحة قلبي عافو" و "الهجالة ربات اعجل ما قلح، ربات كلب ما نبج". ومن النادر أن نجد سلوكاً اجتماعياً يتعلق بالمرأة، يمكن أن يكون مجرداً ومستقلاً وموضوعياً بشكل تام، دون أن يتأثر بهذه الموروثات التي نشأنا عليها منذ الصغر، وشكلت عند عامة الناس عقيدة ومبادئ دينية وحياتية.

ألفت المرأة الجزائرية هذا الوضع حتى أصبح طبيعة ثانية له ـ. فهي تتزوج لتخدم زوجها وبيتها⁸. فالمرأة الشاطرة هي التي "تتقن ال غزل على العود

1 - المرجع نفسه، ص 65 .

2 - المرجع نفسه، ص 64 .

3 - مثل .

4 - جليبور دوران، ورد عند عبد المجيد جحفة، مرجع سابق، ص 21.

5 - يظهر هذا المثل الشعبي معاناة المرأة الجزائرية، ف، لم تزوج فهي وصمة عار في العائلة، وإن تعرضت إلى الطلاق تعنف على حظها التعيس، ويتمنى ولي أمرها لو أنها ظلت في منزله ولم تتزوج أبداً.

6 - المطلقة.

7 - تضيف إليه .

8 - نجد أن سلطة الدين والأخلاقيات التقليدية كانت لا تزال ذات جذور محكمة. أنظر: أريك فروم، مرجع سابق، ص 172.

أما العاجزة، فتقول مغزلي مَعَوَّج، و"بنت فلان نار وشرار" و "وقلبها حامي"¹، أي أنها سريعة في العمل، وليس معنى هذا أن الزوجة ربة البيت - في منظورها - تابعة للرجل لأنها تشارك ببطء في مسئولية رعاية الأسرة وتخطيط مستقبلها وإن كانت هذه المشاركة مختلفة² ولا تؤثر في الكيفية التي يعيشها المجتمع.

إن النظرة الدونية إلى المرأة، سواء كانت بسبب انتشار ظاهرة الأمية لدى الإناث بالمقارنة مع ما هي عليه لدى الذكور³، أو بسبب التشيخ الاجتماعية "المرا" عمارة ولو كانت حمارة "ناقصة عقل ودين"⁴ و "حمقى وقألؤها زغرَتي" لا تعي ولا تفهم، ولا تؤلى من أمرها شيئاً ، ستجلب العار والفضيحة للعائلة، وس تؤيد نكاح الأعداء والجيران إن صدر من ها ما يصدر عن أخيها. وتقاليد الأسرة الجزائرية التي ترى أن دراسة الفتاة مستحيلة وغير ضرورية⁵، وتكوينها المهني خسارة

مالية، والاختلاط هذراً للأخلاق وانحراف للفتيات، طالما أن مصيرها البقاء في البيت والزواج المبكر. أو بسبب القيم التقليدية التي تحافظ على التركيب الاجتماعي الذي أعاق حصول المرأة على حقوقها في أغلب مجالات الحياة ، و الظروف الاقتصادية المزرية بشكل خطير للعائلة⁶ خاصة في الأرياف ، حيث لم يُسمح بتمدرس إلا فتاة واحدة (01) من بين مائة (56) فتاة (= 1/56) في الطور الابتدائي⁷، مقابل فتاة واحدة (01) من بين أربعين (40) فتاة (= 1/40) في الطور

1 - السيدة سعدي حليمة.

2 - يميل علماء الاجتماع إلى التمييز بين التغيير الاجتماعي والتغيير الثقافي، فأولهما هو الذي يطرأ على العلاقات الاجتماعية، بينما يعترى الثاني القيم والمعتقدات والمُثل والرموز الشائعة في المجتمع .

3 - Jeune Chambre économique. d'Alger. Op. Cit. P: 17.

4 - كثيرا ما يعتمد المجتمع على التفسير الشعبي للأحاديث النبوية الشريفة.

5 - رغم أن 50 % من الطالبات التي كانت تصل إلى الحاكم العام، كانت تخصّ فتح مدارس للفتيات

للتعلم دون الاختلاط. أنظر: L. Massignon. La situation en Algérie. IN. Esprit N° 176. Janvier 1951. Paris. 1951. P:267.

6 - Robert Aron. Les origines de la guerre d'Algérie. Fayard. Paris. 1962. P : 201 -

7 - Robert Aron. Op. Cit. P : 201.

الثانوي¹.*

إن عبء التضحية الذي " غالباً ما يقع على الإناث وبخاصة في حالة وجود خيارات"²، جعل فرص الذكور تكون أفضل للتعليم³ لأنهم بمثابة ضمان اجتماعي واقتصادي للأسرة الجزائرية . والمفاضلة هنا أحسن استثمارا في ضوء محدودية الموارد الميزانية⁴، باعتبار أن العديد من "الفقراء يتعاملون مع تعليم الإناث على أنه "سلعة كمالية" يمكن اقتناؤها بعد تحقيق كل الحاجات الضرورية"⁵ . لذلك ظلت الأمية منتشرة في الوسط النسوي بنسبة 90%، وحالت دون وجود أسماء كثيرة تمكنت من اقتحام عالم الثقافة بمكوناتها المختلفة من شعر ومؤلفات . وأنتجت عقول بُنيت بطريقة نمطية لا تقبل رؤية الحقيقة ولا تعرف قيمة رأي الآخر ولا تقبله، ولا تقدر على التفكير الحرّ المبدع مما يساعد على برمجتها بسهولة.

ترتب عن هذا حرمانها من حضور المجالس والأندية الاجتماعية وحضور الصلاة وزيارة القبور ، عكس شقيقها "الذي يغفر له المجتمع نزوانة خاصة في السفر والحضر، والتفرُّس في وجوه النساء ليختار زوجة له، والجهر برغبته في الزواج، وأن يقبل أو يرفض من يشاء، وأن يحبّ ويُغازل، بل ويسهو ويخطأ لأنه "راجل ووليّ العهد" وصاحب القرار والسلطة على أخته وإن كانت أكبر منه سناً، ورفيق درب الأب "في الأعمال والخليفة على الأرض والعائلة بعد موته، بالإضافة إلى الوصي على الأم و الأخوات"⁶.

¹ - Jeune Chambre économique. d'Alger. Op. Cit. P: 17.

* أنظر ملحق رقم 14.

² - نفس المرجع، ص 13.

³ - عبد الرزاق الفارس، مرجع سابق ، ص ص 84-85.

⁴ - لأن المرأة في المنظور الشعبي الجزائري، كانت غير قادرة على المشاركة في مختلف الميادين الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية والسياسية.

⁵ - p. gertler and p. gleww: the willingness to pay for education for daughters icontrast to sons: evidence from rural peru. word bank economic review. vol 6. 1992. P:188

⁶ - Franz Fanoun. sociologie d'une révolution. 1^{ère} édition. Paris. petite collection. Maspero. 1959. P: 19.

إن المرأة الجزائرية في هذا الإطار الاجتماعي التقليدي كانت تساهم في صناعة الأغذية وفي مقدمتها الخبز ، وجني الزيتون واحتطاب الحطب، وصنع الكسكسي لبيعه الأب أو الزوج أو الابن في الأسواق، وتربية الدواجن، وبعض الحيوانات للإفادة من نتاجها، ولحومها وصنع مستخرجات الألبان¹، و"جلب الماء من العيون على ظهرها وفي أغلب الحالات بواسطة برميل صغير أو قربة مصنوعة من جلد الماعز... وبعد إنجاز الأشغال المنزلية المرهقة، كن يحضرن لوازم الحصيرة الأسبوعية من الحلفاء والصوف والليف المستخرج من جذور الدوم. وإن ذلك العمل لم يكن من السهل.. وفي كل منزل كانت امرأتان تتسجان حصيرا واحدا في الأسبوع يبيعه الزوج يوم الاثنين، يوم السوق. وفي المساء تسهر النساء إلى ساعات متأخرة من الليل على صناعة الخزف وغزل الصوف وتنسج بعض الملابس والأغطية أو الليف (المادة المقتبسة من الدوم) لتبيعها في الصباح الباكر في سوق "لغزل" لنساجي الأغطية والزرايي. وكان ذلك في أغلب الأحيان الوسيلة الوحيدة لكسب قوتهن، والدخل الموعول عليه للعائلة كلها² بسبب تدني مستواها المعيشي، و تدني الواتب الشهري لزوجها.

عند وفاة زوجها، تتحمل المرأة العبء الاقتصادي الأثقل في الأسرة، تعيش في الأحياء والسكنات الفقيرة، وتصبح المعيل الوحيد للأسرة، وتوكل إليها جميع الأعمال التي كان يتحمل أعباءها سابقا. فتخرج للعمل³ كخادمة في البيوت أو عند العائلات الجزائرية المسلمة الثرية⁴ أو في المصانع الصغيرة بالمدينة حتى الساعة الخامسة مساء لتتظيف سلات الخضر والسردين ووضعه في العلب⁵ دون توفير

¹ - لأنها تضع نصب عينيها إدخال السرور علي قلب زوجها حين يعود، وأن تتجز عملها علي وجه يرضاه وترتضيه هي لإسعاده، كما أن ثناءه عليها ومكافأته لعملها بالتقدير، يجعلها أكثر رضا وإقبالا علي عملها المنزلي ويصدق ذلك أيضا علي أبنائها وأصدقائها وجيرانها.

² - محمد المقامي، مصدر سابق، ص 17.

³ - عبد القادر جغلول، المرأة الجزائرية، مرجع سابق، 1983، ص 231

⁴ - Saadia et Lakhdar. Op. Cit. P: 96.

⁵ - IBID. P: 97.

وسيلة نقل لنقلها، أو مطاعم نتناول فيها وجبات الغذاء. تظل واقفة دون راحة زهاء سبع ساعات. وكان في معظم المصانع كراسي من الخشب تأكلت بفعل الدهر ، ومرحاض واحد وحنفية واحدة تتداول عليهما جميع العاملات اللواتي يحصلن على أجر زهيد لا يزيد عن أربعة فرنكات وخبزة شعير، ولا يسد رمق جوع العائلة المتكونة من عدد كبير من الأفراد. إذ لا يعقل كما يؤكد "بورديو" بأن امرأة جزائرية ظلت تعمل وهي في شهرها التاسع دون أن يتحرك الوازع الأخلاقي والمهني لدى رب مصنعها ليمنحها عطلة الأمومة¹. وإذا وقع حادث عمل لإحداهن، فيكفي صاحب العمل أن يدعي بأن ها لم تأخذ حذرها أو أنه لم يتخذ تدابير الحيطة والحذر لينهي القضية مع رجال الشرطة دون أن يقدم أي تعويض للضحية بسبب غياب قوانين التأمين²، والنصوص التشريعية التي تجعلها وعائلتها وأبناءها في مأمن من الهزات الحياتية. والقانون الوحشي الذي كان يسير العمل ويتحكم في تسيير الموارد البشرية هو قانون العرض والطلب على اليد العاملة الرخيصة³. فبمجرد انتهاء موسم العمل تجد المرأة نفسها - والرجل أيضا- في بطالة قد تدوم طويلا بسبب طردها من مركز عملها⁴. فتفقد موردها الحياتي الوحيد. لذلك غالبا ما يسود هذه العوائل هاجس مخيف كلما فقدت الأم أو الأخت عملها أو كلما مرضت لأي سبب من الأسباب بالرغم من ارتفاع عدة أصوات طالبت بإنهاء مأساة العمال

¹ - Caroline Brac De La Perriere. Op. Cit. P: 102.

² - Bouda-Mohamedi Tabti. La société Algérienne avant l'indépendance dans la littérature. Lecture de quelques romans. P.P.U. 4^{ème} édition. Alger. Algérie. 1986. P: 122.

³ - Djamilia Amirane. Les femmes Algériennes dans la guerre. 1^{ère} édition. Plon. Paris. France. PP: 25-26.

⁴ - Abdelatif Ben Achenhou. Formation de sous développement en Algérie. Essai sur les limites du développement du capitalisme. 1830-1962. 6^{ème} édition. Alger. O.P.U. 1976. P: 362.

الجزائريين، وإحداث ثورة داخل الإنسان الأوروبي لتنتشر تعاليم ومبادئ الأخوة في العالم¹.

ب - واقع المرأة الجزائرية في البرامج الفرنسية:

أدرك الاستعمار الفرنسي الدور الكبير الذي قامت به المرأة عبر التاريخ . فهذه الكاهنة التي قاومت الفاتحين المسلمين ، وتلك "فاطمة نسومر" (1830-1863)² التي كبدت الاستعمار الفرنسي خسائر فادحة ، لذلك و ظف مجموعة من الأرقام لدراسة تأثير المرأة في المجتمع الجزائري ، و الأسباب التي جعلته يعجز عن اختراقها رغم تكوين منظمات وجمعيات خيرية/دينية واجتماعية كانت تسهر على تلقينها مبادئ التربية والشؤون المنزلية مثل الطبخ، والتنظيف، وكى وترقيع الملابس، والتنظيف، والحلاقة، والخياطة، والطرز والنسيج للفتيات المسلمات الجزائريات اللواتي تتراوح أعمارهن بين 12 و 20 سنة بسيدي بلعباس* ووهان³. وتقديم المساعدات المجانية للأهالي⁴ ، وتوزيع الأدوية والمواد الغذائية في بعض المناسبات والحفلات، وإقامة عدة ملاجئ في وهران وسيدي بلعباس للأطفال اليتامى والمشردين ، وتوزيع الملابس والأدوات المدرسية على الأطفال والأغوية

¹ - Léon-Etienne Duval. Au nom de la vérité. Algérie. 1954-1962. 1^{er} édition. édition CANA. Paris. France. 1982. PP: 16-17.

² - عبد الكريم بوصفصاف، جهاد المرأة الجزائرية في ولاية سطيف، المنظمة الوطنية للمجاهدين، جويلية 1997، ص ص 64-69.

* لنا مثال في ذلك ما قامت به لوس الليكس التي فتحت ورشة بأربع فتيات مسلمات بعد أن أقنعت عائلاتهن، وأدرجت لهن اللغة الفرنسية والحساب إلى جانب تعليمهن مهنة الخياطة، وهذا ما شجع الكثير من الفتيات على الالتحاق بورشتها إلى أن بلغ عددهن أربعين (40) فتاة. أنظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ط 2، ج 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص ص 118-127.

³ - A.W.O. Rapport: L'Organisation Familiale en Oranie. 1959. P: 05

⁴ - عبد الكريم بوصفصاف، جهاد المرأة الجزائرية في ولاية ميلة الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2009، ص 100.

التي هيئت لهذه الأغراض¹، وتقديم خدمات اجتماعية للأسر الفقيرة التي تحوي عددا كبيرا من الأطفال².

لاستدراج المرأة الجزائرية، استعان الاستعمار الفرنسي بنظيرتها الأوروبية الهبشرة أو الهمرصة³. وسُمِحَ لها بالالتحاق بالمدارس المهنية في وهران ومستغانم وندرومة وتلمسان وسعيدة وبلعباس ومعسكر لتعلم اللغة الفرنسية والتدابير المنزلية والخياطة والطرز⁴ والبساط وغيرهما من الحرف الأخرى أو عن طريق التطبيب المجاني وهذا ما كان يتم فعلا في إحدى الكنائس⁵* بوسط مدينة سيدي بلعباس. فتمكنت بعض النساء من الالتحاق بالعمل في الراديو كمغنيات وبالمسرح كممثلات⁶، وانتشرت نقاط احتكاك كثيرة مثل الكاباريهات والمقاهي والأمسيات الموسيقية، وظهرت السيدات الجميلات الرشيقات في المراقص والألعاب، واكتسحت المنتجات الغذائية السهرات والمآدب⁷. ويؤكد السيد أحمد اليافي أن هدف الاستعمار الفرنسي من وراء ذلك، هو خلع المرأة الجزائرية من مجتمعها الإسلامي بدعوى "شن حملة واسعة ضد الأمية... والوضعية الاستثنائية التي تعيشها الجزائر تتطلب طرق ومناهج استثنائية، وذلك بمضاعفة الوسائل المعتمدة التي لدينا... وتوظيفها بأشكال مكيّفة مع الظروف الطارئ، والقيام بمبادرات في الميادين التي تعرف الحاجة أكثر... وتخصيص حصص ثقافية غنية من أجل المعرفة والوُدِّ، هذه هي مناهجنا، وطرقتنا الملموسة... مكيّفة مع واقع البلاد والظرف الحالي"⁸.

1 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج 1، مرجع سابق، ص ص 70-71.

2 - A.W.O. Rapport: L'Organisation Familiale en Oranie. Op. Cit. P : 03.

3 - أنيسة بركات درار، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص 35.

4 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج 1، مرجع سابق، ص ص 372-373.

5 - حولت هذه الكنيسة بعد الإستقلال إلى مسجد أبو بكر. ومكانه وسط بلدية سيدي بلعباس.

* - ظهرت الكثير من الألفاظ غير العربية في الاستعمال اللغوي اليومي التي أغنت بها تعابيرها في مجال الطبخ و الخياطة ولواحقها والإسعافات الطبية ومعداتنا.

6 - Saadia et Lakhdar. Op. Cit. P: 96.

7 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج 1، مرجع سابق، ص 71.

8 - Jacques Soustelles. Discours Prononcé. Op. Cit. P: 16

للمضي في سياستها التغريبية، سنّت فرنسا في 20 سبتمبر 1947 قانونا

يمنح المرأة الجزائرية حق الانتخاب ، فأصبحت السيدة " نفيسة سيد قارة" نائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية سنة 1959¹. وقامت في 11 جويلية 1957 بإصلاح نظام الوصي² الذي يمكّنها من أن تكون وصية بصفة آلية على أبنائها إذا هجرها زوجها، وأن يكون لها الحق في اختيار زوجها. ثم جاء الجنرال ديغول الذي أدلى بدلوه لاستمالتها قصد إنجاح مشاريعه المستقبلية لإبقاء الجزائر تحت هيمنة الاستعمار الفرنسي والتخلص من قوة الثورة التحريرية، فصرح قائلاً: "هناك تركيبة عائلية جديدة... لا بد لها أن تتجاوز عبء العائلة التي تضع لها الحواجز والحدود حيث تفرض عليها الوصاية. يجب فك قيد يد المرأة لتساهم في الإنتاج وبذلك تلبى حاجيات بيتها وتصون كرامتها"³. وفي نفس السنة كُلفَ المكتب الخامس باستغلال السينما والصحافة والمناشير لإدخال الحس الحضاري على حياتها⁴، وإحداث قطيعة نفسية ووجدانية ونضالية بين ها وبين الثورة التحريرية⁵. ولإنجاح استفتاء 28 سبتمبر 1958⁶، صدر قانون في 05 / 02 / 1958 أصبحت بموجبه حوالي أربعة ملايين امرأة جزائرية تتمتع بحقوقها السياسية . تم تدعيم ذلك بالإعلان عن عملية "آلة الخياطة "l'Opération machine à coudre" التي دعت النساء الأوروبيات إلى التبرع بآلات الخياطة للنساء الجزائريات⁷، كما طالبت المديرية العامة للشؤون السياسية والوظيف العمومي بوجود وضع جهاز نسوي يجند النساء في القوى

¹ - Diane Sambron. Op. Cit. P: 233

² - IDEM.

³ - IDEM. P: 127

⁴ - يمينة بشي، "مآثر المرأة الجزائرية خلال قرن من الاحتلال"،المصادر،الجزائر:المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، العدد الثالث، ، 2000 ص. 220.

⁵ - يمينة بشي، المرجع السابق، ص 265.

⁶ - صالح بلحاج، مرجع سابق ، ص260.

⁷ - Elsenhans Hartmust. Op. Cit. P: 724.

المحلية "Forces Locales"¹. وفي 4 فيفري 1959 منح القانون الفرنسي المرأة

الجزائرية المسلمة حقوقا تمثلت في الآتي:

- أن يكون عقد الزواج موثقا ويرضي الزوجين.
- يمنع الوالدان من تزويج البنت دون سن الخامسة عشر.
- لا يكون الزواج والطلاق شرعيا إلا إذا كان العقد مسجلا عند القاضي أو ضابط الحالة المدنية ويسجل في دفتر الحالة المدنية.
- يحق للمرأة المطلقة الحصول على المنحة.
- الطلاق حق للمرأة والرجل على السواء².

ساهم الفارق الشاسع بين النظرية والتطبيق، كما هو الحال في الإيديولوجيا الاستعمارية، إلى جانب بعض العادات والموروثات الثقافية والاجتماعية والسلطة الذكورية في حرمان المرأة الجزائرية من حقوقها وفي إبقائها تتعرض لثلاثة أشكال من الإستيلاء:

1 - الإستيلاء العقائدي : لا يمكن أن نفصل أزمة الجزائر الحضارية عن

أزمة المرأة. لأنها "العنصر الأشد تلقياً للظلم والقهر في المجتمع، وهي أوضح مثال للإنسان المقهور، فالعلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع المتخلف تلعب دوراً هاماً من الناحية الدفاعية، حيث يتهرب الرجل من مأزقه بتحميل المرأة كل مظاهر النقص والمهانة التي يشكو منها في علاقته بالمتسلط وقهره والطبيعة واعتباطها، ولذلك يُفرض على المرأة أكثر الوضعيات عبثاً في المجتمع المتخلف، إنها محط إسقاطات الرجل السلبية والإيجابية على حدّ سواء، وهي تُدفع نتيجة لذلك إلى أقصى حالات التخلف"³ لأنها تعتقد جازمة بتفوق الرجل الفكري وبدونيتها الذهنية ، وعدم

¹ - IDEM. P: 558

² - Diane SAMBRON. Op. Cit. PP: 228 - 229

³ - www.biblioislam.net/Elibrary.

قدرتها على مواجهة أي وضعية بجدية و بمسؤولية¹. لأنها مقهورة، قاصر، ثرثرة، عاطفية، وعاجزة عن الاستقلال بذاتها وبناء كيان خاص بها . وكما يقول بيير بورديو، فإن ما يجعل الهيمنة الذكورية، "راسخة في لاشعورنا لدرجة أننا لم نعد ندركها أو نضعها موضع تساؤل، هو أنها تتأسس على مثل هذا النوع من العنف الرمزي الذي يمارسه الرجال على النساء، والذي يتم تشغيله، وكأنه عنف طبيعي. حيث تجد النساء أنفسهن تحكين وضعيتهن استنادا إلى معايير الايدولوجيا الذكورية، محرضات على انتقاصهن الذاتي"².

2 - الإستيلاء الجنسي: هناك اعتقاد بأن المرأة مجرد جنس أو أداة للجنس،

هاجسها الوحيد وقلقها الوحيد حول غشاء بكارتها وسلامته، وقدراتها الجسدية على حيازة إعجاب الرجل ولو كان مسنا لضمان الزواج الذي ربّما كان له ما يُبرّرهُ ضمن ظروف وشرائط معيّنة. وفي هذا يقول د.عباس المكي: "كان جسد المرأة وما يزال مادة غنية للتشريح، وتحديد المسموح والممنوع من تحركات الجسم وتعبيراته ومتطلباته تبعا لأنها مقبولة اجتماعيا، أي في النهاية تبعا لأنماط تخدم مصلحة المتسلط الذي يمتلك هذا الجسد. هناك قوة المنع المدنية وقوة التحريم الدينية التي تثقل جسد المرأة بقيود الخطيئة ومشاعر الإثم"³.

3 - الإستيلاء الاقتصادي: يظهر جليا في ظل انعدام الحرية، وفي ظاهرة

الإجحاف في حق تقسيم العمل، خاصة في الريف، حيث يدفع بالمرأة إلى مواقع إنتاجية ثانوية بعيدة عن الخلق والإبداع. وهي بذلك تتعرض لعملية تجنيس وتأنيث

1 - اعتمادا على حديث أسىء فهمه: " لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة".

2 - جليبير غرانغيوم، قراءة في كتاب بيير بورديو: الهيمنة الذكورية كيف نحرر المرأة، تر : محمد اسليم، منشور بموقع الأستاذ سعيد بنكراد.

3 - دروش فاطمة فضيلة. الاستلاب الثقافي والتغير الاجتماعي، دراسة سوسيولوجية في وسط طلابي في الجامعة، جامعة الجزائر، معهد علم الاجتماع، السنة الجامعية 1995-1996. ص 62.

دائم لجهدھا. فالقناعة بدونية المرأة، متأصلة في عقل الإنسان الجزائري المتخلف¹
المبني على نمط طبقي المؤسس على نموذج السيادة والتفوق والتبعية المطلقة.

¹ - بسبب الفهم الخاطئ والضيق للإسلام.... وكثيرا ما حُرمت من حقوقها في الميراث في كثير من
جهات الوطن.

الفصل الثالث

الهجرة الجزائرية:

1 - الهجرة الداخلية:

1 - 1 - الجذور التاريخية للهجرة الداخلية:

كثيرا ما تستخدم الدراسات التي تتعرض إلى ظاهرة النزوح الريفي مصطلح التحضر أو الهجرة الداخلية ، وتجعله - النزوح الريفي - جزء منها لا لشيء سوى لأن النازحين إلى المدن يحافظون على علاقاتهم مع الريف. فهم لا يهجرون قراهم بمعنى تركها إلى الأبد، بل إن العلاقات تظل قائمة في شكلها وحجمها.

يستعمل "عبد اللطيف بن أشنه"و مصطلح "الهجرة الريفية" التي تعني التخلي

التام عن النشاط الزراعي، وتغيير المحيط، وبالتالي يربطها بمفهوم الهجرة الزراعية، وهي انتقال العمال وعوائلهم من النشاط الزراعي إلى النشاط غير الزراعي في المناطق الريفية¹.

تشعب مفهوم الهجرة، وتعددت مكونات هذا المصطلح، فأصبحت الهجرة،

هجرة حياتية، هجرة مؤقتة، هجرة موسمية، ترددات، تنقلات، هجرة فردية،

جماعية، ذكورية أو أنثوية نزوح، وأحيانا هجرة من نمط محدد (ريف-ريف)

أو(ريف-مدينة) أو(مدينة-ريف) أو (دولة-دولة)...). إذا من الصعب بمكان إيجاد

مفهوم دقيق للهجرة، طالما أن آليات تنفيذها معقدة بسبب اختلاف الأغراض

والأهداف التي ترمي إلى تحقيقها² وفقا للظروف التاريخية والسياسية والاقتصادية،

وإن ظل البعد الاقتصادي هو الأكثر شيوعا والأكثر تأثيرا وسيطرة. وقد تركزت

النظريات³ والأسباب كلها وبشكل حصري حول على المهاجر بوصفه عنصرا قويا

للعمل يبحث عن فرصة ذات عائد أفضل للأسرة ضد المحصول السيء والمرض،

¹ - عبد اللطيف بن أشنهو، الهجرة الريفية في الجزائر، تر: عبد الحميد أتاسي، المؤسسة الوطنية، المطبعة التجارية، دت، ص 04.

² - عبد الحميد زوزو، مرجع سابق، ص 11.

³ - في التاريخ وعلم الاجتماع والديموغرافيا .

و ضد الفقر عن طريق تنويع مواردها ¹. وقد جرت عدة محاولات للوصول إلى تعاريف دقيقة لمصطلح الهجرة، نذكر منها:

- الترك والمغادرة، ويقال هجر الشيء إذا تركه . وهي اسم من فعل هجر يهجر هجرا وهجرانا ²، ونقول أيضا هجر المكان أي تركه والهجرة هي الخروج من أرض إلى أخرى ومفارقة البلد إلى غيره فرديا أو جماعيا، قسريا أو إجباريا دون إدراك حجم المأساة التي ستكون في استقبال المهاجر، والاعتراب أو النزوح والوفود والترحل والخروج من أرض إلى أخرى، أو حركة انتقال السكان من مكان لآخر ³ سعيا وراء الارتزاق وكسب وسائل العيش وطلب الرزق وتحسين مستوى أفضل لأوضاعهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية، بجميع ما يصابها من تغيير في الحرفة أو الطبقة الاجتماعية، وما تفرزه من إشكالات عميقة على مستوى مناحي شتى بفعل زيادة معدلاتها وكثافتها، وحدة الآثار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المترتبة عنها، وارتباطاتها بإشكالات جمة وعميقة من قبيل إشكالية الهوية. والتعرض باستمرار لعمليات التهميش ⁴ والتمييز العنصري، ووصف المهاجرين بأشنع الأوصاف والصفات مثل الغرباء أو الدخلاء، والبدائيين العدائين أصحاب العنف ذوي منزلة أدنى بصورة فطرية. الذين ينقلون المكروبات الخطيرة، خصوصا السفلس والتدرن الرئوي. ويسكنون جيوب الأكواخ، ولا ينصهرون ويندمجون ويذوبون في مجتمع وثقافة الآخر / الفرنسي. بل يحافظون بشكل حذر على هويتهم الوطنية التي تشمل إبقاء الحدود الاجتماعية والثقافية متميزة بشكل جذري عن المجتمع الفرنسي لأنها لصيقة ورفيفة لفئة انتماء، والخصوصيات الثقافية والقيمية والاجتماعية وغيرها التي يكون قد تلقاها الفرد عبر تنشئته

¹ - مونسوتي ألكساندرو، الحروب والهجرات، إصدارات معهد نوشاتيل، للاتنولوجيا ودار النشر، باريس، 2004، ص 39.

² - محمد بن مكرم أبو الفضل بن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 8، ط 1، 2003، ص 4616.

³ - سعيد مريبعي، مرجع سابق، ص 215.

⁴ - رغم ذلك حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم الأم. أنظر: A.W.O. Rapport de police du 17-09-1941. N° 5984. Carton. 1797

الاجتماعية في إطار¹ ثقافته العربية الإسلامية التي تميزه عن الآخرين عن أعضاء المجتمع الذي تعيش فيه.

هذه "التأثيرات التي تعتبر في نظر الفرنسيين هدامة سوف تعود إلى القرى الجزائرية بواسطة العودة الدورية للمهاجرين التي لا تفوق مدة سنة أو سنتين لغرض جمع مبلغ من المال قبل العودة إلى قراهم الأصلية في الجزائر... فعلى سبيل المثال في منطقة غرب الجزائر يعود العمال المهاجرون سنويا في وقت الحصاد لمساعدة ذويهم وبهذه الطريقة يحتفظ المهاجر بجذور بيئته ويزود باستمرار بمصادر تقاليدها... وسوف تتأصل في الوجدان الوطني ومن ثم تدمر وفي النهاية تطيح بكامل الصرح الاستعماري. وللخروج من هذه الإشكالية طالب المستوطنون الحكومة الفرنسية بتبني سياسة الصهر الكامل للجزائريين في المجتمع الفرنسي"².

1 - 2 - أحياء الصفيح:

هي تعبير عن فوضى اجتماعية عارمة، وضغوط ومعاناة ومساوئ وقسوة وازدراء ومأساة³ وامتهان لكرامة الإنسان، لافتقارها لأبسط شروط العيش الكريم من الماء والكهرباء والصرف الصحي، والمدارس والخدمات الصحية، والدكاكين، والهواصلات، المنافع العامة. تتميز بتجمع سكانها على شاكلة الدوار، وعيش معظمهم على طقوس القبيلة القروية المحضة في أكواخ وبيوت⁴ (البراكة / Baraque) هرمة كأن عهدا يرجع إلى مئات السنين. شيدت من الخشب أو الطوب أو الطين أو الزنك أو الحجارة التي لا يمكنها حماية ساكنيها من الحشرات والفئران والحر والرطوبة والبرد. ففي جانفي - فبراير سنة 1954 شهدت الجزائر موجة برد

¹ - هاشم نعمة، قراءة في كتاب المهاجرون والتميز العنصري الجزائريون في فرنسا (1900-1962)، الحوار المتعدن، العدد 1241، 2005/06/27.

² - هاشم نعمة، مرجع سابق.

³ - L. Massignon. Op. Cit. P: 266.

⁴ - أنظر ملحق رقم 15.

قاسية لم تشهدها سابقا، انتهت بهلاك الكثير من الجزائريين رغم ظهور "حركة الكفاح من أجل السكن" الأورو- جزائرية التي كانت تدافع عن حق جميع طوائف الجزائر في الحصول على سكن لائق،¹ وتتنيد "الأب ببيير" بسياسة فرنسا في مجال السكن²، وجعلت الصحف تصرح بأن 1500 عائلة جزائرية لا تجد خيمة واحدة تسكنها، تفتش ضوء النجوم في فصل الشتاء الذي يبدأ مع منتصف شهر أكتوبر ولا ينتهي حتى أواخر شهر ماي³. وفي تلمسان كانت شريحة واسعة من الجزائريين يقطن أكواخا ومغارات تحت المقابر غير بعيدة عن مرآى وأعين السلطات الفرنسيين. بعضهم يعيش بـ 14 أو 15 فردا في وضعية مزرية، في غرفة واحدة لا تتعدى مساحتها 10م³، تتعدم فيها الإنارة، وتتمر قريبا قنوات صرف المياه القذرة⁴، وتعاني من انتشار النفايات، وانعدام وجود الماء الصالح للشرب، والرعاية والخدمات الاجتماعية⁵، والتجهيز بالمجاري العمومية والمشاكل والأخطار الناجمة عنها. يلجأ السكان إلى بيت خلاء مشترك، أو التخلص من الفضلات في الخلاء، أو وضع بعض الحفر التي تفرغ كلما امتلأت مما يساعد على جذب الذباب والحشرات التي تكون سببا في مشكلات صحية كثيرة نفسية وجسمية واجتماعية. وهذا ما دفع أحد قاطني هذه الأحياء إلى القول: "إننا نعيش هنا مثل الحيوانات، أنظر إلى منزلي إنه ليس منزلا. إن الفرنسيين يعاملوننا جميعا كالحيوانات... هنا لا كرامة لي"⁶.

¹ - Caroline Brac De La Perriere. Op. Cit. P: 71.

² - Nabhari Kouriba et autre. Des Africains s'interrogent. 1^{ère} édition. éditions de vieux colombier. Paris. France. 1955. P: 112.

³ - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op. Cit. P: 100

⁴ - Henri Alleg et autres. La guerre d'Algérie. T 1. de l'Algérie des Origines à l'Insurrection. éditions Temps actuels. Paris. France. 1981. Temps actuels. Paris. France. 1981. PP: 145-146 .

⁵ - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975 ، ص 103.

⁶ - Pierre Bourdieu et autres . Travail et travailleurs en Algérie. Op. Cit. P: 306

تعداد عدد العائلات الجزائرية في الغرفة الواحدة ¹	
عدد العائلات	عدد العائلات
03	03
04 (14 فردا)	04 (14 فردا)
07 (12 فردا)	07 (12 فردا)
32 عائلة (11 فردا)	32 عائلة (11 فردا)
63 عائلة (10 فردا)	63 عائلة (10 فردا)

2 - 1 - دوافع الإقامة بأحياء الصفيح:

أ - الدافع التاريخي والطبيعي: يعود إلى قلة الأمطار والأوبئة الزراعية، وبصفة أساسية إلى انتزاع الاستعمار الفرنسي أراضي الفلاحين الجزائريين بالقوة، وإعطائها للمعمرين الباحثين عن الثروة والعدوان على أراضي غيرهم . وحجة المعمر في ذلك إدماج الفلاحين الذين وضعهم في صف الفقراء الاجتماعيين² قسرا وبصورة جماعية في سوق قوة العمل التي يحتاجها في المدن.

اشتدت هذه الظاهرة في الجزائر منذ سنة 1948 التي بلغ فيها عدد سكان المدن حوالي المليونين نسمة، لكن ما إن اندلعت ثورة التحرير المباركة سنة 1954، حتى تحولت المناطق الريفية والجبليّة إلى معقل من معاقل الثورة. وهذا ما أكدته أحد تقارير جبهة التحرير الوطني سنة 1959 التي جاء فيها بأن: "التجنيد يكون

¹ - D. Mohammed Ben Aissa Amir. Op. Cit. P:329 .

² - شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، ترجمة: المنجي سليم وآخرون، ط1، الدار التونسية للطبع، تونس، 1976، ص 56.

مضمونا، فجيش التحرير الوطني وكثير من جنودنا هم من الفلاحين، إننا نحصي حوالي ستة من الفلاحين بواحد من المدنيين في أعدادنا. فهناك عمال زراعيون، وفلاحون، وصغار الملاكين، ومناضلو المدن، وكل هذا المزيج تم بسرعة¹ و" حينما كنا نذهب الأيام الأولى لتنفيذ عملية عسكرية كان الفلاحون والقرويون يهتفون لنا ويطلقون البركات...باسم الأولياء...وفي أقل من 6 أشهر... ولم يعد يتحدث عن الوالي والقديس وإنما عن السلاح والذخيرة ومدافع الهاون"². وهذا ما جعل الاستعمار الفرنسي يُحول الكثير من هذه المناطق إلى مناطق محرمة³، ويجبر أصحابها (810.000) على الفرار منها⁴.

لم تقتصر ظاهرة الهجرة على الجزائريين فقط، بل تعدتها إلى العائلات الأوروبية. حيث انتقل عدد الذين كانوا يعيشون في المدن من 64% سنة 1886 إلى 80% سنة 1954⁵ رغم المغريات المادية المختلفة التي وضعتها السلطات الفرنسية للتأثير على الأوروبيين قصد تعمير الأرياف وتجنب سيطرة الأهالي عليها. لكن تقارير رؤساء البلديات الذي أنجز سنة 1952 تحت عنوان "جزائر نصف القرن" دق ناقوس الإنذار عندما أعلن النقص الفادح للتعمير الأوروبي بالأرياف. فبعدما كان عدد الأوروبيين يناهز 472.000 في 46 بلدية ذات طابع حضري، انخفض إلى 125.000 سنة 1952⁶.

ب - الدافع الاجتماعي والاقتصادي: لعبادورا طلائعيا في إنشاء أحياء

الصفائح، حيث يفوق وزن البذور المزروعة في بعض المواسم، الإنتاج المتردي

¹ - عيسى شرايطية، الريف الجزائري في السينما الاستعمارية، الصورة والأيدولوجيا، دراسة سوسيوولوجية، رسالة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 1993، ص 73.

² - المرجع نفسه، ص 73.

³ - عمار بوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا، مرجع سابق، ص 131.

⁴

⁵ - جوان غليسي، مصدر سابق، ص 43.

⁶ - Mohamed Harbi. La Guerre Commence En Algérie. 1954. La Mémoire du siècle. 1^{ère} édition. édition complexe. Bruxelles. Belgique. 1984. P: 82.

بسبب معاناة اقتصاديات الريف من اضطرابات عنيفة وقسوة بالغـة¹ صاحبـتها تقلب التحولات البيئية الناتجة عن الزراعة الحديثة، و الاعتماد على الوسائل التقليدية مثل المحراث الخشبي والحيوانات الهزيلة التي كانت تشهد تراجعاً خطيراً، والجفاف الذي اجتاح عمالة وهران بين سنوات 1945 - 1947، وغياب البلديات التي بإمكانها إعادة إدماج الفلاحين في قراهم، وغياب السكنات المريحة الدائمة²، وانتشار الفوضى وتحطيم المقاييس في النظام القبلي الذي كان معتمداً في الريف بسبب التقهت الذي تعرض لها منذ بداية الاحتلال الفرنسي، وقلّة فرص الشغل ووسائل العيش داخل الفضاء الريفي، ورغبة الأهالي في تحقيق جزء من طموحاتهم المحدودة بين الأوروبيين³، واقتباس الشباب معالم الحضارة الفرنسية خاصة في المدن الأكثر تنظيماً وتطوراً. ليعيشوا في حياة غير مستقرة على نطاق واسع، أملاً في إمكانية الزواج من الفرنسيات لتحسين مستواهم المعيشي والاندماج في الحضارة الغربية، والحصول على أجر منتظم، وحاجة الأوروبيين إلى اليد العاملة في ورشات البناء والأشغال العمومية لما حظيت به المناطق الحضرية من امتيازات خاصة⁴. صاحبـتها معاناة انعدام النظافة، والظروف البيئية السيئة كالانتشار الواسع للأوساخ والنفايات المنزلية والقمامات، وانتشار رهيب لظاهرة البراغيث الحاملة للطاعون، و الجرذان الحاملة

¹ - هنري كلود، أندري برينان، إيف لاکوست، مرجع سابق، ص ص 39-45

² - Robert Descloitres. Op. Cit. PP: 95-97.

³ - Antoine Argoud. La Décadence. l'Imposture et la tragédie. édition Fayard. PARIS. 1974. P: 110.

⁴ - A. Ben Achenhou. L'exode rural en Algérie . Alger. ENAD. 1979. P: 04

للأمراض الخطيرة (الإسهال، والحمى التيفودية، والكوليرا، والسل¹) التي تصيب الجهازين الهضمي والتنفسي².

لم تكن هذه الهجرة جماعية في كثير من الأحيان بل كانت فردية، أي يهاجر رب العائلة الذي اغتصبت أرضه وفقد عمله في الريف، ثم تلحق به عائلته عندما يحصل على عمل في المدينة التي يستقر بها بصفة دائمة³. لذلك يظل جميعهم متمسكين بطباع وقيم تختلف عن سكان الحضر⁴. يشتغل القليل منهم بالأعمال والحرف اليدوية غير الزراعية، لأن هذه الأخيرة تعتبر أهم مورد رزقي يعتمدون عليه في معيشتهم، وما ينجر عنها ويرتبط بها من خصائص اجتماعية وثقافية ونفسية. مما يجعلهم حريصين على توزيع دخلهم البسيط، وإقامة علاقات متينة وعميقة وبسيطة كل البساطة مألوفة كل الألفة⁵ تدوم أمدا طويلا بينهم. لأن عماد التفاعل بينهم مبني على الإرادة الإنسانية والمصلحة العامة، وتجانس السكان، ووحدتهم وتاريخهم العريق، واقتناعهم واعتدالهم، وتماسكهم وتضامنهم في المناسبات المفرحة والأليمة بشكل آلي تحت تأثير عنصر القرابة أو رباط النسب أو العصبية والعادات الحميدة التي يتوارثونها عن آباؤهم وأجدادهم من إغاثة الملهوف واحترام الكبير وإعانة الضعيف ورعاية حقوق الجار.

¹ - كتب الدكتور بريسو مقرر ميزانية الصحة عام 1954م في الجزائر أن من بين 120 مريضاً يراجعون عيادة السل لا يلقى العناية منهم سوى 30. أما الباقون فأسلموا إلى الموت. أنظر: محمد عزت الطهطاوي، مرجع سابق، ص ص 22-23.

² - بلغت نسبة الوفيات سنة 1954 حوالي 194% من الجزائريين وإلى عدم تجاوز عمر الجزائري 60 سنة. كما كان 25% من الأطفال يموتون قبل بلوغ سن الخامسة من العمر. أنظر: أكاديمية العلوم السوفيتية، مرجع سابق، ص 342.

³ - Marcel Larnaude. Op . Cit. P: 102

⁴ - عبد الحميد بوقصاص، النماذج الريفية - الحضرية لمجتمعات العالم الثالث في ضوء المتصل الريفي الحضري، مخبر التحولات والتنمية الكبرى في المجتمع الجزائري، جامعة باجي مختار، عنابة، دت، ص 68.

⁵ - محمد ديب، مصدر سابق، ص 188.

يصف صاحب رواية الحريق بأن الرجل منهم: "قاس، صلب، إن وجهه وجه مقاتل قوي الشكيمة" ¹. ذو "فراصة لا يخطئ...يحسب الحساب أفضل من المرابط...ينتبا مسبقا بتساقط الثلوج والجليد، ويعرف جميع الأمثال التي بمثابة قوانين للطبيعة التي تكشف الأفعال المفاجئة للمتغيرات الجوية، ويعرف كيف يلاحظ الحشرات والطيور والحيوانات، ويفهم ما تبلغه له عن الطبيعة... وقيل أنه كان قويا جدا، طويل الهامة، كث الشعر، يأكل كالثور ويعمل مثله . لأنه يلتزم بما يمليه العرف والعادات والتقاليد التي يحدد مقاييسها الجنس أي الذكور ثم الإناث و كبار السن، الأولاد الكبار فالصغار، وسيادة الثقافة التقليدية ، والتغير البطيء في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، الخالي من التطور الحقيقي والمعرقل لحركة التقدم الاجتماعي باعتبارها "مستتقع راكد يدعى بالمجتمع التقليدي"². بسبب بساطة ورتابة الحياة الاجتماعية.

أثرت بشكل أو بآخر الإقامة في هذه الأحياء على مؤثرات البيئة الاجتماعية³ سواء داخل الأسرة أو داخل الفضاء الاجتماعي، وعلى المبادئ والقيم السائدة في ها نتيجة التفاعل المستمر بين الفرد ومحيطه، تبعا لعوامل ثقافية واجتماعية، وحراك اجتماعي وفيزيقي. ينتج عنه تغير في مكونات البناء الاجتماعي والثقافي، وتنوع الظروف المادية والمعنوية التي يمكننا حصره ا في الآتي:

1 - قيم دينية تقليدية تتمثل في قيم الدين الإسلامي التي كانت سائدة في

المجتمع الجزائري المستمدة من المذهب المالكي حيث تشكل جزءا هاما من قيمه الاجتماعية في الريف والمدينة. لأن الحديث عن هذه القيم في الجزائر المستعمرة

¹ - Mohamed Dib. Op. Cit. PP: 151-152

² - رابح كعباش، النظام السياسي والتحويلات الاجتماعية في الريف الجزائري، رسالة دكتوراه، قسم علم الاجتماع، جامعة قسنطينة، 2000، ص 172.

³ - مما يبقي هذه الفئة دائما في أسفل سلم الترتيب الاجتماعي ، فلا ترتقي ثقافيا ولا فكريا. لأن أحياء الصفيح هي الفضاء الفضفاض الأمي الذي لا ينبج إلا الأميين والذين يقبلون بأي عمل كان بغض النظر عن كونه مهنة دنيا.

هو حديث عن خطاب مليء بالحنين إلى الحياة الاجتماعية في الدوار والقرية أو في الأحياء الشعبية في الحارة والحومة التي تشكل رمز الوحدة والصمود والمقاومة.

2 - قيم ريفية* : انتقلت بانتقال المهاجرين الجدد إلى المراكز الحضرية عن

طريق الهجرة الريفية، خاصة وأن عملية التمدن ليست كعملية التحضر، فإذا كانت عملية التحضر تعتمد على مؤشرات مادية وعمرانية، فإن التمدن عملية تحتاج إلى فترة زمنية طويلة، لكي تظهر أثارها على الحياة الاجتماعية ونمط الحياة في المدينة، لأنها سيرورة من اكتساب القيم الاجتماعية ونمط حياة خاص بالمدينة.

3 - المجتمع الجزائري المدني والتحويلات الجديدة:

3 - 1 - التحويلات الديموغرافية:

- يحدث النزوح الريفي خلخلة في التركيبة السكانية وتوزيعها وخصائصها. خاصة وأن النسبة الكبيرة من المهاجرين تكمن في العنصر الحيوي المتمثل في الشباب (بين 15 و 30 سنة) بسبب توافر فرص عمل تناسب الذكور أكثر من الإناث. وقد مست هذه الحركة الإجبارية للسكان سنة 1958 حوالي 539.000 في مستغانم ووهران وتيارت وتلمسان وسعيدة. وشكلت نسبتهم سنة 1960 حوالي 24.8% من عمالة وهران. منها 15.1% في مستغانم و 10.4% في وهران و 25.3% في تلمسان و 73.3% في سعيدة¹.

- التحضر الزائف: هو هجرة الفرد دون التخلي عن قيمه الريفية المتمثلة في العادات والتقاليد وكثرة الولادات وكبر حجم العائلة، دون أي تغيير إيجابي في مستواهم المعيشة. فتصبح الهجرة مجرد تغير في محل الإقامة فقط.

- اختلاف عدد سكان المدن بالليل عن النهار بسبب رحلة العمل اليومية

والجلوس في المقاهي ولعب الدومينو والورق.

¹ - une expérience de déplacement de population. les centres de regroupements en Algérie. Annale de Géographie. Paris. Nov-Déc. 1962. P P: 600-608

- أدى الطرد الجبري الذي قامت بها السلطات الفرنسية ضد السكان المحليين، إلى إرغامهم على مغادرة الأراضي الزراعية الخصبة في وهران وتيارت وتلمسان وسيدي بلعباس التي يزيد فيها التساقط عن 50 سم¹ إلى المناطق الجبلية الشديدة الحرارة والبرودة والتضرس والتناقص في خصوبة التربة الخالية من المجاري المائية والمراكز الحضارية الكبرى²، وعدم كفاية المؤسسات الخدمائية هربا من الظلم والقهر وحفاظا على أرواحهم³.

- تراوح معدل الهجرة الداخلية بين 10 و 126% وبين 13.1% وهو الحد

الأدنى في تلمسان⁴، وهذا ما لاحظناه لدى العنصر الأوروبي الذي هاجر الأرياف نحو المدن في عمالة وهران بسبب الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية للأزمة الاقتصادية العالمية حيث هاجر 5.300 معمر أرياف العمالة نحو مدنها⁵.

الحركة العامة للسكان الأوروبيين والجزائريين ⁶				
1948		1936		السنوات
الأهالي	الأوروبيون	الأهالي	الأوروبيون	السكان
63.539	9.253	45.852	10.800	في الريف
42.400	46.900	43.250	43.913	في المدينة
105.935	56.153	84.062	54.713	المجموع

¹ - السعيد مويبي، مرجع سابق، ص 124.

² - المرجع نفسه، ص 70.

³ - المرجع نفسه، ص 64.

⁴ - المرجع نفسه، ص 230.

⁵ - C. R. Ageron. Histoire de l'Algérie contemporaine. T2. Op. Cit. P: 476.

⁶ - George Reutt. Quelques Aspects de l'économie rurale de l'arrondissement de SBA. document dactylographié. 1935. P: 41 . .

يتضح لنا أن التذبذب سواء في توزيع السكان أو نموهم في عمالة وهران ليس له نمط معين، فهناك فترات ترتفع فيها نسبة المواليد وفي أخرى تتخفض بسبب انخفاض معدلات المواليد وارتفاع الوفيات من البالغين ، و فرض التجنيد الإجباري على الشبان الجزائريين خلال الحربين العالميتين ، وارتفاع الوفيات بسبب انخفاض المستوى الصحي والمعيشي بين السكان ، و انخفاض عدد سكان الريف الناجم عن هجرة الفئات القادرة على العمل والإنجاب مما يؤدي إلى انخفاض عدد المواليد بين سكان الأرياف وبقاء معدل الوفيات على ما هو عليه. وهكذا سيرتفع عدد سكان المدن¹ ويقل عدد سكان الأرياف بعمالة وهران وخاصة في مدينة وهران التي استقطبت 1525.603 أوروبي مقابل 48.068 من الأهالي، مع الارتباط الدائم بأماكن ولادتهم وتواجد عائلاتهم.

عدد السكنات الجديدة التي شيدها الإدارة الفرنسية سنة 1954 في العمالات الثلاث ²	
1195+	الجزائر
379	وهران
342	قسنطينة
1946	المجموع

¹ - لكن المدن الصغرى والمتوسطة الحجم مثل سيدي بلعباس وسعيدة ومعسكر ومستغانم، ستعرف تدبداً في عدد سكانها بسبب هجرة سكانها نحو المدن الكبرى مثل وهران. أنظر: C. R. Ageron. Histoire de l'Algérie contemporaine. T2. Op. Cit. P: 186. سابق، ص 235.

² - استفاد الأوروبيون من معظم هذه السكنات، تلاهم بني وي وي من الجزائريين، فقلة قليلة الجزائريين البسطاء. أنظر: Service Algérie. Quelque Aspects de problèmes économiques et sociaux. Op. Cit. P: 39.

3 - 2 - التحولات والاجتماعية والاقتصادية: إن الحديث عن أحياء

الصفوح (الدوار النصف حضري) يتداخل في أبعاده ما هو اجتماعي واقتصادي وطبيعي وثقافي وديني... ويطلق لفظ أحياء الصفوح على الفضاء المكاني المحاي د للمدن الاقتصادية الكبرى التي "يقطنها الأوروبيون... حيث التناقض صارخا بين العمارات الكبيرة"¹، والحياة المادية المترفة²، والحدائق والكثافة السكانية المرتفعة، وحجم المهن المتصلة بالنمو الاقتصادي، والمنازل الفخمة الفاخرة على شاكلة البيت العتيق الذي بناه جد المستوطن الفرنسي ماركوس في تلمسان.

كانت هناك أحياء إيطالية وأخرى إسبانية وبعضها مالطية... تحمل داخلها كل القيم والتقاليد الاجتماعية والثقافية والمغايرة لقيم ومعتقدات المجتمع الجزائري. كانت شوارعها نظيفة وواسعة، بنيت في زمن قياسي وتميزت ب "مظاهر خارجية متعددة، وعوالم داخلية متنوعة، هي بألف وجه... تري كلا من الناس الوجه الذي يريده"³، بها المرافق الحيوية والورشات والمصانع والأرصفة الجميلة التي أخذت من الحضارة الأوروبية روحها الاستعمارية العنصرية التي تخدم مصالح وطموحات المجتمع المستوطن، تقابلها الأحياء البائسة مثل المدينة الجديدة حيث أظهرت العديد من الدراسات، أن السكان المقيمين بها والمولودين خارجها كانوا يمثلون نسبة 46.96%، وأن حي "القرابة" وغيره من الأحياء بسيدي بلعباس يشهد على النزوح الكثير للمطرودين من الأرياف بسبب تردي أوضاعهم⁴ الأمنية

¹ - العربي ايشبودان، مرجع سابق، ص 190.

² - P. Berthault. Op. Cit. 1931. P: 09

³ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مصدر سابق، ص 259.

⁴ - المرجع نفسه، ص 215.

والاقتصادية والاجتماعية واستسلامهم للقضاء والقدر. وأما مدينة مستغانم فقد كان 50% من سكانها من النازحين الجدد¹.

درجة الرفاهية في المساكن الأوروبية في البلديات الحضرية للمدن الثلاث الكبرى في الجزائر سنة 1958 ²						
منطقة قسنطينة		منطقة وهران		منطقة الجزائر		
المسلمون	الأوروبيون	المسلمون	الأوروبيون	المسلمون	الأوروبيون	
15965	34675	37072	74969	57583	88232	
34675	37072	74969	57583	88232	مجموع المساكن	
*** شروط التهيئة العصرية ³						
13013	33049	21967	68416	32312	83947	كهرباء الإنارة
119	119	133	183	241	223	كهرباء-القوة المحركة
249	824	167	1800	226	1875	الإنارة و القوة المحركة
1186	16766	2219	138099	4657	61395	غاز المدينة
1509	6812	3715	21323	2549	16285	الغاز السائل
9580	31685	8246	57835	18331	81794	مصدر الماء متوفر في المسكن
984	1206	1792	1792	4231	1531	مصدر الماء

¹ - صاري جيلالي، محفوظ قداش، المقاومة السياسية 1900-1954، الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، سلسلة "الجزائر في التاريخ"، رقم 5، تر: بن حراث عبد القادر، ط 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 215.

* تكاثرت بشكل عشوائي قرب الأحياء الراقية. أنظر: الجيلالي صاري، محفوظ قداش، مرجع سابق، ص 266.

² - Statistique Générale de L'Algérie. Tableaux de l'Economie Algérienne 1958.

Imprimerie Baconnier. Alger. S.d.

³ - IDEM.

						متوفر في الطابق نفسه
4025	1581	11198	10335	15343	2831	مصدر الماء متوفر في الساحة
1220	366	16322	4857	19041	1914	مصدر الماء قريب من المسكن
188	2567	84	2522	138	3726	التدفئة المركزية
806	9249	532	14981	1222	806	الحمام
4461	19083	5656	39221	13992	71726	دورة المياه في داخل المسكن
1865	2608	3585	7899	8708	4689	دورة مياه خاصة خارج المسكن

يصف لنا السيد امحمد لمقامي في مذكراته صورة المنزل القديم الذي كانت تقيم فيه عائلته فيقول: "يقع بيتنا ... مستندا إلى منازل أخرى قديمة كوّنت مع مرور الزمن مجموعة مترابطة من بنايات جد بسيطة. ويقع المسجد الكبير في ناحية منزلنا، كان الناس كلهم يستيقظون فجر كل صباح عندما يشرع جارنا المؤذن العجوز في آذان الفجر بعدما يسعل عدة مرات ليرطب حلقه¹. كان في " درب طويل مظلم أحيانا وضيق جدا ، وبه عادة حنفية عمومية يتزود منها السكان بالماء الذي كثيرا ما وُجِدَ به العلق، وما أكثر عدد الأطفال داخل وخارج ذلك المنزل. عادة ما لا تُلوَّنُ جدرانه مما يضاعف حزن وبؤس هذه الأمكنة. في ساحته أحيانا بئر وقبائله مرحاض وحيد. غالبا ما يضطر الرجال لاتخاذ احتياطاتهم بالدخول مرحاض المسجد غير البعيد عن المنزل. وقبل الدخول إلى المنزل، ينبغي على

¹ - محمد لمقامي، رجال الخفاء، مصدر سابق، ص 18

الرجل أن يسعل بقوة ليفسح المجال للنساء بالاختفاء. لأن عائلات كثيرة كانت تسكن نفس المسكن لكل واحدة منها غرفة أو غرفتان" ¹ بسبب بؤس هذا الطبقة البروليتارية، وسوء حالتها المادية وعدم قدرتها على كراء أو شراء منازل جديدة رغم ارتفاع القروض الممنوحة للمقاولين الخواص من 83 مليون فرنك سنة 1954 إلى 252 مليون فرنك فرنسي سنة 1959²، التجأ النازحون إلى تشييد البيوت القصديرية بوسائل بسيطة كانت منبع قلق كبير في الأوساط الأوروبية، ومصدر كل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية في المدينة. تُبقي مصالح السكان الأهالي حسب المعقول وفي نسقها المتخلف ³، وتظل في نهاية المطاف تتميز بنموه السرطاني سواء على مستوى النمو الديمغرافي ، النمو السكني، و العلاقات الاجتماعية السلبية، وما يرافق ذلك من أخطار ومشاكل اجتماعية تعبر عن بؤس دائم ⁴ وتغيير حياة الفرد والأسرة تغييرا كلياً.

النسبة 1% 2.833 من القصر المحكوم عليهم في السجون الجزائرية ⁵			
أقل من 13 سنة	بين 13 و 16 سنة	بين 16 و 18 سنة	نسبة الفتيات
14	36	50	05.22

¹ - المرجع نفسه، ص 62.

² - Elsenhans Hartmust . Op. Cit. P: 706.

³ - CAOM. Rapport du M^r Corbusier à la séance du plan de la région d'Alger. Op. Cit. P: 02.

⁴ - A. Noushi. Le sens de certains Chihhres. Croissance Urbaine et Vie Politique en Algérie (1926-1963). In mélanges à Charles André Julien. Paris. Puf. 1964. P: 209.

⁵ - Christian Sanchez. La protection de l'enfance : regards De quelques institutions Protection judiciaire de l'enfance en Algérie : Le secteur associatif (1945-1963.). Revue d'histoire de l'enfance « irrégulière ». N° 1. 1998. P: 1998.

وجد بعضهم ضالته في الأحزاب السياسية التي سيفجر من خلالها غضبه ويأسه من أنانية وظلم وغطرسة ولا مساواة المستوطنين، ومن الاستعمار الفرنسي، ومن المدينة مملكة البؤس والتعاسة التي اقترب موعد التخلص منها¹.

4 - انعكاساتها:

رغم أن مشروع قسنطينة تعهد بتوزيع السكن على حوالي مليون شخص² لإيواء السكان المتوحشين³، وتكوين طبقة متوسطة من الجزائريين تشكل قوة موالية لفرنسا وإدماجها في المجتمع الأوروبي، وتقريبها واحتكاكها بالوحدات الإدارية الخاصة وتزويدها بمختلف المعلومات، وتغيير تركيبتها السوسيوثقافية لكسب ولائها بعد تحسين مستواها المعيشي، لتحل مشكل التمرد⁴، وتكون عقبة في وجه أي أفكار تحررية⁵. لم تستطع المدن الكبرى تحمل الهجرات المتتالية نحوها، ولم يتمكن أيضا هؤلاء النازحون من التكيف مع النمط الجديد سواء في أسلوب المعيشة أو في نمط الحياة البعيدة عن معايير وقيم الحياة الريفية التي ألفوها وتعودوا عليها. ولم يدركوا أيضا حجم المأساة التي كانت تنتظرهم سواء في انعدام سكن يحفظ كرامتهم الإنسانية، وعمل يقيهم شر الهوان والجوع والأمراض، ورفض ولفظ أهل المدينة لهم ولسلوكاتهم القروية.

ضمت أحياء الصفيح (القيتوهات الجديدة) جمهورا غفيرا من العمال العاطلين عن العمل الذين قال عنهم "علاق" بأن نساءهم وعجائزهم وأطفالهم.. كانوا يصطفون لوقت طويل وهم جائعون ينتظرون الطعام. ولشد معاناتهم من الجوع أكلوا ثمار

¹ - Annie Rey-Goldzeiguer Aux origines de la guerre d'Algérie, 1940-1945. De Mers-El-Kébir aux massacres du Nord-Constantinois . Éditions La Découverte. coll. Textes à l'appui. 2002. P: 63.

² - DGGGA. Direction du plan: le plan de Constantine Alger. 1960. Op. Cit. P: 336

³ - IDEM. P: 228.

⁴ - André Gorz. Op. Cit. P: 1152 .

⁵ - Elsenhans Hartmust . Op. Cit. P: 709.

الصبار والبلوط ونوع من الخبز ولم يكن من الخبز في شيء في حقيقة الأمر¹، فهم يتصفون بصفة العامل في حين ليس لهم أي عمل.

لم يحمل معظم أرباب الأسر القاطنة بهذه الأحياء شهادات علمية أو مهنية لذلك اتجهوا نحو المهن الحرة المعروفة بالربح القليل. فهم إما باعة متجولون يشترون علب السجائر أو الموز والبرتقال والبطاطس بأسعار زهيدة، ليعيدوا بيعها في الطرقات، أو يشتغلون في البقالة وحمل البضائع أو الحراسة في الأحياء الأوروبية ... بالإضافة إلى مهنة أخرى مهينة لم يكونوا يمتنوها أو يقبلوا بها في السابق². المهم أن يحصل الواحد منهم على أجر يومه³ الذي لا يتجاوز بضع فرنكات في اليوم الواحد رغم ما يتعرض له يوميا من أصناف الإهانات والتجريح الاجتماعي الذي لم يسبق ولم يكن ليقبل به عندما كان مقيما بالريف.

كان صاحب العمل يستغل عدم اشتراط العامل الجزائري المسلم لعدد ساعات العمل ونوعيته، كما كان يستغل جهله لأبسط أبجديات الحروف والحساب، فيدون - دون خوف من ثورة النقابات - على فاتورة الأجرة أضعاف المبلغ⁴ الذي يتقاضاه هذا العامل. مع العلم أن قوافل عديدة من النازحين البطالين كانت قد سبقته إلى المدينة وقد تنقض على أجره الزهيد.

¹ - Henri Alleg et autres. La guerre d'Algérie. T 1. Op. Cit. P: 130.

² - ذكرت زوجة بائع بيض في تلمسان أن زوجها كان يقوم بأي عمل يصادفه دون أن يكثرث بقيمته الاجتماعية والاقتصادية. أنظر: Pierre Bourdieu et autres. Travail et travailleurs en Algérie. Op. Cit. P: 269.

³ - Pierre Bourdieu. sociologie de l'Algérie. Op. Cit. P: 58

⁴ - Pierre Bourdieu et autres. Travail et travailleurs en Algérie. Op. Cit. P: 269.

توزيع الدخل الفردي قبل اندلاع الثورة التحريرية ¹ . (الوحدة: الدولار)				
دخل الفرد شهريا	الجزائريون	الأوروبيون	المجموع	الفئة أو الطبقة
45	5.480.000	-	5.480.000	الزراعة التقليدية
121	1.600.000	-	1.600.000	سكان المدن المسلمين
240	510.000	440.000	950.000	صغار ومتوسطو الأجر
502	50.000	245.000	295.000	الطبقة المتوسطة
3.181	-	15.000	15.000	الطبقة الرأسمالية

شهدت المدن بسبب تحسن طرق المواصلات وسهولة الاتصال بين القرى والمدن، وبفضل النازحين الجزائريين حركة سياسية وكرهية إلى كل ما هو أوروبي، فراحوا ينخرطون في الأحزاب الوطنية ويتتبعون أخبار ما كانوا يجهلونه سابقا من حقوق وديمقراطية وحقوق الإنسان، وشهدت خلق مهن جديدة ووظائف جديدة²، وانتعاشا اقتصاديا كبيرا تمثل في زيادة الإنتاج وتحسنه بسبب تزايد اليد العاملة الوفيرة والرخيصة، والنمو الديموغرافي السريع، فازدهرت قطاعات واسعة مثل وسائل النقل والتجارة والصناعة والبنوك التي لم تمكّن يوما هذا الوافد الجديد من السيطرة عليها بقدر ما كانت تأخذ منه باليسار ما تقدمه له باليمين.

¹ - عبد المالك خلف التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي (دراسة تاريخية مقارنة المغرب العربي - فلسطين - الخليج العربي)، سلسلة عالم المعرفة، العدد 71، 1983، ص 32.
² - يحدث هذا في فترات معينة فقط وبعدها لا يستطيع الاقتصاد المدني خلق وظائف جديدة مما يؤدي إلى انتشار البطالة والأمراض الاجتماعية.
* اعتبر بمثابة الفندق لكن تكلفة المبيت كانت رمزية. وقد لعب الحمام دورا كبيرا في الثورة الجزائرية، حيث كان مركزا لتناقل أخبار الثورة بعيدا عن أعين الاستعمار.

5 - الطحطاحة، المدرس، المدينة الجديدة، المقهى، الحمام *، الفضاء

الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في عمالة وهران:

أصدر الجنرال دو لا مرسيار قرارا بتاريخ 20 يناير 1845 "يسمح بإقامة قرية أهلية خارج الجدران، بعيدا عن هضبة كارجينطة (Karguentah) التي شوهرتها كثرة الخيام والأكواخ"¹ الخربة التي أقامها الأهالي، والتي تفتقد إلى التهوية والإضاءة، وتخفي داخلها "ثقافة الفقر" المتمثلة في الوساخة والأمراض والفقر وغياب الوعي الطبقي² والتفكك الشخصي والاجتماعي³. لقد ارتأت السلطات الاستعمارية أن تخصص هذه المساحة الشاسعة البعيدة عن وسط المدينة التي أطلق عليها اسم القرية الزنجية⁴ المتميزة بشكلها الهندسي المربع، وبأزقتها المتوازية المتقاطعة. تحدّها أربعة شوارع : من الجنوب شارع "الجنرال بورباكي" حيث المقبرة اليهودية، ومن الشمال شارع "الجنرال سيريز" حيث التكنتان العسكريتان، ومن الشرق شارع "بول دومير" حيث المتحف الوطني "أحمد زبانة" والثانوية "عبد الحميد بن باديس"، ومن الغرب شارع "إدوار هيريو" حيث تجارة الجملة. وكان شارع الجنرال بورباكي يسيطر نهاية المدينة الجديدة⁵ حيث يلتقي السكان الأهالي لفصلهم عن المستوطنيين الفرنسيين الذين كانوا يقصدون مقاهي وملاهي لبلاد، لذلك كان على كل مواطن جزائري من أي منطقة من الوطن يريد زيارة سيدي وهران في ذلك الوقت أن يأتي إلى الطحطاحة ليأخذ قسطا من الراحة فيها، باعتبار

1 - اندهش الكاتب من هذه التسمية الغربية التي لم يجد لها مبررا ما عدا وجود بضع عائلات ذات بشرة سوداء. أنظر: René Lespès. Oran ? étude de géographie et d'histoire urbaine. Paris. Collection du Centenaire 1830-1930.1936. P: 106

2 - إسماعيل قيرة، عبد الحميد دليمي، سليمان بومدين، التصورات الاجتماعية ومعاناة الفئات الدنيا: مرجع سابق ص 200.

3 - حميد خروف بلقاسم سلاطنية وإسماعيل قيرة، الإشكالات النظرية والواقع، مجمع المدينة نموذجا، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، 1999، ص 36.

4 - Houari Chaila. Oran. Histoire d'une Ville. E. D. I. K. Oran. 2002. P: 106.

5 - منتديات الجلفة لكل الجزائريين والعرب.

أنها كانت ملتقى لجميع العرب والمسلمين حسب الاعتقاد والتصور الاستعماري آنذاك طبعا.

تواجدت عند مداخل هذه الساحة الشهيرة المتواجدة في قلب المدينة الجديدة عدة إسطبلات فيها علف وحدادة توضع فيها كاليشات يمتطيها المواطنون الذين يأتون إليها من كل مكان من أجل التجارة المتعددة التي كانت تمارس على الأرصفة والقطع الأرضية التي خصص بعضها للجزارين والخضارين¹. وكان الباعة المتجولون يضطرون إلى المبيت والاعتسال في الحمامات التي هيأت له جواربها وأسرتها مثل حمام الساعة وحمام بن حواس وحمام السبع وحمام الغالمي وحمام المزابي التي كانت معدة بأسرتها وجواربها. يأتون مبكرين من كل فج وصوب ليحجزوا قطعا من الرصيف عبر الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب. يعرضون بضاعتهم التي يتجمهر حولها المشاهدون أو المشترون وعدد غير قليل من المروجين لسلعهم حتى يقع في ظن المشاهد أنها سلعة ذات رواج فيقبل عليها. فمن بائع عطور إلى بائع أدوات منزلية، أو علاج شعبي مدعي أنه قادم من الصحراء يمسك في يده جلد ثعبان أو بيضة نعامة للدلالة أنه قادم من الصحراء، ينادي ويعدد بأعلى صوته منافع ومزايا عقاره الجديد للبيونة المفاصل والأطراف². أما من أراد الحلاقة فكان يقصد "الحقاف" الذي يجمع بين ثلاثية الحلاقة والحجامة والختانة. ومن أراد الترفيه عن النفس كان يقصد "الحلقة" التي كانت تنظم بالتوازي مع السوق الأسبوعي. حيث يقيم "المداحون" والشيوخ خيما³.

ما إن تطأ قدم أي زائر هذا الحي الجديد حتى يكاد ينسى أن هناك لغة فرنسية غريبة تنافس اللغة العامية في هذا البلد. فاللوحات التي تزين واجهات

1 - تم جمعهم في سوق سيدي عقبة الذي كان وراء إقامته السيد سويح الهواري ورفاقه المكونون للهيئة الثانية في المجلس البلدي لمدينة وهران سنة 1954 .

2 - فايد عمر هوار، مفاهي وهران حنين إلى فنجان بنين، جريدة الجمهورية، العدد 4595، الأربعاء 20 ربيع الثاني 1433 هـ الموافق لـ 14 مارس 2012 م ص ص 12-13.

3 - المرجع نفسه، ص 12.

المحال التجارية كتبت بالحروف العربية ليس إلا، خلافا لما كان يجري في أسواق أخرى من المدينة"¹. ولا يصل إلى سمع المرء إلا اللهجة الوهرانية إن كان في وهران واللهجة العباسية إن كان في سيدي بلعباس ، والتلمسانية إن كان في تلمسان...

قبل الحرب العالمية الثانية كانت مقاهي الطحطاحة أماكن عامة يحضرها الكثير من المداحين والشعراء المعروفين الذين كانوا يأتون في كل مرة إلى وهران وسيدي بلعباس لتنظيم أمسيات وسهرات شعرية يلقونها على مسامح المواطنين الذين يحبون هذا النوع من الفن الشعبي الأصيل الهادف، الملتزم. لكاشيخ حمادة، والشيخ عبد القادر الخالدي وعبد المولى بلعباس، والشيخ المدني الذي كان ينشد غناء ديوان شاعر بني عامر مصطفى بن إبراهيم وأشعار الخالدي. كانت الأجواء عائلية وحميمية. فما إن يحضر شاعر من الشعراء حتى تمتلئ المقاهي عن آخرها² بالزائرين القادمين من مستغانم ومعسكر وغليزان وسيدي بلعباس وتيارت.. يستمعون بإمعان إلى ما يقوله الشيوخ من قصائد ذات معاني وأحكام هادفة وملتزمة تحمل العديد من الأمثال والحكم التوعوية والتربوية³، وكانت الإدارة الفرنسية تراقب بحذر شديد ما يقوله ويقدمه الفنانون* في هذه المجالس، وكل ما يتم تداوله من الأحاديث المشبوهة ويُتَناقلُ من أخبار⁴ وأوامر وإشاعات.

اعتبر الكثير ساحة الطحطاحة خشبة مسرح تحوي فسيفساء متنوعة من الثقافات، لهذا كثيرا ما كانت المقاهي بها رمزا تحصن الثقافة المحلية بروحها

1 - المرجع نفسه، ص 30.

2- قايد عمر هواري، مرجع سابق، ص 12.

3- منها قصيدة " أصحاب البارود والكرابيلة" للشاعر الشيخ الحناني التي حرّض فيها الناس على الالتحاق بالجبل ومحاربة الاستعمار. وهي القصيدة التي دخل من أجلها السجن. أنظر: قايد عمر هواري، المرجع السابق، ص 12.

* كانت الرقابة على حق لأن الشعر والغناء فن خطير؟! ينشر الوعي الوطني، ويؤهل الناس إلى اللحظة الحاسمة، لحظة الثورة.

4- ومما كان يُبيّن من إذاعة "صوت العرب"

وتاريخها كوجه نقيض للثقافة الكولونيالية المهيمنة التي أسست لنفسها مؤسساتها وبنياتها وأشكالها في الضفة الأخرى لمدينة وهران وسيدي بلعباس وغيرهما من مدن عمالة وهران متمثلة في مركز المدينة (سيدي بلعباس)، كانت محاطة بالثكنة العسكرية للفيف الأجنبي وبالبنوك الناشئة وبالكنيسة والمسرح والمقاهي ذات الطراز العمراني الكولونيالي الحديث.

شاركت في إحياء مناسبات ثقافية، ورياضية، ودينية خالدة ومعروفة لدى الجزائريين المسلمين كالمولد النبوي ورمضان وعيدي الأضحى والفطر. كانت هذه الاحتفالات تدوم أسبوعا كاملا، ولساعات متأخرة من الليل، تزينها فرق الفانتازيا والعروض والرقصات الشعبية وطلقات البارود. يجلس المدعوون على الحصير أو "أمام الطاولات الخشبية داخل المقهى ... يرتدون الجلابيب، والعمامات الصفراء والكنابيش البيضاء، والبرانيس الغامقة والسوداء، ويرتدون السراويل التقليدية ذات شكل اللوبياء، يتكيفون سجائر الشعرة، وأمامهم الشاعر الذي يبدأ في نظم أبيات شعرية تمدح الرسول ﷺ وتبارك بعودة الشهر الكريم باليمن والبركات على جميع المسلمين، وتدافع عن الهوية الثقافية للجزائريين وتزويدهم ألفة وتلاحما، وتحافظ على الدين الإسلامي. هذا إضافة إلى الخبز الذي كان يطهى عند كوشة (فرن) مصطفى، وأطباق الحلوة كالسفنج التونسي والحلويات الشرقية كالشامية والزلابية وصبع القاضي و(القازوز) والكسكس. وكانت القهوة الممزوجة بالحليب¹ والمُحلاة بعلف التمر وطحين العنب، والمطهأة في أفران الموقدة بمادتي الحطب والفحم. تقدم للزبائن مشروبا ساخنا على صحن صغيرة مفضضة²، في أكواب من الفخار، وبأثمان منخفضة لأن هذه المقاهي كانت مفتوحة لجميع شرائح المجتمع سواء الأغنياء أو ذوي الدخل المتوسط وحتى الفقراء والمساكين.

1 - قايد عمر هواري، مرجع سابق.

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 05، مرجع سابق، ص 434.

كانت كل مقهى مختصة في البث الموسيقى في أي يوم من أيام الأسبوع، كما كانت تبث أغاني المغنيين المصريين والجزائريين. فكانا "تجد قهوة فريد الأطرش، وقهوة عبد الحليم حافظ، وقهوة أم كلثوم، وقهوة إسمهان. وقهوة مقدود المجاهد التي كانت تذيع أغاني محمد عبد الوهاب منها أغنيتي "أيها الراقدون تحت التراب" و"أحب عيشت الحرية". وقهوة بن دومة التي كان يتردد عليها كل من أحب وعشق لعبة "البارود والكاربيلا" رمز القوة والرجولة والبطولة¹، وقهوة سي ابراهيم التي كانت تنظم سهرات غنائية من الطرب الشعبي والحوزي للفرنسيين والجزائريين معاً، والتي غالباً كان يرتادها الكثير من الفنانين الجزائريين أمثال الحاج محمد العنقاء والحاج منور وفضيلة الدزايرية . وقهوة الوداد التي خصص صاحبها سي بن عبد الرحمن مكاناً حوله إلى قاعة للصلاة ومنتدى الخطباء يجتمع فيه المناضلون والقادة. ولما علمت السلطات الفرنسية بذلك قامت بغلق المقهى وتحويله إلى مركز للاستخبارات ، وحولت قبوه إلى مركز للتعذيب² . وقهوة باريس³ ، ولومبير⁴ ، وفرساي⁵ وقهوة قلاطي التي كانت تُنشط بها أوركسترا الموجي بعض الحفلات والأمسيات الغنائية، وقهوة بوبكر الدوايدي التي احتضنت مجاهدين وشهداء قدموا لنا أروع التضحيات أمثال الشهيد أحمد زبانة وحمو بوتليس، وحارس المولودية السابق فريجة بن يوسف، والملاكم البارع طابلي ، والملاكم الشهير قوديح واللاعب السابق للوفاق الإسلامي لوهران، وعبد القادر مانا بطل فرنسا في رفع الأثقال.

1 - قايد عمر هواري، مرجع سابق .

2 - المرجع نفسه.

3 - بسيدي بلعباس تحول اسمها بعد الاستقلال إلى مقهى الصومام.

4 - بسيدي بلعباس تحول اسمها بعد الاستقلال إلى مقهى لومبير.

5 - بسيدي بلعباس تحول اسمها بعد الاستقلال إلى مقهى الإتحاد.

من النادر حضور الأطفال الصغار هذه المجالس الشعرية الشعبية لأنها كانت مقتصرة فقط على كبار السن . أما الشباب منهم، فقد كانت لهم مقاهي خاصة بهم¹ تقدم لهم ما تُطرب له آذانهم وما يعشقونه² من الفن الجزائري مثل الشيخ العنقيس والشيخ بن سمير المدعو الطير الأبيض، أو من الفن المصري العنيف ولاسيما بعض الفنانين المشهورين الذين سطع نجمهم في سماء أم الدنيا منهم فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ والفنانة الكبيرة أم كلثوم وإسمهان.... يذيعها أصحاب المقاهي عبر آلات موسيقية³. وكانت هناك مقاهي أخرى لنشر الوعي السياسي الثوري⁴ الذي مكّن العديد من الشباب من الانخراط في الحركة الوطنية فيما بعد مما جلب لها سخط الإدارة الاستعمارية⁵. ومقاهي أخرى للرياضيين العاشقين لكرة القدم كقهوة فريق ليمو (الوفاق الإسلامي لوهران)، وقهوة الترجي الإسلامي الوهراني⁶، وقهوة الإتحاد الرياضي الإسلامي لوهران (ليزمو) الذي تأسس سنة 1926. هذه المقهى التي كانت تمتلئ به بمناصرو الفريق من كل مكان من الباهية لمساندة الفريق ماديا ومعنويا أو لتأليف الأغاني الشهيرة التي كانت تهتز على وقعها مدرجات الملاعب عندما كان فريقهم يقابل إحدى فرق "القور":

ليزمو تلعب السبور و ما تبغيش لي يكفر
ليفرار بن جهان أريار كوم اين باريار

1 - فاق عدد المقاهي بالطحطاحة الأربعة مقهى.

2 - كان أصحاب المقاهي يعلقون صورة هؤلاء الفنانين في مقاهيهم، وغالبا ما كانت تلك الصور بأيدي رسامين جزائريين.

3 - قايد عمر هواري، مرجع سابق، ص 12.

4 - كانت بمثابة خلايا نائمة للوطنيين.

5 - Quotidien d' Oran du 02/12/2008. N° 4250

6 - كان حمو بوتليليس وراء تأسيس هذا الفريق

لم يختلف "المدرس" في تلمسان عن المدينة الجديدة والطحطاحة، لأنه كان سوقاً دائمة وسط تلمسان العتيقة. وكانت ساحته تغص دوماً بجمهور غفير، بعضهم يبيع بصوت عالي السلعة بالمزايدة (حصائر وقَفَف الحلفاء، والزرابي، وسروج الخيل، والبلاغي المطروزة¹، وصحون خشب الجوز والقدور والجرّات والأباريق) ومن حولهم المقاهي ذات الطابع العربي² التي يسمع فيها موسيقى عالية للشيخ العفريت والشيخة "طيّطما" والشيخ "حمادة" والشيخ "المداني" و"فريد الأطرش" والموسيقيار "محمد عبد الوهاب" وغيرهم من المغنين. يستمر صياح البائعين والعربات التي تجرها الحمير والنشاط التجاري المتميز من الساعة السادسة صباحاً إلى الثامنة مساءً، لتصاحبه رثة سندان الحدّاد بانتشار مزيج من رائحة المرقاز وشيش والكباب ولمسّمّن والزلابية والكرانتيكة الأكلة الإسبانية المصنوعة من مسحوق الحُمص³ و"لهريسة" المهياة بالدقيق واللوز والعسل والتوابل المعروضة بكميات معتبرة في أكياس مفتوحة موضوعة أمام أبواب الدكاكين التي تباع الحصائر والأغطية والجلابيب واليوانس وسلعاً أخرى من الصنّع المحلي⁴ للزبائن القلائل بالدين في انتظار بيع الحصيرة يوم الاثنين المقبل، فيطلبون ربع لتر من الزيت ورطلاً من السكر أو نصف لتر من النفط للقنديل وأحياناً يكتفون بعلبة بسيطة لعود الثقاب. وغير بعيد عن هذه المقاهي التي تباع عادة الشاي بالنعناع توجد حوانيت وإسطبلات ترى فيه الناس والحيوانات في نشاط حثيث، يُستعمل مخزناً لسلع التجار المتنقلين، وفي كل جهات الطابق العلوي توجد غرف لإيواء المسافرين. وفي أعلى ذلك المكان بقليل تجد السوق يبيع فيها صغار التجار الفلاحين القادمين من ضواحي المدينة على ظهور حميرهم أو في عربات تجرها البغال محصولهم الفلاحي من الخضر والفواكه (البطاطا و اللفت و الطماطم و الفلفل و الخوخ..) واللحوم.....

¹ - اشتهرت تلمسان بهذا النوع من النسيج. أنظر: يحيى بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 327.

² - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 74.

³ - المصدر نفسه، ص 61.

⁴ - المصدر نفسه، ص 98.

2 - الهجرة الخارجية:_____ة:

أ - أسبابها:

أ - أ - الأسباب السياسية:

كثير من المفكرين يعتبرون الهجرة الجزائرية نحو فرنسا، ظاهرة استعمارية كانت نتيجة القوانين الاستثنائية واضطهاد قادة الأحزاب السياسية والطبقة المتقفة، وتجريد الجزائريين من أدنى حقوقهم، وانعدام حرية الرأي والاجتماع والصحافة¹ والثقة بين الجزائريين والفرنسيين. وفي هذه الظروف القاسية والصعبة، لم يجد الجزائريون من سبيل سوى الهجرة إلى فرنسا.

أ - ب - الأسباب الاقتصادية والاجتماعية:

مكّن الاستغلال الاقتصادي للجزائر، حثالة المستوطنين من الحصول على سلطات واسعة وظفوها لصالحهم للبقاء الدائم في الجزائر، لسلب أوسع مساحة من الأراضي الزراعية التي بلغت سنة 1954 حوالي 15 مليون هكتار من الأراضي الزراعية ومليون هكتار من المراعي والغابات التي كانت تؤمن ربع (01 مليار سداة) سدادات القارورات المصدرة نحو فرنسا²، أعطيت للشركات الصناعية الأوروبية مثل شركة الخشب الفرنسية وشركة الحلفاء والفلين السويسرية. جعلت أحد المستوطنين الفرنسيين يكتب رسالة إلى أخيه يقول فيها: "إذا سألتني أين استقر الاستعمار، أقول لك أنه إلى الآن قد انحصر في المضاربة بالتملكات، يلعبون هنا بالأراضي لعبة البورصة"³، وشهد آخر فقال: "كنا ننام مشردين ونستيقظ ملاكا"⁴ إضافة إلى ما شهدته الجزائر من انخفاض في الإنتاج

¹ - يحيى بوعزيز، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، صص 241-242.

² - Saint Germs. L'économie Algérienne. Alger. 1955. P: 66 .

³ - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op. Cit. PP: 50 53.

⁴ - Jean Mirante. La France et les œuvres indigènes en Algérie. Pub. Du comité nationale Métropolitain du centenaire de l'Algérie. Alger. 1930. P:1.

الزراعي سنة 1954 إلى 200 ألف هيكتولتر من زيت الزيتون بعد أن كان 500 ألف هيكتولتر سنة 1948. 1 مليون قنطار من الحبوب بعد أن كان إنتاجه 21 مليون قنطار سنة 1908. و 4.350.000 رأس غنم مقابل 8.200.000 رأس سنة 1921¹.

فشلت سياسة التصنيع في الجزائر لكونها واجهت معارضة كبار الفلاحين والدوائر التجارية والمالية الفرنسية لجعل الجزائر بلدا زراعيا، وسوقا تجارية ومصدر ثروة مكملة للاقتصاد الفرنسي. إذ كما صرح مدير الشؤون الاقتصادية للإدارة العامة الفرنسية بالجزائر قائلاً: "ليس علينا الشروع في تصنيع الجزائر لأن ذلك يضعنا بصفة مستمرة في موقف عدائي بالنسبة للصناعة الفرنسية"². ونظرا لاختفاء الكثير من الصناعات التقليدية المحلية التي لم تعد تقتصر إلا على بعض المدن في عمالة وهران مثل تلمسان حيث تحول 3/4³ عمالها المتخصصين في صناعة الجلود والطرز إلى حرفيين أو فقراء بطالين، وتساعد الضرائب وقلة فرص العمل، وتدهور أجور الجزائريين. وتشير الإحصائيات الرسمية أن من بين 300.000 عامل في الصناعة والتجارة، يحصل حوالي 200.000 شخص على أقل من 20.000 فرنك فرنسي شهريا. و 51.300 شخص على ما بين 12.000 و 16.000 ف، و 39.875 بين 16.000 و 20.000 ف. وأن أبا لأربعة أطفال يتقاضى 7.600 ف مقابل 27.744 ف يتقاضاه الفرنسي في فرنسا⁴.

لم تسمح هذه الأجور المتدنية للعامل الجزائري بتحسين مستواه الاجتماعي والاقتصادي. علاوة على تسخير الجزائريين في الأعمال المنحطة مثل مسح

¹ - حمادة البخاري، فلسفة الثورة الجزائرية (دراسة في الأسس الفلسفية لثورة نوفمبر التحريرية)، جامعة وهران، ص96.

² - فيكس ليون، الجزائر حتف الاستعمار، تر: عايدة وسهيل إدريس، دار العلم للملايين، بيروت، ب ت، ص ص 10 - 11.

³ - سعد فؤاد زغلول، الجزائر في معركة التحرير، دار الكتاب الشرقية، تونس، 1957، ص 58

⁴ - Jeanne Coulan. Les femmes, indigènes. Semeur. Samedi. 13 Janvier 1936. P: 03.

الأحذية والعمل في الطرقات والموانئ وعمل النساء في منازل الفرنسيات، لغسل واجهات الدكاكين وسلاليم العمارات ، أو عند أصحاب المؤسسات الخاصة لصناعة الأحذية، أو الطرز، أو أكياس التبغ¹ أو تقنيات الرسم على الألبسة التقليدية لغياب أدنى تكوين مهني لهن مقابل مبالغة زهيدة لا تتجاوز ثلاثة فرنكات للساعة الواحدة².

رغم هذه الظروف القاسية والبانسة للجزائريين، فإن المستوطنين والشركات الصناعية في عمالة وهران، رفضوا كل إصلاح تقدمت به الحكومة الفرنسية منها قانون العطل المدفوعة الأجر الذي طبق في الجزائر بدءا من 20 أوت 1936، وقانون 40 ساعة من العمل³، بحجة عدم وجود يد عاملة جزائرية متخصصة، وأنه سيضاعف من الأزمة التي تعاني منها صناعة الحديد والصلب في الجزائر، لذلك سارعت فرنسا إلى إصدار مرسوم 21 أبريل 1939 القاضي ب 45 ساعة عمل في الأسبوع⁴.

لم يبق للجزائريين من أمل سوى الهجرة إلى فرنسا للبحث عن فرصة عمل، والحصول على مرتبات تضمن لهم معيشتهم، وتلبية طلبات عائلاتهم المتكونة من عدة أفراد والتي كانت تعيش في حالة عوز كبير، يقيمون في أحياء قصديرية، تتعدم فيها أدنى المرافق الصحية الضرورية، و أكواخ حقيرة تضم أكثر من عشرين شخصا، ويعانون من الفقر والأمراض الناجمة عن البرد القارص، لأنهم كانوا يعملون بأجور بالكاد تسد رمقهم ورمق عائلاتهم. وبدون عقود عمل رسمية. ويؤكد

¹ - Charles-Henri Favord. Les documentations de tribune libre. La révolution Algérienne. Plon Paris. 1959. P: 125.

² - Jacques chevalier. Nous Algériens...1^{ère} édition. Paris. Clamann - Levy. 1958. P: 87.

³ - R.E.A. Chambre de commerce d'Alger. 5^{ème} Année. Op. Cit.

⁴ - عمار بوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا، مرجع سابق، ص 155 .

"لويس شوفالي" بان الأولوية في عقود العمل كانت تقدم للوافدين من منطقة القبائل بالجزائر، و"الشلوح" بالمغرب الأقصى في إطار "فرق تسد"¹.

هاجر ما يقرب من 500.000 جزائري إلى المدن والمناطق الصناعية الكبرى مثل باريس وضواحيها لما تقدمه من فرص كبيرة للتشغيل، ومرسيليا ذات المناخ المتوسطي والصناعة والزراعة والميناء الهام الذي كان يسيطر على النشاط التجاري في البحر المتوسط. واستقطبت مناطق التعدين في الشمال عددا من المهاجرين بسبب تطورها الصناعي الكبير. وبما أن معظمهم كان من الفلاحين² الذين أوصدت السلطات الفرنسية - بالجزائر - في وجوههم مراكز التكوين، فقد فرض عليهم الاستقرار في المناطق الزراعية غرب فرنسا، أو العمل الشاق في المناجم والمصانع والأعمال³ الوضيعة التي كانت في السلم الأخير من الوظائف هناك. فاستقر التجار الذين كانوا أصحاب مطاعم وتجار مشروبات والسجاد المصنوع في الجزائر والأواني الفخارية والخضر والفواكه في منطقة باريس ومرسيليا وليون وبوردو⁴.

انطلاقا مما سبق ذكره، أكدت العديد من الدراسات على ارتباط الهجرة

بظاهرتي العرض والطلب، وتفاعلها بعوامل الطرد والجذب. وتدمير البنية الاجتماعية للمجتمع التقليدي، والإكراه والقمع، والسلب الضخم لأراضي الجزائريين وطردهم منها عن طريق سن القوانين الجائرة، وفرض الضرائب الهائلة عليهم، وتحطيم صناعاتهم المحلية التقليدية بتحويل الحرفيين إلى عمال كادحين، والظروف الاقتصادية السيئة، و العوز الأمراض والمجاعة في ريف الجزائر المستعمرة، وارتفاع نسبة النمو الديموغرافي حيث بلغت نسبة المواليد 31% سنة 1936،

¹ - أكاديمية العلوم السوفياتية، (تاريخ الأقطار العربية)، دار التقدم، موسكو، 1975، ج 2، ص 342.

² - جان بول سارتر، عارنا في الجزائر، تر: عابدة وسهيل إدريس، جار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ، ص ص 14 - 17.

³ - L . Chevalier . Op. Cit. P: 169.

⁴ - يحيى بوعزيز، آثار السياسة الاستعمارية، مرجع سابق، ص 219 .

وانتشار البطالة التي بلغت سنة 1948 9.4% بسبب توسع دائرة العمال الموسمين أو الفصليين، والعمال البطالين الذين لم يتمكنوا من الاندماج ضمن المجتمع العمالي¹، سواء لكبر سنهم أو عجزهم الصحي عن العمل، واتساع دائرة الفقر المدقع والمجاعات، ونوعية السكنات (القرابي والخيم)². وعدم الاستقرار السياسي. أما عنصر الجذب، فيتمثل في الطلب المتزايد على اليد العاملة غير مؤهلة، البائسة الفقيرة لاستغلالها في الاقتصاد الفرنسي الذي عانى الأمرين خلال الحربين العالميتين في عدد الوفيات وانخفاض شديد في نسبة الولادات³.

وجد المهاجرون الجزائريون في فرنسا منطقة أكثر جاذبية لأن فيها ما يلبي حاجاتهم الأساسية التي فقدوها في الجزائر⁴ رغم أنهم يعيشون في بيئة اجتماعية منخفضة المستويين الاجتماعي والاقتصادي المتمثلة في الأجور الزهيدة والأعمال العضلية المنحطة في السلم الاجتماعي، والقاسية والخطرة مثل المناجم، والموانئ، وسبك المعادن ودباغة الجلود، وتنظيف الشوارع... وارتفاع نسبة المحرومين منهم من الامتيازات الاجتماعية التي كانت تمنح بشكل واسع للأوروبيين مثل التعليم والعلاج والضمان الاجتماعي والمنح العائلية التي كانت تستنزف الخزينة الفرنسية بسبب استفادة الأطفال الجزائريين حيث بلغت 300 فرنك فرنسي سنة 1960⁵ مما جعل الأمين العام للحكومة العامة يستنكر ذلك ويصرح بأن الحكومة الفرنسية ترغب "في تحديد سقف الولادات بثلاثة أطفال بالنسبة للعائلات الجزائرية"، فضلا عن ارتفاع الأسعار الذي لم تصحبه ارتفاع الأجور مما أدى إلى اختلال قانون العرض والطلب وتعاسة الجزائريين الذين كانوا يسكنون "الأكواخ الحقيبة وبيوت

¹ - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op. Cit. P: 158.

² - Bernard Augustin. Enquête sur l'habitation rurale des indigènes. Alger.S D. PP: 17- 18.

³ - عمار بوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا، مرجع سابق، ص 154.

⁴ - عبد المالك خلف التميمي، مرجع سابق، 09.

⁵ - Elsenhans Hartmust . Op. Cit. P: 723

الصفائح التي توجد بكثرة... لا نجد لها نظيرا في الدول الأوروبية عامة" ¹ وقد عبّر عن هذا الاستغلال البشع، والفقر المدقع، العقيد "لاوورو" (Laouro) أمام الجمعية الجزائرية، بتاريخ 22 ديسمبر 1953 عندما قال: "إن عمال الحلفاء الذين يعيشون على جهودهم حوالي مائة ألف جزائري في أشهر الشتاء، هم أقل العمال الزراعيين في الأجور، إن عمل 11 ساعة متواصلة في جمع الحلفاء ونقلها للشركات...يدر على العامل 230 فرنكا فقط. أي بمعدل 20 فرنكا للساعة الواحدة. فإذا أخذنا بعين الاعتبار المصروفات التي كان يصرفها العامل لإعاشة حيوانه الضروري للعمل (كالحمار أو الجمل)، أصبح الصافي في الساعة الواحدة أقل بكثير من عشرين فرنكا" ². ولا عجب إذا ما رأيناه "لا يأكل إلا خبزا من الشعير وقليلًا من اللبن، ولا يستهلك من القهوة والسكر إلا قليلا، أو لا يستهلكها إطلاقا، ولا يستعمل الزيت ولا الصابون" ³.

أحدث الهجرة الخارجية انقلابا حقيقيا في تركيب التراتبية الاجتماعية، حيث لم تسمح فقط بتحسين مداخل الأسر الجزائرية في عمالة وهران، بل ساهمت في تغيير "الحدود الاجتماعية" التي كانت تفصل بين فئات المجتمع. إذ أصبحت عائلات المهاجرين تحتل المراتب الأولى في ترتيب الهرم الاجتماعي للأهالي على المستوى عمالة وهران، بينما تحتل أسر غير المهاجرين المراتب الدنيا. وأصبح الاحترام والتقدير اللذان يحظى بهما المهاجرون في مناطقهم الأصلية ما كان ليتحقق لولى هجرة أحد أفراد عائلتهم إلى الخارج. ولم تعد ملكية الأرض أو النسب الشريف يحددان مكانة الشخص في مجتمعه كما كان الأمر سابقا، بل بعض مظاهر التفاخر والترف الذي يحض به المهاجر بعد عودته إلى بيئته الأصلية ⁴. كما غيرت من واقع المرأة الجزائرية المهاجرة، فلم تعد تقبل بتبعيتها المطلقة للرجل، ولا بكونها

1 - نشرة حزب الشعب الجزائري، بدون تاريخ، ص 26

2 - سعد فؤاد زغلول، عشت مع ثوار الجزائر، بيروت، دار العلم للملايين، 1960، ص 62.

3 - نفس المرجع.

4 - الحسين بوظيلب، مرجع سابق، ص ص 69-70.

وسيلة من وسائل الإنجاب وإعادة الإنتاج الاجتماعي، بل تغيرت حياتها بشكل ملموس، وتنامى دورها في تدبير وتنظيم أسرتها، واتخاذ القرار. وقد تمت هذه الخطوات تدريجيا عن طريق الترخيص من الأب أو الزوج الذي كان مهاجرا ولم يعد يتردد في مصاحبته أثناء تنقلاتها، مما أدى إلى تحولات اقتصادية واجتماعية، وتقسيم في المسؤولية بين الطرفين سويا، وتحمل المرأة جزءا منها.

تعداد المهاجرين الجزائريين من عمالة وهران نحو فرنسا سنة 1950 ¹	
81	وهران
-	معسكر
1.688	مستغانم
-	سيدي بلعباس
-	تيارت
7.854	تلمسان
9.623	المجموع

¹ - Institut national d'études démographiques. les Algériens en France. PUF. Paris. 1955. P: 93

أ - ج - الأسباب العسكرية:

أدى تواجد الجزائريين كمجندين في فرنسا إلى احتكاكهم بالثقافات الأوروبية المختلفة، وإدراكهم لطبيعة التعامل الاجتماعي الموجود في فرنسا الذي يبنى على أساس احترام حقوق الإنسان وقبول آراء الغير، عكس المستوطنين في الجزائر الذين لفظوا الجزائريين سياسيا واجتماعيا وثقافيا ولاحقوهم. لأن الجزائريين " يعتبرون كجنس متخلف ويخضعون لقوانين خاصة ويعملون برواتب الجوع¹. نتيجة لتواجدهم في فرنسا، ومخالطتهم للوسط السياسي الجديد هناك، نما لديهم الوعي بهويتهم الوطنية الجزائرية المتميزة عرقيا وثقافيا وحضاريا، ونما شعورهم بوضعيتهم الاجتماعية المزرية، وخضوعهم للامحود للمستعمر الفرنسي. لذلك تمكنت جبهة التحرير الوطني من تعبئتهم، والتغلغل في أوساطهم. اعتقد الكثير من المهاجرين أن المصاليين هم من فجر ثورة الفاتح نوفمبر². لكن ج. ت. و اجتهدت في تكثيف لقاءاتها مع المهاجرين. الذين تلقى عدد منهم بيان أول نوفمبر. يقول محمد حربي بأنه من الخطأ إذا الاعتقاد أن الإكراه وحده يدفع الجزائري لجبهة التحرير الوطني. كان المفهوم المخل بالشرف لمفردات الخيانة والنذب عاملا قويا في جمع الجزائريين حول الجبهة³ وتمكن محمد بوضياف من إقناع العديد من أعضاء حركة الانتصار للحريات الديمقراطية بالانضمام إلى جبهة التحرير الوطني، وتسليمها أموال الحركة وبعد عمليات الشرح والإقناع، بدأت الجالية الجزائرية تغيير اتجاهها خاصة بعد إنشاء فيدرالية جبهة التحرير الوطني.

¹ - Abbas Farhat . Le jeune Algérien (1930). Ed. Garnier. Paris. 1981. P: 53.

² - Jacques Kergot. La communauté Algérienne en France. le Monde. Juillet-Aout 1987.

³ - IDEM.

الفصل الرابع

السياسة الصحية الاستعمارية في القطاع الوهراني:

ترى إليزابيث لونغينيس بأن الصحة والمرض مفهومان محددان اجتماعيا، يختلفان حسب الزمان والمكان اعتمادا على خبرات وممارسات وتصورات الفئات الاجتماعية والمهنية بما فيها الأطباء . وهذه المفاهيم مفيدة في رصد التغير الاجتماعي. وبمعنى آخر إنها حالة التكامل الجماعي والروحي الذي يتضمن الاعتقاد بوجود قوة عليا ومتعالية للوجود تجمعنا. ويربطها الجميع بالمعتقدات والمذاهب والممارسات السلوكية الدينية والطرق التي توصل الإنسان إلى راحة النفس والبال. يقول: ﷺ "مَا أُوتِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْمَعَافَةِ"¹ ويقول ﷺ أيضا: "عباد الله تداؤوا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء، إلا الهرم"². وقوله ﷺ "مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ يَحْسَبُ ابْنُ آدَمَ أَكُّ لَاتٍ يُقَمِّنُ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَتَلْتَّ لِطَعَامِهِ وَتَلْتَّ لِشَرَابِهِ وَتَلْتَّ لِنَفْسِهِ"³.

1 - الطب في خدمة الحركة الاستعمارية:

كانت الظروف الصحية للمجتمع الجزائري مقهورة وبائسة، فإذا كان مرض الطاعون قد اختفى من أوروبا فقد كان متفشيا في الجزائر حتى منتصف القرن التاسع عشر، صاحبه عدة جائحات خطيرة أخرى نتيجة نقص التغذية والفقر⁴ بأبشع صورته، وقلة النظافة، والجفاف والأمراض البوائية مثل فقر الدم وتضخم الطحال، والجذري الذي أدى في حالا كثيرة إلى الإعاقة والعمى . فضلا عن العدد الكبير من وفيات الأطفال⁵ والكوليرا، والإسهال والتهاب الرئة الذي أخذ قسطه الوافر في المناجم أو بسبب ارتفاع الأسعار، حيث ركن المسلمون الجزائريون إلى

1 - حديث شريف.

2 - حديث شريف.

3 - حديث شريف.

⁴ -D. Panzac. Endémies. épidémies et population en Égypte au XIX^{ème} siècle. GREPO. L'Égypte au XIX^{ème} siècle. Éditions du CNRS. Paris. 1982. P: 220.

⁵ -Yvonne Turin. Op. Cit. P: 314

ظل اقتصاد الكفاف. فتخلوا عن أكل اللحوم إلا في المناسبات والحالات النادرة، وقلَّ استهلاك الحبوب، والمياه الصالحة للشرب. فكان الفقر ونقص التغذية¹ والمرض والموت، وعدم قدرة سكان الأرياف على الذهاب إلى المدن للقيام بالفحوصات اللازمة وسعى الاستعمار إلى عولمتها في المجتمع المحلي. إضافة إلى الموت والإعاقات نتيجة العنف المباشر المتمثل في مصادرة الأراضي وإعادة تنظيم الاقتصاد المحلي ليكون في خدمة اقتصاد الميتروبول ومصالح المستوطنين، والتعذيب في مخافر المخابرات . وتكيف الطب مع أنواع متعددة من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأخذت الخدمات الطبية أشكالاً مختلفة، وأحيانا متعارضة حسب المنطقة، والطبقة، والمرحلة التاريخية.

لم تكن الرعاية الصحية الخجولة للأهالي وطب المجتمع والإجراءات التي تضمن صحتهم وسلامتهم همًا رئيسيا للإدارة الفرنسية غير المبالية برفع مستوى الخدمات الاجتماعية للأهالي بقدر ما كانت مهتمة بالعنف المباشر لفرض الأمن² ضدهم، وخنق الحريات السياسية، والسيطرة القمعية الهادفة إلى تحديد المخاطر والتعامل مع تهديدات الأوبئة.

استُخدمت الطبابة في مفهوم الإدارة الاستعمارية المتطرفة، كوسيلة ومشروع وأداة سياسية نفعية (وليست فعلا إنسانيا) وبيدولوجية قهرية للسيطرة على السكان المحليين المتخلفين والجهلة الخطيرين*، لترويضهم وتغريبهم، وكسب قلوبهم وعقولهم، وتحقيق المصالح الأمنية للمستوطنين*، والحفاظ على قوة العمال العبيد³ في عمالة وهران من أجل انتزاع أقصى الإنتاج والأرباح ولكن فقط حسب

¹ - D. Panzac. Op. Cit. P: 120

² - لأن الجزائريين لم يكونوا صادقي الولاء نحو فرنسا * حتى المتقنين منهم كانوا يعانون من الاحتقار والسخرية والدونية: "لا مناص من الاعتراف أن الطالب المسلم محتقر... من طرف زميله الفرنسي الذي يعتبره في مرتبة أحط منه"، ويؤكد أحمد طالب الإبراهيمي قائلا: " و لا أتذكر اليوم بأنني دخلت غرفة طالب أوروبي" أنظر: غي بارفلي، مرجع سابق، ص 75. وأيضا: طالب الإبراهيمي، مذكرات جزائري، أحلام ومحن، ج 1، دار القصب للناشر، الجزائر، 2006، ص 65.

³ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، مرجع سابق، ص 24.

احتياجات الرأسمال الاستعماري. ولما كانت الاحتياجات وتوفير العمل غير منتظمين، فقد كان النظام الطبي متقلبا باستمرار¹. فإن اجتاح العمالة وباء شديد وقضى على عدد كبير من السكان، وأدى إلى نقص اليد العاملة وارتفاع في الأجور. هلع المستوطنون من هذا التهديد لأرباحهم، وسعوا إلى إقناع إدارتهم الاستعمارية بتخصيص أموال إضافية لتحسين الخدمات الصحية وتخفيض معدل وفيات الأطفال ليتضاعف عدد السكان. ثم سرعان ما يعودون إلى تطبيق النظام المالتوسي لمعالجة المشكلة السكانية المتفاقمة وغير المنظمة آملين في تقليص كمية العمل الفائض الذي كان في الوقت ذاته تهديدا سياسيا. تكون نتيجتها:

- قلة الاستثمارات الحكومية في القطاع الصحي² التي لم تتجاوز 45 مليون

فرنك فرنسي سنة 1961 بعدما كانت 23 مليون فرنك فرنسي سنة 1954³.

- ليست الخدمات الصحية "حقا" يجب على فرنسا أن تكفله بالمجان لجميع

رعاياها بالتساوي لأنها تتعارض مع المبدأ المقدس في حصول المستوطنين دون غيرهم على تعليم عال وعناية صحية، وتقدم اجتماعي.

- فاقمت نظرة الازدراء إلى الجزائريين المسلمين الطابع الأخلاقي في

المجال الصحي من قبل الكولون، فلم يُسمح بالالتحاق والتخرج من الكلية المختلطة

للطب والصيدلة سوى 15 طالبا أهليا مسلما من بين 334 أوروبي سنة 1919،

وعشرة (10) طلبة سنة 1921، ولم يحصل سوى خمسة (05) من الأهالي على

دبلوم في الصحة منهم طبيبين وقابلتين من الدرجة الأولى، وقابلة من الدرجة الثانية

¹ - كان الجزائري المسلم يمشي عدة كيلومترات لشراء الأدوية، لأن نقابة الصيدالو كانت تحظر على الصيدلي المسلم أن يفتح صيدلية في المحيط الذي يهدد مصالح زملاءه الأوروبيين . أنظر: D.

Mohammed Ben Aissa Amir. Op. Cit. P:78

² - أنظر ملحق رقم 17.

³ - Elsenhans Hartmust . Op. Cit. P: 721.

و12 ضابط صحة¹. ودعما لهذه السياسة الفرنسية، فقد كانت المدارس والجامعات كما كان تطبيب المجتمع الجزائري وسيلة لا غاية. تتمثل في المحافظة على قوة العمال (البروليتارية المعدومة) من أجل انتزاع أقصى الأرباح وملاءمة احتياجات الكولون، و"قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا مسيحيين وشعوبا مسيحية. لكن حينما يخطوا التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض والنبات وخيرة الجراحين والأطباء.. فإننا لا نتردد في أن نقول أن رسالة مثل هذه قد خرجت عن الد بين التبشيري المسيحي إلى مدى علماني محض مثل هذا العمل لا يمكن أن تقوم به الجامعات التبشيرية التي تسعى إلى أهداف روحية فحسب"².

كانت السياسة الطبية تخدم مصالح الاستعمار الأوربي بشكل مباشر . وغالبا ما كان الأطباء الأوروبيون يعملون كوكلاء للدعاية الكولونيالية، وجمع المعلومات، والتجسس على جمهور السكان ، ورسم الخرائط، و تعداد عدد السكان والموارد الطبيعية، وإحصاء الآبار والقرى وطرق المواصلات، والعمل كحرس متقدم لمكتب شؤون السكان المحليين وفي بعثات العسكرية في الأقاليم المختلفة لعمالة وهران . ليصرفوا الانتباه عن بعثات الاستخبارات، و يجمعوا المعلومات من المرضى. وفي هذا الشأن روى لنا السيد "بلمامون" أنه خضع للتعذيب والاستتطاق في أحد المستشفيات وهو مقيد اليدين³. وأكثر من ذلك أهمية، حصولهم على معلومات حول التركيبات السياسية التي يمكن أن تلعب كأساس للسيطرة السياسية الاستعمارية. والتحققت بهم مجموعة الإسعاف للقيام بعمليات في عمالة وهران لعرض حسن نية

¹ - L. abid. l'école de médecine d'Alger 150 ans d'histoire de 1857-2007.(étude non publier). P: 07.

² - عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، غزو في الصميم، سلسلة أعداء الإسلام، ج 5، ط4، 1996، دار القلم، دمشق، دار الشامية، بيروت، ص 25.

³ - شهادة السيد بلمامون، (73 سنة) بمنزله.

الفرنسيين، والعثور على ثغرة للنفاذ¹، وربط علاقات المودة والألفة والمؤانسة كوسيلة خادعة² مع القادة والزعماء المحليين لإجراء المفاوضات.

كانت الجمعيات التبشيرية هي السبابة للقيام بهذا العمل الجماهيري المنهج لمساعدة المؤسسة العسكرية والسياسية. وقد اضطرت إلى إخفاء نشاطاتها التبشيرية بسبب عداة المسلمين الجزائريين المعروف للتبشير المسيحي، وجندت الأطباء المبشرين في عمالة وهران³، الذين كانوا من الأطباء المتمرسين أو من الذين حصلوا على تدريب طبي قبل إرسالهم إلى ميدان العمل في العيادات الطبية الصغيرة المقامة في المدن مثل وهران وسيدي بلعباس وغيرها حيث يتجمع السكان المحليون من أجل العلاج الطبي مقابل استسلامهم لإرث ديني روعي. لا يمكن لعاقل منا أن يتجاهل أنه منذ أن ظهر التقدم الطبي في أوروبا، انعقد تحالف مريب ومصالح متبادلة بين الطب وحركة الاستعمار مما يجعلنا ننظر إلى الطب لا بوصفه علما منضبطا فحسب، بل توصيفا لعلاقات القوة والمعرفة. لقد كان الطب أحد أسلحة المستعمر والمبشر معا، و أداة للسيطرة والتحكم والاستدراج والإقناع والهداية إلى "طريق النجاة". فكان المستعمر المبشر لا يظأ أرضا إلا مع حقيته الطبية التي كانت بمثابة الطعم الذي ينقاد الأهالي إليه طائعين أو مضطرين ليصبحوا مسيحيين. يقول الجنرال ليوطي⁴ في خطاب ألقاه في مؤتمر طبي

¹ - دافيد آرنولد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، تر: د. مصطفى إبراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد 236، أغسطس 1998، ص 37.

² - مصطفى الحنفي، مصادر المعلومات الفرنسية عن المسلمين بشمال إفريقيا - معطيات السياسة البربرية بالمغرب - دراسة في الأصول والمنطلقات - الندوة الدولية بالرياض، 31 أكتوبر إلى 3 نوفمبر 1999، ص 17.

³ - هناك أمثلة كثيرة منها الكنائس التي حولت إلى مساجد بعد الاستقلال. فهذا مسجد "أبو بكر الصديق" الذي كان كنيسة تقدم خدمات طبية متنوعة للنساء والأطفال. دون أن ننسى كاتدرائية مدينة وهران التي تحولت حاليا إلى مكتبة ومعرض لبيع الكتب.

⁴ - لوي هوبير غونزالف ليوطي (1854-1934)، جنرال فرنسي وأول مقيم عام بالمغرب الأقصى بعد احتلاله من 1912 حتى 1925. ومنذ سنة 1921 أصبح مارشال فرنسا. ترجع شهرته إلى السياسة التي انتهجها. فبمجرد التحاقه بالمغرب جمع حوله العلماء والجواسيس لإطلاعهم على كل ما يهم أمور الحياة في المغرب. فأخضع السهول الأطلسية وجبال الأطلس المتوسط وتمت المواجهة ضد قبائل الريف. كما أنه

ببروكسيل سنة 1926: " في اليوم الذي يقرر فيه أحد الشخصيات البارزة، أو زعيم

ما، أو أي شيطان أو مريض أن يرى طبيبا فرنسيا ثم يترك عيادته وهو مشافى،
يذوب الجليد، وتتم الخطوة الأولى وتبدأ العلاقة في أخذ مسارها ... من المؤكد أن
للتوسع الاستعماري جوانبه الصعبة، فهو لا يرقى عن اللوم، أو إنه ليس دون
نقائص. ولكن إذا كان هناك شيء يضيء عليه الشرف ويبرره فهو عمل الطبيب ،
عمل يفهم كتبشير ورسالة إلهية"¹

كان أغلب الأطباء الذين اجتذبتهم الأرض الموعودة - التي تمنح المال
والثروة والسعادة والأحلام والفرص بمناخها المعتدل - من عائلات برجوازية
صغيرة، وجدوا صعوبة أحيانا في ممارسة مهنتهم في المدن الأوروبية بسبب
افتقارهم للعلاقات الاجتماعية والدعم المالي، لذلك اختاروا الجزائر ليستوطنوها
بصفة دائمة لأنهم لم يكونوا بحاجة فيها إلى الامتيازات² الاجتماعية الفردية التي
تتطلبها الممارسة في البلد الأم، ويمكنهم البدء من لا شيء. يقول الطبيب الفرنسي "
فيليكس فيسغبر³ : " كنت طبيبا على متن الباخرة "بليروفون"، وفي طريقنا إلى
"باتافيا"، وبسبب اصطدامنا مع باخرة أخرى، توقفنا بمدينة الجزائر لمدة اثنتي عشر
يوما. ولما كنت عائدا من الشرق الأقصى، راودني حلم للحظة واحدة، ب أن أجرب
حظي. استقرت تأملاتي بمدينة الجزائر، فاخترت هذا البلد "المشم س" الذي بدا لي
كمستوطنة أوروبية كافية لضمان الوجود المادي لطبيب لا يمتلك موارد خارجية"⁴.
لقد اكتشف " فيسغبر " أن الوضع المالي لمهنة الطب بعيدا على أن يكون مشرقا،
لكنه بقي فيها . و بسبب جرأته وثقافته، قام إلى جانب مهنته بعدد من المساعي

كان يروج أفكار فرنسا التي ترى أن هذه الأعمال العسكرية تدخل في إطار إخضاع القبائل المتمردة على
السلطان، واعتمد سياسة جنبت فرنسا كثيرا من الخسائر البشرية والمادية وذلك باستمالاته لكبار القواد
حيث أطلق أيديهم في مناطق شاسعة وسمح لهم باستغلالها حسب أهوائهم شريطة ضمان الأمن داخلها
¹ - سعيد الوجاني، مرجع سابق.

² - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية إلى النهاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي،
بيروت، 1997، ص 46.

³ - طبيب فرنسي استقر بصفة نهائية في المقرب الأقصى

⁴ - سعيد الوجاني، الطب والاميرالية في المغرب، موقع الحوار المتمدن، العدد 4163، 2013/07/24.

تتضمن الصحافة والدبلوماسية، ورسم الخرائط والتجسس، ولم يمض عليه وقت طويل حتى امتلك بيتا أنيقا في المدينة، وممتلكات في الريف، وصندوقا مليئا بالنقود الذهبية¹.

إن اندفاع هؤلاء نحو عمالة وهران وبالخصوص نحو الريف وحصر النشاط التبشير فيه، جاء نتيجة لإستراتيجية مدروسة. فسكانه يعتبرون عرقيا وثقافيا أقل تقبلا للنفوذ الأوربي. وهذا ما سيدفع بعض المبشرين المتحمسين إلى ترجمة نصوص إنجيلية إلى عدد من اللهجات، آمليين أن ينقلب البعض من سكان العمالة على الإسلام. لكن النتائج أثبتت لهم أن التغلغل في الريف كان خطيرا وصعبا في آن واحد، وأن عدد المنقلبين عن دينهم وسط سكان المدن أيضا كان ضئيلا جدا. لذلك جرى تأمين الخدمات الصحية بطريقة أكثر ثباتا في المناطق الأهلة بالفرنسيين وخاصة "العسكريين لخدمتهم"²، وإن كانت -هذه المناطق- تمثل جزءا ضيقا في غالبية البلاد.

قامت السلطات الاستعمارية بإنشاء مؤسسات وهيئات مساندة، من مستوصفات وعيادات يزاول فيها الأطباء مهامهم بالتناوب، ووحدات متنقلة بين القرى والأسواق، ومخزن عام للمصالح المدنية للصحة، وتشجيع الأطباء الغربيين على الهجرة إلى الجزائر للعمل في العيادات الطبية، وإنشاء دوائر طبية ومستشفيات مدنية مفتوحة خاصة للأوروبيين وأخرى عسكرية مختلطة³. وتم وضع تنظيمات صحية أطلقت عليه الطب الليبرالي، كان موجها للأوروبيين والجزائريين العاملين في قطاع البريد

¹ - سعيد الوجاني، المرجع السابق.

² - نور الدين حاروش، إدارة المستشفيات العمومية الجزائرية، ط1، دار كتامة للكتاب، الجزائر، 2008، ص 113.

³ - كريمة بوعزيز، اختيار المريض لأسلوب العلاج في القطاع العام والقطاع الخاص، رسالة ماجستير، معهد علم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2002، ص 28.

والمواصلات و السكك الحديدية و المناجم و النقل و الورشات الصناعية و الأعضاء المنتخبون في المجالس الانتخابية في الإدارة الاستعمارية¹ دون غيرهم.

تعمقت اللامساواة، وتعزز النظام الطبقي الاستعماري تبعا للسياسة الاستعمارية "فرق تسد" حيث كان لكل 10.000 جزائري طبيب واحد، ووصلت هذه النسبة في الجنوب إلى طبيب واحد لكل 30.000 جزائري مسلم، وارتفعت نسبة الوفيات بين الأطفال في المستعمرة (25% من الأطفال كانوا يموتون قبل بلوغ سن الخامسة من العمر²) عنها في الميتروبول أو بين المستعمرين، وغالبا ما تكون وفاتهم بعد سنتين من الولادة لحرمانهم من الرعاية الصحية الشاملة والمستديمة. وبمعنى أدق يموت من الأطفال الجزائريين المسلمين طفل واحد من بين اثنين مقابل طفل أوروبي واحد من بين ستة أطفال. أما في الدواوير فكانت الوفيات تصل إلى 90% وهذا ما يؤكد التناقض في الخطاب السياسي والمرجعية الإيديولوجية لذا الإدارة الفرنسية، ويعكس نظام الأولويات المتبع لكل السكان الجزائريين: رقابة سياسية، ورقابة صحية. وعليه فلا عجب إن وجدنا أن المستوطنين يدعون بكل وقاحة وتهور أن "التمدن يُحقنُ كاللقاح"³ لأنه "عمل تحضيري وتمديني"⁴ يساهم في "توسيع نفوذنا وتأثيرنا السلمي"⁵.

¹ - أطلق عليه الطب الاستعماري (médecine de l'occupant). أنظر: Mohamed Amir. I

'histoire de la santé en Algérie. Op. Cit. P: 219.

² - أكاديمية العلوم السوفياتية، مرجع سابق، ص 342

³ - D. Rivet. Le Maghreb à l'épreuve de la colonisation. Hachette. Paris. 2002. P:

129

⁴ - إيفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، تر: محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصة،

الجزائر، 2007، ص 17

⁵ - نفس المرجع.

أظهر الجزائريون المسلمون انتقائية شبه مطلقة تجاوزت الحساسية الدينية المصحوبة بالنظرة المريية¹، والحذر الشديد في التعامل مع ما قدمه الاستعمار من تدابير صحية مثل النظافة، والعزل، ونقص الأطباء² والحجر الصحي، والتطعيم، ضد الأوبئة التي أصبحت مرتبطة بالأمن تَخَوُّفاً من انتقال عدواها إلى المستوطنين وتشكيل خطر عليهم كما في السابق حيث جاء في التقارير العسكرية، أن الجيش الفرنسي فقد بين 1830-1850 ما يقرب من 50 ألف جندي جراء الأمراض المستعصية، وتبنى المعالجات الفردية التي تعتمد على الطب الشعبي/ العلاج بالأعشاب الذي يشكل إسهاما إيجابيا من خلال دمج خدماته في تقديم خدمات ونتائج الرعاية الشاملة للجميع . ولقي نجاحا كبيرا بسبب تزايد الاستياء من الخدمات الرديئة النوعية للإدارة الاستعمارية المفتقرة إلى التركيز على المريض، أو لأنهم تعرضوا إلى تأثيرات سلبية جراء المعالجة عند الطبيب النصارا ني (العائق الثقافي/ الديني، أي تدنيس شرف الأسرة وكرامتها³).

جدول يبين نسبة عدد السكان إلى عدد الأطباء والصيدالة وأطباء الأسنان والقبالات ⁴ 1948						
القبالات	أطباء الأسنان	الصيدالة	الأطباء	الأوروبيون	المسلمون	
310	260	318	958	518.300	817.200	مقاطعات الجزائر - وهران
253	176	296	808	404.000	7.861.800	باقي مقاطعات الجزائر

¹ - Ministère de la Santé . L'organisation de la distribution des soins durant la période coloniale. Op. Cit. P: 24

² - أنشئت أول مدرسة للطب في الجزائر العاصمة سنة 1857، ومُنح عدد ضئيل من السكان المحليين امتياز الالتحاق بها، لذا كان عدد الأطباء الجزائريين المسلمين المدربين تدريباً عصبياً وحديثاً قليل جداً.

³ - D. Mohammed Ben Aissa Amir. Op. Cit. P: 219.

⁴ - D. Mohammed Ben Aissa Amir. Op. Cit. P:75

2 - أهم المراكز الصحية الفرنسية في عمالة وهران:

- المركز الإستشفائي الجهوي بوهران: أرسل الدكتور كونيو تقريراً إلى

النقابة المهنية الجهوية لأطباء وهران في نوفمبر 1958، أكد فيها على النقص

الفادح في عدد الأطباء والمرضين وأماكن العلاج بهذا المركز.

- المركز الإستشفائي بسيدي بلعباس: رغم أنه شهد بعض التوسيعات في

مصلحتي أمراض السل وأمراض النساء، إلا أن المصالح الطبية الفرنسية لم تقم

بأي دورة طبية منتظمة للعاملين به، كما لم تقم بأي محاولة لتوزيع الأدوية على

المرضى الأهالي¹. وقد ظل يعاني من انعدام جهاز الأشعة، والاحتفاظ في الأجنحة

والأسيرة مما اضطر المرضى إلى افتراش أروقة المستشفى. وغالبا ما يتم رفض

استقبال الكثير منهم².

- المستشفى العسكري بأرزيو: توقفت الأشغال والإصلاحات به منذ عدة

سنوات، بسبب عدم وجود ممرضة مسلمة وقابلة ومصالحة للتوليد. ولم تكن به

سوى ممرضة واحدة غير متخصصة في التمريض تسهر على تطيب العدد الكبير

من الجزائريين الذين كان يستقبلهم المستشفى خاصة في الجناح المخصص لمرض

السل³.

- المستشفى المدني بعين تموشنت: شهد بدوره عدة إصلاحات (منها

الأسيرة)، إلا أنه عانى من اكتظاظ بعض الأجنحة مثل مصلحتنا العلاج والولادة⁴،

وقلة التجهيزات اللازمة والوسائل الضرورية للعلاج "راديو الكشف الإشعاعي" في

المصالح التي تشهد إقبالا كبيرا للمرضى من عين تموشنت ومستشفى حمام بوججر

¹ - Germaine Tillion. l'Algérie en 1957. Minuit. Paris. 1957. PP: 28-29.

² - A.W.O. rapport sur Equipement Sanitaire et Hospitalier. Centre Hospitalier Régional de Sidi Bel Abbès. 1959. P: 31.

³ - A.W.O. Rapport militaire d'Arzew. 1959. P: 36.

⁴ - A.W.O. Rapport sur Hôpital Civil d'Ain Témouchent. 1959. P: 32.

الذي كان بدوره يعاني من ضغط الاكتظاظ¹. وقد روى A. Gervois قائلا: "لم تكن المستشفيات تمتلئ بجرحى الحرب بقدر ما كانت تكتظ بمرضى مصابين بأمراض مثل الملاريا... و حمى التيفوئيد وشلل الأطفال واليرقان وأعراض متلازمة " 2 وأمراض أخرى ظهرت خلال الثورة التحريرية مثل Jaunisse (اليرقان) وBleuite و Koulchite³ (Koul-chi = كل شيء) كانت وسيلة للحصول على وصفة طبية من الطبيب الأوروبي⁴. وهذا ما يذكره السيد لمقامي في مذكراته عندما يقول بأن والدته كانت "تشتكي باستمرار وذات مزاج صعب، فلم تُفوّت على نفسها لا زيارة الفقهاء ولا زيارة المرابطين"⁵.

- مستغانم: سُكّلت عدة لجان في المناطق المتضررة من الوباء، حيث اجتمعت اللجنة المكلفة بالتخطيط يوم 16/06/1959 لدراسة النمو الديموغرافي، والتعليم، والزراعة، والصحة، والنظافة، والتهيئة المحلية⁶.

- مستشفى حمام بوحجر: كانت معظم الأسرة مخصصة للعجائز، لأنه كان يعاني من نقص شديد في مصلحة التوليد والمعدات والأجهزة مثل جهاز Radioscopie. لهذه الأسباب كان المرضى يوجهون إلى المستشفى المدني بعين تموشنت⁷.

- باريغو (المحمدية) انتشرت فيها العديد من الأوبئة والأمراض الخطيرة لكالرمد الذي أصابت عدواه 70 % من الجزائريين المسلمين في عين الحلوف

¹ - A.W.O.Op. Cit. P: 35.

² -D. Mohammed Ben Aissa Amir. Op. Cit. PP:150-151.

³ - يُقصد بها الأشخاص الذين يشتكون من كل شيء وفي كل مكان.

⁴ - D. Mohammed Ben Aissa Amir. Op. Cit. P: 151.

⁵ - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 35.

⁶ - A.W.O. préfecture de Mostaganem. 3^{ème} Division. 1^{er} Bureau. Document N° 5655. La commission Départementale du Plan de Mostaganem. Mostaganem. 20Jun 1959. P: 01.

⁷ - IDEM. P: 35.

القريبة من باريغو ، وتجاوزتها إلى 73% في مناطق أخرى بسبب انعدام النظافة والمياه الصالحة للشرب وسوء التغذية والارتباط التراثي للمسلمين الجزائريين بالقضاء والقدر، وطبيعة تنظيمهم الاجتماعي العائلي. وبما أن هذا المرض يشتهر بسرعة انتشاره بين السكان، فقد أدركت السلطات الفرنسية مدى خطورته وتهديده للمعمرين أنفسهم، لذلك بادرت إلى إنشاء مصلحة الشؤون الجزائرية Service des Affaires Algériennes بتاريخ 26 سبتمبر 1955¹ ومصلحة المراكز الاجتماعية Service des Centres Sociaux بتاريخ 27 أكتوبر 1955² لتوفير الممرضات والأدوية لمعالجة الأمراض الخطيرة، وتقديم خدمات اجتماعية للسكان³، ووضعت تحت تصرفها مصلحة للإرشاد الطبي الاجتماعي، واتخاذ عدة إجراءات سريعة منها:

1 - القيام بدراسة جغرافية للمناطق التي انتشر فيها وباء الرماد⁴.

2 - تقسيم الجزائر إلى 27 إقليمًا انتشر بها الوباء.

3- إقامة مستوصفان متخصصان في مرض الرمد، وستة أخرى متنقلة،

عبارة عن ثماني عربات مجهزة للعلاج يترأسها طبيب مختص، تساعد على ممرضات وسكرتير يشرف على إعداد بطاقة شخصية لكل مريض⁵.

¹ - Jacques Frémeaux. Les SAS. L'armée au service de la population. Guerre d'Algérie. Magazine N° 3. SOTECA. France. Mai/Juin 2002. P:24.

² - Serge Jouin. L'Ecole en Algérie (1830-1962) de la régence aux Centres sociaux Educatifs. Publisud. Paris. 2001. P: 77.

³ - IDEM. P: 80.

⁴ - A.W.O. B. N. N° 389/3. Dossier affaires sociales et culturelles. Rapport: Hygiène et santé. 1951. P: 21.

⁵ - A.W.O. B. N. N° 389/3. Dossier affaires sociales et culturelles. Rapport: Hygiène et santé. 1951. P: 22.

4 - تقديم العلاج والطب المجاني الذي كان موجها خاصة للعمال الزراعيين الذين يمثلون مصدرة عمالة رخيصة عند الأوروبيين ، وتوزيع الأغذية¹ ، والألبسة بدعوى مكافحة الفقر في الأرياف.

5 - إنشاء 1200 سرير توزع على 17 مستشفى.

نصّ مرسوم روبيير لأكوست الصادر بتاريخ 17 مارس 1956 على إجراءات اقتصادية واجتماعية لحل مشكلة الجزائر² ، للتخلص من المأزق الذي أوقعت فيه الثورة الجزائرية الاستعمار الفرنسي. ثم جاء قرار 20 جويلية 1956 الذي أسست السلطات الفرنسية من خلاله مكتبا مركزيا لتقديم المساعدات³ التي أشرفت على تدعيمها الحكومة العامة ل "غي موليه" من ميزانية الجزائر. تلاه مرسوم 16 جويلية 1956 الذي كان يهدف إلى إعادة إصلاح وتوسيع مصلحة الإرشاد الطبي المجاني في الجزائر⁴ ، وربطه بالمستوصفات المتخصصة لتتخ لـص المستشفيات من كثافة ضغط الإقبال عليها، ويستفيد الأهالي المسلمين الجزائريين من خدمات الحماية الاجتماعية الصحية والأدوية ، والقيام باستطلاعات ودورات طبية في المناطق التي تعاني من العزلة الشديدة⁵. ثم جاء مرسوم 27 جويلية 1956 متمما للمراسيم السابقة لعزل وفصل الشعب الجزائري عن جبهة وجيش التحرير الوطني وثورته المباركة، فأصدرت السلطات الاستعمارية قرارا يقضي بتقديم تسهيلات مجانية للسكان في المناطق المعزولة، وأقدمت على منح البطاقة العائلية

¹ - Jacques Frémeaux. Op.Cit. P: 146.

² - Philippe Tripier. Autopsie de la guerre d'Algérie. France Empire. Paris. 1972. PP: 148-149.

³ - Maxime Champ: Documentation Générale à caractère sociale. Documentation et Enquête Algériennes N° 05. Centre de Documentation et d'Enquête en Afrique du nord. Alger. Janvier 1957. P: 50.

⁴ - L'Assistance Médical Gratuite en Algérie.

⁵ - Maxime Champ. Op. Cit. P: 50.

التي يستفيد بواسطتها السكان من العلاج والخدمات الصحية في المراكز الطبية¹. وفي عهد الرئيس الفرنسي روني كوتي أقدمت الإدارة الفرنسية على تقديم دراسة حول الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي قامت بها الإدارات السابقة التي لم تكن كافية لتصل إلى مستوى التطلعات الهامة التي صدرت من أجلها سواء للقضاء على الثورة الجزائرية أو لكسب الرأي العام العالمي في الأمم المتحدة. لتحسيس السكان وتنبههم إلى خطورة الأمراض والأوبئة الفتاكة التي تنتشر بينهم مثل الجذام والرمم والمالريا التي كانت تقتل 10.000 شخص سنويا والسل الذي كان بدوره يقتل 35.000 شخص سنويا، أشرف السيد برنار شو وزير الصحة العمومية والسكان على برنامجا صحيا، وتنظيم حملات تحسيسية، انتهت بعقد المؤتمر الثالث عشر لمرض السل بالجزائر بين 3 و 7 أبريل 1961. عرض فيه رئيس المؤتمر الأستاذ "ليفي فالونس" حلولا للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الصعبة والمتدهورة التي يعاني منها المسلمون الجزائريون، مستشهدا بانتشار الأعراض المعدية لوباء السل عند الأطفال، وتعداد الوفيات لدى الجزائريين المسلمين². وأوصى في نهاية كلمته بتكثيف جهود جميع الأطباء ومصالح العمران والنظافة بالمساهمة في المناهج الجديدة، وبناء سكنات³ مريحة وغير مكلفة للقضاء على هذا الوباء الخطير الذي يهدد الجميع⁴.

¹ - IDEM.

² - La lutte contre la tuberculose en Algérie. In Plan de Constantine. N° 6. B. C. E. D. A. Mai 1961. P: 37.

³ - أنظر ملحق رقم 18.

⁴ - La lutte contre la tuberculose en Algérie.Op. Cit. P: 13.

3 - الوضع الصحي للجزائريين قبل الثورة:

3 - 1 - الوضع الصحي للمرأة الجزائرية:

بسبب انعدام التلقيح وضآلة الخدمات الصحية، وسوء التغذية (الحليب ومشتقاته، اللحوم والأسماك والبيض ، الخضروات، الحمضيات...)، ومضاعفات الولادة¹ كموت الجنين داخل رحم الأم، والولادة في الأماكن الملوثة التي تؤدي إلى تلوث جرثومي يعرض حياة الأم للخطر، و الولادة المبكرة التي تجابهها مخاطر كثيرة، والإجهاض غير الآمن، ووجود أمراض سابقة قد تتعارض مع الحمل أو تحتاج إلى رعاية أثناء الحمل أو الولادة أو ما بعدها خلال فترة الحمل، كان يجعل من وفاة المرأة الجزائرية حدثاً عادياً. إلا أن الفرنسيين كانوا يرجعون سبب ذلك إلى عسر وألم الولادة، وإصابة المرأة الجزائرية بالأمراض المعدية، والعادات والتقاليد والدين الإسلامي اللذان يُحرمان عليها استشارة الطبيب الأجنبي خوفاً من تدنيس شرف أسرتها² عند الطبيب النصراني الحامل لمفهوم الطب الحديث الاستيطاني، ويحرمانها من أن ترى وابنها النور³. وتناشروا في خضم حديثه م عن المرأة الجزائرية والإسلام، أن السيد "فيوليت" الوالي العام للجزائر، طالب النيابات المالية في جلسة 26 جوان 1926، بتخصيص مبلغ خمسة ملايين فرنك فرنسي لإعانة النساء الجزائريات الفقيرات أثناء الولادة، لكن طلبه بقي حبراً على ورق. لذلك كانت تلجأ في جميع الأحوال إلى القابلة، وهي المرأة تتجاوز في العادة الستين سنة. ظلت القابلة لقرون عديدة تلعب دوراً أساسياً في البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري، وفي تراثه الثقافي وإتزانه النفسي الممتد في أعماق الزمن مع مشروع الاندماج الذي يعمل على إعادة إنتاج المجتمع عبر مستويات الإنتاج الرمزي

¹ - <http://www.escwa.un.org/arabic>.

² - Mohamed Amir. Op. Cit. P: 21

³ - Y.Tunin « Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale 1830-1880» Ed E.N.A.L, 1983. P: 380.

والمعتقدات¹ و التمثلات بكل تراكماتها وتناقضاتها الثقافية والاجتماعية . لا يتوقف دور القابلة في المساعدة أثناء الولادة فحسب بل أكبر من ذلك . إنها تتمتع بشخصية دينية وأخلاقية قوية، لأنها تعد Tbiba وأحد أهم المرجعيات الخبيرة في رعاية النساء في جميع مراحل الحمل والولادة وما بعدها لتقديم الرعاية والتثقيف الصحي للنساء اللواتي يُعانين في هذه المراحل من أعراض وأمراض كثيرة ومتعددة²، مرتبطة بظروف الحياة التي تختلف من امرأة إلى أخرى التي لم تكن صحتها بأحسن حال من الأطفال والرجال والشيوخ³.

كانت عمليات الولادة في سيدي بلعباس⁴ وغيرها في عمالة وهران تتم بإجلاس الحامل ووضع أسفل منها قِدْرًا مقلوبا أو صرّة تجلس عليها مع فَرش قطعة من الخيش لينزل عليها الطفل. تمسك الحامل بالقابلة أثناء الطلق للمساعدة على الدفع بمساعدة أكبر وأقرب السيدات إليها، وتستغرق هذه الحالة ساعتين على الأكثر. وبعد أن ينزل الطفل، تقوم القابلة بقطع "السرة" بمقص أو شفرة جديدة بعد ربطه مسافة ثلاثة أصابع دون أن تلبس القفازات وإنما تكتفي بغسل يديها بالماء والصابون وتلاوة البسملة وبعض الأدعية التي ستكون لها دعما قوية في عملها⁵. حاول المعمرون الفرنسيون التظاهر بمنقذي البشرية وحملة نور حضارتها إلى الأماكن المظلمة من العالم، وتمجيد توأجه م في الجزائر لنقل قيم حضارتهم!، وإبعاد شبح العار عنهم. وما فتئوا ينكرون دورهم في تفكير المرأة الجزائرية⁶ المسلمة ودفعها إلى ظاهرة التجارة بالريق الأبيض (الدعارة)⁷ لتحقيق الربح،

¹ - Ahmed Henni : « Etat surplus et société en Algérie avant 1830» Ed. Enal. 1986. P:124.

² - طالب الوالي العام للجزائر السيد "فيوليت" من النيابات المالية تخصيص مبلغ خمسة (05) ملايين ف.

³ - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 362.

⁴ - شهادة شحرور نبية، البالغة من العمر 79 سنة.

⁵ - شهادة شحرور نبية 76 سنة.

⁶ - أنظر ملحق رقم 19.

⁷ - Pierre Goinard. Algérie. L'œuvre Française. éd Laffont. Paris 1994. P: 101

وجلب المنفعة المادية، وتلوّث الأخلاق¹. لكن المجتمع الجزائري ظل يتميز عبر التاريخ بالعفة و الحياء والخجل والحشمة وصيانة المرأة والعائلة لعدة اعتبارات ، منها أن الزواج يحقق إشباع الغريزة الإنسانية عند الجزائريين المسلمين خشية الوقوع في الزلل والفتنة والإغراء. طبقا لقوله ﷺ "من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج"².

3 - 2 - الأمراض المنتشرة بين الأطفال الجزائريين المسلمين:

- أوديميا المجاعة : وهو "مرض مخيف كُشف عنه في يوم طب الطفل، المنظم من طرف السيد عميد جامعة الطب بالجزائر الذي قال: لقد عشنا صباحا مرعبا: أطباء جزائريون، مغاربة وتونسيون حضروا لمعالجة وطرح الحاجة الكبيرة لأطفال شمال إفريقيا المحرومين من حليب أمهاتهم اللاتي نفذ منهن أصلا، ومن حليب المواشي الذي حال الفقر دون شرائه لهم"³.
- فقر الدم والهزال : اضطرت الأم في كثير من الأحيان بسبب الفقر والحرمان ونقص معدل الكالوريات الذي لا يتجاوز 1500 كالوري يوميا⁴، إلى إعطاء رضيعها بعض الزيت والقمح⁵ لتعوضه عن استحالة الرضاعة الطبيعية من ثدييها.
- الكساح وولادة الأطفال بأمراض وتشوهات خطيرة ومقلقة منها حالات التأخر العقلي، والتوقف عن النمو، وقصر الأطراف الخالية من اللحم وانتفاخ في البطن⁶.

1 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر الاسلامي الحديث، 1986، ص 110.

2 - حديث شريف.

3 - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op Cit. P: 174

4 - خوان غليسيبي، مصدر سابق، ص 59.

5 - IDEM. P: 194

6 - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op. Cit. P: 194

- السعال الديكي: الذي يمكننا اعتباره أحد أسباب وفيات الأطفال قبل 14

عاما بسبب انعدام التطعيم الإجباري.

لا يفاجأ الباحث إذا علم بأن اللجنة الطبية في دائرة وهران استدعت

14.632 شابا سنة 1923 للتجنيد الإجباري. فوجدت أن 5.446 (38.2%) منهم

غير مؤهل للخدمة العسكرية بسبب سوء أحوالهم الصحية. وقد أشارت التقارير

العسكرية إلى أنواع المرض التي كان يعاني منها هؤلاء الشباب.

3 - 3 - الأمراض الأخرى المنتشرة في المجتمع الجزائري:

أ - قبل الثورة الجزائرية:

- الجدري، والجرب: مرض معدي ينتشر في الأماكن الفقيرة غير النظيفة

والمفتقدة للعناية الصحية. يسبب حكة جلدية شديدة في جميع أجزاء. وفي شهادة

أدلى بها لنا السيد "الحاج السادات"¹، فإن الأهالي كانوا من شدة فقرهم وجهلهم

بالعناية الصحية وعدم ثقتهم في الأطباء الفرنسيين، كانوا يغطسون أجسامهم

المصابة في "قلته"² بضريح سيدي بوعزة الغربي بسيدي بلعباس للتداوي من هذا

المرض.

- أمراض الفم التي كانت تعالج بالماء الممزوج بالملح، وفي حالة ضرر

الأسنان، يقوم الحلاق بقلعها بواسطة كلابية الأسنان دون استعمال أي مخدر.³

بالإضافة إلى الأمراض العقلية والفم، وداء الحفر le Scorbut، والحصاف le

pellagre، والعمى والصمم والبكم والأطفال غير الطبيعيين⁴ والإدمان على التدخين

1 - شهادة السيد الحاج السادات.

2 - الماء الراكد المختلط بالطين.

3 - شهادة السيد فقير ميهوب.

4 - CAOM. Notes et études Documentaires. Situation et évolution de L'Algérie pendant l'année 1948. Op. Cit. P: 28.

والخمر والمخدرات (الكيف والعميون) لدى فئة الشباب في المناطق الحضرية رغم أن الشريعة الإسلامية حرمت تعاطيها¹.

- الكسور: يقول السيد لمقامي: "أصبت بكسر في الكعب الأيسر. ولعلاجه لم

يكن من يمارس ذلك العمل إلا جبارا ذا سمعة واسعة... ورغم صيحاتي الحادة وبعد أن شلّ والدي تحركي، ضمّمني الجبار بضمد قوامه الحناء وأخّ البيض الذي طليت به قطعة قماش طويلة أديرته وشدّته على كعبي بخشبيات الكلخة. فتوقفت عن الحركة وعذبت عذابا شديدا مدة زادة عن ثلاثة أشهر. فلم يخطر ببالي أي أحد التوجه إلى الطبيب.. ولم يكن ذلك من عادات الناس بل لم يكن هناك طبيب في القرية. فكان التداوي على الطريقة التقليدية بالحساء والماء والأعشاب واللفافات. وكثيرا ما كان الناس يلجؤون إلى الطالب لكتابة تميمة مخرطة في وسط قطعة جلد الغنم أو الماعز ثم تعلق على الرقبة"². ومن أشهر معالجي الكسور بالطرق التقليدية السيد "باقنيش" بسيدي بلعباس الذي بلغت شهرته عمالة وهران.

ب - خلال الثورة الجزائرية:

من السهل على الإنسان أن يفهم الأمراض العضوية من التهابات وجروح، وكسور بشكل أسهل من فهم ه للاضطرابات النفسية. ومن السهل عليه أن يشعر بشعور المصاب بالتهاب أو كسر، ولكن يصعب عليه أن يعتبر نفسه مثل المصاب بالأمراض النفسية، لأنها تطور لبعض الأعراض الناتجة عن التعرض لأحداث صادمة كالحرب الاستعمارية الفرنسية التي لم تعرف الروح الإنسانية، والتي تعتبر "الحادث الذي يطلق المرض"³ ويجرّ الدمار الاقتصادي والاجتماعي والنفسي

¹ - Rapport de la mission d'étude sur l' état Sanitaire et l'hygiène. Op. Cit. T 3. PP: 502-503

² - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 23.

³ - فرانز فانون، مرجع سابق، ص 147.

للإنسان. يصعب عليه تحمله بسبب تعرضه للموت أو خطر الموت¹، والتهجير القسري، والقصف بالقنابل والخسائر في الأرواح (القتل الكيفي)، والنهب والسلب وخلق مناخ انعدام الأمن، والقمع والقهر بثبتي أنواعه المؤثر في التصرفات والسلوك والمشاعر و الأمور الحياتية، والمؤدي إلى ضغوط نفسية هائلة و مؤلمة تفوق طاقة الاحتمال الإنساني وتؤدي في النهاية إلى الانهيار والإعاقة النفسية لنسبة كبيرة من الناس، و تُفقدُهم السمات الأساسية المميزة لكل شخصية لتحل محلها مشاعر الرهبة، والصداع، والهزال، وفقدان روح المرح، والتجهم، والكآبة، والأحلام المزعجة، والشعور بالعجز، والتعب، والخجل من هذه المشاعر، والحزن، والإحساس بالذنب وعدم التسامح مع الذات والأسى عند فقدان الأقرباء والأصدقاء وخاصة الأطفال، والتأتأة في الكلام، والكوابيس، والرعب، والأحلام المزعجة² والسلوك العدواني بثبتي أشكاله اللفظي أو الجسدي خاصة في لعب الأطفال الذي يكون محوره أمور تتعلق بالموت أو فقدان في محاولة منهم لفهم ما يحدث أو حدث.

إن " هذه الحرب الاستعمارية تختلف عن غيرها حتى في الأمراض التي تفرزها..ولاشك أن مستقبل هؤلاء المرضى غير مكفول " ³ لأن تقنيات التهريب (الثقافي والاجتماعي والسياسي والعسكري والاقتصادي) الجديد للاستعمار، من حيث هو نفي للآخر، ومن حيث هو قرار صارم بإنكار كل صفة إنسانية على الآخر، يُصدّرُ لمستشفيات الأمراض العقلية كثيرا من زبائنه، يصعب فيها شفاءهم شفاء سليما⁴.

¹ - أنظر ملحق رقم 21.

² - يمثّل المرضى الذين كانوا يعانون اضطرابات نفسية خلال الحرب الاستعمارية على الجزائر إحدى أكثر الفئات عرضة للإهمال. لأن المرض النفسي لم يُعدّ حالة مرضية حقيقية، بل ضعفاً في الشخصية أو عقاباً يحدّ بالمرء نتيجة لسوء خلقه. وحتى عندما يُعترف بالحالة المرضية التي يعانيها هؤلاء الأشخاص، فإنّ العلاج الذي يتلقونه ليس له صبغة إنسانية في غالب الأحيان . أنظر: الصحة النفسية وحقوق الإنسان، موقع منظمة الصحة العالمية.

³ - فرانس فانون، مصدر سابق، ص 148

⁴ - المصدر نفسه، ص 146

من أهم الأمراض والاضطرابات النفسية التي أفرزها الاستعمار الفرنسي

خلال الثورة الجزائرية، والتي ذكرها "فرانز فانون" في كتابه "معذبو الأرض":

- العجز الجنسي عند الجزائريين على إثر اغتصاب الزوجة¹، وتفكيك الشخصية².

- التبدلات العاطفية العقلية بعد التعذيب³ كإدخال الزجاج في الشرح وحقنه بالماء والصابون عن طريق الفم، والصعق بالكهرباء الذي أصبح الوسيلة الوحيدة في بعض الاستجابات ابتداء من شهر سبتمبر 1956. يجعل الخاضع للتعذيب يشعر بعد ذلك بأمراض تتناول أجزاء معينة منه، كتنمي ل الجسم أو أن اليد تقلع والرأس ينفجر واللسان ييلع، والذعر الفظيع من الكهرباء، والخوف من ملامسة مفتاح كهربائي، أو من إشعال جهاز الراديو، والسكون وعدم الحركة⁴.

- غسل الدماغ⁵، و الاندفاعات إلى القتل غير المتميزة لدى أشخاص جزائريين نجوا من الموت أثناء الإبادة الجماعية حيث "استولى أحدهم على سلاح أحد المجاهدين الجزائريين، وأخذ يطلق الرصاص في خرافة، على الجنود النائمين...بسبب عزمه الأكيد على أن "يقتل جميع الناس"...وهو لا يستثني الممرضين والأطباء"⁶. لقد صرح قائلاً: "إن الله معي...ولكنه ليس إذن مع أولئك الذين ماتوا...على المرء في هذه الحياة أن يقتل حتى لا يُقتل...إن بيننا فرنسيين. ولكنهم فرنسيون متخفون يتظاهرون بأنهم عرب. يجب قتلهم جميعا...وهم لا يدعونني وشأني. كلما أردت أن أنام دخلوا إلى غرفتي. لكنني الآن أعرفهم...لسوف أقتلهم جميعا بغير استثناء. لسوف أذبهم بعضا وراء

¹ - المصدر نفسه، ص 149.

² - المصدر نفسه، ص 154.

³ - فرانز فانون، مصدر سابق، ص 166.

⁴ - المصدر نفسه، ص 169.

⁵ - المصدر نفسه، ص 171.

⁶ - المصدر نفسه، ص 153.

بعض... الصغار، والكبار، والنساء والأطفال، والطيور، والحمير، هؤلاء جميعاً سيلقون نفس المصير. وبعدئذ أستطيع أن أنام هادئاً مطمئناً¹.

إنه من غير الممكن أن "نقدر عدد وعمق الجراح التي تصيب المستعمر خلال يوم واحد من أيام حياته في ظل النظام الاستعماري، ويجب أن نتذكر أن على كل حال أن الشعب المستعمر ليس شعباً مسيطراً عليه فحسب. بقدر ظل الفرنسيون في عهد الاحتلال الألماني بشرا، وظل الألمان في عهد الاحتلال الفرنسي بشرا. أما في الجزائر فليس هناك سيطرة فحسب، وإنما هناك عزم على أن لا يتناول الاحتلال في آخر الأمر إلا أرضاً. فالجزائريون، والنساء المرتديات ملاءات (الحايك)، وكروم البلح، والجمال، ليست عند المستعمرين إلا الصورة الإجمالية أو الأرضية الطبيعية التي يبرز عليها الوجود الإنساني الفرنسي"².

تختلف الاستجابة للاضطرابات والصدمات النفسية ومدى مقاومتها تبعاً لثقافة المجتمع، والاندماج في التوجهات الروحانية والعبادات التي تقي الإنسان من عوامل القلق، والخوف، والاضطراب. وتساعد على الثبات والتوازن الانفعالي³، والنظام الداعم للعائلة والأصدقاء الذين يحبهم ويحبونه، والإيمان والقدرة على التحمل والأفكار السائدة لأن "المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف"⁴. ومدى شدة هذه الصدمات وتكرارها، واختلاف العمر وخبرات الحياة ونمط الحياة وتاريخ العائلة، والطفولة والشخص وطبيعة الحياة، والقدرات الشخصية والقدرة على التحمل وجميعها "عوامل ساعدت المجتمع الجزائري على النضوج والمهارة في تكوين علاقات اجتماعية انفعالية، والتوافق مع الذات من خلال تعلم العديد من الخبرات الجديدة وتوظيف الإمكانيات الفريدة لتحقيق الإشباع المعنوي والجسمي وغيره ،

1 - المصدر نفسه ، ص 153

2 - فرانز فانون، مصدر سابق، ص 148.

3 - لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، سورة يوسف، الآية 87.

4 - فرانز فانون، مصدر سابق، ص 148

وقدرة الفرد على أن يتبنى لنفسه فلسفة عامه في الحياة تسمح له بأن يتصرف بكفاءة ونجاح¹.

في هذه الأوضاع الصعبة، والظروف الصحية المتردية، والسياسة الصحية الفرنسية الكولونيالية، لم يجد الجزائريون بُدًا من اللجوء إلى التداوي بالأعشاب. لأن الطب التقليدي أثبت جودته ونجاعته وتقديره ومأمونيته وأسهم في " تحقيق ضمان حصول كل الناس على الرعاية اللازمة . لذلك اعتبرت الأدوية العشبية، والمعالجة العشبية، والممارسون التقليديون (الشعبيون) المصدر الرئيسي للرعاية الصحية.

إنها رعاية قريبة من البيوت يمكن الحصول عليها بسهولة ولا تكلف الكثير. مقبولة ثقافيا وتثق بها أعداد كبيرة من الناس. ثم إن الطب التقليدي الشعبي استطاع أن يفرض نفسه كطريقة من طرق التكيف مع الارتفاع الشرس في معدلات تكاليف التطبيب و انتشار الأمراض غير السارية المزمنة . وعبر أحسن تعبير عن صدق تحقيق هدف ضمان حصول كافة الأهالي - خاصة فقراء الناس - على الاعتلال النفسي وتشخيصه وتخفيفه ومعالجته. وعلى الصحة والرعاية المطلوبة على النحو الملائم وبطريقة مأمونة وملائمة وفاعلة ووثيقة الصلة بين عنصري أخلاق العلاج والنتائج الصحية الجيدة*. المحترمة والسهلة الاستعمال الصحيح للممارسة والوقاية من الأمراض بما فيها المزمنة . ومن أهم الطرق التي كان الجزائريون يعالجون بها أنفسهم في عمالة وهران للتداوي من الأمراض: التداوي بالعسل، ونخالة القمح، وزيت الزيتون، والعلاج بالتمر، وحبّة حلاوة والتين، والحجامة، والكي بالنار الذي يصاحبه أحيانا ثقب أذن المريض، وتعليق سلك من نحاس في أذن ه، يلزمه مدة معينة².

¹ - www.alwahamag.com

² - شهادة ميهوب فقير.

كان الطب خليطاً من الشعبية والممارسات السحرية (بين العرف والسحر والشعوذة) وشبكة من المعارف المختلفة مما ينعكس سلباً وخطورة على جودة الرعاية الطبية¹ خاصة عندما يتداخل الطب مع الدجل / الشعوذة/ السحر/ العرافة/ الطَّالِب، "طب الفقراء" أو "طب الطوارئ" غير المقبولة عقلاً ولا شرعاً وإن احتلت السواد الأعظم في ثقافة المجتمع الجزائري في عمالة وهران بسبب الفقر والجهل والتخلف وانعدام الوعي الصحي وقدرات المشعوذ على الإقناع وكسب ثقة المريض، لهذا سيظل الطب التقليدي أرضاً وسطى بين الدين والعرف والعلم، باعتباره تكويناً مستقلاً لصيقاً بالدين². وستظل زيارة الأضرحة مظهراً من مظاهر ثقافة المجتمع الجزائري لعلاقتها بموروثاته المتجددة في لوعيه لدرجة أن المساس بها هو مساس بكيانه وهويته ومقدساته. فالمخيل الشعبي يتغذى من ماضيه، ومن الأسلاف والتقاليد والعادات والمخلفات الاعتقادية. يخشى بل ويرفض التغير لأنه يشكل خطراً وتهديداً على هويته المشتركة. ومن هنا تلجأ هذه الطبقة البسيطة ذات التعليم البسيط إلى الطقوس التي ترمز إلى مرجعيتها التقليدية والتي تشكل جزءاً من تراثها الثقافي. ولا غرو أن نجد: "الفلاح أو المرأة من الطبقة البسيطة قد يجهلان غالباً الدين الحقيقي، ولكنهما مع ذلك يلتمسان البركات من عند الأولياء.."³. يقوم المجتمع الجزائري على أساس تقسيم الأدوار حسب الجنسين، مجال محرم على المرأة وآخر عام فضفاض خاص بالرجل. وإذا كان الدين الرسمي قد حدد للمرأة الأدوار المنوطة بها، فقد أوجد لها الدين الشعبي فضاء - الأضرحة- يساعدها على الاندماج. تلجأ إليها لتجد فيها حريتها للتعبير عن حاجتها للدين والممارسات الشعائرية التي حرمت منها. لذلك اعتبرت ظاهرة الصالحين من ظواهر وأشكال الديانة النسائية. ذلك أن الضريح يشكل لها وسيلة للابتعاد عن

¹ - S. Chiffolleau. Médecines et médecins en Egypte. Construction d'une identité professionnelle et projet médical. PP: 254-256.

² - محمد حافظ دياب، الدين الشعبي، مرجع سابق، ص 16.

³ - بيار بورديو، المرجع السابق، ص 102.

ضغط السلطة الذكورية التي يحاصرها في كل زمان. فهو وسيلة دفاعية تدافع به المرأة عن سلوكياتها ودورها في المجتمع. إلا أن هذه الحرية التي تجدها في الضريح تضمن نوازع يحققها الولي للمرأة والتي لم تجدها في المجتمع. هذه النوازع تحدّد وظيفة الضريح وتظهر في:

- توفير الحماية ، وتحقيق الراحة والاطمئنان والنفسي ، وتحقيق الآمال والرغبات، والتواصل الاجتماعي.

- الأمراض الطبيعية : التي تحدث لأسباب عادية، يمكننا معرفتها بسهولة منها:

- أمراض العيون: يوجد بنواحي تلمسان "سيدي محمد بن يعقوب" وبجانب ضريحه توجد شجرة زيتون برية، يأكل منها المرضى قصد الشفاء من أمراض امراض العيون.

- صداع الرأس: يزور المصاب الولي "سيدي بوراس" بنواحي تلمسان. وعلى الزائر ذبح كبش ووضع عظام رأسه في قبة الولي.

- الحمى: على المريض أن يحمل معه طيلة ثلاثة أيام، أوراق الشجر التي تتساقط على ضريح الولي "سيدي القيسي" الذي يوجد بطريق "سيدي بومدين"، ثم يقوم بحرقها ويستنشق دخانها في غرفة نومه. وفي تلمسان يروي لنا السيد لمقامي في مذكراته كيف كانت النساء تذهب زرافات وجماعات، مزينات بألبستهن ليرقصن ويغنين قرب أضرحة "المرابطين" الأولياء الصالحين¹، عند حدوث الجفاف أو الأوبئة مثل التيفوس الذي ضرب تلمسان في 1944-1945 (عام البون²) والجرب وحمى المستنقعات التي أصابت كل العائلات³. وكان التوزيع يتم حسب هيئة الزبون أو مقابل البقشيش أو الرهن العقاري أو حلي النساء ضمانا لقليل من

1 - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 28.

2 - لتوزيع المواد الغذائية.

3 - أغاث الصليب الأحمر الفرنسي المتضررين ببعض المؤونة من مسحوق الفول السوداني والدقيق والأرز والقماش الأبيض للأكفان. أنظر: محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 33.

الغذاء أو الحصول على كفن. وللبقاء على قيد الحياة . كان الناس يتهافتون على اقتلاع جذور بعض النباتات، وعلى سبيل المثال كادت عائلة "أمنازلي" من إحدى قرى تلمسان أن تنقرض بعدا أكلت جذور نبتة سامة إسمها "بوزقون". فتوفي منها طفلان وأنقذ الباقيون بأعجوبة. وقد صاحب هذه المأساة عودة المجندين في الجيش الفرنسي وكان من بينهم معطوبون يتنقلون واسطة العكاكيز¹ . تقام الوعدة عند ضريح الولي الصالح، ويتم إنهاء الحفل الديني في آخر المساء بإقامة صلاة اللطيف التي يتولاها الإمام في الجامع الكبير بتلاوة عدة أحزاب من القرآن الكريم يشارك في تلاوتها كل الطلبة بما فيهم المسافرون والقادمون من القرى المجاورة².

- **العقم:** قد يكون العقم حسب المعتقد الشعبي قَدْرًا أو عملا من أعمال السحر الانتقامي، وعملية الإنجاب هي بمثابة الأوتاد التي تثبت البيت الأسري (الخيمة). ف " البيت اللّي بلا أولاد، بلا أوتاد " ³،. والبيت بدون أولاد "يدخله الشيطان.

في كل الأحوال تزور المرأة بعض الأضرحة في منطقتها من بينها سيدي

معاشو بسيدي بلعباس أو ضريح "سيدي الداودي" بتلمسان لمدة سبعة أيام بدون انقطاع، وتلجأ أحيانا إلى "الطلبة" ذوي الاختصاص في الحالات المستعصية، فتقوم بتبخير البيت بأعضاء حيوانية خاصة، أو تعكف على العلاجات الشعبية للعقم . فتناول خليطا من الحليب الرائب مخلوطا بأصفر البيض والحلبة، أو يتناول الزوجان اللذان لا يستطيعان الإنجاب وجبة تعرف عند العامة من الناس بـ " راس الحانوت" وهي خليط من سبعة توابل تطحن، وتستعمل كعناصر علاجية مع العديد من الأطباق. يتناولونها بعد عودتهما من الحمام لينصرفا بعدها للمعايشة الجنسية⁴.

1 - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 33.

2 - المصدر نفسه، ص 29.

3 - مثل شعبي يقصد به أنه مجرد «خيمة» في مهب الريح، لذلك فإن المرأة التي لا تنجب في غضون الأشهر أو السنوات الأولى من زواجها ينتابها قلق حقيقي، فتخشى على حياتها الزوجية من التمزق.

4 - شهادة السيد فقير ميهوب.

- **الإجهاض:** نقصد هنا الإجهاض اللاإرادي المتمثل في فقدان المرأة لحملها

من دون رغبة منها خصوصا إذا كان الإجهاض متكررا، فإن ذلك يعتبر من الأعمال الشريرة للجان، حيث تقوم جنية بالدخول إلى رحم المرأة كلما حبلت، وتخنق لها جنينها. ولتخليصها من هذا الشر المسلط، تلجأ المرأة إلى "الفقيه / الطالب" الذي يصنع لها تمانم تقوم بتعليقها في الأركان الأربعة لغرفة النوم، ثم تذبج بعد ذلك دجاجة سوداء، وتخلط كبدها وقانصتها (معدتها) مع الشعير والريحان وأوراق الدفلى، وتعدُّ من ذلك وجبة تتناوله برفقة زوجها¹، وبقية الوصفة أن يقوم الساحر بصنع مربع سحري في غرفة النوم من خلال نصب أربعة أوتاد تربط إلى بعضها بخيط من الصوف، ويوضع فراش النوم داخل المربع السحري الذي لن تستطيع الجنية دخوله، ويطمئن الزوجان بعد ذلك إلى أن مجامعتهما الجنسية وما سينتج عنها من حمل سيصبح في مأمن وتحت حماية التمانم الأربع والمربع السحري المكون من أربعة أوتاد و الخيط من الصوف².

- **الحمل:** عندما تحمل المرأة، يصير لزاما عليها التزام بعض الاحتياطات

من أجل سلامة جنينها وأهمها: تجنب الاحتكاك بأماكن تواجد المواد السحرية كمحلات العطاراة والنساء المتعاطيات للسحر، لأن الجنين قد يتأثر سلباً ويتعرض لتشوهات خلقية أو للموت حتى! ولا ينبغي معاكسة رغبات المرأة التي تثوِّح، بل يجب الإسراع بتلبية كل ما تشتهيها نفسها. وإلا فإن من شأن حرمانها أن تُخلف "التوحمة" آثارا سيئة شبيهة بالشيء الذي حرمت منه في الطفل الناشئ. وخلال هذه الفترة، تتجنب الأم إطالة النظر إلى كل ما له هيئة غير جميلة، كالأشخاص ذوي الخلقه الذميمة أو الحيوانات. والسبب في ذلك أن الجنين الذي يتشكل في رحمها، سوف يأخذ الصفات القبيحة الظاهرة، لما شاهدها.

¹ - شهادة السيد فقير ميهوب.

² - أمراض الرضع والعقم في يد الجان.

- (خُتْ صَغَار) الصُّرَّة¹: يكون الطفل الرضيع خلال الفترة المتراوحة بين

ولادته وبروز أسنانه الأولى كائنا ضعيفا، فمناعته الضعيفة تجعله معرضا للكثير من الأمراض، أو حتى الموت الفجائي المعروف طبييا، ولكن هشاشة جسم الرضيع له عواقب أخرى في المعتقدات الشعبية. فهو هدف ومستهدف سهل للعين أو لاعتداء أنواع من إناث الجن الشريرة.

تجنبه والدته إلا عن القليل من الأشخاص لرؤيته، ولا يسمح لوالدته أو أي شخص إخراجها من البيت ليلا، قبل تجاوز عتبة الأربعين يوما من عمره، فخلال هذه الفترة من عمره يكون الطفل غير قادر على مواجهة القوى السحرية التي لا تؤثر على الكبار، بحيث إنه يكفي أن يمر طائر البوم (طير الليل) أثناء تحليقه فوق الرضيع أو فوق ملابسه المنشورة على حبل الغسيل ليلا كي يعرضه لخطر الموت أو يصيبه باختلالات صحية خطيرة كخطر الإسهال المفاجئ المصحوب بالتقيء والصراخ الشديد، أو الومد المزمن حين يلبس الصغير هذه الملابس².

تستجد أم الرضيع بإحدى النساء المتخصصات التي تفرك الجهة العليا من فم الطفل بخليط من الرماد والعسل وزيت الزيتون³، أو يتم الاستجداء بـ "الكوأي" الذي يقوم بكّي بطن وظهر وكعب الرضيع بالرأس الحادة للسفود من أجل التخلص من العين أو طرد الجن من الجسد الهش للطفل.

- التابعة أو أم الصبيان⁴: اسم علم لأكثر المتمردين من الجن والشياطين

قسوة وبشاعة في التنكيل في نفوس العامة أو الرعب الذي يحدثونه فيهم، وخصوصا الأطفال منهم. وهو أيضا اسم علم لجنية شريرة تحمل إثنتي عشر اسما تقوم بضرب الطفل وقرصه ليقفز في نومه ويشرع في البكاء المسترسل حتى الموت. أو تصيبه، فيأخذه القيء وهو منكس العينين. و يظهر أن هذا

1 - شهادة السيدة سعدي حليلة.

2 - شهادة السيد فقير ميهوب.

3 - كثيرا ما استدعيت لهذه المهمة السيدة شحرور شريفة في حي الريح. (توفيت سنة 2008).

4 - forums.svalu.com.

الاسم/الأسطورة في سياق تجسيد قوى الشر التي تُحملها العامة مسؤولية الإصابة بالأمراض حيث منحها أرواحا وشخصيات خفية حتى تكون أكثر قربا من الإدراك.

- **الأمراض العقلية:** يلجأ المصاب إلى الطالب / لثقيبه الذي يحدد مصدر المرض ونوع الجن الذي سكنه، وبعدها يلجأ إلى الأولياء / الأضرحة مصحوبا بالزيارة (كبش / دجاج / أموال / شموع...).

يظهر لنا أن لهذا الاعتقاد ما يبرره، فأمام أزمة الثقة¹ * بين الجزائري والآخر الأجنبي، والعزلة التي فرضها الاستعمار الفرنسي، والجهل المطبق، والفقر المدقع الذي يضطر الإنسان الجزائري إلى اللجوء إلى الغيبيات ليملاً الفجوات التي تتجم عن عجزه وافتقاره للوسائل العلمية الواقعية التي لا تتعدى في نظره قدرة وبركة وبرهان الولي الصالح.

4 - التنظيم الصحي خلال الثورة الجزائرية:

يعتبر ميدان الصحة واحدا من الميادين المهمة التي أولت لها جبهة التحرير الوطني أهمية كبرى، والتي لعبت دورا هاما خلال حرب التحرير الوطنية التي تمكنت من وضع الأسس الضرورية لمصلحة الصحة بعدما كانت الكثير من العائلات الجزائرية تمارس مهنة الطب الشعبي مثل تجبير الكسور وتقديم وصفات علاجية من الأعشاب². إلا أن هذه الطرق غالبا ما كانت تنتهي بالفشل بسبب انعدام النظافة والمياه الصالحة للشرب، وانتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة، وسوء التغذية²، وانتشار أحياء الصفيح³.

¹ - حزب جبهة التحرير الوطني، المنظمة الوطنية للمجاهدين، (تقرير الولاية الأولى)، الملتقى الجهوي لتاريخ الثورة، باتنة، (30-31 جانفي) 1985، ص 100.

* لأن العرف والحكم الشرعي يمنعان الجزائري من السماح لزوجته أو ابنته من زيارة طبيب فرنسي، وإلا أصبح عرضة للسخرية أمام المجتمع

² - جوزويه دي كاسترو، جغرافية الجوع، تر: زكي الرشيدي، طباعة الألف كتاب، دار الهلال، القاهرة، مصر، 1991، ص 12

³ - A.W.O. B. N. N° 389/3. Dossier affaires sociales et culturelles. Rapport: Hygiène et santé. 1951. P: 01.

تمكنت جبهة التحرير الوطني من وضع أسس وقواعد ل تنظيم الصحي
تحت إشراف وسلطة القيادة العامة الموحدة¹. يقول د. محمد تومي في
إحدى شهاداته: "النظام الصحي متشابهها عمليا على المستوى الوطني"²
لتقديم العلاج للمجتمع المدني³.

5 - تكوين الممرضين: دخلت جبهة التحرير الوطني الثورة معتمدة

على إمكانيات مادية وبشرية محدودة وغير مؤطرة. فاتصلت ببعض الممرضين
الذين كانت لهم بعض الخبرات في هذا الميدان⁴. لكن مع تطور الثورة المسلحة،
والمعارك والكمائن، وقصف الطيران الفرنسي للقوى والأرياف، وتزايد عدد
الإصابات في صفوف المواطنين والمجاهدين، ازدادت ضرورة تنظيم القطاع
الصحي وإعطائه طابعا مؤسساتيا. لهذا عملت جبهة التحرير الوطني على
تخصيص دورات تكوينية بسيطة وسريعة⁵ للأشخاص الذين تتكون فيهم الشروط
التالية:

- الرغبة في مزاولة مهنة التمريض، وكان عددهم قليلا لاعتقاد الكثير: "بأن
صعود الناس إلى الجبال هو من أجل الجهاد، والجهاد في نظر هؤلاء... هو حمل
السلاح لقتال العدو. أما التمريض فهو خاص بالفتيات... وأن الشباب القادم من
المدن... لم يستطع التأقلم مع الحياة الجديدة لأسباب كثيرة.."⁶
- مستوى من التعليم لا يقل عن مستوى الشهادة الابتدائية، ليسهل عليهم
اكتساب بعض التقنيات المتعلقة بالجانب الصحي.

¹ - محمد قنطاري، تاريخ مصلحة الصحة إبان حرب التحرير 1954-1962 في الملتقى
الجهوي الأول للصحة أثناء الثورة التحريرية في الولاية التاريخية الثانية، المنظمة
الوطنية للمجاهدين، جيجل أيام 14، 15، 16، 1996، ص 47.

² - د. محمد تومي، الملتقى الجهوي الأول للصحة، المصدر السابق، ص 47

³ - Farouk.Benatia. les actions humanitaires pendant la lutte de libération
(1954-1962). Imprimerie Dahlab. Alger. 1999. PP: 73-74.

⁴ - محمد قنطاري، مرجع سابق، ص 45.

⁵ - Mohamed Guentari. Organisation Politique Administrative et Militaire de la
Révolution Algérienne 1954-1962. OPU. Alger. 2000. P: 25.

⁶ - خليفة الجندي وآخرون، مرجع سابق، ص 301.

- يحسنون القراءة والكتابة باللغة الفرنسية، لكن النقص الملحوظ في هؤلاء،
ألبا الثورة إلى المتعلمين باللغة العربية بعد تعريب التعليم الصحي¹ تحت إشراف
أطباء تابعين لجهة التحرير الوطني الذين كانوا يلقنون المتكويين تمويينا نظريا
وآخر تطبيقيا يتمثل في:
- دراسة مختلف الأمراض والأعراض الدالة عليها وتشخيصها.
- دراسة جسم الإنسان² والالتزام بالقواعد الأخلاقية للمهنة³، منها قوانين
جنيف الصادرة بتاريخ 19 أبريل 14949 التي تقضي بوجود احترام الأسرى
وإسعاف المجروحين والمصابين منهم، وتسهيل مهمات الصليب الأحمر خلال
عمليات نقل الجرحى والقتلى في صفوف العدو⁴.
- المبادئ والإسعافات الأولية في الطب، من حقن وتضميد ومتابعة العلاج،
خاصة في طرق إخراج الرصاص وشظايا القنابل التي غالبا ما تعقب المواجهات
مع قوات الجيش الفرنسي⁵.
- الدليل الصحي للمريض لنشر الثقافة الصحية (أو الوقاية الجدية) بين
المجاهدين، كتتنظيف الأيدي قبل الأكل، وحلق اللحية⁶، وعدم شرب المياه دون
وضع قطرات من ماء جافيل تجنباً للأمراض التي يصعب مواجهتها⁷.
- أن يحمل الممرض معه دوما حقيبة الإسعاف (trosse de matériel
médical et médicaments)، ويعمل على تعقيم معداته الطبية قبل استعمالها⁸.

¹ - حزب جبهة التحرير الوطني، المنظمة الوطنية للمجاهدين، (تقرير الولاية الأولى)، مرجع سابق، ص 80.

² - خليفة الجندي وآخرون، مرجع سابق، ص ص 293 - 294.

³ - Mohammed Ben Aissa Amir. Op. Cit. P: 172

⁴ - Mohamed Guentari. Op. Cit. P: 300

⁵ - 2^{ème} Séminaire régionale de l' ouest Algérien sur l' écriture de l' histoire de la revolution Algérienne du 25-26/01/1985. Saida. P. 70.

⁶ - Mohamed Guentari. Op. Cit. P: 22

⁷ - خليفة الجندي وآخرون، مرجع سابق، ص 304

⁸ - Ahmed Ben Khaled. Chroniques médicales algériennes les années de braises .
Edition Houma. Alger. 2006. P: 47 .

- وجوب حمل معدات ووسائل التنظيف مثل الصابون ومقصر الأظافر،
ومعجون الأسنان ومبيد القمل¹. وعند ظهور مرض الجدري في مرسيليا، تم تطعيم
الجنود والسكان المدنيين الموجودين معهم بلقاح D.T.T.B ضد حمى التيفوئيد².
يمكننا اعتبار الممرضين والمرضات النواة الأولى للتنظيم الصحي³ الذي
شهد مشاكل كثيرة خلال المراحل الأولى من الثورة يمكننا حصرها فيما يلي:
- الرقابة الصارمة والضغط النفسي اللذان كان يمارسهما الاستعمار
الفرنسي، لا سيما على الأدوات المتعلقة بالعمليات الجراحية والتضميد، والتي لا
يمكن الحصول عليها إلا بمشقة الأنفس، لأنها لا تقدم إلا بوصفة طبيب وتحت رقابة
صارمة.

- الاعتماد على المنشار وشفرة الحلاقة وغيرها من الأدوات في بتر
الأعضاء المصابة إصابات خطيرة، وبدون تخدير المصاب، وفي ظروف سيئة من
الناحية الأمنية. بسبب الرقابة الشديدة في اقتناء وسائل الجراحة الخفيفة. يقول
الدكتور الأمين خان⁴: "ذات يوم من أيام عام 1958، قام طيران العدو بقنبلة جوية
رهيبية بقرية من قرى الولاية. وفي الليل جاءت جماعة من سكان تلك القرية بطفل
لا يتعدى عمره 12 سنة... وقد وجدت يد مقطوعة من المفصل. ولم يبق سوى
عظم أو اثنين يتدليان... قمت بالواجب داخل كوخ (قربي)، فنزعت له ما تبقى

¹ - خليفة الجندي وآخرون، مرجع سابق، ص 319.

² - المرجع نفسه، ص 313.

³ - Farouk Benatia. Op. Cit.1999. P:73

⁴ - من مواليد 1931/03/06 بمدينة القل، تابع تعليمه العالي بالطب في جامعة الجزائر، وانخرط في
حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، حيث نشط في جناحها الطلابي في إطار جمعية الطلبة
المسلمين لإفريقيا الشمالية. يعتبر من مؤسسي الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين سنة 1955. لتحق
بالثورة بعد إضراب 19 ماي 1956، فأصبح نقيباً في الولاية الثالثة مكلفاً بالميدان الصحي، كما أسندت
لهم مهمة محافظ سياسي. وفي سنة 1958 أصبح كاتباً للدولة في الحكومة، فمديراً بديوان وزارة المالية
بين سنتي 1961-1962.

بواسطة موسى حلاقة، ورقت له الجرح بالخيط والإبرة العادية التي ترقع بها
الثياب"¹.

- ارتفاع المخاطر عند نقل الجرحى من مكان إلى آخر على إثر الحملات
الكبرى، ليعالجوا في بعض المستشفيات أو العيادات من طرف أطباء جزائريين أو
فرنسيين.

- تحويل المستوصفات والمستشفيات في القرى إلى ثكنات ومكاتب للشرطة
الفرنسية.

- نقص كميات الدم في الظروف الحرجة.

- عدم وجود مختصين نفسانيين وأطباء في العمليات الجراحية وانعدام العتاد
الخاص لحفظ الأدوية.

خلال هذه الظروف الصعبة، اعتمدت جبهة التحرير الوطني في علاج
المرضى والمصابين الذين كانوا ينقلون على الحيوانات (البغال والحمير²)، على
الأدوية المستخرجة من بعض الأعشاب لتخفيف الآلام وإيقاف النزيف الدموي، مثل
الثوم والعسل لعلاج الأمراض الصدرية، وخلط الثوم المشوي بالعسل الحر لعلاج
مرض الأنفلونزا، وزيت الزيتون كمقويات ودهن لجروح خاصة في حالات
الحريق³. كما اعتمدت على أهل الخبرة والتجربة⁴ في جبر الكسور⁵ ومداواة لدغات
العقارب للنجاة من الموت⁶، وعلى الوسائل البدائية لبث الأظراف وإخراج
الرصاص والشظايا من الجرحى ومداواة الحروق الشديدة والتعفنات.

¹ - خليفة الجندي وآخرون، مرجع سابق، ص ص 302-303.

² - Ahmed Ben Khaled.Op. Cit. P: 49 .

³ - خليفة الجندي وآخرون، مرجع سابق، ص 299.

⁴ - مريم مختاري، سيرة مجاهدة، الجزائر، منشورات وزارة المجاهدين، 2005، ص 86.

⁵ - حزب جبهة التحرير الوطني، المنظمة الوطنية للمجاهدين، (تقرير الولاية الخامسة)، الملتقى الجهوي
لتاريخ الثورة، وهران، 11-12 فيفري، 1985 مرجع سابق، ص 79.

⁶ - Mohamed Guentari. Op. Cit. P: 79.

اكتسبت المرشدات¹ والمرضون الجزائريون أمثال يحيى عبد الرحمن وسوميلة فاطمية وداني كبير سعديّة² ونضيرة التي تخرجت من مدرسة ماري فوي بوهراّن³ ، وكلود ستيفانيي (سعيدة)⁴ وبن ديمراد صورية⁵ وشيخي موسى وعلي عاشور عمار عبد السلام ومحمد بن عربة بن عزوز ومحمد بوبكري ومصطفى بن ديمراد وشايب الذراع ومراد غنيم وتابت خضير ترقيّة زرقان⁶ ، اعتمادا على التجارب التي مروا بها في الولاية الخامسة والتي تساوي أحيانا خبرة طبيب ممارس في المستشفى بسبب كثرة الممارسة ومعالجة المرضى والجرحى التي كانت تتم أحيانا بالماء والملح فقط بسبب وجود الأدوية. وقد روى لنا محمد لمقامي في مذكراته أن " امرأة عمرها الأربعين سنة والتي كانت تعمل كاتصال مع جيش التحرير الوطني في الناحية الثالثة بالولاية الخامسة. نقلت في حالة استعجال نحو وجدة بسبب ورم كبير شوّه خدّها فأصبحت كأنها ذات رأسين. لقد فحصها خمسة إخصائيين في مستشفى لوسطو لكن بدون جدوى... وكانوا يظنون بأنها مصابة بورم خبيث. فرُدت إلى مصلحة الصحة بالمنطقة ففحصها الممرض عصمان عبد الوهاب بدوره، وسألها هل يمكنها أن تتحمل عملية صغيرة... وبدون تخدير أو عتاد جراحة وبواسطة خنجر مسخّن للغاية. وبضربة خاطفة لجذر هذه الكرة الضخمة خرج كل ما كان داخلها. وهذا ما سمح للسيدة من التخلص من تحمّل رأسين تشدهما بعصابة

¹ - Yves Courriere. La médecine dans le maquis. Historia magazine. N° 285. 1973. P: 2019.

² - تخرجت من مدرسة الممرضين بوهراّن سنة 1958، التحقت بالثورة المسلحة بحمام بوججر سنة 1959. ألقى عليها القبض فانتقلت بين سجون سيدي بلعباس والبلدية حيث تعرض إلى أشد أنواع العذاب.

³ - Mohamed Guentari. Op. Cit. P: 80

⁴ - حوكم بعشرين سنة سجنا لأنه كان يفحص المرضى مجانا. أنظر: مريم مختاري، مصدر سابق، ص 166.

⁵ - ولدت في 11 مارس 1940 بسيدي بلعباس، حصلت على شهادة ممرضة فالتحقت بالمجاهدين إلى أن سقطت شهيدة سنة 1960.

⁶ - مدى مساهمة الأطباء الجزائريين أثناء الثورة التحريرية، مجلة أضواء التاريخية، العدد 2، مديرية المجاهدين، سيدي بلعباس، 1998، ص 30.

رأس. وبعد تنظيف الجرح بالمركبوكروم الذي كان موجودا، إنغلق هذا الجرح بعد أيام قليلة¹

إن جمع وجلب الأدوات الطبية والأدوية² الضرورية مثل البينيسيلين والسلفاميد والميكروكروم والكحول والضمادات³ إلى مراكز جيش التحرير الوطني، كان يتم عن طريق الأوروبيين المتعاطفين مع جبهة التحرير الوطني⁴ أو بعض المواطنين الذين يحصلون عليها بواسطة العلاقات الخاصة⁵، أو بواسطة الوصفات الطبية⁶. لكن جبهة التحرير الوطني كانت تمنع الجنود والمسؤولين من شراء الأدوية بدون ترخيص، كما تمنع المرضى من تقديم وصفات طبية بدون ترخيص من المسئول الطبي للناحية⁷.

عند الحصول على الدواء يتم تسجيله في محضر من طرف المسئول عن جمع وتخزين وتوزيع الأدوية، بصحبة صيدلي وممرض مكلف بهذه المهمة. كان لكل منطقة مخزن للأدوية يشرف عليه ممرض المنطقة. أما إذا صعب الحصول على بعض الأدوية تقول السيدة يمينة شراد: "التحقت بمدرسة التمريض سنة 1950 بعد أن تحصلت على مستوى السنة الرابعة متوسط، وتخرجت منها كمرمضة متخصصة. وعملت كمرمضة. أثناء ذلك بدأت اتصالاتي الأولى بجيش التحرير الوطني حيث كنت أقدم لهم المساعدات الضرورية عندما ينقلهم العدو إلى

1 - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 150.

2 - ليلي موساوي، شهادة المجاهدة الممرضة ليلي موساوي، يومية الحوار، الجزائر 06 / 07 / 2009.

3 - خليفة الجندي وآخرون، مرجع سابق، ص 299.

4 - Mohamed Guentari. Op. Cit. P: 112

5 - شهادة فقير ميهوب الذي كان يتنقل بين سيدي بلعباس والنعامة باعتباره تاجرا منتقلا، وقد روى لنا بأنه كان يتنقل بين صيدليات وهران وسيدي بلعباس، وخاصة صيدلية عباس الكائن مقرها بالقرب بسيدي بلعباس التي كان صاحبها على علم باتجاه هذه الأدوية (الضمادات والقطن والكحول والسيروم...) دون وصفات طبية. وقد كان يدعي بأن أحد أفراد عائلته مريضا ولا يمكنه دفع أجرة الطبيب.

6 - حزب جبهة التحرير الوطني، المنظمة الوطنية للمجاهدين (تقرير الولاية الخامسة)، مرجع سابق، ص 15.

7 - الأخضر جودي بوالظمين، لمحات من ثورة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1978، ط 2، ص 149-150، ص 147.

المستشفى للعلاج، وخاصة فيما يتعلق بتزويدهم بالدواء، وفي نفس الوقت كنت أخرج مع زميلاتي كمية كبيرة من الدواء بطرق مختلفة نعطيها للمسلمين ليوصلوها إلى المجاهدين في الجبال"¹.

كانت بعض الممرضات ترتدي لباس القرويات، وتمكث مدة طويلة صحبة جيش التحرير الوطني في أوساط الجزائريين، والاندماج في الحياة اليومية أملا في السهر على تقديم الرعاية الصحية والاجتماعية لهم².

6 - تعبئة الطلبة الأطباء: شهد القطاع الصحي قفزة نوعية بعد

الإضراب الذي قام به الطلبة ابتداء من 19 ماي 1956، حيث التحق عدد كبير

منهم بالثورة (لم يتجاوز عدد الأطباء الذين يحملون شهادات في الطب العشرة على المستوى الوطني)³. لتدعيمها وتطويرها⁴، حصلوا على تكوين سريع، تمثل في الإسعافات الأولية⁵، فأظهروا قدرات تنظيمية عالية. وأصبح لدى جيش التحرير الوطني إطارات كفاءة تجاوزت مرحلة الإسعافات الأولية، لتقوم بإجراء عمليات جراحية مستعجلة، صعبة ومعقدة وفي ظروف سيئة. وقد أدى تواجد أطباء أمثال ابن مبارك، بن سماعيل، العبدلي بلخيرة بن بوعلي، بن تامي، رحمانى الجيلالي⁶، بن زرجب بن عودة (تلمسان) الذي قتل على يد الاستعمار الفرنسي بعد التعذيب، شولي، حسين جليل جناس، عبد السلام هدام، لخضر بن

¹ - مجلة أول نوفمبر، الجزائر، العدد 62، 1983، ص 72.

² - أنيسة بركات، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية من 1954 - 1956 تدخل الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة، الجزء الثاني، الجزائر، منشورات قطاع الإعلام والثقافة والتكوين بالجزائر، د ت.

³ - الهادي درواز، في مداخلة الملتقى الجهوي الأول للصحة، مرجع سابق، ص 97

⁴ - Farouk Benatia. Op.Cit. P:42

⁵ - الأمين خان، إضراب الطلبة التاريخي قبل وأثناء وبعد الإضراب، الوحدة، ع 464، من 17 إلى 20-17. 1990/05/23، ص ص

⁶ - من مواليد 1938 بندرومة .

صغير (بن باديس/ سيدي بلعباس)، تيجيني هدام أمحمدي¹، فتحي حميدو، قايد حمود، عبد القادر حساني²، سي حسان، طبال (تلمسان)، قارة موسى، خالد عيساني أسعد (معسكر)، مختار خروبي، مولاي الطاهر (سعيدة)، تشوك محمد (تلمسان)، حمي مراد، جلول أوهيبي، نفيسة قايد حمود، صليحة ولد قابلية³، جناسي حشمان، مامي مراد مجير، بن باحمد (تلمسان)، تيجيني رحال، محمد بن عيسى أمير⁴، مولاي دريس شريف (تلمسان)، رشيد بلحسن، براهيم ربوشوارب، بوخروفة ياسين دمرجي، عبد القادر دمرجي، يحيى فارس، بكير قادي، حاج محمد رشيد بلخوجة⁵، غوتي هدام، يسعد حساني، جميل بن دمراد، سيد أحمد حميدو، والأمين خان، والدكتور محمد التومي الذي تخرج من جامعة مونبيليه بفرنسا، وتابع تخصصه في الأمراض القلبية بين المجاهدين، وطالب بضمن العلاج المجاني⁶ وتقديم المساعدات الطبية في حالة المرض العادي أو الإصابات الناجمة عن عمليات القنبلة الاستعمارية بالطائرات والمدافع للقوى والمداشر. مما أدى إلى رفع معنويات المجاهدين والمواطنين الذين حدث لديهم انطباع حسن بسبب وجود فئة مثقفة بينهم في الجبال والقرى والأرياف⁷. يقول أحد الأطباء: "في يوم 19 ماي 1956 كنت قد نظمت فرقة ببعض الطلبة الجزائريين المخلصين، الذين شاركوا في الإضراب العام

¹ - من مواليد 1921/01/11، حصل على شهادة البكالوريا، انتقل بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية لإكمال دراسته في الطب. ثم التحق بصفوف جبهة التحرير الوطني بعد إضراب الطلبة الجزائريين.

² - من مواليد 1920/09/23 بسيدي بلعباس، تابع دراسته بفرنسا ثم التحق بصفوف الثورة الجزائرية بعد عودته إلى سيدي بلعباس التي أصبح رئيس بلديتها بين سنوات 1967-1971. وافته المنية في 1985/05/03.

³ - اسمها الحقيقي زبيدة، من مواليد 1943/07/30 بطنجة المغرب الأقصى، انتقلت رفقة عائلتها إلى معسكر أين حصلت على شهادة البكالوريا. التحقت بالثورة المسلحة وتناقلت بين تيارت وسعيدة لعلاج السكان وتكوين المرضى. استشهدت في 1958/09/19.

⁴ - ولد في 1926/10/08 بسيدي بلعباس، حصل على شها دته الطبية في أمراض القلب بفرنسا. ألقى عليه القبض سنة 1954، فالتحق بصفوف جبهة التحرير الوطني مع بداية إضراب الطلبة الجزائريين.

⁵ - من مواليد 24 ديسمبر 1910 بتلمسان، أنهى دراسته بباريس، التحق بتلمسان ثم سيدي بلعباس ليفتح عيادة له بها. كان له دور كبير في تطبيب المجاهدين. نجا من الاغتيال مرات عديدة إلى أن وافته المنية سنة 1987.

⁶ - الأخضر جودي بوالظمين، مرجع سابق، ص 214.

⁷ - خليفة الجندي وآخرون، مرجع سابق، ص 296.

عن الدراسة، والذي كان من نتائجه التحاقى رفقة بعض الطلبة نهائيا بصفوف جبهة التحرير...ومنذ تلك اللحظة كلفت بمهمة طبيب لنجدة السكان لا سيما في المناطق المهتدة بانتشار الأمراض والمجاعات. ومعالجة الجرحى والمرضى وتكوين المرضى والممرضات¹ لإضفاء الشرعية على جبهة التحرير الوطني². وهذا ما تؤكد السيدة مريم بلميهوب: "لم أعالج فقط جنود جيش التحرير الوطني، بل كنت أعالج أيضا كثيرا من المدنيين، الذين كانوا في حالة يرثى لها ... لا سائل يسأل عنهم. لم أرى في القرى والأرياف التي مررت بها سوى المرض والجوع والبؤس والتعاسة يخيمان عليها ... لقد عالجت ... الذين ذهبوا ضحية قنابل الطائرات الفرنسية. فالجيوش الفرنسية كانت تهدم وتضرم النيران في المنازل والغابات بكل وحشية حيث كانت تتلف قرى بأكملها بعد ذبح نساءها وأطفالها وشيوخها"³. الذين أنهكهم الجوع والمرض.

تميزت الفترة الممتدة من 1956 إلى 1962 بانعقاد مؤتمر الصومام الذي نص على دور جبهة التحرير الوطني في مداواة المجاهدين الذين يتعرضون للمرض والجراح⁴، وحدد رتب العاملين في السلك الصحي وتسلسل مسؤولياتهم عبر كل الولايات منذ 1957. فأصبحت المصلحة الصحية تتكون من طبيب رئيسي برتبة ملازم يعمل في مركز القيادة بالولاية، وطبيب برتبة مرشح موجود في كل ناحية. ومسئول صحي يساعده ممرضون وممرضات، يتقاضون 1500 فرنك شهريا. وطلبة متمرنون يتقاضون 2500 فرنك شهريا إذا كانوا في السنة الثانية في الطب، و 3500 فرنك إذا كانوا في السنة الثالثة فما فوق⁵ ومرشحات، وممرضو الوحدات القتالية، والممرضون المعفون والمتقلون الذين كانوا يقدمون

1 - مجلة أول نوفمبر، الجزائر 1983، ع62، ص 72.

2 - نور الدين حاروش، مرجع سابق، ص 116.

3 - عمار هلال، نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954، لافوميك، ب ت، ص 128.

4 - El Moudjahid. N°04. Règlement intérieur FLN-ALN. Année 1957

5 - يحيى بوعزيز، الثورة في الولاية الثالثة 1954-1962، دار الأمة للطبع والنشر، الجزائر، ط 1، 2004، ص 92.

الإسعافات الأولية للمجاهدين والمدنيين، ويسهرون على تطبيق الوقاية الصحية، ويخضعون للقوانين العامة والمسؤول الصحي الأعلى رتبة. ثم يقوم المسؤول الصحي الولائي بجمع التقارير التي تصله من القسامات ليقدّمها في شكل تقرير نهائي كل ثلاثي إلى اللجنة الولائية¹.

7 - إنشاء المستشفيات ومدارس التكوين: بعد شروع الاستعمار الفرنسي

في تطبيق "مخطط شال وموريس" الرهيب وإنشاء الأسلاك الشائكة المكهربة² وحقول الألغام المزروعة على طول الحدود الجزائرية المغربية وفرض إجراءات شديدة على دخول المواد الصيدلانية³، تعقدت الأمور وأصبح من العسير اجتياز الحدود، واضطرت جبهة التحرير الوطني إلى إعادة تكييف ظروفها وأوضاعها مع الأوضاع الجديدة. فارتأت ضرورة الاعتماد على النفس، وإنشاء مدارس للتكوين على الحدود الغربية والشرقية في المغرب وتونس، ومدرسة للتكوين الشبه طبي سنة 1958 لتكوين الممرضين والممرضات كما ونوعا، استجابة لمتطلبات جرحى جيش التحرير الوطني⁴.

كانت هذه المستشفيات تقام عادة قرب نقاط الماء، وفي الجبال والغابات الكثيفة أو بين السكان الموثوق في إخلاصهم للثورة، وكانت عبارة عن مخابئ ومغارات (الكازمة)، وكهوف وخياما و"قربي" (أكواخ)، مقسمة إلى عدة أقسام منها قسم لاستقبال الجرحى والمرضى من الرجال الذين خصصت لهم أسيرة من الخشب، وآخر لاستقبال النساء. وقسم خاص بالطباخات والموظفين الصحيين وحراس

¹ - 2^{ème} Séminaire régionale de l' ouest algérien sur l' écriture de l' histoire de la révolution algérienne. Op. Cit. P: 116.

² - Mohamed Guentari. Op. Cit. P: 289.

³ - F. Benatia. Op. Cit. P: 75

⁴ - IDEM. P: 299

المخيم. وبه مخابئ للتمويه عند الخطر. ويمنع المرضى من التنقل من مركز إلى آخر خارج المنطقة أو الولاية¹.

تميزت هذه المخابئ الصحية بفتحة صغيرة لا يتجاوز قطرها 40 سنتمتر، تغطي بالأعشاب والأشجار، وأحيانا يدر عليها الفلفل كي لا تكتشفه الكلاب. وعمق عمودي يصل طوله مترين كي لا يتحطم عند مرور الدبابات الفرنسية. و كان قاع المخبأ عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل، تستقبل الجرحى والمرضى وأفراد الحراسة.² يحتوي على بعض الأدوات العلاجية من حقن وبعض الأدوية الخاصة بالإسعافات الأولية. يقول السيد محمد لمقامي في مذكراته: "أسست القاعدة الخلفية* لجيش التحرير الوطني بكيفية حسنة قرب "جوج بغال" بتلمسان. كانت مصلحة الصحة للولاية موجودة في عيادة عبد السلام هدام يسيرها عقاب البشير"³ بمساعدة مجموعة من الأطباء منهم الدكتور زيغوت الأمين المدعو مالك الذي غادر فرنسا حيث كان يدرس الطب في منبيلي ليلتحق بالمنطقة الخامسة لسيدى بلعباس⁴، "ورابح علواش وبركات تحت قيادة الطبيب زيزي بمساعدة الممرض عصمان عبد الوهاب الذي كان محضراً للأدوية في صيدلية "مراد" التي تقع خلف المسجد الكبير بتلمسان، وعدد كبير من الممرضات منهن رقية والزهران وخديجة. وعندما تكون الحالة خطيرة يتم نقل الجريح إلى مستشفى لوسطو (Loustan) بوجدة أين يوجد

¹ - علي كافي، مذكرات، من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946 - 1962، الجزائر، دار القصة للنشر، 1999، ص162.

² - أنيسة بركات، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الراية، الجزائر، 1985، ص 147.

* أصبحت المراكز الخلفية على الحدود الجزائرية المغربية مدارس للتكوين الطبي والعسكري المتعدد الاختصاصات. نذكر منها على سبيل المثال: مركز الكبداني بمنطقة الناظور، ومركز زغنغن الذي حمل اسم "المدرسة العسكرية لتكوين الممرضين، يقع قرب الناظور تحت إشراف محمد بن عيسى أمير ومركز بن مهدي أو La Base 15 (به الأجهزة الصحية للثورة)، ومركز الدار البيضاء للعلاج وتخزين الأدوية، ومركز تطوان لاحتضان المرضى والجرحى، ومركز القنيطرة والرباط بالمغرب الأقصى.

أنظر: محمد طالب، من أيام حرب التحرير، ج 1، نشر ابن خلدون، تلمسان، 2003، ص ص 43-44

³ - محمد لمقامي مصدر سابق، ص 296.

⁴ - المصدر نفسه، ص 296.

الاختصاصيون الجزائريون"¹. ويشير الدكتور الأمين خان في تقرير قدمه في بداية 1959، بعد تعيينه كاتباً للدولة في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ودعوته للانتقال إلى تونس، إلى أن نظام المستشفيات تميز بالصرامة والاحتياط. فكانت الأدوية تخزن في أماكن خاصة لا يعلم بها إلا القليل.

تجنباً لاكتشاف العدو للمستشفيات التي كانت تزود المستشفى بالتموين (الأكل واللباس) لمدة طويلة، نُصبت خيام دائمة ومتقلبة، وعدد من الجنود لحراستها²، وكان يمنع على من بها التدخين أو إشعال النار نهاراً والظوء ليلاً، وعدم تشغيل المذياع إلا بإذن خاص ولا يستعمل إلا لفترة قصيرة بغية الترفيه عن المرضى، ويتم محو آثار المشي، وتردم الفضلات في حفر كي لا يعثر عليها العدو الفرنسي³. كان المرضى يصنفون حسب الحالات التالية:

- الحالات العادية: يسمح لهم بالتنقل وحمل سلاحهم والدفاع عن أنفسهم إن تطلب الأمر ذلك.

- الحالات المتوسطة: كانوا يوضعون في المخابئ لصعوبة نقلهم.

عانت المستشفيات مثل مستشفى التوخوم بشطوان⁴ ومركزي جبل موكسي وبواهدة ببلعربي وسيدي احمد بن سكران بمرين وشيقارة بتفسور⁵ وغيرها من المراكز الأخرى بمنطقة تيفريت بسعيدة⁶ من قلة المعدات الطبية والأدوية، ووظفت لها إمكانيات بسيطة بسبب المراقبة الصارمة للعدو الفرنسي عليها، لذلك شكل المغرب الأقصى قاعدة خلفية حيوية لجبهة وجيش التحرير الوطني لمداواة المصابين الجزائريين هناك⁷. أما من تعدد علاجه، فقد كان يوجه إلى مراكز

1 - المرجع نفسه، ص 149.

2 - خليفة الجندي وآخرون، مرجع سابق، ص 316.

3 - المرجع نفسه، ص 302

4 - أنظر ملحق 22.

5 - مديرية المجاهدين، سيدي بلعباس.

6 - مريم مخطاري، مصدر سابق، ص 65.

7 - Gilbert Meynier. Mohamed Harbi. Histoire Intérieure du F.L.N 1954 – 1962. Casbah Edition. Alger. 2003. P: 497.

متخصصة في الدول الصديقة مثل يوغوسلافيا والإتحاد السوفياتي و ألمانيا الاتحادية.

مع إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، أصبح القطاع الصحي تابعا لوزارة الحربية. حيث تعزز بإنشاء مركز مهم لتشخيص الداء والعلاج مدعم بجهاز للأشعة، وأصبحت المستشفيات الحدودية تشغل أكثر من 80 طبيبا وممرضا جزائريا¹ أكفاء أمثال محمد الصغير نقاش¹ وتجاني هدام وعيسى بن سالم والدكتور بودراع وبشير منتوري.

الجدير بالذكر أن الاستعمار الفرنسي لم يستطع: "ولو مرة واحدة أن يصل إلى أي مركز صحي أو مستشفى، ويلقي القبض على المجاهدين، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى قدرة المشرفين على هذه المراكز وعنايتهم الفائقة بأمن وسلامة من فيها."²

¹ - من مواليد 1918 /04/26 بأولاد ميمون، تابع دراسته بفرنسا ثم عاد بعدا إلى وهران للعمل بإحدى العيادات سنة 1949. التحق بالثورة الجزائرية ليشراف على تكوين الطلبة الأطباء الجزائريين. توفي يوم 2010/05/29 .

² - خليفة الجندي، مرجع سابق، ص 304.

الباب الثاني

الأوضاع الثقافية للجزائريين في عمالة

وهران 1945-1962

الفصل الأول

إشكالية التعليم ووضعية المؤسسات التعليمية بعمالة

وهران:

1 - المدرسة الفرنسية مؤسسة تعليمية أم قناة إيديولوجية:

تعددت التعريفات المتعلقة بالثقافة تبعا لاختلاف المنطلقات الإيديولوجية لدارسي هذا المصطلح، منها من أخذ بالجوانب المعنوية/ الفكرية أو بالجوانب الموضوعية / المادية أو بكليهما معا باعتبار أن الثقافة تمثل في إطارها العام سيرورة المجتمع الإنساني وإبداعاته الفكرية والمادية¹. وجاءت في القرآن بمعنى أدركه وظفر به لقوله تعالى: " ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا "² وهي بمعنى الفهم والذكاء. ففي حديث أمّ حكيم بنت عبد المطلب: "إني حسان فما أكلّم، وثقاف فما أعلم". والثقاف (بكسر أوله): الفطنة من النساء³ وهي "سرعة التعلم"، ومن فعل تَقَفَ يَتَقَفُ، وتَقَفَ يَتَقَفُ، تَقَفًا وتَقَفًا وثقافة أي صار حاذقًا خفيًا فطنًا⁴.

حاول الفيلسوف الاجتماعي الجزائري مالك بن نبي أن يقدم لنا تعريفا أصيلا لمفهوم الثقافة لا يتأثر بالتعاريف المتعارف عليها لدى علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الغربيين. فحدد مفهوم الثقافة من الناحية اللغوية وأصل الكلمة في اللغة اللاتينية، ثم انتقل إلى تحديدها من الناحية النفسية والاجتماعية، معرفا إياها

1 - الأنثروبولوجيا النفسية، موقع أرنتروبوس للأنثروبولوجيا والسوسيوأنثروبولوجيا.

2 - سورة الأحزاب، آية 61.

3 - د. محمد بن مكرم أبو الفضل بن عبد الكريم، الثقافة ومآسي رجالها، ط 2، الجزائر، 1993، ص 13.

4 - أحمد مصطفى محمد عباس إبراهيم فاروق، الأنثروبولوجيا الثقافية، دارى المعرفة الجامعية، 2007، ص 45.

بأنها لا تضم في مفهومها الأفكار فحسب، وإنما تضم أسلوب حياة في مجتمع معين، وتخص السلوك الاجتماعي ذاته¹.

إن الثقافة عند مالك بن نبي مفهوم مركب من مبادئ أساسية منها "العنصر الأخلاقي، لأن المبدأ الأخلاقي يقوم ببناء عالم الأشخاص، الذي لا يتصور بدونه عالم الأشياء ولا عالم المفاهيم"² وهو بذلك يرى أن ثقافة أي مجتمع من المجتمعات هي انعكاس للواقع الموضوعي لهذا المجتمع بكل ما فيه من ماديات ومعنويات. لأنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته لتصبح لا شعوريا، تلك العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة بالوسط الذي ولد فيه، فهي على هذا المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"³، وتشكل حاجاته الجوهرية، بل وتملي عليه نمط وجوده وسلوكه، لأن الثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة⁴.

كان مجال الثقافة منذ بداية الاحتلال الفرنسي ميدانا خصبا لنشر الأفكار الاستعمارية، والثقافة الفرنسية، وطمس مقومات الشخصية الوطنية للشعب الجزائري بغية تسهيل إدماج الجزائريين في حضارتها و تحقيق ثقافة أوروبية و إيديولوجية كولونيالية. لجأ في ذلك إلى كل الوسائل، منها المكشوف والمقنع كالعنف، والإبادة الجماعية⁵، والتعذيب، وخلق الأمراض النفسية... لضرب المؤسسات الاجتماعية والثقافية، ونشر الفوضى داخل المجتمع الجزائري وتفتيته، وإعلان الحرب على قيمه ومثله وثقافته وتجريده من إنسانيته. معلنا أن الجزائري لا قيم له ولا أخلاق. فهو كسلان، متخلف، أمي، متوحش، جشع، وسيخ، عنيف، غير منضبط ومبدع ووفي وأمين، بل ومصدر كل شر. مقترحا عليه ليصبح إنسانا

1 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، القاهرة، مطبعة دار الجهاد، 1959، ط1/

ص3

2 - مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق 1991، ص 148

3 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 83. ص 73

4 - المرجع نفسه، ص 82.

5 - Chérif Rahmani. la croissance urbaine en Algérie. Alger. 1982. P: 76

بالمفهوم الاستعماري، اعتناق ثقافة المستعمر المتحضر، البطل (السوبرمان)، المالك، المثابر، الغني، المحب للعمل¹.

ساهمت المدرسة الفرنسية في تشكيل هذه الوضعية التوتيرية، ذلك أن الفرد الذي يولد داخل مجتمع أو أمة ما يتميز بمجموعة من السلوك تسمح له بالتعرف على انتمائه إلى جماعة إجتماعية والتماثل معها والانتماء إليها² وبالتالي فهو يولد أيضا داخل ثقافة خاصة تشكل شخصيته. لأن كل ثقافة تمرر هوية متميزة ومتعددة المنابع والأبعاد والاختلاف والنوعية، وكل تواصل يحرك عناصر هذه الهوية من خلال قنوات ومسالك إجتماعية وعلمية تتخذ مضامين ثقافية وتشارك بدورها في إغنائها، بمعنى أن الثقافة والهوية والتواصل حركة ثلاثية الأبعاد³. لهذا ركزت فرنسا هجماتها على تحطيم مقومات الشخصية الجزائرية ومحو السمات الثقافية التي تميز المجتمع الجزائري، لتحقيق مآربها الاستعمارية. فعمدت إلى حرمانه من سنده الحضاري بتشجيع نشر البدع والخرافات، وإعلان الحرب على العادات والتقاليد⁴ خوفا من تحويلها إلى نواة يمكن توظيفها لتوحيد الجزائريين وتوعيتهم. وعطلت دور الأوقاف، وسيطرت على المراكز الثقافية وحولتها إلى إسطبلات وكنائس⁵ وتكنات عسكرية، ونشرت الحقد ضد الثقافة العربية الإسلامية. وعمدت إلى نشر كل أنواع الشعوذة، والعبث بالدين الإسلامي ومحاربة اللغة العربية وتحويلها إلى مجرد فولكلور لإحكام قبضتها على العقول⁶. خاصة وأنها كانت ترى فيهما القوتان الرئيسيتان في مقاومة ما كانت تسعى إليه، إلى درجة أصبح فيها "الجزائري إذا

1 - لا يزال هذا المفهوم سائدا إلى يومنا في ذهنية الجزائري.

2 - بوعلي نابي، عن الهوية وفلسفتها، سلسلة ندوات وملتقيات، معهد علم الاجتماع الجامعي بمعسكر، الجزائريون ورحلة البحث عن الهوية، نشر ابن خلدون، تلمسان، 2006، ص 111.

3 - Pierre Bourdieu. Question de Sociologie. Ed de Minuit. Paris. 1980.P:19

4 - علي وطفة، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، بحث في إشكالية القمع التربوي، عالم الفكر، المجلد السابع والعشرون، العدد الثاني، أكتوبر- كانون الأول، 1998، ص 13

5 - محمد علي ديبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 2، ط 1، المطبعة العربية، الجزائر، 1969، ص 22.

6 - Yvonne Turin. op. cit. PP: 168-169

تكلم عن عروبتة، ردَّ عليه المشرِّع: لا، أنت فرنسي. وعندما يطالب بحقوقه كموطن فرنسي، يرد عليه الشرع نفسه: لا، أنت عربي" ¹. ويصرخ بصوت عال بأن الثقافة الفرنسية: "أعطيتي معنى رفيعا للحياة وجعلتني أفهم الديمقراطية والإنسانية، فبقيت مخلصا لها" ².

يترتب عن هذا، أن المدرسة تخدم مصالح الطبقة الكولونيالية ³ والأقلية المحظوظة التابعة لها "لأنها أكثر جدوى في تهدئة البلاد من فيلق كامل من الجيش" ⁴ وسلاحا فعّالا للتغلب على الروح الثورية التي كانت سبباً في مختلف الثورات ضد فرنسا ⁵. وما وجود مستويات من التأهيل الدراسي ⁶ (التعليم العمومي، والتعليم الفلاحي، والتعليم المهني)، سوى تعبير عن تكريس التفاوت الاجتماعي، وتحويل المؤسسة التربوية إلى فضاء للتمييز اللغوي والعنصري. والدليل على ذلك ما عانى منه محمد لمقامي في إحدى مدارس تلمسان في منتصف 1974 حيث قال: "كان ثلثا القسم فرنسيين، أغلبهم ينتمون إلى الدين اليهودي، والثلث الباقي جزائريون من البورجوازية الصغيرة التلمسانية. وكنت الوحيد الذي لا ينتمي إلى تلمسان وأدعى "العربي" أي شيء تافه بالنسبة إليهم. واعتبرت هذا الإسم الذي ألصق بي صفة مؤذية" ⁷، وما ذهب إليه أيضا "بازل برنشتاين" بأن لغة أبناء الطبقة الوسطى والعليا تتسم بالخصوبة، والاسترسال، والمرونة، والترابط المنطقي والحجائي. وتميل إلى

¹ - Ferhat Abbas. La Nuit Colonial. Gerre et Révolution de l'Algérie. Paris. Julliard. 1962. P: 86.

² - Ferhat Abbas. Le Jeune Algérien. Ed. Garniers Frères, Paris. 1981. P: 27

³ - لأن الثقافة تظل مرتبهة بالسياسة ومتغيرا تابعا لها، و"المدرسة هنا لم يكن هدفها تعليمي وإنما سياسي". أنظر: محمد عابد الجابري وآخرون، الأنتلجانسيا في المغرب العربي، مجموعة بإشراف عبد القادر جغلول، دار الحداثة، بيروت، 1984، ص ص 40-41. وأيضا: Yvonne Turin. Op. Cit. P: 245.

⁴ - G . Pervillé. Les étudiants algériens de l'université française. Casbah Ed-Alger. 1997. P:16.

⁵ - يحيى بوعزيز، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، مرجع سابق، ص 195.

⁶ - المرجع نفسه، ص ص 21-24.

⁷ - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 64.

التجريد، والتميز، والصورة المنطقية، واستعمالها للجمل الطويلة التي تعج بالنعوت والأوصاف، والمصادر المؤولة، وأدوات الوصل والفصل. وهذا ما يمكّنهم من الاهتمام بالتعليم العالي الطويل¹. في حين أن أبناء الطبقة الدنيا يكتفون بالتعليم المهني القصير، لاتسام لغتهم باستعمال شفرة لغوية ضيقة، ومحدودة، ومشخصة حسيًا، تتسم بكونها لغة مفككة ومهلهلة غير خاضعة لعمليات التحليل، والتأليف المنطقي، استقراراً واستنتاجاً. يترصد لهم الفشل السياسي والاقتصادي والاجتماعي، رغم وجود فئة منهم تمكنت من تحقيق درجات من النجاح والرقى الاجتماعي رغم فقر بيئتها الاجتماعية² ومحاولات الضغط عليها وتحطيمها³. غير أن "تكولانز" ترى أن هذه الفئة تمّ إصطفاؤها وانتقاؤها ليس على أساس القدرات الذكائية والمعارف التحصيلية، بل على أساس قيم ومعايير التبعية الثقافية والأيدولوجية الاستعمارية⁴، شغفها الشديد بأن تكون رائدة لعهد جديد من الحرية والتقدم⁵ ومعطيات الثقافة الفرنسية دون اعتراض عقلي أو معاداة نفسية⁶. وهو ما يستنتجه أيضاً مصطفى الأشرف عندما يقول: "بعض هؤلاء ما نال الترقية إلا من عهد قريب والبعض الآخر جاءت له المكانة عن طريق الوراثة من العائلات الكبرى التي لمعَ إسمها في خدمة الاستعمار وأكثرهم من صنّاع الإدارة الفرنسية ومن أبواقها في الميدان السياسي ومن أجل هذا كله فلا يشكلون طبقة مستديمة قائمة على أسس متينة، ليس لهم ولو ذرّة من روح المبادرة أو الأيدولوجية. وليس لهم وزن مادي أو معنوي يمكّنهم من التأثير على الرأي العام الجزائري، ومن ممارسة نوع من الضغط على أساطين الاستعمار"⁷.

¹ - خالد المير وآخرون: أهمية سوسيلوجيا التربية، سلسلة التكوين الإداري، العدد الثالث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية سنة 1995م، ص:16-17.

² - B. Bernestei: Langage et classes sociales. Ed.De minuit, Paris. 1975

³ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، ط2، دار الفكر، دمشق، سورية، 2004، ص 216.

⁴ - R.Collins: The Credential Society. NewYork. Academic press. 1979.

⁵ - AOM.Rapport de Mr. Leheureux 1923. 27H23. Aix-En-Provence.

⁶ - عبد الإله بلقزي، في البدء كانت الثقافة، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998، ص19

⁷ - مصطفى الأشرف، مرجع سابق، ص 171.

ظلت المدرسة الفرنسية في نظر "بودلو" و "إستابليه" تركز التقسيم

الاجتماعي لوجود شبكتين لانتساب الطلاب إلى المدارس، يحددهما الفصل بين العمل اليدوي والعمل الفكري الذي كرس في الجزائر سياسة التخلف والاستعمار، وساهم في توريث الفقر والبؤس الاجتماعي وإلحاق الضرر بجميع الطبقات. لأن الحصول على شهادة التعليم الابتدائي التي تسمح للجزائريين بولوج عالم الشغل، أصبح بالنسبة لشريحة واسعة منهم امتيازاً كبيراً¹. المصاريف المالية السنوية الباهظة الخاصة بالنظام الداخلي و المتراوحة بين 40.000 و 50.000 ف التي لم تكن بإمكان إلا فئة قليلة من الأهالي والتجار والأثرياء والموظفين.

كانت وضعية التعليم، مشكلة غالبية الجزائريين. دفع ثمنها الأطفال الذين كان 80% منهم لا يلتحقون بالمدرسة² سوى لفترة محدودة، لأنهم خلقوا – في نظر المعمرين – ليكونوا فلاحين بسطاء، ولا تسمح المصاريف المالية السنوية الباهظة، المتراوحة بين 40.000 و 50.000 ف، إلا لتلميذ واحد فقط للوصول إلى الجامعة من ضمن 50 تلميذا التحقوا بالمدرسة³. وكان يستحيل على الجزائري الالتحاق بالتعليم الثانوي مع ما يلزم ذلك من حد أدنى في السن هو 12 سنة⁴. وهذا في غير صالح الجزائريين الذين كانوا يلتحقون بالمدارس في السابعة من عمرهم في غالب الأحيان⁵.

تطور عدد التلاميذ الأوربيين والجزائريين في الطور الثانوي في القطاع

الوهراني 1945 – 1954⁶

¹ - Charls Robert Ageron. Histoire de l'Algérie contemporaine. Op. Cit. P : 535.

² - Ikene Ameziane. Op. Cit. P: 636.

³ - IDEM.

⁴ - Charles-Henri Op. Cit. P 84

⁵ - Charles-Henri Favord. Op. Cit. P: 84

⁶ - G.G.A. Annuaire Statistique de l'Algérie de 1947. Imprimerie V.Heintz. Alger. 1947. P: 59. & G.G.A. Annuaire Statistique de l'Algérie de 1954. Imprimerie V.Heintz. Alger. 1954. P: 76.

السنوات						عدد التلاميذ
54/53	53/52	52/51	51/50	50/49	49/48	
9944	8740	8075	7612	4646	2446	الأوروبيون
1192	951	893	703	90	68	الجزائريون

لم يكن التعليم المتوسط والثانوي بأفضل حال من التعليم الابتدائي، إذ يتضح لنا أن نسبة تدرّس الجزائريين كانت تراوح بين 12 و 19 % وهي مؤشرات تدل على عمق السياسة الفرنسية المراهنة على تجهيل غالبية الجزائريين¹، وإجبارهم على التخلي عن ثقافتهم الأصيلة، ومنعهم في نفس الوقت من الالتحاق على قدم المساواة مع الأوروبيين بثقافة الدول الاستعمارية. رغم أن المدرسة في العهد الاستعماري كانت تفتقر للمقومات الرئيسية للبيئة المدرسية من حيث والإمكانات، والملاعب، والتهوية الجيدة، والإضاءة المناسبة، وسعة الغرف الصفية، والمكتبات، وكفاءة المعلم، ووسائل الإيضاح والترفيه، والعطل المنظمة، إذا ما قورنت بمثيلاتها في البيئات التعليمية في فرنسا، وذلك يعود لمجموعة من الأسباب أهمها أن:

- الطفل الجزائري المتمدرس هو في غالب الأحيان قادم من عائلة كبيرة العدد، تعيش تحت وقعة الفقر في مسكن ضيق² وقذر. يفتقد إلى مؤهلات التعليم، الشيء الذي ينعكس على مقدار استيعابه ونجاحه المدرسي. أما في المدرسة فإنه لا يمثل شيئاً بصفته فرداً غارقاً في قسم مكتظ بالتلاميذ يضم خمسين تلميذاً تقريباً³، ويُلقن من طرف معلمين فرنسيين متواطئين مع السلطة الاستعمارية لأنهم يرون في الثقافة إرث كما يقول "جورج غيرفيتش"⁴. أو من طرف معلم من

¹ - هذا الوضع يجعل المدرسة الفرنسية تعيش وضعا مضادا لرسالتها ومهمتها وظيفتها . أنظر:

Michel Develay. Donner du sens à l'école. 1996

² - في القربي أو الأحياء القصديرية، وقد كانت هذه المنازل عبارة عن محاشير جماعية تنعدم فيها أدنى شروط النظافة والصحة مما يساعد على إنتشار الكثير من الأمراض والأوبئة الفتاكة مثل السل وغيره.

³ - محمد لمقامي، مصدر سابق ، ص 116.

⁴ - روبيرت بريم، المثقفون والسياسة- تر: عاطف أحمد فؤاد، القاهرة، دار المعارف، 1985، ص 69.

الأهالي ناقص التكوين، وغير قادر على اتخاذ القرار التربوي السليم. يتميز بشذوذ هدامه وسوء تصرفه، ويتلقى أجرة أقل من نظيره الفرنسي، مرهق بكثرة أعداد التلاميذ. كثيرا ما يؤنبهم بكلام جارح أمام زملائه م. فيضطرهم إلى الانسحاب من المدرسة بصمت في سن مبكر . يقول محمد لمقامي في مذكراته: "ذات يوم أخرجني والدي من الكتاب في الصباح الباكر ليسجلني في المدرسة الابتدائية بمجرد ما دق الجرس..وقفت في الصف كجميع التلاميذ الآخرين منتظرا دوري لأنال نصيبي من الأكل، ولما وصلت أمام المعلم ليضع مغرفة من الحمص في صحنى أسقطت كل ما في يدي من شدة الخوف فتكسر الصحن. فنزل على رأسي السافر المحلوق عن آخره وابل من الضربات السريعة بالمسطرة، فشددت على نواجدي من دون أن أصرخ ولكن ذلك كان رهيبا. وبعد دقائق قليلة أحاط بي كبار تلاميذ المدرسة جميعهم قائلين لي: ما هذه إلا البداية! وإنك ستعرف أسوأ من هذا. وبعدها استولى علي الخوف، إنتهزت فرصة الإستراحة لأفرّ نهائيا من المدرسة وأنضمّ إلى فوج قد سبقني إلى هذه العملية...وهكذا، في كل صباح، كنت أتوجه نحو الحدائق أو الواد رفقة أولئك الأطفال الفارين...هذا الهروب دام تقريبا أربع سنوات... وبعد ما استولى الشك على والدي راقب تصرفي. فأعادني إلى المدرسة ... والركلات والضربات بالعصا تتهاطل علي" ¹ .

- تعميم التعليم فقد يمكن الحركة الوطنية والثورة الجزائرية من الإدراك الفعلي لواقع تأخرها التاريخي والفهم التاريخي للظاهرة الاستعمارية. فتصبح أكثر وعياً بحقوق الأهالي ومتطلبات وجودهم، وأكثر ميلاً للتمرد والتظاهر والإضراب عن العمل ، و سرعان ما ستهب هذه الجموع من المتسولين ² إلى المناداة بأن الجزائر للجزائريين.

¹ - محمد لمقامي، مصدر سابق ، ص ص 19-20-21.

² - يحيى بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 163.

مع الأهمية الكبيرة للتعليم من وجهة نظر الاستعمار الفرنسي، ظل ينطوي على بعض المخاطر الأيديولوجية. لأن التعليم الجيد المتميز بقوة التجهيز، قد يؤدي إلى إعادة بناء العمل وفق وضعية جديدة من التقسيم الذي لا يناسب بالضرورة مصالح الكولون. وهذا يعني في نهاية الأمر أن ه سيؤدي إلى تنشئة¹ الأطفال تنشئة اجتماعية وتربوية، وبناء شخصيتهم ووضعها على الطريق الصحيح ل تكوين كائن إنساني، ورجل فكر يتخلص من آثار توابع الأمية، ويكون أكثر إحساسا بقضايا أمته، وأكثر وعيا بأهمية العلم والمعلومات المختلفة والقيم الثقافية السائدة لدى المجتمع²، ونقلها من جيل إلى جيل. يفرض نفسه ووجوده ويحقق رؤية المجتمع الذي يعيش فيه بشكل متجانس³. ويخلق علاقات شخصية، وينقل التراث الثقافي المسؤول عن تحويل الأفراد من الطبيعة البيولوجية إلى الطبيعة الإنسانية، ويحدد مركز الفرد الاجتماعي والسياسي والدور الذي يقوم به، ويرسخ القيم والعادات والمواقف والاتجاهات التي من شأنها خدمة المجتمع الجزائري وتطوره⁴. مما يؤدي في نهاية المطاف إلى منافسة جديدة وخطرة بين أبناء الطبقة السائدة وأبناء الطبقة المسؤدة. ومن هذا المنطلق، أدركت الإدارة الفرنسية أن سلاح الأفكار أخطر الأسلحة⁵، لذلك حرصت على أن تقدم للجزائريين تعليماً لا يتجاوز الحدود الدنيا للوظائف الأساسية المتعلقة بإعادة الإنتاج الاجتماعي الضروري لحياة الطبقة⁶ الاستعمارية نفسها. التي تنظر إلى المواطن الجزائري وكأنه ذو عقل غير شبيه بعقلها، لأن ذلك ضد قانون

¹ - لمزيد من المعلومات، أنظر: NicoHirtis. *Changer l'école pour changer le monde*. Les cahier de l'école démocratique Belgique. Novembre. 2003.

² - علي وطفة، المظاهر الاعترابية في الشخصية العربية، مرجع سابق، ص 13 .

³ - محمد شكري سلام، مرجع سابق، ص 67.

⁴ - عبد السلام عبد الغفار، البناء التربوي للمجتمع المصري، في المنتدى الفكري لجامعة قناة السويس، المجلد الأول، مكتبة مدبولي القاهرة 1996.

⁵ - مصطفى الأشرف، مرجع سابق، ص ص 276- 279 .

⁶ - Pierre Bourdieu et Jean-Claude Passeron. *La reproduction: éléments pour une théorie du système d'enseignement*. Paris. Les Éditions de Minuit. coll. " Le sens commun".1970 .PP: 19-26.

العناية الإلهية الخالدة. وقانون التطور الثابت¹. وحرصت أيضا أن لا يسمح بأن يتحوّل إلى قوة مادية وهمّ ثقافي يتوق إلى التحرر . تكون نتيجته "تكوين كتلة متراسة من السكان الأصليين تكون اللغة والمؤسسات فيها موحدة. فعلينا كما يقول أحد الفرنسيين أن نتبنى لحسابنا المقولة المتبعة "فَرَّقْ تَسُدْ" *، و"الأوروبي للأمر والجزائري للطاعة" *، وأن لا يستفيد جميع الأهالي من الثورة الليبرالية وما صاحبها من أفكار وفلسفة ومبادئ. وإلا أصبحوا أكثر وعيا ونشاطا فيستيقظون من سباتهم، ويستعدّون لاسترداد كل حقوقهم وحرّيتهم² المسلوبة، بالانجراف والاشتداد بالماضي والاستفادة من مكاسب المدنية الفرنسية الحديثة . "لأن من يتعبّد لماضيه، متناسيا غده، ينتسب إلى الموت"³ ويشكلون بقوتهم العددية خطرا داهما يكبح القلق ويقضي على التفوق⁴. وبذلك يمكننا أن نستنتج أنه من الخطأ الاعتقاد أن "الاستعمار كان يفضل دائما لون البشرة الأسود كي يستعمره ويستغله بحجة حق الأبيض على الأسود، ولكن هذا الطرح صائبا حينما يتعلق الأمر باحتلال الجزائر؟ يمكننا أن نقول إن فرنسا مارست سياسة عنصرية ضد مجتمع من جنس أبيض، وحطمت بذلك كل الأفعنة التي حاولت تظليل الرأي العام العالمي، لأجل الاعتقاد في فكرة أن الاستعمار جاء ليخضع فقط السود"⁵.

- استنصار الأهالي واحتقارهم، لتمكين المستوطنين من الاستقرار دون

خوف.

كانت لهذه العوامل نتائج وخيمة، ساهمت في تخلف المجتمع الجزائري وإفقاره، واختلال ميزان النمو فيه، واستلاب نخبته. لأن الاستعمار الفرنسي أدرك "بأن شلّ الذهنية الجزائرية ومسح الإنسان بعد سلخه من الشخصية الوطنية، هما

1 - عثمان سعدي، مأساة شعب وتبلد ضمير، مجلة الآداب، ع 5، بيروت، ماي 1955، ص5

2 - محمد قنانش ومحفوظ قداش، نجم الشمال الإفريقي، 1926-1937: وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1984، ص 44.

3 - محمد عابد الجزائري وآخرون، الأنتلجانسيا في المغرب العربي، مرجع سابق، ص ص 140-141.

4 - A. Mahsas. Op cit. P 183

5 - جون بول سارتر، مواقف مناهضة للاستعمار، تر: محمد معراجي، منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، 2007، ص 117.

الذان سيسمحان بمواصلة ممارسة السيطرة في سائر الميادين وعلى مختلف الأصعدة¹ ووضعه لهذا دعا "إيفان إيليتش" إلى إلغاء هذا النموذج من المدرسة في كتابه: (مجتمع بدون مدرسة)² التي يم يكن هدفها سوى "معرفة طباع الشعب جيدا. ذلك الذي نحن مدعون لحكمه، وأيضا لوضعه شيئا فشيئا في الفكرة الواسعة لحضارتنا"³.

إن وظيفة المدرسة في ظل الاحتلال الفرنسي أصبحت وظيفة اصطفاية، تركز الصراع بين الفئات الاجتماعية، وتعطي الشرعية للتفاوت الاجتماعي⁴، إذ كما يقول محمد لمقامي "ما فتئ المعلم يعاملني معاملة سيئة أثرت عليّ تأثيرا كبيرا، فلا يقبل أن أجلس في الأماكن الأولى: إنها مخصصة لمفضّليه. ولقد طردني مرارا من القسم من دون سبب. وكان يقول لي إنني سأحصل على البكالوريا عندما تنبُتُ الأسنان للدجاج ووقت تصحيح الواجبات يتهمني بالنقل إذا كان عملي صحيحا. فاشتبكت علي الأمور وتعقدت والحال أنني كنت ممتازا في الرياضيات"⁵. ويضيف قائلا عندما كان يدرس بمغنية: "انتهزت الفرصة لدفع طلب المنحة بالبلدية المختلطة... استقبلني حاكم البلدية المختلطة... الذي علمت من بعد ذلك بكثير أنه أتى من بلدية مختلطة أخرى من شرق البلاد حيث شارك في مجاز 8 ماي 1945... كان فظا غليظ القلب متكبرا. وما إن قدمت له طلب المنحة ومن دون أن يلقي علي نظرة قال لي: (ح.ش.ج) (P.P.A) فلم أفهم شيئا...وظنا مني أن الأمر كان يتعلق بفريق كرة القدم أجبته أنني مع الجمعية الرياضية لمدينة مغنية (SSEPN)... ثم أشار إلي بالخروج... فجمد نهائيا حقي في الحصول على منحة الدراسة مثل رفاقي في

¹ - محمد حربي، حياة تحد وصمود، مدركات سياسي 1945-1962، درا القصة للنشر والتوزيع، الجزء الثاني، 2004، ص 173.

² - Ivan Ilitch. Une société sans école. Seuil, Paris. 1971.

³ - Rey Malibeu. Rapport à l'occasion du cinquanteaire de l'université d'Alger. 1955. P: 15.

⁴ - خالد المير وآخرون، مرجع سابق، ص ص 16-17.

⁵ - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 91.

الدراسة وذلك حتى بعد أن أحرزت على شهادة البكالوريا ¹. لقد هؤلاء المعلمين أكثر عنصرية من قادة فرنسا العسكريين ².

في ظل هذه الظروف اهتزت مكانة وقيمة النظام التربوي في المجتمع الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي، و ترتب على ذلك تدهور خطير لـ"صورة" المدرسة في الوعي الجماعي ³ العام. بحيث لم يعد ينظر إليهما على أنهما وسيلة للتكوين النافع والترقي المهني والاجتماعي وللصعود المرادبي، وإنما باعتبارها آلة لإعادة إنتاج الإحباط والبؤس ووسيلة للعيش والحياة ⁴ والأكلاف الاجتماعية الزائدة. كان الاستعمار الفرنسي يعي بعمق أنه لم يحضر إلى الجزائر لإقرار الأمن، أو تعليم أهاليها، بل لتهميش الجزائريين في الحياة السياسية، لتحافظ فرنسا على الأوضاع الراهنة ¹ من خلال اختراق قيمهم وثقافتهم بالتركيز على اللغة والثقافة الفرنسية. ليتعود عليها الأطفال الجزائريين. فتصبح لغتهم الأم، ولغة المستقبل الزاخر الموعود. يفكرون ويتكلمون بها تحت العمامة وتحت البرنس، مثل أهل باريس ⁵، دون مراعاة لغتهم الأصلية. وقد كتب "دركهايم": "إننا لا نتصور أما تستطيع التطور لحالها، وفق نماذج اجتماعية وسياسية تختلف عن النموذج الحضاري الغربي، ويتعين علينا التعريف بحضارتنا وتوصيلها إلى رعايانا الجدد" ⁶ الذين أصبحوا سجناء نظام أبعدهم عن أمتهم ⁷ كما كتب الفرنسي "جورج هاردي" يقول: "إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا، وتكوينهم وفق نموذج

¹ - المصدر نفسه، ص 66 - 67.

² - S. Hadjeres. P : 41

³ - عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص 18.

⁴ - Fanny Colonna. Le Système de L'Algérie coloniale. Archives européennes de sociologie. Tome XIII. N° 2. France 1972. P: 198

⁵ - فضيل عبد القدر، مرجع سابق، ص 253.

⁶ - دروش فاطمة فضيلة، مرجع سابق، ص 112.

⁷ - Jean Claude Vatin. L'Algérie politique. Histoire et société. P.F.N.S.P. Paris. 1983. P: 164.

المدرسة الفرنسية¹، وجعلهم أكثر ولاءً وأخلصُ في خدماتهم لمشاريعنا هو أن "نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسبما نريد"² * لإنتاج مثقفين وسطاء ينحدرون من أبناء الأعيان، مزدوجي أو أحادي الثقافة. لا يتمتعون بصفة الغالب المسيطر³ ويكونون أحد أجهزة الدولة الذي يساعد على توطيد النفوذ الفرنسي⁴، وهمزة وصل بين الأهالي "عامّة الناس" والسلطات الفرنسية. تتقطع صلتهم بذويهم لوؤوعهم المفرط ب الثقافة الغربية المعتبرة كوسيلة وحيدة للرفي الاجتماعي والثقافي، وانسلاخهم عن الثقافة العربية الإسلامية. م همتهم تبرير الاستعمار، وضرب الهوية الوطنية لكي تتحلّ روابط وقيم المجتمع ونسيجه ومؤسساته⁵. ليصبح معظم أطفال الجزائر مصدرا من العمال المفيدين المعاونين⁶. لأن الذي يتنازل عن نفسه الفردية، "ويصبح آلة متطابقة مع غيره.. فإن الثمن الذي يدفعه غال، إنه فقدان نفسه⁷". وتيسير إحكام الاستعمار على عقله⁸ بما يخلق لديه إحساسا بالدونية داخل ذات هذا المستعمر، و يقوده إلى احتقار ثقافته الخاصة والوصول إلى مرحلة من الإستيلا ب تدفعه إلى ممارسة حيل الاستعمار لمواجهة هذا الشعور.

إنها ظاهرة مرضية تصدر عن الجهل بالآخر، والخوف منه، وكرهيته، وتضخيم صورة "الأنا" وتحقير صورة "الآخر" وسجنه في غيريته. والدوس على

¹ - Maurice Paulard. L'enseignement pour les indigènes en Algérie. Imprimerie administrative. Alger. 1910. P: 422.

² - أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962-1972، تر: حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 16.

* مدى قابلية سلوك الأفراد للتشكيل باستقراء الثقافات الأجنبية المتعددة والمختلفة.

³ - أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، مرجع سابق، ص 17.

⁴ - محمد صاري، شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، المطبعة العربية، غرداية، 1987، ص 127

⁵ - وهيب الشاعر، الأردن... إلى أين؟ الهوية الوطنية والاستحقاقات المستقبلية، مركز الدراسات العربية، بيروت، 2004، ص ص 18-19.

⁶ - صاري جيلالي، محفوظ قداش، المقاومة السياسية 1900-1954، مرجع سابق، ص 13.

⁷ - أريك فروم، مرجع سابق، ص 150.

⁸ - Yvonne Turin. Op. Cit. PP:168-169.

جميع عاداته وتقاليده¹ *، ودفعه إلى الانكماش والانكفاء نحو الذات . تقتل فيه وتقصي أفضل طاقاته وإبداعاته². والحقيقة تكمن في نظرنا أن الفلسفات الوضعية للإنسان الغربي، تعترف بقصورها عن إدراك الإنسان وجوهره و حقيقة وجوده. رغم ظهور نخبة حملت هموم مجتمعها الأهلي³، قبيل الحرب العالمية الثانية، وتسللت إلى مناصب سياسية وإدارية عليا ، وطالبت الإدارة الفرنسية بتنفيذ وعودها المتمثلة في التكفل بانشغالات العمال وتحسين ظروف العمال، وتطبيق العدالة المساواة السياسية وإلغاء الإجراءات الاضطهادية، والتوزيع العادل للضرائب . ولجأت إلى تأسيس نوادي وجمعيات تسعى إلى التكفل بالشؤون الاجتماعية للأهالي⁴، وتعمل على نشر القيم التي يحتمى بها الأهالي ضد الثقافة الفرنسية خوفا من الذوبان. إلا أن المجهود الفرنسي "في مجال التجديد والإصلاح الثقافي سيركز ليس على كل طبقات المجتمع . ولكن على "أطر المجتمع المولعة تقليديا بالنظام، بالعلن، بالتوازن والسلطة"⁵ والولاء للفرنسي⁶. أولئك الذين بالإمكان تأطيرهم وتوجيههم بعيدا عن ثقافة تجمع بين الأصالة (التراث) والمعاصرة (الحدثة).

رفض ذوا المصالح اللاقتصادية والنفوذ السياسي إنشاء أي تعليم لأبناء الأهالي لأن في تعليمهم مساس بمستقبل⁷، ومقدمة للوعي السياسي، وعاملا من العوامل التي تدفع السكان المتخلفين والماضويين الذين أطلق عليه مايكل عدس

¹ - محمد قنانش ومحفوظ قداش، نجم الشمال الإفريقي، 1926 مرجع سابق، 1984، ص ص 47-48. * لأن النظام القضائي والمحاكم الفرنسية كانا يحميان العنف الفرنسي ويجعلان منه ممارسة شرعية.

أنظر: Claude Collot. Les institutions algériennes pendant la période coloniale. Edit du C.N.R.S. Paris. OPU. Alger. 1987. P : 287.

² - علي اسعد وطفة، الطاقة التدميرية للعنف السيكولوجي في التربية، مجلة تصدر عن وزارة الثقافة في سوريا، العدد 534، 2008.

³ - Redouane Ainad Tabet. Op cit. P: 135.

⁴ 21763- L'écho d'Oran du 16/04/1930. N°

⁵ - Paul Marty. Le Maroc de demain. Paris. Comité de l'Afrique française. 1925. P: 85.

⁶ - Charles. André Julien. Les Techniciens de la colonisation. Op. Cit. P. 75.

⁷ - Charles Robert Ageron. Histoire de l'Algérie contemporaine. Op. Cit. P: 539.

"أبناء التمرد المبكّرون" إلى استيقاظ ضميرهم الوطني¹ ليصبحوا ثوار المستقبل، وأطفال المدارس الثائرين المتمردين² سيما وأنا: "إذا رفعنا مستوى الأهالي إلى مستوانا فسنعمل على طرد أنفسنا من البلاد، ولهذا يجب إبقاؤهم على حالتهم السفلى"³ لكي يقبلوا إدارتنا وعدالتنا⁴ ولا يطالبون بحقوقهم المشروعة في ظل ظهور طبقة كادحة من الفلاحين والخماسة تبحث عن "لقمة العيش"⁵.
بناء على هذا السياسة التعليمية الفرنسية الإقضائية، وجد المعمرون أنفسهم ملزمين بالفصل بين تقديم تعليم خاص ب:

1 - التعليم الخاص ب النخبة: التي توقفت عن النمو الفكري بسبب تأثير

العلوم الوسيطية، لذلك فإن التعليم الذي سيقدم لأبناء هذه النخبة الاجتماعية والثقافية المصفاة⁶، سيكون تعليما طبقيا وآلة حرب. يهدف إلى تكوينها تكوينا منظما تحفيزيا في ميادين الإدارة والتعليم والمحاماة والطب أو الأدب إلى حد ما، ويولّد لديها إرادة قوية ودافعية، تحولت من دافعية وسيلية لتحقيق أهداف محددة كتحسين الوضع الوظيفي. إلى دافعية تطغى عليها الرغبة في الإندماج ووصل الجزائر بفرنسا، والانتماء وتبني أفكار ومبادئ الطبقة الحاكمة دون الإرتقاء إلى وعي وإدراك الأسس التاريخية التي أفرزت مفهوم التقدم في فرنسا خاصة والغرب عامة⁷.
فظهرت على إثر ذلك جماعة رخوة الشخصية هي جماعة النخبة التي لم تتبن أفكار الغرب ووسائل عيشه وطريقته في العمل وثقافته وتعليمه فقط، بل أرادت أيضا أن

1 - أبو القاسم سعد الله، ج2، مرجع سابق، ص 303 .

2 - الطاهر زرهوني، مرجع سابق، ص 12.

3 - عبد القادر فضيل مرجع سابق، ص 257.

4 - عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص 77.

5 - M. Kaddache. D. Sari. Op cit. P: 145

6 - Paul Marty. Le Maroc de demain. Op. Cit. P: 85

7 - خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص 145.

تحول المجتمع الجزائري إلى مجتمع أوروبي¹. وإن كانت "خولة طالب الإبراهيمي" ترى بأن هؤلاء "لم يستطيعوا أن يشكلوا بديلا مقبولا لبناء الحقل الثقافي الجزائري لضعفهم العددي وصلاتهم بالحكم الاستعماري"².

إن التعليم أو الفرنسية أو الثقافة على مستوى هذه الشريحة كان بغرض ضمان إنتاج وإعادة إنتاج الوجود الكولونيالي، حيث سيمكنهم من الاحتفاظ بهؤلاء الشباب النازحين من عائلات مرموقة ليديروا ظهورهم للمتظاهرين بالإصلاح³، وعدم تركهم يذهبون إلى الشرق ل لتفاعل معه. والوقوع تحت تأثير الجامعة الإسلامية وأفكارها القومية العربية، و تلقي العِلم والعودة بروح النهضة الإسلامية وفنونها المختلفة باعتبارها من ضمن موازين العقل البشري، و إشعاع المعرفة بفهم الإسلام⁴ على نهج السلف الصالح الذي يعني التعصب الوطني والوعي القومي.

2 - التعليم الشعبي الخاص بالجماهير الفقيرة والجاهلة جهلا عميقا، يتنوع

بتنوع الوسط الاقتصادي ويتكون من:

1 - المدارس التطبيقية: هي: وسيلة لإعداد العمال المهرة أو متوسطي

المهارة، ورفع مستوى مهارة العاملين، وتحويل بعض العمال من مهنة إلى أخرى. وقد طالب المعمرون بتأسيس مدارس تطبيقية بسيطة وأولية، قصيرة المدة الدراسية ولا تتطلب إلا تعليما محدودا⁵. وقليلة التكاليف المادية، تكون الأهالي تكويننا مهنيا بقصد إكسابهم المعارف والاتجاهات اللازمة والمهارات الجديدة، ورفع مستوى

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، 1900-1930، ج2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص. 161.

² - خولة طالب الإبراهيمي، مرجع سابق، ص 227.

³ - Mahfoud Kaddache. histoire. T1. Op. Cit. 1993. P: 51.

⁴ - André Nouschi. La Naissance du nationalisme algérien. 1914-1954. Paris. Minuit. 1962. P 64

⁵ - Xavier Yacono. L'histoire de L'Algérie. Edition Atlanthrope. Paris. 1993. P: 344.

* كانت ترمز إلى الفقر والدونية مقارنة بالمدرسة العمومية. أنظر: Jeune Chambre économique d'Alger. Op. Cit. P: 23.

إنتاجيتهم لإيجاد حلول للأزمة الاقتصادية التي أوقعتها فيها الثورة الجزائرية، ولتسهيل تنفيذ وإنجاح المشاريع والاستثمارات الاقتصادية الاستعمارية الفرنسية في إطار مشروع قسنطينة.

ينقسم هذا التكوين إلى:

أ - **التكوين التقني** (المدارس الإضافية أو المساعدة)¹: كان الكولون بحاجة إلى استغلال اليد العاملة المحلية² البسيطة والرخيصة من النساء والأطفال³. واليد العاملة الفنية والمتخصصة فلاحيا ومهنيا وصناعيا في المجالات التي لا تتطلب شهادات مدرسية⁴. بل تقنيات بسيطة في الزراعة والكهرباء والطلاء⁵ لخدمة مصالح المعمرين والعمل في القطاعين الخاص والعام، والمساهمة في سد حاجيات الاقتصاد المحلي⁶، والحد من منافسة اليد العاملة الإسبانية والإيطالية التي تطالب بلجور مرتفعة⁷، وإيقاء الجزائريين في الأرياف بعيدا عن الحواضر للحد من البطالة والمساكل القصديرية (القوربي) التي كانت تنمو باستيراد المشيدة من الخشب أو الطين وصفائح القصدير حول المدن⁸، الفاقدة لأبسط شروط حياة الإنسان.

أقرت الحكومة الفرنسية ميزانية هزيلة للتعليم التقني رغم أن عمالة وهران تزخر بوفرة:

1 - عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 1999، ص 235.

2 - المرجع نفسه، ص 206.

3 - La situation des Cultures Industrielles en Algérie .Op. Cit. P: 12

4 - Tayeb Chentouf. L'Algérie en 1954. Op. Cit. P: 134

5 - لهذا كانت تهدف إلى تكوين المتربصين وثقفيهم المبادئ الأولية في مجال الأشغال العمومية والبناء لأن فرنسا كانت بحاجة 'لا عمال البناء بسبب البرامج الضخمة التي كانت تسعى إلى تحقيقها للتخفيف من أزمة السكن.

6 - Conditions générales de l'enseignement technique en Algérie. Document N° 18 de La série économique. Paru le 20 Juillet 1946. In Documents Algérienne 1945-1946. P: 107.

7 - Tayeb Chentouf. L'Algérie en 1954. Op. Cit. P: 134.

8 - Nouvelles Réalités Algérienne. N° 01. Etude sociale du bidonville de Boubou dit Berardi A Hussein Day. 1959. P: 10.

أ - البنية التحتية المتمثلة في الطرقات، والسهول الخصبة، والإنتاج الفلاحي الوفير الذي لا يمكن للميتروبول الإستغناء عنه، والمراكز الإقتصادية، والثروات المتعددة مثل الفحم، ومصانع الإسمنت والزجاج بوهران، وصناعة النسيج الصناعي والصناعة الغذائية والتحويلية، ومواد البناء بسيدي بلعباس، وموانئ الصيد مثل ميناء الغزوات و"بني صاف" الذي كان يزخر بالثروة السمكية¹، ويوفر ثلثي الإنتاج البحري في الجزائر.

ب - تركيز الكثير من الصناعات في غيليزان ومعسكر²، ومستغانم الذي كان يُعتبر قطبا جهويا هاما في الإقتصاد الفرنسي لكونه يضم حوالي ثلث المؤسسات الصناعية المتخصصة في الخمور³ والنقل، وإنتاج الزجاج، ومناجم الحجارة المتواجدة بعين النويصي التي أوكلت الإدارة الفرنسية إستغلالها إلى الشركة الفرنسية لاستغلال الآجور والجص⁴. إضافة إلى غنى المنطقة بالرمل والطين الذي كانت تشرف على استغلاله المؤسسات الفرنسية لصناعة القرميد والآجور⁵.

رغم أن المحور الأساسي للأولويات التي كان يطمح إليها ديغول من خلال مشروع قسنطينة هو ترقية الإنسان⁶، إلا أن السلطات الفرنسية لم توزع هذه المدارس بطريقة عادلة على تراب الجزائر، بل جعلتها ترتبط إرتباطا وثيقا بالبعد الجغرافي. ففي عنابة حيث توجد مناجم الونزة والصناعة الحديدية، لم يكن

¹ - B N° 12. Archives Nationales. Région économique de l'Algérie. séance de mars 1957. situation actuelle en chalus. & Collette Bourdache. Op. Cit. P: 457

² - Michel Ambault. Le transport en Europe du gaz d'Hassi R'Mel. Plan de Constantine. N° 14. B.M.C.E.D.A. Mars 1962. P: 35.

³ - Michel Ambault. Op. Cit. P: 35.

⁴ - A.W.M.Rapport de Service Régional des Mines. N° 246. Inventaire des Mines Carrières. Salines du Département de Mostaganem. Oran. 26 Novembre 1962. P: 01.

⁵ - A.W.M.Rapport de Service Régional des Mines. N° 246. Op. Cit. P: 02.

⁶ - Délégation générale du gouvernement en Algérie "Plan de Constantine (1959-1963). projet de rapport général. deuxième partie. "les voies du développement" 31 mars 1960. PP: 2-3.

بالمدرسة التقنية الوحيدة سوى 16 طالبا جزائريا فقط من ضمن 300 متربص رغم أن عدد سكان المدينة تجاوز 40 ألف ساكن¹. ولم يكن الهدف منها تكوين موظفين مختصين، أو مدرسين للتعليم العمومي، أو تعليم العربية للفرنسيين، ولا تعليم الفرنسية للعرب. وإنما شُيِّدت من أجل تكوين رجال يروا في التعلم وسيلة لتحسين ظروف معيشتهم²، والترقية الاجتماعية في المجتمع الاستعماري³، دون أن تسمح الإدارة الفرنسية بفرنسة هؤلاء الرجال، بل يكون التعليم لديهم ذو قيمة ثانوية بالنسبة للاهتمامات بالمجال السياسي كي لا يستعملوه أسلحة في وجه الفرنسيين⁴. لهذا سيتم توجيههم إلى مجالات الأشغال العمومية والبناء في المدن أين سيُلقنون تعليما بسيطا في ال تخصصات المهنية اليدوية مثل النجارة، والترصيص، والخياطة، والكتابة على الآلة الراقنة، والمحاسبة، والميكانيك، والحلاقة، والبناء الذي أعطته السلطات الفرنسية الأولوية مقارنة بالتخصصات الأخرى بسبب زيادة النمو الديموغرافي الذي بلغ 1.967.144 نسمة⁵ في عمالة وهران، وحاجة فرنسا إلى اليد العاملة الشبه متخصصة⁶. ومن هنا أُنشئت بوهران ثلاثة فروع في هذا التخصص من ضمن 16 تخصصا، وفرت احتياطا هاما من اليد العاملة البسيطة والرخيصة، ذات الخبرات الحرفية. يسهر على تكوينها معلمون من التعليم الابتدائي وعمال متخصصون ورؤساء الورشات ومهندسين يتوفرون على مكانة خاصة في الصناعة المحلية⁷.

¹ - Louis Chevalier. Op. Cit. P: 176.

² - Charles. Robert. Ageron. Histoire de l'Algérie contemporaine. T2. PUF.Paris. 1979. PP: 165.166.

³ - Redouane Ainad Tabet. Op cit. P: 113

⁴ - L'Echo d'Oran. 6 Janvier 1892.

⁵ - الجليلي بولوفة، نشاط حزب الشعب - حركة الإنتصار الحريات الديمقراطية في عمالة وهران 1951-1939، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2001، ص 3.

⁶ - A.C.M. Rapport sur Enseignement Professionnel. Op. Cit. P: 01.

⁷ - Jeune Chambre économique. d'Alger. Op. Cit. P26.

كان عدد المناصب محدودا بمراكز التكوين المهني في تلمسان، وسعيدة، وبيدو ومدرسة التكوين بتلاغ بسيدي بلعباس، وورشات العمل بمعسكر وحاسي بونيف وأفلو، وندرومة¹. وقد ضمت هذه المدارس 3700 متربص فقط موزعين على 166 فرعا² بسبب الشروط الإعجازية التي وعت لتعرقل إجتياز مسابقة الدخول إليها. أما في سيدي بلعباس فقد احتوى مركزها على ثلاثة فروع في البناء من بين أربعة تخصصات، وعلى أربعة فروع في التعدين³ الذي تفرعت عنه عدة تخصصات منها التلحيم والكهرباء وكهرباء السيارات والتبريد وإصلاح جهاز الراديو⁴. وتجدر الإشارة إلى أن مركز سيدي بلعباس كان يوجه التعليم في الريف نحو الفلاحة، وقطاع الغابات، والمياه، وتعبيد الطرقات. حُصت لكل مدرسة أرض شاسعة للتجارب الفلاحية، ومخبر، وورشات للكهرباء، والعتاد الفلاحي⁵. كانت الدروس التكميلية بهذه المراكز تُقدَّم باللغة الفرنسية⁶ للذكور والإناث الذين تتراوح أعمارهم بين 14 و 16⁷. وكانت المواد التقنية والثقافة العامة والحساب والكتابة والرسم واللغة الفرنسية⁸ موزعة على 36 ساعة في الأسبوع، منها إثني عشر ساعة للتعليم العام وتسع ساعات لتخصصات ميكانيك الفلاحة والحدادة والنجارة.

¹ - Cahiers du Centenaire de L'Algérie. N° XI la France et les Œuvres Indigènes en Algérie. Exposé sous la direction de Jean Mirante. 1^{ère} édition. Orléans. P: 71

² - La région d'Oran. P: 17.

³ - أعدت المصالح الجهوية للمناجم بوهران تقريرا حول أنواع المناجم والحجارة والملح، والشركات المستثمرة فيها. أنظر: A.W.M. Rapport de Service Régional des Mines. N° 246. Op. Cit. P: 01

⁴ - A.C.M. Rapport sur Enseignement Professionnel. Op. Cit. P: 02.

⁵ - Jeune Chambre économique d'Alger. Op. Cit. P: 27.

⁶ - المرجع نفسه، ص. 22.

⁷ - Jeune Chambre économique d'Alger. Op. Cit. P: 23.

⁸ - IDEM. P: 24.

عملت الإدارة الفرنسية على استغلال هذه اليد العاملة عند توصيل أنبوب الغاز الممتد من حاسي الرمل إلى وهران وسيدي بلعباس، ليزود المنطقة الصناعية تلييات بالغاز¹، ويُمَوَّنَ مصنع سان لوسان*. وورشة الأشغال التجريبية التي شُيِّدت بالقرب من مستغانم لدراسة مشروع تجزئه الشركات الإنجليزية - الفرنسية "Pétrole Aquitaines"-Conshtok. Snrepal" لإنتاج ونقل الغاز الجزائري من حاسي الرمل نحو إسبانيا عبر مستغانم والبحر الأبيض المتوسط². لكن هذا المشروع. انتهى بالفشل، لأن الحكومة البريطانية أرغمت شركتها على التخلي عنه وتغيير مصادر تمويلها³. وقد عللت الإدارة الفرنسية ذلك بسوء الأحوال الجوية وقصر مدة إنجاز هذه المشاريع التي تتطلب الإمكانيات الضخمة والوقت الطويل⁴. وهذا غير صحيح لأن الحكومة الفرنسية منحت الاعتماد ل 474 مؤسسة منها 151 مشروعا تخلى المستثمرون عن الاستثمار فيه، و 86 مشروعا حصل على وعود استكمال تمويله، وظل 86 مشروعا صناعيا ينتظر التمويل. في حين حصل 45 مشروعا خلال 1961 على الاعتماد المالي⁵. ولم يتجاوز نصيب وهران من هذه الاستثمارات 7%⁶ فقط سيما وإن علمنا أن 21% من أصحاب المصانع قاموا

¹ - Industrialisation du l'Oranie dans le cadre du Plan de Constantine. Le complexe industriel d'Arzew. In Travaux Nord-Africains. 58^{ème} N° 3. 469. Jeudi 21 Avril 1960. P: 01.

* زهانة

² - Michel Ambault. Op. Cit. P: 17

³ - Gilbert Mathieu. le plan de Constantine dans la tourmente Algérienne. In le Monde N° 5199 DU 5.6.7 oct 1961.

⁴ - Michel Ambault. Op. Cit. P: 18

⁵ - Daniel Lefeuvre. Op. Cit. P: 316

⁶ - IDEM. P: 320

بتسريح عدد من العمال خلال هذه الفترة¹. بما فيهم 375 عاملا من ورشة سد مفروش الذي كان سيُمون مدينة وهران بالماء الشروب².

عدد تلاميذ التعليم التقني 1954-1961 ³			
السنة	الذكور	الإناث	المجموع
1954	5.854	1.934	7.788
1956	4.278	1.240	5.518
1957	6.845	2.082	8.927
1959	11.753	4.050	15.803
1960	15.405	5.173	20.576
1961	18.638	5.342	23.980

ب - التعليم الفلاحي:

لم يكن حرمان الجزائريين من المدرسة الفرنسية معناه العدول عن ذلك تماما، بل كان تقديم نوع آخر من التعليم يساهم في خدمة السياسة الاستعمارية في الجزائر. لهذا لن نستغرب إن طالب المعمرون بتعليم أبناء الفلاحين تعليما فلاحيا يتناسب مع احتياجات المستعمرة، يستطيع أن يعرف بماضي وقوة فرنسا الاقتصادية والعسكرية⁴، التي شيدت بعمالة وهران:

¹ - Daniel Lefeuvre. Op. Cit. P. P: 317.

² - Egretand. M. Op. Cit. P: 139.

³ - المجاهد، اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، 4 رمضان 1405هـ/24 ماي 1985، ص 35.

⁴ - عيسى شرايطية، الريف الجزائري في السينما الاستعمارية، الصورة والأيدولوجيا، دراسة سوسولوجية، رسالة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 1993، ص 62.

- المدرسة التطبيقية الفلاحية "بعين تموشنت"¹: أنشئت سنة 1927 من أجل

تقديم دروس تطبيقية عامة. لم يكن عدد التلاميذ الملتحقين بها يتجاوز العشري متدربا في كل دفعة، ولا نجد بينهم سوى ثلاثة أو أربعة متدربين مسلمين ، وقد اعتبرت هذه المدرسة قطبا مهما في تكوين الفلاحين من أبناء الفلاحين المعمرين لتطوير إنتاج الكروم "في هذا البلد أين الزراعة بحاجة ماسة لطرق حديثة، والصناعة تبحث عن طريقها والأرض تزخر بثروات متنوعة من مناجم ومحاجر... أين معظم الأشغال الكبرى تنتظر الأوامر... أين يجد المعمرون أنفسهم مهددون بالمخاطر الكثيرة المجهولة... أين تركت لنا الشعوب الفاتحة تجارب ينبغي أن نستفيد منها جيدا .. أين يوجد الأوروبي محاصرا بالشعوب المتعددة اللغات ... المختلفة بعاداتها العائلية وتنظيمها السياسي، بطرقها الخاصة في الحياة والتعلم... والتعصب الديني المشترك بينهم والعداء الدائم المتكاتفين ضدنا ... أين ضرورات الاحتلال لا تخفى ... أين الاندماج الإشكالي يتوقف على ما هو مدني وما هو عسكري إداريا"². أين "نعلم بالإمكانيات المتاحة وبشكل عام ما هو متاح من المعارف الإنسانية، الزراعة، التعدين، الميكانيك التطبيقي، الطبوغرافيا، التاريخ المحلي، النظم الاجتماعية، القوانين، لغات الأهالي، مختلف طرقنا الإدارية وتشريعاتنا... تكون في وسط العرب ... تحت رحمة المترجم أو الشاوش بدون معرفة كلمة من لغتهم وتقاليدهم وعاداتهم ومطالب بإدارتهم والقضاء بينهم...ألا يكون هذا مجديا في

¹ - أنظر ملحق رقم 23.

² - louis Paoli. l'enseignement supérieur à Alger. BU. Alger. 1959. P: 419.

مجتمع مصلحي، مضطرب، مهتم بالحاضر فقط¹. لأنه "في العلم نفسه يتم تكوين العقول لا في المؤسسات التي نود إنشائها"².

- المدرسة الجهوية بسيدي بلعباس : استحداث خارج مدينة سيدي بلعباس سنة 1930 على مساحة قدت ب100 هـ ضمت محطة تجريبية لزراعة الحبوب، وأرض زراعية أخرى مساحتها 46هـ بواد سارنو، طريق تسالة³. وقد كانت هذه المدرسة تقدم لمرتاديه من المتدربين دروسا متنوعة في الرياضيات، واللغة والعربية، والاقتصاد الريفي.... ليتلقوا تعليما مهنيا، يسعى إلى تأهيلهم في الجوانب الفنية والإدارية والتربوية في المخابر والورشات والمزارع تكملة للتعليم النظري⁴ الذي يحتوي على الكيمياء، والميكانيك، والإحصائيات، والبيطرة، والمحاسبة، بالإضافة إلى المحاضرات التي كان يتلقى الطلبة في تربية المواشي والزراعة والكروم⁵.

تدوم مدة الدراسة ثلاث سنوات، يُستقبل خلالها التلاميذ الذين حصلوا على شهادة الإجازة. لكن الشيء الملاحظ هو أن المتدربين المسلمين الجزائريين لم يتجاوز يوما سقف ال 50% من ضمن ال 24 تلميذا في الدفعة⁶.

- المدرسة التطبيقية الزراعية بمعسكر: أقيمت على أرض بلدية مطمور

¹ - Louis Paoli. l'enseignement supérieur à Alger. Op. Cit. P: 419.

² - IDEM. P: 421.

³ - Jacques Gandini. Op. Cit. P: 118.

⁴ - G.G.A. Direction des services économique: école d'agriculture Sidi Bel-Abbés. Oran. Imp. Heintz frères. 1933. P:13.

⁵ - Revue Municipale de Sidi Bel-Abbés. Janvier - Février- Mars 1958. N° 11.

⁶ - A.W.O. Dossier affaires scolaires et culturelles. Rapport sur Enseignement professionnel. Op. Cit. P: 01.

خارج مدينة معسكر لتخريج المرشدين الفلاحيين خلال مدة دراسة لا تتجاوز السنتين¹.

- مركز التكوين الريفي بحاسي بونيف: تأسس سنة 1956، وكان المركز

يتوفر على عدة تخصصات منها: تكوين المرشدين الفلاحيين التابعين لمصالح الإدارة الريفية، والتشجير واستصلاح المستنقعات، وتربية النحل².

- المراكز المفتوحة للبنات بوهران وندرومة³: كان الهدف منها الترقية

الاجتماعية للمرأة. تدوم فترة التكوين فيها سنتين، تقدم خلالها حصصا لدعم الفتيات - منهن الفتيات الجزائريات المسلمات - اللواتي يتراوح أعمارهن بين 14 و 40 سنة ولم يسعفهن الحظ في الدراسة. وللعلم فقد زوجت هذه المدارس بين التخصصات الإدارية والحرفية الاجتماعية كالسكرتارية، والخياطة، والطرز، والغسيل، ونسيج الزرابي لتصديرها وبيعها للسائحين.

لم يكن الهدف من هذا التكوين تحقيق أي نهضة اقتصادية في المستعمرة تنقذ

المجتمع الجزائري من براثن وطأة الفقر⁴. وإنما أنشئت من أجل نشر بعض

المفاهيم والمصطلحات التقنية الفلاحية والإدارية بلغة المستعمر، وبلغة بسيطة غير علمية أو أدبية. شأنها شأن المعارف والعلوم الأساسية التي تدرس لأبناء الطبقات

الشعبية والضرورية لحياتهم واستمرارهم الطبيعي. ولم يكن الحال أفضل فيما يتعلق

بالعلوم النبيلة مثل الرياضيات وغيرها من المواد والمقررات في مجال العلوم

الإنسانية، وهي العلوم التي تجعلنا أكثر قدرة على فهم الحياة بأشمل معانيها وأصدق

¹ - A.C.M. Boite P. Dossier: Le Plan de Constantine. Rapport sur Scolarisation et formation professionnelle. 1959. P: 69.

² - Rapport sur Enseignement professionnel. Op. Cit. P: 01.

³ - الطاهر زرهوني، مرجع سابق، ص 24.

⁴ - Mendès France. Programme d'Actions Algérie Au Congrès des 3-6 Novembre 1955. Pari Républicain et Radical-socialiste. Paris. 1955. PP: 45.

تجلياتها¹. فكم كان عدد الطلاب الذين كانوا يتخرجون من المدرسة، وهم لا يعرفون إلا القليل جداً عن تاريخ بلادهم ودينهم وقوميتهم²، ولا يدركون بأنهم يسكنون شمال إفريقيا³، ولا يعرفون إلا ما ندر عن المشكلات الكبرى التي تواجه المجتمع الذي يعيشون فيه من اللامساواة، وحقوق الإنسان و عدم الاستقرار، والاستعمار، والتخلف، والبطالة، والفقر، والهجرة. لأنها مجرد معارف مختلفة، وأكثرها أعمال يدوية تستجيب لحاجيات المستوطنة⁴، وأن يصبح الفلاح مزارعاً جيداً. أفليس الفلاح هو الذي يمد المعمر باليد العاملة الرخيصة، ولكن للأسف غير ماهرة.

حاولت الفئة الأوروبية (الأقلية الغالبة) على المستوى الاجتماعي والثقافي

والاقتصادي والسياسي، تحويل امتيازاتها إلى حقوق، والسماح لكل المجتمعين

بالبقاء كل واحد في وضعيته. فالمسيطر يبقى مسيطراً، والمسيطر عليه يبقى

كذلك⁵. لأن المعمر يملك الأرض وخيراتها، وهو بحاجة إلى شق قنوات الري

وبناء السدود⁶، وانتقاء البذور، وطرق التطعيم وحماية النباتات من

الطفيليات⁷، وإدخال التقنيات الحديثة على زراعة الكروم، وتحسين المزروعات

التجارية الأخرى مثل زراعة القطن⁸ الذي بدأ إنتاجه في التناقص في الستينات

بسبب ظروف الثورة التحريرية ومنع الجزائريين المسلمين من ممارسة النشاط

الزراعي بحشدهم في المحتشدات¹، وتحسين زراعة التبغ حيث أنشأت الإدارة

¹ - علي وطفة، علي شهاب، علم الاجتماع المدرسي: بنوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها الاجتماعية، مكتبة الطالب الجامعي، الكويت 2003، ص ص 177-197.

² - أحمد الخطيب، جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي، ص 64.

³ - Sugier. C. Op. Cit. P: 273.

⁴ - Redouane Ainad Tabet. Op cit. P: 132

⁵ - عيسى شرايطية، مرجع سابق، ص 68.

⁶ - Les Investissements agricoles. In Plan de Constantine. B.M.C.E.D.A. Décembre 1960. P: 06.

⁷ - Textes et Décisions In Plan de Plan de Constantine. N° 14. B.C.E.D.A.et D.G.A.Mars 1962. P: 47.

⁸ - Actualités d'Algérie. N° 12. P: 16.

¹ - Actualités d'Algérie. N° 12. Op. Cit.

الفرنسية في مارس 1961 "لجنة الدراسات لتحسين إنتاج التبغ* والتدخين الجزائري"

لضمان تصدير المزروعات النقدية قصد تحقيق المنافع المادية، وجلب العملة، وتحسين مستوى الميزان التجاري الفرنسي الذي أصبح يعاني عجزا كبيرا ارتفع من 410 مليار دولار سنة 1953 إلى 580 مليار دولار سنة 1958. وهذا يعني "الانهيار الحقيقي للاقتصاد الفرنسي"¹.

لقد جاء نص قرار الحاكم العام لخلق مراكز التربية الريفية للأهالي مكملا لمرسوم 18 أكتوبر 1892 المتعلق بتعليم الأهالي طبقا لاقتراحات عميد الأكاديمية بالجزائر ومجلس الحكومة وتبعاً لقرار الأمين العام للحكومة². يتألف مشروع تأسيس مراكز التربية الريفية من ما يلي:

1 – بالنسبة للذكور:

- 1 – تخصيص محل تقدر مساحته ب 6م × 7م كقاعة لمزاولة الدروس.
- 2 – يخصص مسكن للمعلم المساعد يتكون من مطبخ وغرفتين.
- 3 – تخصص ورشة عمل للخشب والحديد، مهمتها إصلاح العتاد

الضروري للآلات الفلاحية.

4 – تخصيص حظيرة مغلقة تستعمل مستودعا لوضع وترتيب الأدوات.

5 – تخصص أرض تخصص مساحتها للعمارات.

2 – بالنسبة للإناث:

- 1 – يخصص محل مساحته 6م × 7م لاستخدامه كقسم وورشة.

* في إطار مشروع قسنطينة، أسست السلطات الإستعمارية "لجنة الدراسات لتحسين إنتاج التبغ والتدخين الجزائري" في 6 مارس 1961 لتحسين الإنتاج ومقاومة الفطريات التي كانت تصيب هذا المحصول.

¹ - C. J. Gignaux. le rouge et le noir. Op. Cit. P: 753

² - Robert Estoublon et Adolphe lefebure. P: 556.

2 – يخصص مسكن للمعلمة المساعدة، يتكون من مطبخ وغرفتين،

وخزانة، ومجفف الشعر.

3 – يحدد مفتش التعليم الزراعي أرضا صغيرة تمنح للمعلم المساعد أو

المعلمة المساعدة لجعلها حديقة شخصية¹.

لم يسلم هذا النوع من التعليم البسيط من المعارضة الشديدة لبعض

المستوطنين، لهذا نلاحظ نقص التأطير والتكوين البسيط للطلبة الجزائريين، وقلّة

عدد²

في مراكز التكوين بالمدرسة التطبيقية الفلاحية بعين تموشنت³،

والمدرستين التقنيتين في مدينة وهران⁴. ولم يسمح بالتسجيل في المدرسة التطبيقية

الجهوية الفلاحية بسيدي بلعباس سوى لطلاب جزائريين فقط من ضمن 40

طالباً. أما على المستوى الوطني، فلم يتجاوز عدد مراكز التكوين المهني الزراعي

عشرة مراكز سنة 1955، ولم يسمح بالالتحاق بها سوى لـ 4000 مترشح

(3% من الجزائريين المسلمين)، نجح منهم 1800 مترشح، وتم قبول 329

مترشح فقط⁵.

¹ - Robert Estoublon et Adolphe lefebure. P: 556.

² - كأن الانتماء الطبقي والعنقي هما الوحيدان اللذان يسمحان ويوفران القدرة على التعليم. أنظر: سلدن رامان، النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، ط 1، دار الفكر، القاهرة، 1991، ص 223.

³ - S.E.D.I.A. Op. Cit. P: 67.

⁴ - Jeune Chambre économique. d'Alger. Op. Cit. P: 24.

⁵ - Algérie. La Scolarisation des jeunes Filles Musulmanes en Algérie. Imprimerie Bacconnier Frères. Alger. PP : 58.59.

عدد تلاميذ التكوين الفلاحي سنة 1954 ¹				
	الأعداد والنسب			المعهد
	أوروبيون	جزائريون		
معهد الفلاحة بالجزائر	100 %	4	0	معهد الفلاحة بالجزائر
المدرسة الجهوية بسيدي بلعباس	96 %	2	3	المدرسة الجهوية بسيدي بلعباس
مدارس الفلاحة بسكيكدة وعين تموشنت وقالمة	79.84 %	03	6	مدارس الفلاحة بسكيكدة وعين تموشنت، وقالمة
مراكز التكوين الفلاحي	20.37 %	1	3	مراكز التكوين الفلاحي
مدارس التسيير الفلاحي	95.86 %	16	5	مدارس التسيير الفلاحي
المجموع	83 %	76	7	المجموع

سخر "جول دي فوا" من هذا الطرق والأساليب أمام غرفة البرلمان الفرنسي قائلا: تعليمكم هذا وأساتذته مضروب مسبقا من الداخل بسبب الشروط المفروضة² خاصة إذا علمنا أن التعليم... يجب أن يستجيب للمقاييس المحلية للأرض، المناخ، الدين، اللغة والمجتمع³. لأن اكتساب ثقافة النخبة هو امتحان

¹- المجاهد، اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، 4 رمضان 1405هـ/24 ماي 1985، ص 35.
&Algérie. La Scolarisation des jeunes Filles Op. Cit. PP: 58.59.

² - Louis Paoli. OP.cit. P: 421.

³ - IDEM. P: 414.

عسير لابن "من وسط عمالي أو فلاحي حيث أن الجهالة تخيم من جميع نواحيها"¹ ومعارضة المعمرين² حالت دون اللحاق بهم³، خاصة وأن لغة المدرسة ليست امتدادا طبيعيا للغتهم في وسطهم الاجتماعي الذي يعيشون فيه⁴. وبمعنى آخر سنجد أن التلميذ ابن الكولون يخترن في ذاكرته رصيда لغويا هائلا بالمقارنة مع التلميذ الأهلي الفقير. فالأول له اهتمامات ثقافية ورصيد من السلوكات والخبرات لم تكن متاحة للجزائري الفقير المنشد منطق التقليد. وحين يتقدم الاثنان إلى الامتحانات من الطبيعي أن تكون فرصة الطالب الأوروبي في النجاح أكثر من فرصة الجزائري "الإفريقي المتغير"⁵. إذ ليس من العدل أن يخضع التلميذان لامتحان من نفس النوع والمستوى في حين يتميزان بشدة فيما لديهما من رصيد وفرص للنجاح⁶. ويعدد مالك ابن نبي أمثلة أخرى فيقول "فالطفل يُحرم مما يُقوي جسده ويُنمي فكره فلا مدرسة ولا توجيه، وحتى لو تمكن من الدخول إلى المدرسة فسوف توضع العراقيل في وجهه لكي لا يكملها بنجاح، ثم هو بعد ذلك لا يستطيع أن يجد عملاً مناسباً. وفي عهد الرجولة تتسج حوله شبكة دقيقة مسمومة تجعل الشراء، والبيع، والسفر، والكلام، والكتابة لا تتال إلا بشق الأنفس. إنه ما عاد يمكن له أن يقوم بأعماله إلا بالقدر الذي يريده الاستعمار"¹. إذن مهما تكن فرص أبناء الطبقات الدنيا من الجزائريين في متابعة تحصيلهم العلمي، فإن هذه الفرص

¹ - أبو بكر القادري، سعيد حجي، دراسة عن حياته ونشاطه الثقافي والسياسي، مرجع سابق، ص 21-22.

² - Robert Aron. Op. Cit. P : 202.

³ - Jeune Chambre économique d'ALGER. Le problème de L'enseignement en Algérie. Imprimerie Baconnier. Alger. 1960. P: 14.

⁴ - Pierre Bourdieu. et Jean-Claude Passeron. La reproduction: éléments pour une théorie du système d'enseignement. Paris. Les Éditions de Minuit. coll. « Le sens commun ».1970. . P P: 150.151.

⁵ - محمد عبده محجوب، وآخرون، مرجع سابق، ص 108.

⁶ - بيير بورديو و جون كلود باسرون: إعادة الإنتاج- في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم- تر : ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ص 26

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 147.

تبقى متواضعة مقارنة بهذه التي نشاهدها لدى أبناء الأوروبيين أو الميسورين من الجزائريين الذين ذابوا وانصهروا في الحضارة الفرنسية. إن جعل التعليم انتقائيا بهذه الطريقة أدى إلى ظهور ثلاثة أنواع من المتمدرسين:

1- يتكوّن النوع الأول من أبناء الفلاحين الفقراء وأبناء الزاحفين نحو

المدن بحثا عن لقمة العيش، وهؤلاء تم إقصاؤهم كليا من التعليم، فأصبحوا يشكلون فئة جاهلة لا تملك أدنى ثقافة¹ لا فكرة لها عن السياسية، وبتاريخ وطنها الجزائر، و بالحقوق والقوانين الاجتماعية، أو بالأمن الاقتص -ادي، أو بقواعد الصحة العامة، التي يحتاجه -ا الفرد في حياته اليومية والاجتماعية²، بل هدفها الطموح لتحسين حالتها الاجتماعية³ بالعمل قصد الحصول على الشهادات⁴. تكوّن الدرج والأشلاء الضعيفة التي كانت ضحية الاستعمار والمستعمرين كي يستحيل أن تفكر في الارتقاء إليه. لا لشيء إلا أن هذا الارتقاء ينذر بانهيـار المعمر "فيؤدي به جنونه إلى أن يحلم بإبادة ذلك الشعب"⁵. لذلك لم تتورع الإدارة الفرنسية عن تكديس الأقسام، قسم واحد لـ 38.000 ساكن بسيدي بلعباس⁶، وتقليص الطموحات التربوية لأبناء هذه الطبقات الدنيا من الجزائريين المسلمين¹ المتشبهين بتقاليدهم وأعرافهم ورفضهم للاندماج والذوبان في الهوية

¹ - André Nouschi. L'Algérie Amère. Op. Cit. P: 133.

² - علي وطفة، علي شهاب، مرجع سابق، ص ص 177 - 197.

³ - لأن المدرسة أصبحت وسيلة للعيش والحياة، ومفتاحا للترقية الاجتماعية. أنظر: Fanny Colonna. Le Système de L'Algérie coloniale. Op. Cit. P:198.

⁴ - لأن المدرسة أصبحت وسيلة للعيش والحياة، ومفتاحا للترقية الاجتماعية. أنظر: Fanny Colonna. Op. Cit. P:198

⁵ - جون بول سارتر، مواقف مناهضة للاستعمار، مصدر سابق، ص 117.

⁶ - Fanny Colonna. Les instituteurs algériens. Op. Cit. P: 107.

¹ - لم يكن جميع الأطفال الذكور يترددون على التعليم الفرنسي الذي كان ينشر التعاليم العلمانية التي تخدم القيم المسيحية. وبالتالي كانت الغالبية من العائلات المرتبطة بالتقاليد الجزائرية ترسل أبنائها إلى كُتّاب لتحفيظ القرآن. أنظر: عبد القادر جغول، تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص 59.

الفرنسية¹، وأداء طقوسهم الدينية ذات الجذور المحكمة²، والمتشبتين بموت جميع أولادهم على تنصيرهم³. الذين كانت غايتهم الوحيدة هي معرفة الدين وعلومه التطبيقية. وعليه فإن ارتياد هذه المدرسة يعني قبول تعليم ديانة الكفار⁴ لأن "العلم ذاته يقتصر على المعرفة التي نزلت مع الوحي، إذ لم يكن هنالك من نور آخر في هذا العالم العربي التقليدي إلا القرآن وتفسيره، بحيث يكون من الوقاحة الكبيرة اقتراح تعليم دنيوي إذا علمنا مجرد احتمالاه غير مقبول"⁵.

رغم ذلك انتقلت نسبة التعليم الثانوي في القطاع الوهراني من 2.7 % سنة 1948 إلى 10.7 % سنة 1954 لتصل إلى 13.1 % سنة 1955، وتقدم إلى إمتحان شهادة البكالوريا 430 تلميذا سنة 1953، منهم تلميذان جزائريان من الجزائر العاصمة، وتلميذ واحد من قسنطينة، وآخر من تلمسان بسبب طريقة إنتقاء التلاميذ الجزائريين المعنيين بالامتحانات الرسمية⁶.

¹ - Mahfoude Kaddache. Histoire. Op. Cit. P: 90.

² - صاري جيلالي، محفوظ قداش، مرجع سابق، ص 12.

³ - بو عمران الشيخ، الأستاذ لافيحري ونشاطه التبشيري في واد الشلف 1867 – 1892، مجلة الأصالة، العدد 61/60، الجزائر، ص 59.

⁴ - إيفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (المدارس والممارسات الطبية والدين 1830 - 1880)، تر: محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصة للنشر، الجزائر، ص 128.

⁵ - المرجع نفسه، ص 126.

⁶ - أنظر ملحق رقم 24.

عدد التلاميذ الأوربيين والجزائريين المسجلين في الطور الثانوي في القطاع الوهراني سنة 1958 ¹							
الولايات	الجزائريون		مجموع الجزائريين		الفرنسيون		مجموع الفرنسيين
	البنون	البنات	مجموع	البنون	البنات	مجموع	السكان
وهران	700	223	923	5.460	4.219	9.697	10.602
مستغانم	333	81	414	915	114	1.059	1.473
تلمسان	753	219	972	321	338	659	1.631
تلمسان	753	219	972	321	338	659	1.631
تيارت	99	21	120	225	125	350	470

أكثر ما كان يقلق المستوطنين الفرنسيين، هو لجوء هؤلاء الأهالي الفلاحين والعمال البسطاء والأميين من جو العنف والإكراه والعنصرية التي يعانون منها إلى برائن الشيوعية ونقابات العمال والحركة الوطنية، وإلى تأثير الحركة السلفية*، المتمزعة، المتشعبة بالثقافة الداعية إلى انعدام الثقة بين الفرنسيين والأهالي²، والناقمة على الاستعمار، المعادية لأي وجود فرنسي رغم ثقافتهم العصرية ورؤيتهم المستقبلية¹، الداعية إلى الاعتماد في نهجها الإصلاحية على جانب العقلنة¹ أي الأخذ

¹ - الطاهر زرهوني، مرجع سابق، ص 32.

² - Gustave Dugat. Op. Cit. P: 279

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 241.

بمبدأ العقل كما يقول كمال عجالي. هذه السلفية التي تطورت من مجرد دعوة إلى إصلاح الدين وتطويره إلى إيديولوجيا سياسية معبّئة للوطنية بربطها مصير الجزائر بنهضة الإسلام، ومُتمِّية الروح التأصيلية في العقلية الجزائرية². فانتقلت بذلك بالإسلام من دين إلى "إيديولوجية"³، تُعبئ الجماهير وتدعو إلى بناء المدارس القرآنية والإصلاحية، وإفراغ الساحة الجزائرية من منافسة أي مشروع ثقافي/حضاري لا يمكن الأهالي من الارتقاء إلى مستوى الكولون. ولكن بإمكان التعليم الفرنسي عن طريق بناء المدارس الحكومية إزالتها كي لا تفرغ الساحة للإصلاحيين⁴. هذه السلفية التي يقول عنها عبد القادر البشاوي بأنها: "عبرت عن مضمون الوعي... الوطني كوعي نابع من ظروف المجتمع ومستوى تطور القوى المتصارعة فيه"⁵.

2 - يتكون النوع الثاني من أبناء البورجوازية الصغيرة الحضرية والريفية، وهي أقلية تقتفي آثار العائلة التي هي على العموم قريبة من جمعية العلماء⁶. تم إدماجهم قهرا في سوق العمل ليصبحوا قوة عاملة ضرورية⁷ للرأس المال المحلي الذي سُمح له وحده بتوزيع العمل⁸، والذي قال عنه الكاتب المسرحي الألماني جورج كايزر* في مسرحيته "الجحيم، الطريق، الأرض": "كان الجحيم هو المجتمع

¹ - أحمد مريوش، دراسة التركة العقلانية والوطنية في منظومة ابن باديس الإصلاحية ما بين 1912-1940، مجلة المصادر، العدد 7، نوفمبر 2002، ص 83.

² - Ali Merad. Op. Cit. P: 601.

³ - عبد الله إبراهيم، الإسلام في آفاق سنة ألفين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1979، ص ص 38.37.

⁴ - A.W.O .Boite 6988. Rapport sur les constructions scolaires. Op. Cit.

⁵ - عبد القادر البشاوي، السلفية والوطنية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1985، ص 149.

⁶ - محمد عباس، الإندماجيون الجدد، ج 3، ط1، مطبعة دحلب، الجزائر، 1993، ص 92.

⁷ - حسين محمد فهميم، هذا الإنسان وعالمه، مرجع سابق، ص 95.

⁸ - بيل أشكروفت، مرجع سابق، ص 29.

* كتب حوالي عشر مسرحيات بالإضافة إلى إنتاجه الشعري والروائي. من أبرز مسرحياته "الكاتب كرهلر" و"جنبا إلى جنب"، يكشف فيهما عن لادجوى الوعي المتأخر عن مسؤولية الإنسان عن عالمه بصرف النظر عن مصالحه.

البورجوازي باغتراب البشر فيه عن حقيقتهم وخضوعهم لتزريف الوعي وللإستغلال والعنف"¹.

تراوحت نسبة التمدرس بينهم خلال سنوات 1945 و 1954 بين 10 % في نظر رشيد بن شنب²، و 20 % كما يؤكد تربيبي³ في قسم كثير العدد، يجمع بين الجزائريين واليهود والإسبان⁴. مما سيعمقُ التفرقة العنصرية بين الجزائريين المسلمين وغيرهم*، يشرف علة تكوينهم معلمون محدودو المستوى. لقد كان صيدلي من المدينة يتكلف بدروس الرياضيات في المستوى الأول من الثانوية "الفرانكو - إسلامية" بتلمسان، وكان مكوّن آخر يقدم دروسا في الفيزياء، وتلميذ حاصل على شهادة البكالوريا يلقي على زملائه التلاميذ دروسا في الأدب. وكان المساعدون التربويون مكلفين بإلقاء دروس العلوم لانعدام مدرسين متخصصين في المادة.⁵

سمح لهم بالتعليم بوتيرة أسرع في المدن من الأرياف¹، رغم أن المشكلة كانت أعمق من العلاقة بين "المسلم وغير المسلم" ولا "العلاقة بين "المستوطن والأهلي"، وإنما تمثلت المشكلة الحقيقية في العلاقة القائمة بين "الريف والمدينة".

¹ - سامي خشبة، مرجع سابق، ص 79.

² - Charles Robert Ageron.(Sous la direction de) Les chemins de la décolonisation de l'empire Français. 1936-1956. Editions CNRS. Paris. 1984. P: 423.

³ - Tripier Philippe. Autopsie de la guerre d'Algérie. Edition France empire. Paris. 1970.P: 59.

⁴ - Redouane Ainad Tabet. Op cit. P133.

* تروي إحدى التلميذات الجزائريات بمرارة كيف أنها كانت من نجباء قسماها، لكن لم يسمح لها حتى لمس الحبل أثناء رفع العلم الفرنسي في ساحة المدرسة، وتروي أخرى كيف كانت تضطر إلى النزول من الرصيف إذا صادفها "الرومي" أنظر، سعدو حورية، الوضعية الاجتماعية والسياسية للمجاهدات بعد الاستقلال، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، معهد علم الاجتماع، السنة الجامعية 1994-1995، ص ص 137-139.

⁵ - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op . Cit. P: 169.

¹ - André Nouschi. L'Algérie Amère Op. Cit. P : 133.

حيث كانت مدينة وهران تستقطب 75% من مجموع تلاميذ القطاع الوهراني¹ بسبب تزايد الاتصال بين القرية والمدينة الذي ساهم بشكل كبير في عملية التغير بحيث أن إطلاع الأهالي القرويين على نماذج أخرى من الحياة، واحتكاكهم ببعض الموظفين المتغربين لقضاء مصالحهم. جعلهم يقبلون ويتنافسون على إيجاد مقاعد للدراسة² لتحسين مستواهم المعيشي في المستقبل. ولاعتقادهم بإمكانية جعل أبنائهم مثل هؤلاء "الموظفين" جراء إرسالهم إلى المدرسة. وأصبح حالهم حال العائلات الأرستقراطية التي كانت تفضل التقرب من الإدارة الاستعمارية بإرسال أبنائها إلى المدارس الفرنسية أكثر من إرسالهم إلى المدارس الإسلامية الأهلية للحصول على شهادة البكالوريا لإكمال دراستهم الجامعية³. ضف إلى ذلك العوامل النفسية المتمثلة في التغير في قيمة العمل التي لم تعد مرتبطة بالزراعة وإنجاب الذكور اللذان كانا يجعلان من المدرسة أمرا ثانويا لا تضعه العائلة في الحسبان، واستفادة البعض من أبناء الجزائريين من التوظيف⁴ التوظيف* الذي أكسب عائلاتهم مركزا اجتماعيا مرموقا. وأصبح كل أب حر في توجيه أبنائه وفق ما تستدعيه ظروفه الاقتصادية والاجتماعية كبداية لتفكك العائلة وإعلان التمرد على العائلة الممتدة وبالأحرى على البنيات التقليدية¹. مما سيؤدي إلى صراع بين الآباء والأبناء حول بعض القيم الدينية المتمثلة في العقيدة، حسن الخلق والعبادة والرحمة والعمل وحب العطاء والصبر

¹ - Service pour l'étude et le développement de l'industrie en Algérie (S.E.D.I.A). Etude du développement économique de l'ouest Algérien. G. courmontage. Alger. 1959. P: 63.

² - بلدية سيدي علي حاليا. : P Tayeb Chentouf. L'Algérie en 1954. OPU. Alger. 2006. P : 124.

³ - M. Janier Emille. Op. Cit. P: 17.

⁴ - محفوظ قداش، الأمير خالد ونشاطه السياسي بين 1919 و 1925، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، عدد 4، كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1968، ص 19.

* لم يتمكن أي جزائري، في عمالة وهران، خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها إلى الوصول إلى منصب رئيس مصلحة. أنظر: Charles Robert Ageron.(Sous la direction de) Les chemins de la décolonisation de l'empire Français. Op. Cit. PP : 423-424.

¹ - محمد عاطف غيت، دراسات في علم الاجتماع القروي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، 1967، ص ص، 76-78

والطاعة والعدل والأمانة والشجاعة والتعاون والتواضع، وآداب السلوك، ومحبة الآخرين والاحتشام¹.

تطور عدد الأقسام والتلاميذ الجزائريين والأوربيين في القطاع الوهراني 1945-1954 ²									
السنة	46/45	47/46	48/47	49/48	50/49	51/50	52/51	53/52	54/53
عدد الأقسام	663	1729	1747	1727	-	3076	3216	3290	3540
عدد المعلمين	680	1717	1739	4171	-	3245	3216	3343	3864

أما في الريف، فقد كان الحلم صعب التحقيق لأن نسبة التمدرس كانت طفل واحد من بين خمسين طفلا جزائريا. بل وأحيانا يتجاوز العدد ذلك ليرتفع إلى طفل واحد من سبعين طفلا. وفي حالة ما إذا أسعف الحظ هذا الطفل الجزائري المسلم وحصل على مقعد دراسي، فسيغادره لا محالة بعد سنوات قليلة لأنه لم يُخلق في نظر الفرنسيين ليكون محاميا و طبييا أو صيدليا، وإنما وُلد ليكون فلاحا أو عاملا بسيطا. يقول أحدهم على لسان "جيرمان تيون": " دخلت المدرسة عندما وصلت السادسة من عمري، ولما بلغت سن الثامنة وجدت نفسي فلاحا."¹

¹ - محمد عبده محجوب، وآخرون، مرجع سابق، ص 107.

² - G.G.A. Annuaire Statistique de l'Algérie de 1974. Op. Cit .PP: 96-97. & G.G.A. Annuaire Statistique de l'Algérie de 1954. Imprimerie V.Heintz. Alger. 1955. PP : 70-71.

¹ - IBID. P: 84.

تطور عدد التلاميذ الجزائريين والأوروبيين في القطاع الوهراني 1954 ¹ /1945							
54/53	52/51	51/50	49/48	48/47	46/45	السنوات	التطور
1710	1924	1829	2022	1803	2023	الأوروبيون	التحضيرية عدد التلاميذ
1964	1667	1739	1110	1091	953	الجزائريون	
48199	46915	47686	42763	43275	20232	الأوروبيون	الابتدائية عدد التلاميذ
73228	59323	55666	11986	11192	10500	الجزائريون	

كان العهد الاستعماري أسودا قاتما، وكُتِبَ على سكان معظم الدواوير في عمالة وهران منذ الولادة إما الموت في حرب لفائدة فرنسا أو الخمول في دواويرهم كزراعة غنم أو خماسين يقنعون بخمس محصول الفلاحة. فلا وجود لمدرسة ومستوصف أو طبيب، ولا منشآت ولا ماء ولا كهرباء. وقد أكد الحاكم العام الإداري لبلدية ندرومة المختلطة في تقريره الذي قدمه إلى والي وهران في 26 ماي 1952 أنه "لم يُبْنَ في مجموع دواوير البلدية خلال خمس سنوات سوى مدرسة واحدة، وقسم واحد في دوار الحوانيت. لهذا أوصي بضرورة اللجوء إلى البناءات الجاهزة، ليس لمواجهة جهل الجزائريين وإنما لمواجهة تعليم الإصلاحيين"¹ المتعصبين. فبدأت تروج لبرامج أشغال كبرى تخص ترميم وبناء المدارس الابتدائية بمدينة سيدي بلعباس التي بنيت بها مدرسة عليا للذكور وأخرى للفتيات.

¹ - GGA. Annuaire statistique de l'Algérie 1954. OP. Cit. PP: 72-73.

¹ - Rapport sur les constructions scolaires de la commune mixte de Nedroma. Op. Cit.

وخصص المجلس البلدي 200.000 ف. ف لإنجاز ثلاث مدارس واحدة مختلطة لليهود المجنسين، وثانية للذكور، وثالثة للإناث. وقدم وعودا ببناء¹ المزيد من المدارس الإضافية للأهالي² التي كان يطلق عليها "مدارس الأكواخ"³ بسبب قلة تكاليفها وسرعة بنائها وإطاراتها الضعيفة⁴. وفي سنة 1950، أقدم السيد René Justrabo رئيس البلدية الشيوعية لسيدي بلعباس على بناء ثلاث مدارس للأهالي، مدرسة البنات المسلمات التي أطلق عليها اسم "ابن خلدون"، ومدرسة عبد المؤمن للبنين بكياصون، ومدرسة ابن رشد للبنات ب مونبليزير⁶. وفي سنة 1954 أقدمت الإدارة الفرنسية على تشييد ثمانية أقسام في نفس المدينة، وقسمين في سفيزف وقسم في تلاغ، وقسم بأولاد ميمون⁷، وثانوية بتلمسان. وقام المجلس البلدي لسعيدة بوضع مشروع برنامج لترميم المدارس الابتدائية⁸. إلا أن التقرير الذي أعدته اللجنة التعليمية¹ في عمالة وهران أشار إلى انعدام أي كوليغ وثانوية في عين تموشمنت وباريقو² رغم حاجتهما الماسة إلى مؤسسات تربوية ولو كانت مختلطة³.

1 - بالرغم من أن الكثير من المدارس أنشئت بإلحاح شديد من الجزائريين إلا أن السلطات الاستعمارية كانت تطالبهم بالتريث ريثما تسمح الميزانية بذلك مثلما هو الشأن بالنسبة لسكان دوار ديليا بالبلدية المختلطة فرنده التابعة لدائرة معسكر.

2 - Ainad Tabet. op. ci. P: 129

3 - أحمد ابن نعمان، وضع اللغة العربية في عهد الاحتلال، مرجع سابق، ص 129.

4 - Chems-Eddine Chitour: l'éducation et la culture en Algérie des origines à nos jours. Edition E.N.A.G. Alger. 1999. P: 198.

5 - الرئيس الشيوعي الوحيد لمدينة سيدي بلعباس بين سنوات 1947-1953، توفي يوم 06 أوت 1913 ب (Dijon) بفرنسا عن عمر يناهز 96 سنة.

6 - Bulletin Municipale du 01 mai 1950. N° 02

7 - Redouane Ainad Tabet. Op. Cit. P: 133.

8 - Travaux et projets en Oranie. In Travaux Nord-Africain. 17/11/1960. P: 01.

1 - A.W.O. Boite N° 389/1. Rapport N° 1. Bilan Initiale. 1959. P: 01.

2 - المحمدية حاليا.

3 - A.W.O. Boite N° 389/1. Rapport N° 1. Op. Cit. P: 04: 04.

تطور عدد الأقسام والتلاميذ الجزائريين والأوروبيين في القطاع الوهراني 1945-1954 ¹								
54/53	52/51	51/50	50/49	49/48	48/47	47/46	46/45	
3540	3216	3076	-	1727	747	729	663	عدد الأقسام
3864	3216	3245	-	4171	739	717	680	عدد المعلمين

أرجعت السلطات الفرنسية سبب قلة استثمارها في المدارس الخاصة

بالجزائريين المسلمين إلى:

- قلة الجزائريين المسلمين الذين يقبلون على الدراسة بسبب إقامة الكثير منهم في الأرياف البعيدة عن هذه المؤسسات التربوية².
- رفض الجزائريين المسلمين السماح لبناتهم اللواتي يتزوجن في سن مبكرة بالانفصال عن الأسرة والتعليم في مدارس النصارى.
- لا يسمح سن التلاميذ بالتحاقهم بالمدرسة لأنهم في ظروف ومرحلة من العمر تفرض عليهم المساهمة بشكل كبير في إعالة عوائلهم¹.

¹ - G.G.A. Annuaire Statistique de l'Algérie de 1947. Imprimerie V. Heintz. Alger. 1948. PP: 96-97. & G.G.A. Annuaire Statistique de l'Algérie de 1954. Imprimerie V.Heintz. Alger. 1955. PP : 70-71.

² - هناك من يرى أن الجزائريين ردوا "الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى سنوات عديدة يحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ". أنظر: أحمد بن نعمان، وضع اللغة العربية في عهد الاحتلال، مجلة اللغة العربية، مرجع سابق، ص ص 240-241.

¹ - A.W.O. Boite 389/1. Rapport: Enseignement du second degré. 1959. P: 04

- يتطلب بناء المدارس والتحاق التلاميذ بها الاستقرار الأمني، لتتمكن الإدارة الفرنسية من الاستثمار في مجال التعليم¹، لكن تأثير إضرابات الطلبة المسلمين الجزائريين خلال سنتي 1956 و 1957² حال دون ذلك.

- النقص الفادح في عدد المراقدين الذي يحول دون التحاق أبناء المناطق البعيدة والنائية من الالتحاق بالمدرسة.

- انتشار الفقر والبؤس في وسط الأهالي مما يحول دون قدرتهم على شراء لوازم الدراسة، ودفع الضرائب المفروضة عند اجتياز الامتحانات.

- رفض الأهالي سياسة الاختلاط في المؤسسات التربوية.

- عجز في الميزانية³ التي كانت في حقيقة الواقع تميل لكفة الكولون على

حساب الجزائريين، لأنها تجاهلت الكثير من البلديات خاصة في بناء الطرقات في

المناطق النائية بالأرياف لكي تبقى المسافة بعيدة بينها وبين المدارس.

- معاناة الريف من قلة المعلمين، وضعف ومحدودية مستواهم المهني،

وانعدام الماء الصالح للشرب⁴.

3 - **أبناء الطبقات النافذة البورجوازية¹ الريفية أو الحضرية، التجارية² أو**

الصناعية أو أبناء الشرفاء سواء من الجزائريين أبناء "الخيامة الكبيرة" الذين كانوا

¹ - A.W.O. Rapport. Constructions Scolaires dans le département d'Oran. Op. Cit. P: 03.

² - A.W.O. Boite N° 389/1. Rapport N° 1. Op. Cit. P: : 04: 04.

³ - رغم هذا العجز، فإن الاستعمار الفرنسي يفتخر دوماً بأنه يخصص جزءاً معتبراً من الميزانية لكل مواطن، مقارنة بما تخصصه بعض الدول العربية مثل مصر على سبيل المثال. أنظر جدول رقم 16.

⁴ - Francis Jeanson et Collette Jeanson. Op. Cit. P: 169

¹ - كانوا لا يعيشون إلا أبناء المعلمين الذين كانوا تارة من الذين اعتنقوا المسيحية المتأثرين بالأبناء البيض، وتارة من أنصار اللائكية التي تدعو لها مدارس المعلمين. أنظر: محمد عباس، الإندماجيون الجدد، ج3، مرجع سابق، ص 92.

² - Paul. Marty. Op. Cit. P85.

جميعهم "تقريبا حلفاء لعائلات أوروبية وبعضهم انحدر من أمهات أوروبية" ¹ بحكم طبيعة التكوين الذي تلقوه في سيرورتهم الدراسية القائمة على الثروة والعلاقات المشبوهة²، وسياسة المصاهرة مع الأوروبيين والإخلاص لفرنسا³، قد سُمح لهم بمزاولة تعليمهم في الطورين الثانوي والجامعي لقطع الطريق أمام الحركات الانفصالية⁴، وتكوين نموذج⁵ صفوة مفرنسة، ناضجة، ومهادنة مدجّنة، و تابعة ومطيعه⁶ للوطن الأم⁷، والاستعمار القانون الحتمي⁸. ومتميزة بالطموح والقدرة على الفعل في تغيير اتجاه التاريخ، وبالتفوق⁹ على حساب الجماهير الأهلية¹⁰.. تتزوج بالفرنسية، وتتكلم اللغة الفرنسية، وتعيش مع المجموعة الفرنسية¹¹، أمام الإدارة الفرنسية قائلة: "إنكم أنتم السادة، فإذا طلبتم أن نبعث بأولادنا إلى مدارسكم فإننا سنفعل ذلك"¹². تتفهم فرنسا حسن عواطفها والتفافها حولها قلبا

¹ - الزبير سيف الإسلام، صفحات من الصراع الجزائري الفرنسي، ط 1، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1998، ص 30.

² - Claude Collot.. Les institutions algériennes pendant la période coloniale. Op. Cit. P: 124.

³ - Le cri de Bel Abbés. Du 15/04/1920. N° 12.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء 3، مرجع سابق، ص 91.

⁵ - هشام الشرايبي، البنية البتركية بحث في المجتمع العربي المعاصر، دار الطليعة بيروت، 1987، ص 40.

⁶ - خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، تر: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، مرجع سابق، ص 31.

⁷ - P. E. Sarrasin. La crise algérienne. Paris. Edit du cerf 1949. PP: 208-210.

⁸ - Howard. Le Tonkin et la mère Patrie : Témoignage et documents. Paris. 1890. PP: 40.41.

⁹ - احميدة عميرواي، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 99.

¹⁰ - Chérif Benhabyles. l'Algérie française vue par un indigène. Alger. 1914. PP: 19-20.

¹¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج 2، مرجع سابق، ص ص 162.164.

¹² - أدت في نهاية المطاف إلى تقسيم الجزائريين من خلال تعبير قسطنطين زريق "إلى عناصر متباينة...يحيا فريق حياة شرقية محافظة والفريق الآخر حياة غربية متهورة، ويسلك بعض جماعاتنا سلوكا دينيا، والجماعات الأخرى سلوكا علمانيا، ونحن إذن حيارى بين ثقافتين: ثقافة عربية أصيلة مستمدة من بتاننا وحياة سلفنا، وثقافة دخيلة لا نستطيع أن نسلخ أنفسنا منها أو نقاطعها لأننا نعيش في رحابها في كثير من أوجه الحياة". أنظر: محمد أرزقي بركان، التحول: هل هو بناء للهوية أم تشويه لها؟ فكر ونقد، السنة الثانية، العدد 12، الرباط، أكتوبر 1998، ص ص 56-57.

و"بعضهم كان يذهب بهم الغرور إلى أن يلقبوا أنفسهم ب جان وبيار أو بول، ليزيدهم ذلك إعتبارا حسب إعتقادهم"². إنهم "تخبة النخبة" التي قدمت خدمات جليلة ومباشرة ل "النخبة الحاكمة" بفضل إرتقائها في السلم التكويني الذي أتاحه الإستعمار فقط لهذه الفئة المحددة من الأهالي³. التي شُبعت وزُيِّقت ومُسخت بفكرة عظمة فرنسا وقوتها العسكرية وتراثها الهائل . وتكررت لهويتها واستبدلتها بهوية جديدة⁴ (إعادة إنتاج مجتمع يتكون من العمي والصم والبكم⁵، يعاني من نقص التوفيق بين التراث ومآثر الفكر الإنساني المعاصر⁶)، وأصبحت تمجد فرنسا وترى أنه من الواجب التضحية في سبيلها والتعايش معها، لثَمِّي طرق الإستغلال والإضطهاد⁷ والتصرف في شؤون الجزائر⁸ "لأنها مرتبطة بقانون.. وحق الإنتصار للأفضل والأقوى في هذا العالم ، وبتادي بالتمسك بمقاليد ثقافة الرجل الأبيض و أدواتها الأساسية (العادات والتقاليد والقيم) التي تدافع عنها وتباركها⁹، وتؤكد على "التآخي بين المجموعتين الجزائرية والفرنسية ، وأن أي مساس به يعتبر تدنيسا لما صنعه التاريخ¹⁰. حتى إن بعض قادتها إدعى بأنه "ليس في القرآن ما يمنع المسلم من أن يصبح فرنسيا"¹. إنها قابلية المستعمر بقبوله ارتداء قناع أبيض مصنوع من ثقافة "السوبرمان" الذي يهدف إلى المحافظة على مبدأ "عقيدة العدوانية"² التي تقصي أي

1 - البرق، العدد 180، 9 مارس 1960، باريس، ص 04.

2 - محمد لمقامي، مصدر سابق ، ص 91.

3 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1930-1954، الجزء السادس، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1998، ص 98.

4 - حميد عبد القادر، فرحات عباس رجل الجمهورية، دار المعرفة الجزائر، 2001، ص 34 وما يليها.

5 - M. Kaddache. histoire. Op Cit. P: 90

6 - أبو بكر القادري ، مرجع سابق، ص ص 29-30.

7 - محمد قنانش ومحفوظ قداش، نجم الشمال الإفريقي، مرجع سابق، ص 48.

8 - Abdelghani Maghrebi. La Paysannerie face à la colonisation. Edition E.N.A.P. Alger. 1973. PP: 50-51.

9 - كما في الدول الديكتاتورية (الشيوعية، النازية، الفاشية).

10 - L'écho d'Oran. 16/04/1930. N° 21763

1 - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية تسير، تر: المنحي سليم وآخرون، ط 1، الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص 110.

2 - شارل روبيير أجبرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، مرجع سابق، ص 10.

ثقافة تشكل خطرا داهما على هيمنتها¹، وتعمل لصالح طبقة الوارثين². يقول السيد محمد لمقامي: " ففي منتصف 1947، كان ثلثا القسم من رجال التعليم بتلمسان فرنسيين أغلبهم ينتمون إلى الدين اليهودي والثلث الباقي جزائريون من البورجوازية الصغيرة التلمسانية"³ الذين تم تأهيلهم بالتدرج للانتقال إلى المجتمع الغربي. وهذا ما تؤكدته مراسلة الحاكم العام والي وهران التي جاء فيها: "من أجل تجسيد إقرار الوطن الأم بخادميه، أرغب في تكوين مدرسة خاصة في الجزائر لفائدة أبنائهم، تمكنهم من العمل مستقبلا في الوظائف العامة والعسكرية...يتمتع الطلبة في هذه المدرسة بالنظام الداخلي، ويستفيدون من الدراسات المتبعة في المدارس العسكرية المتخصصة عن طريق أساتذة جامعيين..ومن أجل الإسراع بهذه العملية، أطلبكم بموافاتي بإحصائكم المتعلق بالتلاميذ المعنيين بالأمر وكذا عائلاتهم..وأفضل أن يكونوا من أصحاب أوسمة الشرف"⁴. لكن التلاميذ الذين توفرت فيهم هذه الشروط لم يتجاوز عددهم تسعة تلاميذ موزعين بين تيارت ومستغانم وتلمسان وثلاثة (03) في وهران.

في هذا السياق حاولت الإدارة الاستعمارية تكوين نواة تتولى تشكيل شخصية /الطفل /المواطن /المتعلم الجزائري، وإلغاء الهوية الثقافية والدينية والوطنية حتى "يتخلى نهائيا عن قانونه الذاتي، عن عقيدته وقيمه. يجب عليه أن يرتد"¹ وأن لا تغدو "الأنا" جزءا من "هو" والمكملة للآخر. لأن الجزائر تتميز بتعدد الإثنيات والأديان² لتسهيل مهمة الاحتلال الذي نظمت إدارته رحلات إلى باريس للأعيان

¹ - Redouane Ainad Tabet. Op. Cit. P: 132

² - مارسيل بوستنيك: العلاقة التربوية، مرجع سابق، ص ص: 21-24.

³ - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 64.

⁴ - A.W.O. Boite N° 6988. Correspondance du gouverneur général de l'Algérie du préfet d'Oran au sujet de l'ouverture d'une école supérieur. Formatrice de cadres d'état civils et militaires en Algérie. Le 16/07/1951.

¹ - الجيلالي صاري، محفوظ قداش، المقاومة السياسية 1900-1954، مرجع سابق، ص 12.

² - M Lacheraf. L'Algérie : nation et société. Op. Cit. P 185

ولبعض الأطفال ، تنصلهم من تقاليدهم إلى التقاليد الفرنسية الجديدة للتأثير على اتجاهاتهم وأفكارهم ، والقيام بعملية غسل محكمة لمخاخمهم. فكانوا ينقلون في بواخر لم يركبوها أبداً ويحاط بهم بأبهة كبيرة، وتسلط عليهم الصحافة الأضواء المقصودة لتثير فضول غيرهم من الجزائريين. فتنظم لهم زيارات للمسارح والمتاحف والساحات، وتنظم لهم لقاءات رسمية مع شخصيات مرموقة مثل الوزراء، وحفلات مع نساء تُحضرن خصيصاً لهم. فيحضون بالترحيب والهدايا والنياشين وعبارات الشكر والإطراء، ليعلموا أنهم متميزين عن غيرهم من الأهالي المتخلفين (Déclassés) البرابرة. إلى جانب ذلك لجأت فرنسا إلى استخدام أسلوب آخر لتشكيل نخبة مثقفة "مغتربة" يمكننا اعتبارها "رهينة الفكر" الفرنسي (Otagé d'opinion)¹، و"مشتلة" للأجيال المقدر لها العمل في الجزائر² التي ستطلب بنفسها يوماً ما التعميد. وهذا ما دعا إليه Louis Massignon عندما أكد على عدم تضييع فرصة على "أبناء عرقنا..الذين لا يفكرون إلا في الربح السريع...ويتمنون..الإستقلال الإقتصادي عن الميتروبول"³ جدير بنا أن نذكر بأن هذا النموذج من التعليم في المدرسة الفرنسية لم يتردد عليه إلا الأطفال الذكور . أما فيما يخص الإناث⁴ فمعظمهن كن مقصات بسبب العوامل الثقافية والاجتماعية المترسخة في البنيات التقليدية للمجتمع الجزائري خوفاً عليهن من الانصهار في المجتمع الفرنسي، وتغريبهن بالسفور ونزع الحجاب¹، وخلعهن من المجتمع الإسلامي.

¹ - M.C Salhi. L'Algérie et son destin. Arrcantère Ed. Paris. 1982. P: 26.

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج 1، مرجع سابق، ص ص 252.253.

³ - Ch. R. Ageron. op cit. P 397.

⁴ - أنظر ملحق رقم 25.

¹ - نقصد بالحجاب هنا "الحايك أو لُمُحْفَة" الذي كانت ترتديها المرأة الجزائرية آنذاك، وهو غطاء من قماش كبير منسوج من الصوف أو الحرير، تُلْفُ به المرأة جسدها كي لا يظهر منه شيئاً. ويستعمل عادة عند الخروج كسترة للمرأة، وكلباس للعروس عند زفافها. وهو يختلف من حيث اللون والشكل وكيفية ارتدائه وفق تراتبات الفئات النسائية ضمن طبقات المجتمع الجزائري. مع العلم أن الجيد منه، كان يصنع

تعليم الفتيات الجزائريات في عمالة وهران مقارنة بالعمالات الأخرى ¹				
العمالات	العدد الإجمالي للتلاميذ المسلمين	الذكور المسلمون	الإناث المسلمات	معلمو البنات
الجزائر	112.612	83.347	29.265	26 %
وهران	85.045	56.949	28.096	33 %
قسنطينة	109.080	84.993	24.087	22 %
المجموع	306.737	225.289	81.448	26.5 %

حتى اللواتي سمح لهن بالالتحاق بالمدارس المهنية في وهران ومستغانم وندرومة وتلمسان وسعيدة وبلعباس ومعسكر، لتعلم التدابير المنزلية والخياطة والبساط وغيرهما من الحرف قصد تنصيرهن ليكنَّ نقطة انطلاق عملية تبشيرة ذاتية في أوساط المجتمع الجزائري، لم يتجاوز عددهن 35 تلميذة في القسم سوياً².
خيَّب هؤلاء الآمال المعقودة عليهم¹، ووقعوا في أزمة حضارية وفي صراع، لأنهم الأقلية داخل المجتمع²، غرباء بين ذويهم، يحيون ويعيشون في فجوة عميقة بين الظاهر والباطن وتمزق بين ثقافتين متعارضتين في وقت واحد، إحداهما خارج

بتلمسان في القطاع الوهراني وغيرها من المدن الجزائرية. أنظر: Stephane Destrit. Histoire d'Alger. Bibliothèque de la jeunesse chrétienne. Paris. PP: 130-131. وأيضا: نفيسة لحرش، تطور لباس المرأة الجزائرية، تقديم: عبد الحميد بورايو، دار أنوثة للنشر، الجزائر، 2007، ص 33.

¹ - L'Algérie et Sa Jeunesse. op. Cit. p: 55

² - Bulletin de l'enseignement des indigènes de l'académie d'Alger. Avril-Décembre 1935. P: 124.

¹ - عبد الله العروي، أوراق، مرجع سابق، ص 54.

² - حميدة عميراي، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص 99.

النفس (العصرنة المبهرة = استيعاب نموذج التجربة الفرنسية في التقدم والترقي¹ دون مساءلتها) والأخرى مدسوسة في ثناياها (التقليد / القديم = استحضر الماضي العربي الإسلامي) ، فترى حضارة العصر في البيوت والشوارع، بينما تجد حضارة الماضي رابطة خلف الضلوع²، لدرجة أن هؤلاء الشباب من شدة تعلقهم بالحضارة الغربية/الفرنسية والحلم بالعيش في محيطها صاروا في نظرنا يمثلون الهوية الضائعة، ويقبلون النفوذ الأوروبي وعاداته وتقاليده، ويتقمصون شخصيته ويحذون حذوه³. لأن الاستعمار لم يورثهم فقط نفسيته التي نمت من انحطاطه الاجتماعي والفلسفي والسياسي، وإنما ورثهم نفسه⁴. لذا ما فتئوا يرفضون الوطنية التي تناهض الإدارة الاستعمارية، وتصهر قيم ومعتقدات الشعب الجزائري وتراثه الثقافي⁵، ويعانون حالة من الاغتراب⁶ عن الذات⁷، والاغتراب الثقافي والسياسي والاقتصادي (تعاسة المثقف وعدم شعوره بتحقيق هويته¹ لأنه ينفر منها ولا يلتزم بها²). الاغتراب الناتج عن الحضارة (الفرنسية/الغربية طبعاً) التي جاءت متعاكسة ومتعارضة مع إشباع غرائزه ورغباته والتوافق بينها وبين أهدافه ومطالبه. وهو

1 - محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، ط 2، دار الطليعة، بيروت، 1985، ص ص 18.19.

2 - أحمد أبو الفتوح شبل، الانفتاح الحضاري، مبرراته، شروطه، متطلباته التربوية، مجلة كلية تربية المنصورة، ع 34، ماية 1997، ص 268.

3 - أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 17.

4 - فلاديمير ماكسيمينكو، الأنتليجانسيا المغربية - المثقفون أفكار ونزاعات - ت: عبد العزيز بوباكير، ط 1، دار الحكمة، الجزائر، 1984، ص 174.

5 - A. Mahsas. Op Cit. P: 220.

6 - كلاستر، مجتمع اللادولة، تعريب وتقديم: محمد حسين دكروب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1991، ص 5.

7 - محمد عباس يوسف، الاغتراب والإبداع الفني، دار غريب للدراسات والنشر والتوزيع، مصر، 2005، ص 31.

1 - إجلال محمد سري، الأمراض النفسية الاجتماعية، ط 1، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2003، ص 114.

2 - سناء عابد زهران، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر الاغتراب، ط 1، عالم الكتب للنشر والتوزيع، مصر، 2004، ص 115.

فقدان الإحساس بالوجود الفعّال" ¹ وعدم المساواة ² وغربة عن الذات ³ والإحساس بالتأخر الثقافي ⁴ لدى النخبة المصطفاة الواقعة في أزمة حضارية، وفي صراع وتناقض بين الأصالة والمعاصرة ⁵. لدرجة أن هؤلاء الشباب من شدة تعلقهم بالحضارات الغربية والحلم بالعيش في محيطها صاروا يعانون حالة من الاغتراب الثقافي والديني والاجتماعي والسياسي ⁶. فهم وإن كانوا يعيشون على أرضنا إلا أن وجدانهم وعقولهم مهاجرة مغتربة قيمياً وفكرياً ⁷. بل ومُنقَصِمين ومنفصلين عن عمقهم التاريخي والفكري. فمنهم من تنكر كلياً لجزائريته وقيمه الإسلامية التي أصبح يخجل منها بل ودعا إلى التخلي عن كل ما يجعل منه مسلماً بالمعنى السياسي والاجتماعي للكلمة لكي يرتقي من رعية مضطهدة بأئسة ومنهزمة إلى مواطن فرنسي محترم. لأنها أعلنت عن هزيمة الضعيف، وانتصار صاحب النفوذ الأصلي، الذي يفرض ذاته نموذجاً مسيطراً" ⁸ و"يحمل الشعب المستعمر أن على أن يتساءل دائماً: "من أنا في الواقع؟" ¹. وقد ترتب عن هذا سؤال غريب يطرحه العرب المشاركة وهو: هل الجزائر حقاً بلد عربي؟ بالنظر إلى انتشار اللغة الفرنسية بين المثقفين واللغة الدارجة المليئة بالمفردات الفرنسية بين العامة. وقد أجاب أحد المثقفين الجزائريين المفرنسين بعفوية وبمرارة عن هذه الثنائية اللغوية حين قال: "لقد كان التعليم في الجزائر - خلال الاستعمار الفرنسي - ذا طابع ثنائي متعارض وغير متكامل بين

1 - عادل بن محمد العقيلي، الاغتراب وعلاقته بالأمن النفسي لدى طلاب جامعة الإمام بن سعود

الإسلامية بالرياض، رسالة ماجستير، الرياض، السعودية، 2004، ص 10.

2 - عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2003، ص 36.

3 - محمد عباس يوسف، الاغتراب والإبداع الفني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2005، ص 38.

4 - ناصر جابري، الجزائر: الدولة والنخب، دراسات في النخب، الأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية، منشورات الشهاب، 2008، ص 11.

5 - لمزيد من الإطلاع أنظر: محمد أركون، العلمنة والدين، ت: هاشم صالح، دار الساقي، 1996.

6 - عبد اللطيف محمد خليفة، مرجع سابق، ص 102.

7 - أحمد أبو الفتوح شبل، مرجع سابق، ص 268.

8 - دراج فيصل، الإبداع والوعي والتقليد، مجلة التسامح، عدد 03، 2003، ص ص 142-155.

1 - فرانز فانون، مصدر سابق، ص 239.

الفرنسية والعربية/ وكان عدم ملاءمته أمرا واضحا، سواء من حيث المضمون أو من حيث الشكل، في نمطي التعليم كليهما، ولم يكن يستجيب لاحتياجات التعليم الحقيقي الذي كانت الأمة تطمح إليه. لقد كانت المدرسة الفرنسية تنتج نوعا من الإنفتاح على الخارج وعاملا من عوامل إكتساب التقنية. غير أن هذا الإسهام من المدرسة الفرنسية كانت تشوّهه إيديولوجيا الإدماج أيما تشويه. لقد كان المقصود هو تكوين شخص مفرنس مغترب ثقافيا لاتربطه رابطة بالمجتمع المهزوم المسيطر عليه ولا يتمتع بنفس وضعية الغالب المسيطر. وكان هذا الطراز من الرجال في أكثر صيغة "تطورا" يشكل جزءا من "رجال الفكر"¹. لكن هناك من يرفض نعت هذه النخبة بالازدواجية الثقافية لأن الازدواجية اللغوية تتطلب إتقان اللغتين العربية والفرنسية. وهذا ما يكاد ينعدم لدى جماعة النخبة لأنهم يجهلون اللغة العربية*. لكن ما يشكل الخطر الداهم على هذه الشعوب إن تحولت التعددية الثنائية اللغوية إلى ثنائية ثقافية. ولو أحرزت فرنسا نجاحا في تحقيق هذه الإستراتيجية لكان المشهد في الجزائر حسب "محمد الأوراغي" كالاتي: إن "لوضعية التعدد اللغوي عواقب غير مرغوب فيها، أضعفها تكوين طوائف لغوية تجهر بالمغايرة في كل حين، وتُسخرُ كل طائفة ما توفر لديها من وسائل مختلفة لتغذية شخصيتها المتميزة، والمحافظة على هويتها اللغوية والثقافية. وهي بذلك تؤلف مجتمعات منغلقة اقتصاديا، إذا غالبا ما يهمل معيار الإتقان والجودة لفائدة الطائفية، فينتقى على أساسها المقاول في البناء والعمل في الورشة والمساعد في المتجر والمخبزة والمقهى. وهي أيضا منغلقة اجتماعيا، إذ يقل التصاهر بينها، وتضعف مشاركة بعضها بعضا في الجمعيات المدنية، وفي الأعمال التطوعية للتضامن الجهوي. ومنغلقة ثقافيا، فلا يطرب بعضها لموسيقى البعض الآخر، وبسبب الحاجز اللغوي لا تطلع طائفة على ما قد يكون عند الأخرى من أعمال أدبية، ويظل إنتاجها القليل حبيس العشيرة... لأن أهم عامل في تطوير الأدب وتجويده هو المشاركة الواسعة في استهلاك هذا الإنتاج

¹ - محمد عابد الجابري، السياسات التعليمية في أقطار المغرب العربي، مرجع سابق، ص 116.

ونقده. ولا يستبعد أن يخلف الانغلاق الطائفي آثارا نفسية، في المقدمة يأتي تنامي الشعور بالاحتقار الناجم عن اتساع ظاهرة الاستخفاف المجاني بإحدى الطوائف، ويكون هذا الاستخفاف عن طريق تقديم الآخر في صورة مضحكة والتتادير بعدادات عشيرته والتفكه بأعرافها. ويحصل ذلك على أوسع نطاق وبشتى الوسائل... دون أدنى وعي من من الجميع بالمخلفات السيئة لمثل هذا السلوك. وتبقى هذه الدفائن مصدرا لتغذية الكراهية الطائفية... وتتحول بعد حين إلى مبرر مقنع لفقد الثقة في الآخر، ونصب العداة له، وتحيين الفرص للانقضاض عليه، وهو ما يحدث حاليا في المجتمع¹

من هنا فإن الذي سيسود في المجتمع الجزائري قبل وبعد الاستقلال، هو إرادة الانتماء والانصهار في مجتمع الثنائية اللغوية، وتقمس هويته، واكتساب سلوكه وطريقة تفكيره، وبالتالي تبني مفاهيم إنسانية وإيديولوجية وسياسية عمليّة أكثر جاذبية²، وتكريس منطق الانقسام بدل منطق التكامل، ليس على مستوى مؤسسات الإنتاج والأفكار فقط بل كذلك على مستوى المنتج والوظائف وغيرها والعلاقات مع المجتمع، والشرعية التي يتمتع بها في أعين مختلف شرائح المجتمع³.

أدرك مانديس فرانس الخطر الذي بات يحيط بالفرنسيين فصرخ في المؤتمر الوطني الفرنسي الذي عقد بتاريخ 03 نوفمبر 1955 بباريس قائلا: "إن الأخطاء التي ارتكبتها هي التي قادتنا إلى الوضعية الحالية"¹، ورفض الحجة القائلة بأن الجزائريين كانوا غير قابلين للتعليم والتصحيح وأنهم أعداء للمدرسة، بل إن التعليم في نظره ضرورة وخير بالنسبة للمحرومين، فطالب بنشر التعليم الفرنسي والثقافة الأوروبية بأسرع ما يمكن لتطوير المجتمع الجزائري، وجعله أكثر عدالة وحبا

¹ - محمد الأرواغي، التعدد اللغوي وانعكاساته على النسيج الاجتماعي، مرجع سابق، ص 54-52.

² - زكرياء ميشال، مرجع سابق، ص 51.

³ - ناصر جابري، مرجع سابق، ص 6.

¹ - Mendès France. Op. Cit. PP: 8-9.

للوطن الفرنسي ومؤسساته¹ ذات التوجه لصالح نشر القيم الدينية المسيحية²، لأننا كما قال الحاكم العام شانزي "ولزمن طويل نحتاج...إلى مشرعين مسلمين الذين إن لم نتولّ نحن تكوينهم وتربيته تحت سلطتنا المباشرة فإننا سنقع في نفس المشكلة التي وقعنا فيها عند بداية الغزو"³ وهذا ما خشيه الحاكم العام لويس تيرمان عندما صرح قائلاً: "إن أعداء فرنسا ليسوا هم العرب ساكني الخيام، بل هم الذين علمناهم لغتنا ورفعناهم إلى درجتنا"⁴.

4 - دور المؤسسات التقليدية في عمالة وهران في مواجهة المدرسة

الفرنسية (المقاومة الثقافية):

جاءت الرسالة المحمدية هادية للبشرية جمعاء، متصفة بالشمولية لكل مجالات الحياة، ومخالفة لجميع الشرائع التي ابتدعها الإنسان، لينفرد المسلمون بمنهج مصدره رباني. وطبيعة هذه الرسالة أنها تستهدف الإنسان مباشرة لأجل أن يصير واعياً بصيراً بالأمر، ثم يكلف فيحاسب دون غيره من المخلوقات. وهذا الوعي والتكيف لن يكون إلا بالقراءة والتعلم، لذلك سن المشرع هذه الوسيلة فنزلت أول آية في القرآن الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .¹ ترقي للإنسان بالعقل عن باقي المخلوقات². ذلك لأن التربية والتعليم في المنظور الإسلامي يُعنيان بإصلاح الإنسان في حياته الدنيا وفي الآخرة³، وإهماله يعني وقوع مآسي عدة . وتحقيقاً لهذا الغرض عمد علماء الإسلام إلى سن قوانين ومناهج وطرق في علم

¹ - GGG. Exposé de la situation générale en Algérie. 1901. P:238.

² - G . Pervillé. Les étudiants algériens de l'université française. Casbah. Ed. Alger. 1997. P: 25.

³ - CH.R. Ageron. Op .Cit. P: 329.

⁴ - أبو القاسم يعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، مرجع سابق، ص 195.

¹ - سورة العلق، آية 5.

² - عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق، ص. 412.

³ - مجموعة من المؤلفين، مؤتمر الفقه الإسلامي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، جامعة الرياض، ص. 263.

التربية لأجل صلاح الإنسان ونموه المتوازن في جميع الاستعدادات الجسمية والنفسية والعقلية والخلقية حتى يصل بها إلى الكمال¹، باستعمال وسائل تربوية ولو كانت بسيطة، ووفق الإمكانيات المتاحة، و الفروق الفردية بين المتعلمين الذين تتولد لديهم الحاجات الكامنة للوعي، وتؤدي إلى إثارة حاسة أو أكثر من حواس المتعلم، وتربي فيه دقة الملاحظة والتأمل وحصر الانتباه²، وتبعث فيهم روح النشاط، وتكسر الطريقة الرتيبة في الإلقاء، وتساعد في تثبيت المعلومة، وتوفير الجهد على المعلم والمتعلم، ويظهر ذلك كله في نتائج حفظها. الشيء الذي يدفعه إلى التركيز والتدقيق، ويزيد من انتباهه ونشاطه.

من أهم المؤسسات التي ركن إليها الجزائريون كمقاومة ثقافية في عمالة

وهران:

أ - **الكتاتيب القرآنية:** الكُتَّاب بضم الكاف وتشديد التاء موضع تعليم الكتاب والجمع كتاتيب³. استعمل ابن سحنون كلمة "مكتب" عوض لفظة "كتاب" التي يقابلها في مناطق أخرى كلمة "المسيد". والكتاب في العرف هو المكان الصغير نسبيا الذي يتلقى فيه "القندوز/ المحضري" دروسه الأولى وتربيته الأساسية على يد الشيخ أو الطالب.

غالبا ما كان الكتاب في عمالة وهران، عبارة عن غرفة واحدة أو غرفتين مفتوحتين على بعضهما، أو حجرات صغيرة قد تكون بدون نوافذ، أو قسم لحراسة الصغار¹. وفي المدينة غالبا ما يكون الكتاب على قارعة الطريق، تدخل فيه الأوساخ والغبار²، والكم الهائل من الأطفال الذين يحشرون في مكان تنعدم فيه

1 - عبد الكريم عثمان، التربية وطرق التدريس، ج 1، المكتبة المركزية، الرياض، 1969، ص. 14.

2 - المرجع نفسه، ص 24.

3 - محمد بن سحنون، آداب المعلمين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 64.

1 - محمد لمقامي، رجال الخفاء، ص 19.

2 - الطالب عبد الرحمن بن أحمد التيجاني، الكتاتيب القرآنية بندرومة من 1900 إلى 1977، ديوان

المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 84

* يقول محمد لمقامي في مذكراته: "كانت أسناننا تصطك طوال فصل الشتاء من شدة البرد وفي فصل الصيف كنا نهبط بحثا عن قليل من البرودة إلى عمق كهف حوّل إلى قاعة دراسة. ويكمن المشكل في

الشروط الأساسية للصحة* من ماء وهواء ومرحاض ونظافة. دون مراعاة الفوارق الجوهرية والمستوى العمري والذكائي¹ والمعرفي وحاجات المتعلمين حتى يضمن الاستخدام الفعال للوسيلة، طالما أن المعلم يتقاضى أجرته.

لم تشترط كتاتيب ندرومة سنا محددة. والغالب على أهل المنطقة أنهم يدخلون أولادهم الكتاتيب بعد الختان، والختان يقع عندما يبدأ الولد في تبديل أسنانه الرواضع وهو ما يعادل السنة الخامسة تقريباً². وفي مناطق أخرى لم يكونوا يتخلفون إلى دخول عن سن السابعة إلا للضرورة³ مما يساعدهم على تعلم ممارسة شعائرهم الدينية بانتظام ودون ملل أو كلال، وتدفعهم إلى الاحتكاك بآترايهم الذين سيقاسمونهم الحياة المعهودة، وتبعدهم عن مرافقة المنحرفين ورفاق السوء⁴. لكن المنظرين حدّدوا مقياساً لدخول المتعلم المرحلة الأولى من التعليم في الكتاب بالإشارة إلى الحديث النبوي الشريف القائل: "أمروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع¹. وتوجد بعض الإشارات من العلماء الذين تناولوا المرحلة الثانية من التعليم (القراءة والسماع على شيوخهم) فيما بين العاشرة والثالثة عشرة. وعليه كانت عملية التربية تجاه جميع الجزائريين في أي سنّ (كبيراً كان أم صغيراً) وأي وقت (صباحاً ومساءً). عملاً بالحديث النبوي الشريف: "أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"².

كانت مدة الدراسة في الكتاب بمختلف مناطق عمالة وهران تستمر خمس سنوات تقريباً إلا أن نظام التعليم الكتابي لا يضمن للتلميذ مرحلة متوسطة أو مرحلة

انعدام الإنارة على جوانب هذا الغار، وإنما كان يليق بنا في غالب الأحيان للتخلص من يقظة الفقيه"⁵.
أنظر: محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 19.

1 - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص ص 85-86.

2 - كتاتيب ندرومة، ص 22.

3 - محمد سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص. 89.

4 - أحمد الأزرق، الكتاتيب القرآنية في الجزائر ودورها في المحافظة على وحدة الأمة وأصالتها، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2002، ص 46.

1 - حديث شريف.

2 - حديث شريف.

سابقاً لمرحلة التعليم بالمسجد، وعلى التلميذ الراغب بعد تخرجه من الكتاب الاستمرار في التعليم أن يبحث لنفسه عن حلقة بالمسجد أو مقعداً بالمدارس تعدّه للدراسات المتقدمة غير أن الكثير منهم فقد مكانته الأدبية بعد تخرجه من الكتاب، فإن كان منحدرًا من أسرة ريفية، تعاطي لمهنة الفلاحة. وإن كان المتخرج من سكان المدن، انساق إلى حرفة أو تجارة. وإن كان معدماً لا سند له لمواجهة صعوبة العيش، احترف مهنة التعليم سداً لباب البطالة والمسألة. أما إذا كان محظوظاً، ونال قسطاً من العلم، أو وجد من ساندته ويساعده مادياً وأدبياً، التحق بزاوية أو بمعهد، وأصبح عالماً في حكم الوسط التقليدي يتقلد مهنة التدريس والإفتاء والإمامة والقضاء وتصدر المجالس العلمية¹. إلا أن تشدد معلمي الكتاتيب في تحديد ساعات الدوام الدراسي²، راجع إلى حسن نيتهم وإخلاصهم لمهنتهم التي أعطوها جلاً وأوقاتهم، وإلى إرادة إحراز ثمرة جهودهم في أجل محدد. فما إن يُفطم الصبي عن الرضاع حتى يهدأ في "تأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة، فإن الصبي تتبادر إليه مساوئ الأخلاق فما تمكّن منه ذلك غلب عليه فلم يستطع له مقاومة.. وإذا أتى عليه من أحواله ست سنوات فيجب أن يقدم إلى المؤدب... لأن في هذه المرحلة تشتد مفاصل الصبي ويستوي لسانه ويتهيأ للتأقن ويعي سمعه"¹. ويجدد ابن العربي اهتمامه بتربية الصبي ويؤكد مسؤولية من هو تحت وصايته فيقول: «اعلم أن الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية من كل نقش وصور، وهو قابل لكل نقش، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه، فإن عُلّم الخير وعود خيراً نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في الثواب أبواه، وكل معلم ومؤدب له، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم به والولي عليه... فعليه أن يصونه ويؤدبه ويعلمه محاسن

¹ - أحمد الأزرق، مرجع سابق، ص 29.

² - أنظر ملحق رقم 26.

¹ - انظر تفصيل ذلك عند محمد منير موسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها، عالم الكتب، القاهرة، ط 3، 1993، ص ص 140-141.

الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء ولا يعودّه التتعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية»¹. وينبغي البدء بتعليم ه القرآن ومداومة تكراره أي استظهار سورته وأحزابه على رواية ورش، المقيدة بطريقة التوقف عند علامة الوقف². وفي الوقت نفسه يتعلم حروف الهجاء، ويلقن معالم الدين، ثم يروي الشعر مبتدئاً بالرجز فالقصيدة.. فإذا فرغ من تعليم القرآن وحفظ أصول اللغة عند ذلك نظر إلى ما يراد أن تكون صناعته فيوجهه إلى طريقه لأن الجزائر لن تستغني عن يسدّ ثغراتها، وينبّه إلى أن يكون الصبي في مكتبه مع صبية حسنة آدابهم، ومرضية عاداتهم، لأن الصبي عن الصبي ألقن وهو عنه أخذ وبه أنس³. وقد برر عبد الرحمن بن خلدون، سلوك أهل المغرب ومنهجهم في التربية والتعليم في الكتاب بسهولة الحفظ في الصغر ولجلب البركة ونيل الثواب أما إن كبر الولد فقد ضاعت فرصة الحظ والثواب على الوالدين⁴.

الوظيفة التعليمية للكتاب: الكتاب مؤسسة من المؤسسات القديمة في المجتمع الجزائري لعبت وظيفة تربوية واجتماعية، وقد تطور نظامها فابتكر وسائل وأساليب تقليدية متواضعة ساعدت الأطفال على:

1. حفظ القرآن وتعلم المعارف من خلال الكتابة والقراءة.
2. مكافحة الأمية.
3. تمكين أبناء الطبقات الفقير والمزرية من تشكيل نواة هامة للمقاومة الثقافية لإفشال سياسة التنصير¹. خاصة وأن إنشاء الكتاتيب لقي عقبات

¹ - سعيد أعراب، مع القاضي أبي بكر بن العربي، تحقيق سعيد أعراب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2008، ص 161.

² - أحمد الأزرق، مرجع سابق، ص ص 29-30.

³ - سعد إبراهيم الطايل، موقف الإسلام من تنشئة الطفل، دار الجيل، بيروت، ط 1، 2003، ص 430.

⁴ - عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص، 556.

¹ - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص ص 48-49.

وصعوبات من طرف الإدارة الفرنسية التي وضعت شروطا كثيرة منها نوع وطبيعة المكان المخصص لبناء الكتاب، وعدد التلاميذ ومواعيد استقبالهم¹.

4. نشر تعاليم الإسلام القويم² وحسن التمسك والتربية الصحيحة المكتسبة

أبا عن جد.

5. ضمان استمرارية مختلف النظم الاجتماعية الأصلية المرتبة بالعرف

في الأعياد لدينية والعادات والتقاليد في الختان والأعراس والعقيقة...

6. عزل الطفل عن ثقافة المستعمر ومقاومة سياسة التغريب التي انتهجها

لمحو مقومات الشخصية العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري. خاصة وأن

التربية الفرنسية.

توزيع المدارس القرآنية عبر العمالات ³									
1951-1950			1938-1937			1933-1932			العمالات
التلاميذ	المعلمون	المدارس	التلاميذ	المعلمون	المدارس	التلاميذ	المعلمون	المدارس	
20799	940	888	7524	357	352	8591	475	431	الجزائر
19542	1409	1298	6836	796	496	10313	692	690	وهران
41096	3007	3002	24063	1597	1573	10624	821	801	قسنطينة
22063	910	893	11870	739	727	6777	630	620	الجنوب الجزائري
103500	6266	6266	50293	3189	3189	36305	2618	2542	المجموع

تعداد المدارس المرخصة للتعليم القرآني في مقاطعات عمالة وهران ¹	
المقاطعة	مجموع المدارس

¹ - مرسوم 18/10/1892، المتعلق بالمدارس الإسلامية والإسرائيلية الحرة في الجزائر.

² - عبد الرحمن بن أحمد التيجاني،: مرجع سابق، ص 13.

³ - Kamel Kateb. Insaniyat. 8^{eme} année. 25-26. 2004. P: 81

¹ - Archives wilaya d'Oran. cart 2260. rapport du préfet du 21-09-1937. PP: 3-4

211	وهران
76	معسكر
115	مستغانم
57	سيدي بلعباس
295	تلمسان
754	المجموع
عدد الكتابات بسيدي بلعباس سنة 1937 ¹	
36	بلدية سيدي بلعباس
08	البلدية المختلطة مكرة
03	البلدية المختلطة تلاغ
06	سفيظف
04	مناطق أخرى
57	المجموع

7. كانت تسعى لإحكام قبضتها على العقول¹، وتبحث عن ينوب عنها في تمرير الخطاب الاستعماري. وقد وجدت في مدرستها - الفرنسية - مجموعة من الأهداف الإيديولوجية الاستعمارية التي من بينها:
8. أ - تدريب الطفل على الخضوع لقوانينها وتنظيماتها الإدارية، وتجريده من ثقافته الأصلية ليسهل عليها توجيهه واستغلاله. وقد أوصى المستشار DUTRONE في محاضرة ألقاها بأنه قبل الكتابة في أي موضوع موجه للتربية والتعليم في الجزائر، لا بد من قراءة القرآن، لأن العلاقات المفترضة مع الجزائريين تختلف اختلافا كبيرا عن العلاقات التي تربطها فرنسا بالبريطانيين والألمان. ويؤكد في ذات المحاضرة: "ينبغي على دعاة

¹ - A.W.O. Dossier 2260. Note sur la situation des écoles Coraniques en Oranie du 21/12/1937. P: 07.

¹ - Yvonne Turin. op. cit. PP: 168-169.

الحضارة missionnaires de civilisation حتى ينجحوا لدى السكان الأجانب
أن يقلدوهم في سلوكياتهم الخارجية¹؟.

ب - تدريس مادتي التاريخ والجغرافيا بخبث شديد كي تشوه انتماءه
الحضاري وتسلخه من ماضيه الثليلد.

ج - تفريغ ومحو ثقافة الطفل الوطنية في برنامج "المحادثة" leçon de
langage، وإعادة صياغتها بطريقة تربوية بيداغوجية من خلال "المحاورة" التي
كانت أحد أهداف خلق المواطنة الفرنسية بطريقة دونية، وحشو أفكار الطفل
الجزائري المسلم بشعارات مجوفة مثل التمدين²، وأنه من أصول غالية³. واتهام
العرب العثمانيين بالهمجية والقرصنة⁴ مما يؤلّد لديه انطباع سيء عن الحكم العربي
والعثماني، وُطعمه بشعار الإخاء والحرية والمساواة، وفرنسا بلد الديمقراطية⁵
والوطن الأم⁶ التي جاءت لتخرجه من التخلف والهمجية إلى نور العلم والمدنية .
يقول الفرنسي "جورج هاردي": "إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في
مستعمراتنا، وتكوينهم وفق نموذج المدرسة الفرنسية¹، وجعلهم أكثر ولاءً وأخلصاً
في خدماتهم لمشاريعنا هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وأن نتيح لهم
الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا. فالمقصود
إذن باختصار هو أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسبما
نريد"² * . وجاء في تقرير آخر: "إن فرض الأمن وتنوير الأقاليم إقليمياً بعد

¹ - تسخير التنوير في تبرير النير، تر: أحمد شقرون، مجلة المصادر، العدد 11، 2005، ص 256.

² - Abdallah Laroui. L'histoire du Maghreb. Op. Cit . P: 100

³ - Genty de Bussy. M.P. De l'établissement des Français dans la régence d'Alger et des moyens d'en assurer la prospérité. Alger. 1833-1834. Vol2. P: 1999.

⁴ - Duchet Michèle et Claude. Op.cit. P: 125

⁵ - وسيلة بن شني، رحيل أبو الأنثروبولوجيا الحديثة، موقع: <http://elkhabar-hebdo.com/site/news-action-show-id>

⁶ - Lettre du maire de Mercier Lacombe du 23/06/1935 au G.G.A.

¹ - Maurice Paulard. L'enseignement pour les indigènes en Algérie .Op. Cit. P: 422.

² - أحمد طالب الإبراهيمي، مرجع سابق، ص 16.

آخر...تلكم هي المهمة النبيلة التي تنتشدها وتقوم بها فرنسا...وبفضل التعليم والاحتلال، يتعين على الحكومة إرساء قواعد قوتها في الجزائر. وتحقيق هذه الثورة المعوية والمادية التي تشكل الموضوع الحقيقي والجدير بكل جهودنا "التعليم والاحتلال" هما حجرتا زاوية لصرح أرغمت فرنسا على إقامته بحكم المسؤوليات التي أخذتها على عاتقها"¹.

5 - تحصين المجتمع من الاستلاب. رغم بدائية إمكانياتها ووسائلها

المحدودة والبسيطة والمتواضعة التي لا تتعدى اللوحة والقلم من القصب والصمغ العربي، فقد نافست التعليم الرسمي الذي "طغت فيه المصالح المدنية على المصالح الدينية"². يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله:..كانت هذه المؤسسات تعلم وتربي الأطفال على ضوء وهدى القواعد الإسلامية، وعلى نمط اجتماعي محدد، تقوم بتحفيظ القرآن الكريم، وتساهم أيضا في إعطاء قسط من المعارف التي تساعد على بناء وإنماء منظومة ثقافية ودينية في المجتمع، وتعد شعبا متعلما متحصنا لا يوجد فيه إلا عددا قليلا من الأميين..."³.

خصائص التعليم الكتابي: يتميز التعليم الكتابي بعدة خصائص تميزه عن بقية

المؤسسات التعليمية الحديثة، يمكننا إيجازها فيما يلي:

- شعبية التعليم الكتابي، معناه أن هذا التعليم ناب ع من حاجات المجتمع المحلي، ومرتبب بمناطق ظهور التجمعات السكانية، وأفراد الفئات الاجتماعية مهما اختلف مستواها الاجتماعي والثقافي، وهذه ميزة فريدة من نوعها.

* مدى قابلية سلوك الأفراد للتشكيل باستقراء الثقافات الأجنبية المتعددة والمختلفة.

¹ - Genty de Bussy. M. Op. Cit. P: 199.

² - Yvonne Turin. op. cit. P: 163.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، و م ن ت، الجزائر، ص 293.

- لا يتطلب نفقات تسيير هامة، فهو اقتصادي من ناحية التكاليف المادية

ومن حيث التجهيز والتخطيط¹.

- يركز على اتجاهات نفسية دينية لدى المعلم، التي توفر جوا خالصا للعمل

والفعالية لتنمية العقل، وتقوية الإدراك، وتفعيل الطاقة الذهنية . وتزوده بالمعارف المناسبة والمختلفة كالحساب والفقهاء. حيث تصبح المعلومات المقدمة للطفل جزءا من شخصيته.

- حلقة الدرس، حيث يجلس المعلم ويتجمع حوله مجموعة من التلاميذ، ولم

يكن المعلم يستند إلى نص مكتوب، بل يعتمد هو الآخر على ذاكرته في إلقاء

دروسه في المعارف الدينية واللغوية، بدءا بحفظ القرآن الكريم ثم يلقنه الإيمان وتعليمه الكتابة والحساب لأنه ينمي الملكة الفكرية والذكاء²، وحفظ الأشعار

الإعراب وشيئا من التصريف، والأنساب وشيء من الطب³، ودراسة الآجرومية في النحو، ومتن ابن عاشر في العقائد والفرائض . فإذا ما استوعبها انتقل إلى

دراسة القطر لابن هشام، والرسالة لأبي زيد القيروان، ثم ينتقل بعد ذلك إلى دراسة الألفية ولامية الأفعال لابن مالك، ومختصر خليل. وربما درس السيرة النبوية وشيئا

من البلاغة والمنطق، ولا يفرد نفسه ببعض العلوم فيكون إنساناً فيما يعلم وبهيمه فيما لا يعلم¹. وبذلك ينهي الطالب دراسته ويصبح الطالب مؤهلاً لأن يطلق عليه

اسم (العالم)، فمن الطلبة من يقف عند هذا الحد، ويعود إلى عشيرته فتنلقاه بالحفاوة والترحاب، وتقام له الحفلات، وينصب إماماً لها وقاضياً ومفتياً. يلجأ إليه السكان

في قضايا دينهم، وفي الخصومات بينهم، وعقد الزواج . ومن الطلبة من كان

يوصل مسيرة البحث عن المعرفة، فينتقل إلى أقرب مورد لها، وهو بالنسبة لهذه

¹ - المدارس والكتاتيب القرآنية - وفتات تربوية وإدارية، مؤسسة المنتدى الإسلامي، الرياض، 1417 هـ، ص 26.

² - عمار طالبي، آراء ابن العربي الكلامية، ج1، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط2، 1981، ص. 230. وأيضا: يوسف إبراهيم العريني، الحياة العلمية بالأندلس في عصر الموحدين، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط. 1، 1995، ص. 89.

³ - سعيد أعراب، مصدر سابق، ص. 159 .

¹ - المصدر نفسه، ص. 159 .

المنطقة أمتعة القرويين بفاس، أو ينتقل إلى جامع الزيتونة بتونس، ومنهم من كان
يشد الرحال إلى جامع الأزهر الشريف¹.

يتعلم المحضري * في بداية مشواره الحروف الهجائية مع حفظ (جماعة)
الحروف التي تحمل النقط، والتي لا تحملها بطريقة بسيطة ورائعة (ألف ما
ينقطشي والباء وحدة من تحت...)².

أسلوب المعلم في تعليم أبجدية اللغة العربية ³		
الحرف	النطق	طريقة التحفيظ للترسيخ في ذهن التلميذ
أ	ألف	لا شان علي ه (بمعنى لا ينقط)
ب	باء	نقطة من تحت (أسفل)
ت	تاء	اثنين من فوق
ث	ثاء	ثلاثة من فوق
ج	جيم	نقطة من تحت
ح	حاء	لا شان علي ه
خ	حاء	نقطة من فوق
ل	لام	لا شان عليه

¹ - موقع الإمام عبد الحميد بن باديس.

* التلميذ في الكتاب.

³ مصطفى زاي، المحددات الثقافية للشخصية الجزائرية خلال الثورة التحريرية (1954-1962)،
رسالة دكتوراه الدولة في علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم الاجتماع، الجزائر ،
ص ص 125-129 .

بعد انتهاء التلميذ من حفظها كاملة يكتب له الفقيه كلمتين أو ثلاثا من سورة الفاتحة، ويحثه على إظهار الحروف بشكل جيد حتى يتأكد بأنه ضبطها . وبعدها يقوم بتوجيه الطالب إلى مواطن الوقف ، وإلى الطريقة الأمثل في الكتابة وإمساك القلم، وهكذا إلى أن يصبح بمقدوره كتابة اللوح بنفسه ¹ وبدون خطأ. فيذهب المحضري إلى زاوية من زوايا الكتاب ليعكف على حفظ لوحه عن ظهر قلب. وفي صبيحة اليوم التالي يستظهر "اللوح"²، ويُسمح له بغسلها³ بالماء والصلصال، وعندما تجف يقوم بتسطيرها استعدادا لكتابتها بالصمغ وقلم من قصب. ولا يسمح للتلميذ بغسل اللوح إلا إذا حفظ ما يحويه عن ظهر قلب، ويكون التوبيخ والعقاب "الفلقة" والغلظة والشدة والردع⁴* لمن تقاعس عن الحضور أو تأخر في الحفظ ¹. فيسطو به القهر ويُحمل على الكذب والخبث².

يعقب محمد لمقامي على هذه الطريقة قائلاً: "وأثناء قراءتنا على الواحنا

المصنوعة من الخشب، كان لزاما علينا أن نقرأ جهرا ليسمعنا الطالب ويقيّم

¹ - تعتمد الكتابة في اللوح على عنصرين أساسيين: فكري وعضلي، فالعنصر الفكري: يتجلى بتوجيه انتباه الطفل إلى شكل الحرف فينظر بدقة ليدرك شكله وحجمه حتى يستطيع محاكاته بسهولة، والعنصر العضلي: بعد التأمل في الحرف يحتاج إلى عدة حركات يشترك فيها الساعد ومفصل الكتف والأصابع، ويبدأ المعلم في تعليم الصبي متبعاً قاعدة: الانتقال من السهل إلى الصعب، ومن الجزء إلى الكل. أنظر: د. أحمد عبد الغني الجمل، تجارب دولية لتحفيظ القرآن الكريم - تجربة مصر، الكويت، 1995، ص 58.

² - يكون اللوح من الخشب، غالباً ما يكون واسع الحجم سالماً من الثغرات والشق أملس الوجه مستطيل الشكل واسع الأفق ضيقاً من الأسفل كي ينسجم مع وضعه في حجر صاحبه، لأن طلاب الكتاتيب القرآنية في عمالة وهران يجلسون على الحصير طوال دوامهم فيه. أنظر: أحمد الأزرق، مرجع سابق، ص 33.

³ - يكون اللوح من الخشب، وغالباً ما يكون واسع الحجم سالماً من الثغرات والشق أملس الوجه مستطيل الشكل واسع الأفق ضيقاً من الأسفل كي ينسجم مع وضعه في حجر صاحبه، لأن طلاب الكتاتيب القرآنية في عمالة وهران يجلسون على الحصير طوال دوامهم فيه. أنظر: أحمد الأزرق، مرجع سابق، ص 33.

⁴ - عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص 1244.

* استعان معلمو الكتاب بقضبان الزيتون والبرقوق والتفاح وبعض أشجار الغابة في ضرب التلاميذ، وكانوا يتجنبون الأماكن المؤدية مثل الرأس والوجه والصدر والبطن. ويراعون في ذلك سن الطفل وعدد تكرار مرات الخطأ كي لا يعتاد التلميذ على الضرب ويتبدل إحساسه. أنظر: الطالب عبد الرحمن بن أحمد التجاني، مرجع سابق، ص 27. وأيضاً: المدارس والكتاتيب القرآنية، مرجع سابق، ص 116.

¹ - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 201.

² - عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص 1243.

مجهودنا. وبمجرد ما يتغيب قليلاً يُضربَ بنا المثل "إذا غاب الطالب تعمل المحاضرة (تلاميذ الكتاب) ما في رايها"¹. وقد قدّم أحد الغربيين قدم بحثاً إلى إحدى الجامعات الأمريكية يثبت فيه أن قراءة أي عبارة بنعمة معينة يثبت الحفظ ، وبذلك فإن قراءة القرآن بنعمة محببة، منضبطة بأحكام التجويد تسهل الحفظ ، وبالتالي استعادة المحفوظ ، فعندما تنقص كلمة من الآية سهواً فإن اللسان والأذن اللتان تعودتا على تلك النعمة لا تتقبل الخطأ². قال النبي ﷺ: "ما أذن الله بشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به"³. ومن هذا المنطلق فإن المحفظ كان يحيي روح المنافسة بين طلبته، لأن البحوث التربوية أثبتت أن المنافسة تُعوّدُ الطفل على الاعتماد على النفس دون أن ينسى في الوقت نفسه جهود غيره⁴ - مع تقديم الثناء الحسن للطالب المجتهد مما يشجعه ذلك على الاستمرار في إتقان عمله - لأن التنافس الحاد ينمي عند الطالب الجرأة والمثابرة والانتباه، وتجعله لا يتخلف عن الحفظ، ولا يتعرض للوَمِّ وعقاب الفقيه. ومع نهاية كل حصة يعلم الفقيه تلاميذه بعض الآداب الإسلامية والشيم الحميدة والأخلاق الفاضلة لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَكِيمٍ﴾¹ وينصحهم باحترام الوالدين وكل كبير . وعند مساء كل يوم أربعاء ينصرف التلاميذ للغذاء، ثم يعودون بعد صلاة الظهر . يقول محمد لمقامي كان: "آباؤنا يعطوننا دراهم معدودات نضعها في يد الفقيه عندما نسلّم على رأسه، ومما يلاحظ هو أنه لم يتغيّب في ذلك اليوم. وكان يطلب من التلاميذ بانتظام وبالتناوب أن يجيئوه بالقهوة أو الشاي. ولكسب رضاه كانت الأمهات غالباً ما يحضرن له

1 - محمد لمقامي، مصدر سابق ، ص 19.

2 - حسن قاري محمد سعيد، الوسائل التعليمية طريقة للإبداع في تحفيظ القرآن، موقع:

www.dawahmemo.com

3 - حديث شريف.

4 - وسيلة بلعيد ، الإجازة على تعليم القرآن من كتاب النوازل للبرزبي، كلية الدعوة الإسلامية ، 1993 ، ص 25.

1 - سورة ن، آية، 4.

خبزة من السميد بالزبدة. ومع مرور الأيام كان المعلم يحسن من تقع عليه عيناه" ¹.
ويكون كل أيام الأسبوع للدرس ما عدا النصف الثاني من يوم الخميس ويوم
الجمعة². وفي كل صيف يخرج التلاميذ إلى أزقة القرية في ثياب نظيفة ومعهم لوح
وهم يرددون نشيدهم المفضل (بيضة بيضة لله باش نزوق لُوحتي عند الطالب...) ،
ويتلون شعرا مفاده مدح الفقيه والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم والرضي
عن أصحابه³. فيمدهم السكان كل حسب استطاعته. وعندما يختم التلميذ القرآن، يقيم
أهله وليمة تسمى "الختمة" أو " السلكة" على شرف سكان البلدة والفقهاء الذين
يختبرونه في مواطن عدة من القرآن الكريم، وفي المساء يخرجون في جو روحاني
يمتطي فيه العريس الجواد، يتقدمه الفقهاء الذين ينقسمون إلى طائفتين، فتقرأ الأولى
آية والثانية الآية الموالية والنساء في الخلف يزغردن بين الفينة والأخرى. وفي
الليل بعد وجبة العشاء يدعو كبير الفقهاء للعريس ولكل حملة وطلاب القرآن
ولجميع الأمة الإسلامية بالخير والنجاح، ومنذ ذلك اليوم يسجل العريس في لائحة
الفقهاء.

إن اعترافنا بالفروق الفردية¹ الدقيقة المتمثلة في حواسهم وتكوينهم العقلي،
ودرجة التحمل²، والتلقي، والحفظ (لا يتعلمون بنفس السرعة وبنفس الدرجة³)،
والفهم⁴، ووسطهم المعيشي، وطباعهم وعاداتهم، وفيما ورثوه من دوافع فطرية وما
اكتسبوه من ثقافات ومهارات مختلفة. سندرك لا محالة أن لكل فرد طابعا يميزه عن

1 - محمد لمقامي، مصدر سابق ، ص ص 19-32.

2 - محمد منير، التربية الإسلامية وأصولها وتطورها، مرجع سابق، 234.

3 - محمد لمقامي، مصدر سابق ، ص 28.

1 - عبد المؤمن يعقوبي، أسس بناء الفعل الديداكتيكي، من بيداغوجية الأهداف إلى بيداغوجية التقييم
والدعم، 1996، الجزائر، ص 26.

2 - Hoppenstedt.E. A Teacher's Guide To Class room Management. Illinois:
Charles C. Thomas Publishers. 1991. P: 80.

3 - عبد الفتاح أبو غدة، الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم وأساليبه في التعليم، مكتب المطبوعات
الإسلامية ، حلب، ط 1، 1417هـ ، ص ص 81-91.

4 - Charles . C. Thomas. Op. Cit. P: 80.

الآخرين، وأن المتعلم عندما يدخل الكتاب يحمل معه أفكارا تربي عليها ونمى بها من الصعب عليه التخلي عليها بسهولة. لهذا من الضروري كي تتجح العملية التعليمية، علينا أن نراعي كل الجوانب النفسية والمعرفية والاجتماعية لهذا المتعلم. أباح ابن خلدون استخدام هذه الطرق التي تناسب المعلم إلا أنه حَبَّذَ استخدام طريقة المناقشة¹. فكلما لجأ المعلم إلى اختيار طريقة أو أكثر من طرق التدريس التي تختلف باختلاف المواد، وقد تختلف في نفس المادة، يكون هناك استيعاب أكثر للمتعلمين، ويزيد دور التلميذ الإيجابي في الموقف التعليمي فيزيد التعلم وتزداد كفاءة العملية التعليمية، ويقل دور المعلم الدكاتوري المهيمن على الموقف التعليمي. وهذا ما يؤكد من درس بالكتاتيب القرآنية التي لم يحسن شيوخها في كثير من الأحيان معاملة التلميذ ومصانعه². لأنها كانت غالبا ما تنفر التلميذ من مواصلة دراسته فيها، وتدفعه إلى انتحال الأسباب للتغيب وصولا إلى العصيان والامتناع عندما يجبر على ولوجها لأن طرق التعليم بها جافة ومملة وخالية من كل تشويق. فالتلميذ لم يكن يفهم ما يحفظ، ولا يتفاعل مع القصص القرآنية والأساليب البلاغية. وقد يبقى بها سنوات قد تطول وقد تقصر، ثم يتخرج منها في الغالب بلا طائل، فهو لا يستطيع مثلا قراءة جريدة أو مجلة إذا لم تكن مشكولة، وإذا استطاع قراءتها فهو لا يعي مضمونها¹. ذلك لأنهم لم يدركوا مراحل نموه وحاجاته الفسيولوجية، أو العقلية، أو العاطفية، أو الاجتماعية²، أو النفسية والفكرية أو غير ذلك نتيجة لعدم وجود أنشطة مختلفة وبرامج تربوية وعلمية معدة إعدادا جيدا، وغير متسمة بالشمول والتوازن وحسن العرض³.

1 - أحمد لطفي، في الفكر التربوي الإسلامي، دار المريخ، الرياض، 1982، ص 105.

2 - أحمد الأزرق، مرجع سابق، ص 72-73.

1 - الطالب عبد الرحمن بن أحمد التيجاني، مرجع سابق، ص 74.

2 - المدارس والكتاتيب القرآنية، مرجع سابق، ص 20.

3 - المرجع نفسه، ص 116.

لم يكن معلو الكتاتيب بهذه القسوة لأن هناك مجموعة من الشروط الإيجابية جعلتهم يدعمون التلميذ في وضعية التعلم:

- الإهتمام بالتلميذ والتعرف على حالته الخاصة كظروفه الشخصية

ومرضه، فن وجد المعلم لديه ضائقة مالية، سعى لأن يكون الوسيط بينه وبين أهل الخير، لعله يقدم له بعض المساعدة التي تجعله يشعر بأن هناك من يدرك معاناته ويشاركه آلامه. وإن غاب طالب ملازم للكتاب "زائدا عن العادة سال عنه، وعن أحواله وعن من يتعقب بهن فإن لم يخبر عنه بشيء أرسل إليه، أو قصد مزله بنفسه.. فإن كان مريضا عاده، وإن كان في غم خفض عليه... وإن كان فيما يحتاج إليه فيه أعانه، وإن لم يكن شيء من ذلك تودد إليه ودعا له"¹.

- مكافأته وتشجيعه تجاه ما يرغب تعلمه، وكان المعلم غالبا ما ينصحه

ويوجهه لما يناسبه حين يبدع في علم دون غيره، لما روي عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: "إني أكتب إلى قوم، فأخاف أن يزيدوا علي وينقصوا، فتعلم السريانية، فتعلمتها في سبعة عشر يوما"².

- لم تقتصر سلطة المعلم داخل الكتاب القرآني، بل تمتد إلى المجتمع وبيوت

تلاميذه، فكان التلميذ إذا اقترف ذنبا أو شيئا غير متعارف عليه اجتماعيا، يهدد من لدن الوالدين أو عموم الناس بإخبار الفقيه بسلوكه، وبذلك تحصل الخشية من أن تصل تلك الأخبار الفقيه فتوقيره واحترامه والاستحياء منه يبقى على طول الحياة... لأن من السمات التي يتميز بها خبرته بنفسيات تلاميذه، فكل تلميذ علاجه الخاص، فالبعض لا يصلح معه التهديد بل الضرب، والبعض الآخر يحتاج إلى الترغيب ومنهم المطيع تلقائيا...

¹ - محمد بن إبراهيم بن جماعة، تذكرة السامع والمتعلم في أدب العالم والمتعلم، دار الكتب العلمية، ديت، ص ص 61-63.

² - حديث شريف.

ب - الزوايا:

1 - الوظيفة الاجتماعية للزوايا: اعتبرت الزاوية أو الرباط على مرّ الزمن

مركزا لتحقيق الغرض التعليمي الذي أنشئت من أجله¹ المتمثل في حفظ القرآن، والتأليف، والنسخ، والنقل، وإحياء الأجواء الاحتفالية والمناسبات والزيارات² كالمولد النبوي الشريف، ووفاة النبي ﷺ، وليلة القدر، والإسراء والمعراج، وعاشوراء، وعيد الفطر وعيد الأضحى³ وختم البخاري، والاحتفالات الخاصة بموسم الحج وإلقاء القصائد والمقطعات والموشحات في مح مد ﷺ، خصوصا برده الإمام البوصيري وهمزيته⁴. يأتون إليها بأعداد كبيرة من بعيد إلى أن تحولت إلى "مشروع اجتماعي اشترك فيه كل السكان... إنه مشروع حضاري بآتم معنى الكلمة. وقد شهد الباحثون الأجانب على أن كل سكان كل قرية كانوا يتنافسون على تكون زاويتهم أجمل وأنظفها... ولذلك انشئوا لتلك الزوايا نظاما تعليميا دقيقا تعجز عنه بعض الوزارات في الأنظمة الأخرى"⁵.

حوّلت الزاوية إلى سلاح لا تقل خطورته عن البندقية¹ باعتباره مؤسسة اجتماعية، أو "مؤسسات جيش الخلاص"² قريبة من الواقع المعيش، ومهياة للاستقرار النفسي والخلقي لمريديها. تؤدي خدمات متعددة وحيوية مميزة بفضل مكانتها المقدسة ومواردها الاقتصادية. تجذب المريدين وتدعوهم للانخراط في

¹ - حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين (صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى)، دار الكتاب الحديث، ط2، بيروت 1996، ص 128.

² - أحمد التوفيق، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850 - 1912)، البيضاء، منشورات كلية الآداب الرباط، 1978، ص 92.

³ - www. chihab. net.

⁴ - Abderrahmane Moussaoui. Logique de Sacré et Mode d'Organisation de l'espace dans le Sud Ouest. URASC. Université d'Oran. P:132.

⁵ - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، مرجع سابق، ص1

¹ - Ch. R. Ageron. Les Algériens musulmans et la France (1871-1919). Paris. P.U.F. 1968. T2. P: 1062.

² - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، سلا، المغرب، 1989، ص 125.

صفوفها، وتجمع فيها الصدقات والأموال" ¹ والثروات**، وزكاة القمح والشعير والذرة والزيارات المتمثلة في التين والزيتون والزبيب والعسل والدجاج والماعز ²، وتبرعات المسافرين ³ الذين ينزلون بها، والهدايا ⁴ التي يقدمها المريدون عند زيارة شيخ أو مقدم الزاوية،

والقرايين ⁵ والمحاصيل الناتجة عن القطيع والعقارات ⁶ المحبسة عليها ⁷ التي تستثمرها للوفاء بهذه الالتزامات ولتغطية الخدمات المجانية، الخاصة بالقاصدين ⁸ من الطلبة والفقراء والمساكين وأبناء السبيل ¹. لذا أضحي الإطعام ملازما لها وميزة عامة لحياة روادها وسلوكا صوفيا يحتذي به المريد بعد شيخه، حتى بلغ الأمر درجة اعتبر فيها الإطعام رمزا لكرامة صاحبها، ² تمنحه سلطة رمزية بسبب كثرة المستفيدين منه وقلة المتوفر من الطعام، خصوصا في مجتمعات عانت من النقص

¹ - www. chihab. net.

* اعتبرت فرنسا منافسا جباثيا خطيرا يهدد مصالحها لأنها قناة موازية لجمع الضرائب.

* إن ما استجمعه الزاوي من الثروات كانت في أغلبها مستخلصة من أدوارها السياسية والدينية.

² - Alfred Bel. Coup d'œil sur l'Islam en Berbérie. revue des religions. Jan-Fév 1917. Angers imprimeur et autres. Paris. P:28

³ - بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماري خيسوس، تقديم محمود بوعياض، الجزائر، 1981، ص 413.

⁴ - أميدة عمر اوي، بحوث تاريخية، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، 2006، ص 102.

⁵ - ذبح شاة، أو تقديم مبلغا ماليا عرفانا وشكرا للولي على قدرته على الشفاء.

⁶ - كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية 1996، ص 111.

⁷ - أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الإحتلال)، ط 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص 164.

⁸ - محمد مفتاح، مقارنة وظيفية، مكتبة الرشاد، ط 1، 1997، ص 33.

¹ - عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني، وانتشار طريقته، دار الهدى، عين مليلة، 2008، ص 286.

² - محمد السوسي الإفرائي، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، ط.ج، د.ت، ص 199.

2 - وظيفة القضاء: تعتبر الزاوية البقعة الطاهرة، حرماً، وملاذاً، وملجأ،

ومأوى قار ودافئ لكل معتصم¹ من مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية المهمشة التي تعاني من إكراهات الوسط الاجتماعي مثل المطاردين قانونياً مهما كانت جريمتهم²، والفارين من الأعداء، ومن العقوبات الثقيلة المفروضة عليهم. أو الفقراء والمساكين والمعوقين والأرامل والأيتام. ونزلاً لعابري السبيل والمحتاجين³ والعجزة والغرباء. وملاذاً للمظلومين والمقهورين، يجدون فيها الأمن والحماية⁴، والقوة التي تنصرهم على الشر وترجع لهم الحق المهضوم، وقبله لفض الصراعات والتناحرات القبلية والسياسية، والخلافات⁵* سواء مع ممثلي السلطة أو في قضايا ذات الطبيعة التجارية والأحوال الشخصية وقضايا الجنايات والخلافات على الأراضي، وإصلاح ذات البين بين الناس وإطفاء نار الفتن وحقق الدماء وتألّف بين القلوب المتنافرة⁶. وقد أثارت هذه الوظائف، التي بقدر ما كانت تعبر عن أدوار محددة بقدر ما كانت تخفي في طياتها أسرار تطور الزاوية وتفاعلها مع المجتمع والسلطة على حد سواء، انتباه الكاتب الفرنسي "ليهرو ليون" الذي أكد بأنها كانت لها كلمة مسموعة وقرارات نافذة¹.

تقوم وظيفة التحكيم والاحتماء بهذه المؤسسات التقليدية على مبدأ المسالمة، الذي ميز نشاط الولي وقناعة المتنازعين في الاعتراف له بهذه الصفة التي منحتة قدراً كبيراً من الجرأة المتمثلة في سلطة الرقابة (الدينية والأخلاقية والسياسية) وحق

1 - أحمد التوفيق، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، 92.

2 - كورين شوفالييه، مرجع سابق، ص 87.

3 - جريدة المساء، عدد 2174، 2013/10/05.

4 - Jean-Paul Charny. Sociologie Religieuse de l'islam. Editions Sindibad. 1977. P: 232.

5 - أحمد التوفيق إينولتان، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط2، 1983، ص 368.

* انتزعت الثورة الجزائرية هذه السلطة من الزوايا.

6 - محمد مفتاح، الخطاب الصوفي، مرجع سابق، ص 5.

1 - عبد القادر نور الدين، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965، ص 68.

المعارضة ضد جور العمال وتناول القواد على حقوق الناس عبر سلطتهم الروحية وبأسلوبهم الخاص والمتمثل في الكرامات والمناقب التي رأى فيها الكثير نوعا من المكاشفة في أمور الدنيا، وهو ما يزكي في الغالب رأيه ويجعل كل الأطراف تقبل وترضى بأحكامه. وهي في منظور أصحابها كرامات ظاهرة تسهل حل ما استعصى حله بطرق سلمية وبحكمة ربانية، وهو ما يمثل عنوان بركة الولي الخفية ومفتاح توفيقه.

إن وظيفة التحكيم هي من الوظائف التي استوقفت نظر الأنثروبولوجيين، مما جعلهم يعملون على تشخيصها وضبط آلياتها إلى حد اعتبارها الوظيفة الأكثر فاعلية في أدوار الزاوية، باعتبار أثرها السياسي والمكاسب المترتبة عليه من حيث فرص الامتداد واكتناز المزيد من الرساميل الرمزية ضمن مجالات نفوذ الزوايا¹. إن واقع الحال أحيانا، لم يكن ليقصي المرابط ومؤسسته الدينية من المغامرة السياسية أو الانحياز، وهذا ما يضع مسألة حياد المرابط موضع الشك والتساؤل. فقد أثبتت التجارب² تورط العديد من شيوخ الزوايا في مغامرات سياسية من أجل تثبيت سلطة زواياهم الدنيوية وسعيهم لتحويل رأسمالها الرمزي إلى فعل سياسي مؤسس ضمن مستويين اثنين:

أ - محلي: يتمثل في نشاط الولي لتكوين شبكة من الموالين والأتباع، يلتزمون بالحياد¹ إزاء الصراعات المحلية لكسب الأنصار. وفيه يكون التحكيم من أهم الوظائف التي يباشرونها، وتشكل المسالمة أبرز سمات الصلاح.

ب - جهوي أو وطني: يخوض فيه الولي مغامرة على نطاق واسع، حيث يتم

¹ - موقع ديوان أصدقاء المغرب، الزوايا في المغرب - تعريفها...نشأتها...وظائفها.

² - A. Laroui. Les origines sociales et culturelles du Nationalisme Marocain. Op. Cit. P: 141.

¹ - A. Laroui. Les origines sociales et culturelles du Nationalisme Marocain. Op. Cit. P: 141.

التخلي عن وظيفة التحكيم التي تصبح ثانوية¹. ويعزو هذا التحول إلى الالتباس الموجود بين القداسة والسياسية، الذي يستغله المرابط استغلالا ذكيا، يجعله يباشر الدعوة ليخوض بعد ذلك مغامرة النفوذ والسلطة. وبالتالي تبدو وظيفة التحكيم المبني على قاعدة الحياد أمرا نسبيا، بل هناك من جردها حتى من طابعها الرمزي المعترف به من المجتمع وجعلها مجرد استعانة، إما من جهة من جهة القبائل السلطة أو من جهة الإدارة الاستعمارية².

من الواضح أن السلطات الفرنسية كان على وعي تام بهذه المقايضة المربحة للطرفين، كما أنه كانت حريصة على جعلها مسترسلة ودائمة من خلال إكساب الزاوية المزيد من الامتيازات والحقوق المكتسبة بموازاة مع استمرار ولاء الزاوية وأدائها الناجح للأدوار المحددة، سواء كانت مؤقتة أو مهام ذات صفة دبلوماسية كتعيين بعض شيخ الزوايا في مهام رسمية³.

3 - الوظيفة السياسية: انتهت الزاوية الجزائرية عبر تطور وظائفها المختلفة، إلى أن تصبح مكونا ضروريا في توازن المجتمع الجزائري المحكوم بهاجس الأوهام والإيمان الخادع المعطل¹، والتبرك و"الزيارة" وجاذبية الشيخ وطقوس العطاءات المادية و الرابطة الروحي والأخلاقي والقدسي التي تمتع به المرابطون ، وحاجيات العيش. وما تنتشده السلطة الفرنسية من استقرار سياسي واجتماعي مما سيجعل الأدوار السياسية للزوايا تظل مطلوبة بكل ملابساتها المختلفة، وتبدو وكأنها أشبه

¹ - عبد الله الحمودي " الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة : ملاحظات حول أطروحات كلنير"، ضمن "الأنثروبولوجيا والتاريخ"، سابق الذكر، ص 75.

² - Abdallah Laroui. Les Origines Sociales et Culturelles du nationalisme Marocaine.Op. Cit. P:141.

³ - موقع ديوان أصدقاء المغرب، مرجع سابق.

¹ - Ali Merad. le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940. Edit. EL Hikma. 2^{ème} édition. Alger. 1999. P:36.

بالأحزاب السياسية¹ بلبوس آخر تحول فيه المریدون إلى مناضلين * من أجل حق معلوم؟، ومزيجا عجيبا يكتنز تراثا صوفيا وأداة سياسية² تعززها مبررات التقديس الروحية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية. وتمثل الوسيط بين الحاكم والقاعدة من الأهالي، لدرجة أنها أصبحت في الاعتقاد الشعبي بمختلف مناطق عمالة وهران سلطة لا تتازعها في ممارستها أي سلطة أخرى مهما كان وزنها أو تأثيرها . كما أثبتت الممارسة أنها صارت "مشروع دولة مثالية دائم الوجود"³ أو "دولة في دولة" أو "تمثل حقيقي للنظام القبلي" أو "كيانات سياسية تمارس العرف في غياب سلطة الشرع"⁴، أعطى لدور الصوفي تشكيلا متجددا وجعل من مؤسسته مكونا من مكونات الدولة. تتطور بتطورها وتتميز بتراجعها، وهو ما أفضى في النهاية إلى حاجة الإدارة الفرنسية لهذا الجهاز الذي يمثل الوسيط بين الحاكم والقاعدة من الأهالي⁵، وحاجة هذه الأخيرة - الزاوية - للإدارة الفرنسية، وهي العلاقة التي تأصلت وتفتت حسب منظور كل طرف للآخر، فيما يبدو أنه تنافس مبطن حول المشروعية الرمزية لتمثل الزعامة داخل الجماعة. لكن في المقابل، يمكن النظر إلى ذلك من زاوية تبادل الأدوار: فالجهاز الصوفي يكمل الأداء السياسي فيما يضمن هذا الأخير للثاني سبل الاستمرارية وآليات الامتداد .

بفضل ذلك تمتع المجتمع الجزائري في ظلها بمساحة من الاطمئنان والعدل،

¹ - محمد العربي، مؤسسة الزاوية، مجلة أعمال الملتقى الأول والثاني لدور الطرق الصوفية، مرجع سابق، ص 55.

* أكد الفكون بأن من أراد أن يعرف أحدا من أي حزب "طريقة" هو فليستحلفه، لأن المرید سيحلف بشيخه سيدي فلان. أنظر: A. Cherbonneau. Inscription arabes de la province de Constantine et de Tunis. annuaire de la société archéologique de la province de Constantine (1856-1857). Bastide et Arnolet. Libraire-éditeur. Constantine. 1858. P: 162

² - مجلة أبحاث، عدد 9 - 10، 1986

³ - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، سلا، مرجع سابق، 1989، ص 125

⁴ - موقع ديوان أصدقاء المغرب، مرجع سابق.

⁵ - عبد الله حمودي، الشيخ والمرید: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، تر: عبد المجيد جحفة، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2000، ص 25.

والاستقرار النفسي والخلقي والملاذ الأخير¹. واتخذ من شيوخها قادة له بدلا من الحكام المدنيين وقضاتهم الرسميين² في المشهد السياسي والفكري خاصة في الريف³، وتميزوا بنفوذ وقوة تفرض نفسها وإرادتها⁴، وسلطة سياسية خرجت من أحشاء هذا المجتمع تخطت في الكثير من الأحيان شيوخ القبائل والأسر العريقة، والسلطات الفرنسية⁵. فآثاروا الحماس والعاطفة الدينية، باسم التأييد الإلهي، فاحضروا الثورة والثوار والزعماء السياسيين⁶، وجندوا الأتباع، وآووا وأمدوا المجاهدين بالسلاح في العديد من مناطق الغرب الجزائري، ونظموا وخاضوا المعارك وشكلوا أرضية خصبة لرفض الأجنبي⁷ للدفاع عن الهوية الوطنية وقيم المجتمع الجزائري باعتبارهم قنوات للتعبير عن عدم رضا القوة الاجتماعية الريفية والحضرية المناهضة للاستعمار الفرنسي الذي قضى على معظم المدارس التي كانت في المدن والقرى⁸. "لأنه كما قال الشيخ الإبراهيمي: "لا يعرف علما ولا قانونا لأنه لا دين له ولا ضمير"⁹.

4 - الوظيفة الدينية والعلمية : كانت الزاوية في الأصل مركز للتعليم

والوعظ، وشكل من أشكال محاربة الجهل والأمية ووسيلة من وسائل نشر العلم والمعرفة، "بالحراسة الدائمة للقيم والمشروعات العليا الأمة، والرقابة المستمرة لها

¹ - Youssef Nacib. Chants religieux du Djurdjura. Sinbad. Paris. 1988. P: 21.

² - يحيى بوعزيز، ثورات القرن 19 و20، مرجع سابق، ص 346.

³ - إيفون تريان، مرجع سابق، ص 129.

⁴ - Charles Brosselard. les Khouanes: de la constitution des ordres religieux en Algérie. Imprimerie de A. Bourget. Alger. 1952. P: 5.

⁵ - المرجع نفسه، ص 356.

⁶ - يحيى بوعزيز، ثورة محمد المقراني والشيخ ابن الحداد، مجلة الأصالة، العدد 2، الجزائر، ماي 1971، ص ص 22-29.

⁷ - Jaques Berque . L'intérieur du Maghreb 15ème 19ème siècles. bibliothèque des histoires. éditions Gallimard. France. 1978. P: 48.

⁸ - Yvonne Turin. Op. Cit. P: 129.

⁹ - محمد البشير الإبراهيمي، البصائر، مصدر سابق، العدد 69، ص 1.

وزيادة فاعليتها وتفعيلها"¹ وحماية التراث الإسلامي من النسيان والضياع، وجماد واقية لمقاومة التصير في الجزائر. خاصة وأن المجتمع كان في وضعية منحطة في مجال التعليم. وقد عرفت الزوايا نوعين من التعليم:

أ - **التعليم الشعبي**: يتمثل في تعليم الفئات الشعبية المبادئ العامة لدينهم، وإفتائهم في الحلال والحرام اعتماداً على دروس الفقه²، وأصول الدين، والسيرة النبوية، والحديث النبوي الشريف، والتفسير.

ب - **التعليم القرآني**: وهو التعليم الموجه إلى النشء بهدف تعليمهم الكتابة والقراءة، وتحفيظهم القرآن الكريم كاملاً أو ما تيسر منه، والإلمام بقواعد اللغة العربية، وتعليمهم الصلاة³ والصوم اعتماداً على ما تيسر من علوم اللغة والنحو ومبادئ الحساب والأحكام الشرعية لتمييز الحلال والحرام من أمور الدين.

كان التعليم في الزوايا مقسم إلى:

المرحلة الأولى: يهدف إلى تحفيظ النشء القرآن الموجه، وتعليم وتلقينهم

كتابة الحروف الهجائية، وحركاتها⁴، والقراءة، والإلمام بالرسم القرآني وقواعد اللغة، ومبادئ الشريعة، والنحو والحساب. وكانت فترة الدراسة صباحاً مع طلوع

الفجر، يقسم فيها التلاميذ إلى مجموعتين: المجموعة الأولى تخص الصغار، يشرف عليهم المعلم بنفسه، أو يختار لهم مساعداً من تلاميذه النجباء¹. أما المجموعة الثانية وهم الأطفال الكبار فيشكلون حلقة، وتبدأ عملية الكتابة على اللوح ثم الحفظ صباحاً ومساءً (رسماً وضبطاً). يحفظون فاتحة الكتاب فسورة الناس، فسورة الفلق، ولا

يزالون يوالون حفظ سور القرآن الكريم إمتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

¹ - محمد توفيق محمد سعد، فقه تغيير المنكر، سلسلة مجلة الأمة القطرية، العدد، 41، السنة، 1995، ص 37.

² - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، مرجع سابق، ص 174.

³ - محمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، ط 1، دار هومة، الجزائر، 2007، ص 67.

⁴ - السعيد عقبة، جوانب من الحياة الفكرية، الملتقى الدولي الثاني للطريقة التيجانية حول الخطاب الصوفي التيجاني زمن العولمة، زاوية قمار، الوادي، 2008، ص 50.

¹ - المرجع نفسه، ص 75.

وَأَنَا لَهُ لَحَافِضُونَ»¹، ولقوله ﷺ "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"². وتتم هذه المرحلة

من سنة الخامسة إلى سن الثانية عشر. يتجمع الأطفال حيث تكتب الآيات والسور على الألواح الخشبية، وتتلّى بصورة فردية أو جماعية وبأصوات عالية. ومن المعلوم أن التركيز في هذه الفترة كان على تدريس القرآن الكريم. وهذا ما يؤكده ابن خلدون حين يقول: "إعلم أنّ أهل المغرب يقتصرون على تعليم القرآن فقط وما يتعلّق به من مسائل، ولا يخلطونه بغيره من العلوم الأخرى، فطريقتهم أقرب إلى طريقة أهل الأندلس"³. وتبدأ فترة الراحة من مساء يوم الأربعاء إلى الجمعة قبل صلاة المغرب. إضافة المواسم الدينية، وفترة الحصاد وجني المحاصيل بين شهري جوان و سبتمبر⁴.

المرحلة الثانية: ينتقل الطالب إلى حفظ متون مواد الأدب العربي، وفقه

اللغة، والنحو، والصرف، والبلاغة والعروض، والقوافي، وشواهد من كلام العرب، والخط، والسّير، والأخبار، والمنطق، والحساب، وأركان الإسلام، والفرائض وأصول الفقه⁵.

إنطلاقاً من قوله ﷺ "طلب العلم فريضة على كل مسلم"¹، بعد أن يختم المرید القرآن الكريم ختما يشرع في حفظ الحديث النبوي حيث يبدأ بحفظ الأربعين النووية أولاً، وبعد استظهارها ينتقل إلى حفظ غيرها من الأحاديث من موطأ الإمام مالك ومن صحيح البخاري ومسلم، وتتووع مواضيع هذه الأحاديث من أحاديث العقيدة وأحاديث العبادات وأحاديث الأحكام والأخلاق والسلوك وغيرها. وقد أشارت "إيفون تيران" إلى أن العلوم الضرورية الثلاث المتمثلة في القرآن والنحو والأجرومية

¹ - Jacque Berque. Le Maghreb entre deux guerres. le seuil. 1962. P: 46.

² - حديث شريف.

³ - عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص ص 594-595.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية، نموذج بلاد القبائل، نشر في:

International congress on Learning and éducation in the ottoman world.

Istanbul. 12-15 April 1999. P: 14

⁵ - عبد الجواس السقاط، الشعر الدلائلي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط 1، 1985، ص 48.

¹ - حديث شريف.

واللغة العربية، وما يلحق بها من الفقه وعلوم الدين والحساب وملخصات الطب لابن سينا وكتب ابن خلدون، ساعدت كلها على تطوير المهارات والممارسة الحرة للعقل¹. مما سيدمجها في النسق السني الذي يحرص الشيخ على جعله العلامة المميزة لعلمه وبركته وديمومة طريقته، وسعيه إلى حمايته وسلامة أتباعه فيما تبقى من الثقافة الوطنية التي تجمع قيمهم ومعتقداتهم وتراثهم الثقافي² الذي يتعرض للعنوان والانتقاص³. ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلها والتي نقف أمامها موقف المعترف لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية ولا لعلوم الدين⁴.

لعل من المجالات التي اهتمت بها مؤسسة الزوايا هي بالخصوص فئة طلبة العلم الشرعي⁵، وحثهم على الرحلة في طلب العلم وتحصيله لقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ صَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾⁶، وقوله ﷺ "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة"¹. لهذا سنجد شيخ الزاوية وأقرباؤه وأهالي القرية²، أكثر الناس حرصا على توفير ظروف ملائمة للطلبة، من إقامة ملائمة يحظون فيها برعاية فائقة، و مأكلا ومشرب وملبس ويستفيدون من مكتبة الزاوية التي تضم مخطوطات نادرة، وتوفير كل ما ينفعهم من أجل حسن دراستهم وتحصيلهم، وتكوينهم، حتى يصفوا لهم جو الاشتغال بالعلم وحده، ولا يكون لهم أي تشوف إلى هم الرزق، ومشاكل الدنيا المكدره لذهن الطلبة والمشوشة عليهم، فيجمعوا همهم وطاقتهم الخلاقة ليصرفوها في الإبداع، وكل

¹ - إيفون تيران، مرجع سابق، ص 133.

² - Ahmed Mehsas. le mouvement révolutionnaire en Algérie. Op. Cit. P: 220.

³ - أحمد محساس، مرجع سابق، ص ص 57-67.

⁴ - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 375.

⁵ - ساهموا في نشر التعليم الدواوير والبوادي والمناطق الجبلية البعيدة، ومن ثم كان لهم الفضل الكبير في الحفاظ على التراث الإسلامي في غياب إلزامية التعليم.

⁶ - سورة التوبة، آية 122.

¹ - حديث شريف.

² - محمد موهوب بن أحمد بن الحسين، قصة خنفة سيدي ناجي عبر أربعة قرون من تاريخها، دار الهدى، عين مليلة، ص 17.

ذلك من أجل أن يكونوا منارا ومشعلا ومصدرا لازدهار العلم والمعرفة¹. وتجديد الآمال².

برزت عدة زوايا اهتمت بهذا الشأن، والتي كانت تصرف الأموال الطائلة في التكفل بحاجيات الطلبة، من إعداد الطعام بدون مقابل، وصرف المرتبات للشيخوخ الذين يُدرّسون الطلبة، وغيرها من الأمور التي تجعل الطالب يُقبل بكليته على الدراسة. مع العلم أن إتمام الدراسة في هذه الزوايا كان غير محدد بسنوات معينة. فإذا انس الطالب من نفسه كفاءة استأذن شيخه في الانصراف ليقوم بدوره في نشر العلم، وأحيانا يكون ذلك بأمر من الشيخ عندما يلحظ أن الطالب أخذ ما يمكنه من القيام بدوره في خدمة الأمة. الأمر الذي سيساهم في نشر التعليم بمختلف أطواره في الحواضر والأرياف³، في مجتمع يوجد في أحط درجات التدهور⁴ وحتى بين رعاة البقر، وهذا دون كلل أو تعب. فكان لذلك تأثير في تقليص الفوارق التعليمية بين سكان المدن والقرى¹ في مرحلة كان الاستعمار الفرنسي يرفض ويهاب تعليم الأهالي لما يشكله من خطر على هيمنته².

يتولى التعليم شيخ الزاوية، وهو المعلم الأول صاحب سر و علم الطريقة، والدراية والنزاهة³، والسلوك و القدوة في العمل ومقصد المرید . يعمل باستمرار على تطوير أدائه وبلورة هذا الأداء في صورة تلقين مجسد لشخصيته الصوفية القائمة على سمات التسليم والبركة، وما يجسد في شخصه من مُثل النموذج الصالح لحياة الناس وكراماته ومناقبه دليل على رغبته في إصلاح الناس في أمور العلم

¹ - موقع مغرس، مصطفى بوزغيبية، الاهتمام الاجتماعي للصوفية المغاربة .

² - Jacque Berque. Le Maghreb entre deux guerres. Op. Cit. P: 45.

³ - Bel Alfred. Caractères et développement de l'Islam en Bérubérie et plus spécialement en Algérie. in histoire et historiens de l'Algérie. bibliothèque national. Alger. 1931. PP: 193.194.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، مرجع سابق، ص 155.

¹ - Yvonne Turin. Op. Cit. P: 129

² - Redouane Ainad Tabet. Op. Cit. P: 132.

³ - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 304.

والدين، والقيام بتعليم الناشئة وبث العلم في صدور الرجال المتعطشين لما يفيض عليهم من بحار علم شيخهم ليتخرج على يديه أجيال من الفقهاء والوعاظ والمرشدين الذين تبحروا في علم التجويد والقراءات و"الفقه والأصليين (العقائد وأصول الفقه) والتفسير وعلم الكلام والمعاني والبيان والسير واللغة وعلم الأنساب والأدب"¹ الذين لعبوا أدواراً رائدة في بث الأخلاق الفاضلة وإرشاد الأجيال والحفاظ على التراث وتلقيه للأجيال.

المرحلة الثالثة: يتم فيها التوسيع والتعميق في دراسة العلوم، ويتخصص الطلبة حسب ميولهم، خاصة في مادة الفقه والتشريع الإسلامي² وغيرهما من أنواع العلوم العقلية والنقلية، ليحصلوا في نهاية مطافهم التعليمي على الإجازة*.
إن الزاوية إلى جانب كونها عبارة عن مدارس تربوية وأخلاقية وتنقيفية، فقد كانت بمثابة حصون عسكرية تعمل على التسليح من أجل الجهاد في سبيل الله من الناحية العسكرية، وكذلك تسليح المجاهد من الناحية النفسية (الأفكار المشوشة¹ من المنظور الكولونيالي) بتصحيح حقيقة الإيمان وتقوية اليقين في الله تعالى، وتطهير النفس من التعلق بهاته الدار الفانية² لأن المسلم المرابط مطمئن القلب، سعادته في استقرار نفسه، وإيمانه بالله يدفعه إلى عدم اليأس والقنوط مهما كانت الابتلاءات التي يمر بها.

انطلاقاً من فكرة أن لكل مجتمع خرافاته وأساطيره وطقوسه الغامضة³، وكرامات يعتقد فيها ويتفاعل معها، يتراجع إلى الوراء ويشعر بالخوف وفق منطق

¹ - عبد الجواس السقاط، مرجع سابق، ص 48.

² - يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 498.

* شهادة ذات مُستَوَيَيْنِ صغرى وكبرى، تشهد على حسن أخلاق صاحبها، وضلوعه في علوم الدين والشريعة الغراء، يسمح له بعدها بالتدريس في المسجد أو الإفتاء أو القضاء.

¹ - J.L.L. L'enseignement élémentaire des indigènes en Algérie et la question des écoles coraniques in : A.F juillet 1938. P: 302.

² - المدارس والكتاتيب القرآنية، مرجع سابق، ص 26.

³ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، مرجع سابق، ص 481.

عقيدته، فإن الولي في عمالة وهران "يجمع في حده المنطقي كل الصفات المشتركة بين الأفراد، على حين هي لا تختص بأحد منهم"¹. إنه يمثل شخصيات منزهة اصطفها الله وخصها عن العامة بما منحها من ميزات لا يمكن أن يطالها الآخرون من البشر العاديين². وانطلاقاً من هذا فالولي هو شيخ المنطقة ووليّ القوم، والرجل الصالح النموذج والقُدوة، الكريم والجواد، المقرب من الله. يزور القوم قبره باعتباره مرهما يبرئ ومفتاحاً لأبواب الهداية والخير³، ويستأنسون به لأنه من زار ولياً وتوسل به⁴. ويرجعون إليه في السراء والضراء، يطلبون منه العون والحماية والبركة الإلهية⁵ التي تقربهم إلى الله، ويسألونه المدد ويتوسلون إليه في طهارة ومذلة وخشوع، فلا يبخلهم. فيشعرون أنهم في سعادة دائمة¹. له حضور دائم وقوي في مخيلة قومه سواء كان حياً أو ميتاً. إنه أسطورة ليست مُطعمّة بالخيال الساذج والمعرفة الوهمية السماوية لأنه من "أولي الألباب"² والقارئ لكتاب الله. المعالج لقضايا الإنسان وتوجيهه نحو غاية أخلاقية قوامها التربية والتوجيه والتطهير. ويبدو أن من أهم وظائفها النفسية البالغة الأثر، ربط الطاقة التي تنفث القلق غير المحتمل للوصول إلى عواقب اجتماعية مرغوبة، تنتشر من حولها حلقة تمدد أنفاسها في الزمان والمكان فهي قصة مفتوحة على وجه الدهر³ وخرافات لا نستطيع فهم كنهها ولا الإحاطة بها إذ لا توجد علاقة أو بنية خارج التاريخ، ولا تاريخ خارج شبكة

¹ - شارل بلوندل، المدخل إلى علم النفس الجماعي، تعر: حكمت هاشم، دار المعارف، مصر، 1962، ص 29.

² - علي مراد، مرجع سابق، ص 330.

³ - د. يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص 224.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، مؤسسة الزوايا، مرجع سابق، ص 29.

⁵ - P.Murayi. Op. Cit. PP: 10-13.

¹ - ناهضة ستار، بنية السرد في القصص الصوفي - المكونات - الوظائف - التقنيات - دراسة، ط 1، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص 172.

² - لقوله تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ، سورة آل عمران، آية 7.

³ - توفيق بكار، قصصيات عربية، الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، 2003، ص 5.

العلاقات التي تحكم الظواهر التي "يعزز بها موقف الشخصية المركزية ولغايات حكاية متعددة"¹.

باعتبار أن "تاريخ الخارق هو تاريخ الخوف"² والرعب³، فإن الولي في المنظور الشعبي، لا يثبت جدارته وصلاحه إلا إذا كان سنده متصلًا ومتواترًا إلى الرسول ﷺ و"أتى بخوارق تميزه عن الناس العاديين والخارق يتجسد في كراماته"⁴.* لا لشيء إلا لأن "الطبيعة صديقة الإنسان الصوفي مطيعة تتداخل فيها العوالم الحيوانية والنباتية والبشرية والغيبية، فكل عالم فيها منفتح على الآخر ومساعد له، وبذلك تلغى السببية وقوانين الطبيعة"¹ التي تحوي في ثناياها الجمع بين عالمي الواقع والأسطورة الجلية. فيعكس "اجتماع الضدين في الإنسان بالنسبة إلى العالم وبالنسبة إلى ذاته، والعنصر المهم هو السعي نحو السعادة والراحة النفسية والاطمئنان والمهابة التي يجدها الإنسان. "إنها باختصار تعبر عن الإحساس وبأن في الطبيعة ازدواجية كما أن في الإنسان ازدواجية وضد لن يجد له حلا في حياته"².

يحاط الضريح بجلال واحترام كبيرين، اعتقادا لقول النبي ﷺ "من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، و ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا

¹ - ناهضة ستار، بنية السرد القصصي، مرجع سابق، ص 1.

² - ، مرجع سابق، ص 137.

³ - عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945، دائرة الدراسات التاريخية، جامعة قسنطينة، 1983، ص 197.

⁴ - محمد مفتاح، دينامية النص، مرجع سابق، ص 138.

* يحكى أن أن سارقا سرق برنوس "كحل" أي أسود اللون، ولما ضُبط أنكر فعلته . فأخذه القوم إلى سيدي بن شرقي، فطلب منه أن يقسم كالتالي: "حق هذا العام لكحل من بعدو رايح يجي عام اللّي يقيس قصعة يدي فحل، البرنوس لكحل ماني داسو في الرحل". فأجاب السارق على الفور: "مسلم ومكتف يا سيدي، البرنوس لكحل راه في الرحل وراني تُبِت".

¹ - علي زيعور، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، ط 1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1982، ص 40.

* هناك الأضرحة الكبرى، التي تأخذ شكل زوايا تتمتع بشهرة وطنية كضريح سيدي بوهران وضريح سيدي بومدين حارس تلمسان، وهي أضرحة متميزة على المستوى الجمالي والاقتصادي. وهناك أيضا الأضرحة الصغرى، وهي عبارة عن قبور وهمية أو حقيقية لأولياء ذوي شهرة محلية وهي ذات بنيات متواضعة.

² - جبرا إبراهيم جبرا، الأسطورة والرمز، المؤسسة للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1980، ص 52.

يزال عبدي يقترب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصره، ويده التي يبطش بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاضني لأعيزنه"¹،

هناك نظام معين للقيام بالزيارة منها النية المطلقة والتقديس، والذكر، وحرق البخور داخل الضريح، وإضاءته بالشموع وتقديم القرابين. لأنه مقصد للتوسل من الذكور والإناث وأطفالهم خاصة يوم الجمعة. يخافون منه² ويسألونه تخفيف الآلام وتفريج الهموم والمحن والأزمات الاجتماعية والاقتصادية، والمصائب العائلية. وقد أصاب الصباغ عندما قال بأن مكانة الولي تعززت لدى الطبقة الشعبية والمتنفذة فما "دخل القبة عليل إلا شفي، ولا مريض إلا برئ، ولا خائفا إلا أمن، ولا ملهوف إلا أغيث، ولا مكروب إلا فرج كربه ببركة المدفون"¹. ويذهب أحمد الخطيب بعيدا حين يحدثنا بأن أتباع الشيخ "عدة شنتوف" كانوا يقبلون سيارته تبركا بها².

استعمل هؤلاء جميع الوسائل لاستغلال العامة، رغم الفاقة الاقتصادية التي كانوا يعانون منها، ونشر الجهل والخرافة³ مثل شفاء المرضى وعقم النساء والنجاة من الحوادث الخطيرة والمعاناة من الظلم وضمان الجنة وطلب الحظ في الحياة (الطفل، الزوج، العمل، استعادة الزوج، واستعمال التعاويذ والتمايم⁴. اعتقادا منهم بأنه تكمن فيها قوى سحرية خفية تخلص من السحر والنحس وتقي النفاثات في العقد وشرّ العين والحسد، وتطرد الأمراض والأوبئة). يمسح الكثير منهم بالقماش الأخضر ليغادر بعد ذلك الضريح باطمئنان وراحة نفسية كبيرة. وهي سلوكات ليس

¹ - حديث شريف.

² - Emile Dermenghem. le culte des saints dans l'Islam maghrébin. Gallimard. Paris. 1954. P: 15

¹ - أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الصباغ، بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1707، نسخ 1140هـ 1727 م.

² - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 60.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، مرجع سابق، ص 472.

⁴ - علي مراد، مرجع سابق، ص ص 323 - 324.

باستطاعتها فهم الخارق الذي ارتقى فوق الطبيعة البشرية، لأنه متطور ونسبي ولا يمكن وضعه في قالب جاهزة¹. لأنه يقفز فوق الواقع ليصبح لديه المستحيل ممكنا والغائب حاضرا، ليسمو عن الأشياء المادية ويخلق حالة من الانسجام مع الواقع. لأن الكائنات الماورائية تلعب أدوارها الرئيسية، كما يقول الباحث الفرنسي كلود ليف ستر اوس².

إن الغريب في الأمر أن المريض في كل هذا الزخم الخرافاتي، يختلط بهذه الأشكال، ويتقبل الآلام التي يأبى الجسم تحملها، فيشفى حين التجاوب معها والإيمان المطلق بها. لأنها إحساس شعبي متفائل تختفي معه النغمة الحزينة³ التي تريد للخير دائما أن ينتصر، و"تصنع كافة الوسائل التي تحقق له هذا الانتصار. وبما أن الإنسان الشعبي لم يكن مقتنعا بهذا الواقع... فقد صور لنفسه عالما آخر يحبه ويرتاح إليه"¹. لأنه يجد في هذا اللامعقول أحلاما قديمة يجد فيها نوعا من "التوازن بين عالم مشحون بالأنانية والكرهية، وحب الشر، وواقع استعماري منافي لروح الإنسانية التي يمكن للإنسان أن يكون فيها إنساناً، وبين تصور مثالي تجد فيه النفس الجريحة الأمن والاطمئنان والتخلص من واقع مؤلم لا تملك معه الطبقات الشعبية القدرة على التغيير والمواجهة"² في عالم انتفت فيه قيم المساواة والعدالة. إن هذا المكان دون سواه يعني التمتع بعيدا عن الإختلالات، والاضطرابات القائمة في العالم الدنيوي، لأنه يشكل زاوية لرؤية العالم³، ويحمل كل جزء منه روحانية الولي الصالح ذا النفس المحمية من الله وكراماته الخارقة التي لا يريد لها الكشف فهي سر بينه وبين الله ليس للناس حق الإطلاع عليها أو معارضتها. إنها سر

¹ - محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص 141.

² - www. Zahraaa. Com

³ - عمر عبد الرحمن الساريسي، مرجع سابق، ص 100.

¹ - نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب، ب س ط، ط 3، ص 101.

² - بن الشيخ التلي، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 109.

³ - Abderrahmane Moussaoui. Structure des Champs Religieux en Algérie.

URASC. Université D'Oran. 1987. P: 05.

ينصاع له المرید في صمت ودون نقاش، لأن المرید يطیع وينفذ أوامر الشيخ مدى الحياة، "وإن كان لا يدركها بوعي، وهو يستجيب لها وكأنها كل شيء يتم في عالم السحر"¹، ولا يسأله ولو كان أمرا غير معقول².

لكي تبقى الكرامة/البركة حية، أسقطت عليها الأسطورة و الخرافات والخوارق منها الإغواء وال جذب والعلو والرهبنة. لأن الشيخ بإمكانه ابتلاع الزجاج وتمزيق الجسم بالسكين³ وأكل بعض النباتات الشوكية مثل الصبار وشرب الماء الساخن وبقر بطون بعض الحيوانات وأكل لحومها نيئة¹، ومحادثة "مخلوقات من النبات والأشياء والحيوان مما لا يجري عادة في الواقع"²، يستهون به العامة خاصة الفقراء منهم. فأصبحت الخرافة تحاكي الأسطورة وتظاهيها وتعيد وظائفها العجائبية والغرائبية في طابع رمزي استعراضي يُفصح عنها بواسطة الرموز³. لأنها "استطاعت بما اصطنعته من رمز أن تخضع غير المدرك وتدخله في نطاق المدرك، كما استطاعت أن تؤكد وضع الإنسان الاجتماعي من خلال وحدة التجربة أو الشعور الإنساني المشترك"⁴ لاجتذاب المریدين⁵ وأنظار الناس وإثارة إعجابهم. "لأننا بتوحيد التناقضات نحصل على الجديد ويتم الخلاص"⁶.

1 - نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، مرجع سابق، ص 88.

2 - عبد الرحمان عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ط، دار الحرمين للطباعة، القاهرة، 1993، ص 499.

3 - Cyril Glassé. Soufisme Dictionnaire Encyclopédique de l'Islam. Préface: J. Berque. traduit et adapté de Langlais par Yves Thoraval. Borda. Paris. 1991. P: 7

1 - شهدنا على هذه السلوكيات مرات عديدة عند بعض الطرق مثل الطريقة العيساوية، وهي سلوكيات بعيدة عن خلق المسلم.

2 - عمر عبد الرحمن الساريسي، مرجع سابق، ص 239.

3 - علي زيغود، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط 1، 1979، ص 8.

4 - عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، 1981، ط 3، ص 229.

5 - عز الدين عبد الستار الراوي، التصوف والباراسايكولوجي (مقدمة أولى في الكرامات الصوفية والظواهر النفسية الفاتحة)، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994، ص 90.

6 - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، سلا، 1989، ص 125.

يعيش الولي عند العامة من الناس مع الحيوانات ويفهم لغتها ومنطقه، وتقدم له من المساعدات ما يجعله يأمرها فتطيعه. حيث أن رجلا اشتكى للولي الصالح سيدي بومدين أسدا أكل حماره، فما كان من الولي إلا أن أتى بالأسد يسير وراءه أليفا طائعا خاضعا، فقال لصاحب الحمار خذه واستعمله فيما أنت بحاجة إليه. لكن الرجل ومن شدة الخوف من الأسد أرجعه إلى سيدي بومدين الذي خاطب الأسد قائلا: "إذهب ومتى آذيتم الناس سلطتهم عليكم"¹. وبذلك يرد الاعتبار لصاحبه بتحويل الوظائف، وتقديم "موعظة أخلاقية تؤثر على سلوكهم، ولا يحووها من ذواكرهم إلا التراب.

لا يسعنا هنا إلا أن نذهب إلى ما قالته ناهضة ستار بأن "نقل هموم التصوف وأفكاره وطرحها على ألسنة الحيوانات يمثل إجراء احترازيا يقي أهل الطريقة سوء التأويل والأذى"¹. لأنها هبة وتعظيم² من الله تعالى يصير فيها الولي وليا لله ورسوله لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾³، ويتجاوز فيها "مرحلة الصراع بين المثل الروحية والنوازع أو الطاقات البيولوجية"⁴ ليجازى عند ربه الجزاء الأوفى⁵. إنه فعلا الصديق والنصير والتابع المحب، والغوث الذي يتحمل خطايا المؤمنين ويشفع لهم يوم الحشر، لأنه في

¹ - أمينة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2010، ص 228.

¹ - علي زيغود، مرجع سابق ص 188.

² - أحمد التوفيق، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي، مرجع سابق، ص 94.

³ - سورة يونس، آية 62.

* انطلاقا من هنا حُرِّم على بنات عائلة المرابط الزواج من عامة الناس، في حين كان الذكور يتزوجون من غير الشرفاء بدون مهر. أنظر: Les saints de l'Islam. légendes hagiologiques et croyances algériennes: les saints du Tell. Didier et Cie libraires-éditeurs. Paris. 1881.P: 51

⁴ - علي زيغود، مرجع سابق ص 18.

⁵ - محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990، ط2، ص 137.

قمة السلم الصوفي، والقطب¹ رأس الحارفين.، وموضع نظر الله من العالم في كل زمان، وأن المعرفة الإلهية مركزة فيه².

إن الشيخ في كرامات أخرى يقضي على كل أنواع الشر والعاريت بقراءة القرآن. فهذا سيدي يحي³ يضرب بالعصا⁴ شجر العليق الذي لا يثمر⁵، فيعطي ثمار التوت⁶.

تقام للولي عادة وعدة كل سنة. يعلن عنها "البراح" في الأسواق الأسبوعية محددًا أيامها وتاريخها. تبدأ بقراءة القرآن والصلاة على النبي ﷺ، وإنشاد المدائح والأذكار منها على سبيل المثال: الله الله الله / الله يا رسول الله يصاحبها الضرب على الآلات الموسيقية في الأذكار مثل الطبول والعزف على المزامير والغناء والشطح والرقص على الموسيقى¹. وهي عندهم من صميم العبادات والطاعات التي يتقربون بها إلى الله في كل الأوقات عكس الصلاة² لأنها ترتقي بهم إلى درجات المعرفة والوصول، مدعين أنهم يحترقون بحبه تعالى، وأن الودّ يسقط عنهم التكاليف التي أصبحت خاصة بالعامّة ساقطة عن الخاصة³.

لتجنب سخط الفقهاء الذي أنزلوا بهم تهمة الشعوذة والابتداع، والمروق عن المذهب السني، لجأ هؤلاء المتصوفة إلى التأويل، ومنعوا مريديهم من الاستفسار حول سلوكياتهم وأعمالهم وحق الإطلاع عليها أو معارضتها. فهي سر ينصاع له المرید في صمت ودون نقاش، فهم يرون أن من لم يقدر على إتباع رسول الله ﷺ

1 - عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص 520.

2 - Jean Léon L'Africain. description de l'Afrique. T1. Traduit par Epaulard Adrien. Maisonneuve éditeur. Paris. 1946. P: 12.

3 - يقع ضريح سيدي يحي من "أولاد أنهار" ببلدية سيدي الجيلالي، بأقصى الحدود الغربية لتلمسان.

4 - العصا: كائن حي فاعل يؤثر في الأشياء فيحولها إلى فاعلة موسومة بالسحاء والعطاء، وكأني بها رمز لكرامة الولي سيدي يحيى

5 - رمز العقم.

6 - رمز الخصوبة.

1 - منها رقصة العلاوي التي تستعمل فيها آلات موسيقية تعرف بالغايطة.

2 - عبد الوهاب الشعراني، مصدر سابق، ص 219.

3 - Jean Léon L'Africain. description de l'Afrique. T1. Op. Cit. P: 221

عليه إتباع شيخه¹، ومن لم يفعل ذلك يطرد من الطريقة². فظاهر أفعالهم الفساد لكن باطنها غير ذلك، مستشهدين بقصة الخضر مع النبي موسى عليه السلام³. وإنهم من أهل التصريف، يتصرفون في الخلق، ويكاشفون السراير⁴، وكلامهم محفوظ من السقطات، يرتقي عن دائرة العقول ويشذ عن ظاهر المنقول ويجب الظن الحسن فيه¹، لأنه يقود إلى الحقيقة² وليس للناس حق الإطلاع عليه أو معارضته. إنه سر ينصاع له المرید في صمت ودون نقاش. ووقائع لا طابع تاريخي له، لأنه هو التاريخ نفسه في حاضره المتشكل هنا وباستمرار أمام عين الحكاية³. لا لشيء إلا لأن طريقتهم هي طريقة واقعية تؤكد على عبادة الله بالشكل الصحيح، وخشيته سرا وعلائية، كما تلتزم بالتباع النبي محمد عليه السلام في أفعاله وأقواله وتقريراته، والتشبيث بسنته، والتحلل من أمور الدنيا، والرضا بقدر الله وقضائه، والتوكل عليه وحده في السراء والضراء.

يروى "عبد الحميد بورايو" أن كرامات الأولياء انتقلت من هذه الجماعات إلى الأوساط الشعبية عن طريق مظاهر التدين الشعبي بواسطة رواة محترفين يمدحون

¹ - عبد الوهاب الشعراني، مرجع سابق، ص 494.

² - المرجع نفسه، ص 297.

* يطرد المرید

³ - أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الصباغ، بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1707، نسخ 1140هـ 1727م.

⁴ - أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الصباغ، بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، ورقة 223، نسخ 1140هـ 1727م.

¹ - زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي، طبقات الصوفية، ج4، إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمان: الطبقات الصغرى، تحقيق وإعداد: محمد أديب الجادر، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1999، ص 11.

² - ألفرد بل، الطرق الإسلامية في الشمال الإفريقي: من الفتح العربي حتى اليوم، تر: عبد الرحمان بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص 408.

³ - فريد الزاهي، الحكاية والمتخيل، مرجع سابق، ص 17.

الولي ويروون قصصه وكراماته¹ وشخصيته العظيمة. والغرض من ذلك تثبيت كراماته وعقيدة عبادته والدعاية له لأنه لا يعيش لذاته بل هو الضمير الجمعي والأنا الكلي للمجتمع والأمة. "يعيش بينهم كأبي واحد منهم بحجمه الطبيعي، يحزن ويفرح ويخطئ في حق الناس وفي حق ربه، ويتفانى في خدمة خالقه، وجاء في الثانية وسيطا بين الله والناس، احتوى طبيعته البشرية على طبيعة إلهية، له قدرات تفوق القدرات البشرية، ويظهر حتى بعد وفاته، ويتجسد في صورته في كل مكان"²، لاكتساب المريدين باستمرار.

لا يسعنا هنا إلا أن نشير إلى مدى التدهور الاجتماعي والثقافي الذي وصلت إليه عمالة وهران خلال هذه الفترة. خاصة وأن السلطات الاستعمارية لم تكتم بغض النظر عن هذا التصوف بل ساندته وتواطأت معه. لأنه شاع بين العامة والخاصة¹، الذي باتوا ينظرون إلى الشيخ أو المرابط أو الشريف، أنه حبيب الله وصاحبه الواقف بين يديه وأمامه بقلبه². والعارف بالقلوب والأسرار الربانية والغيب³. ومثال ذلك ما ذكره بيل وبييردان وليون الإفريقي أن أصبح العامة من الناس يعتبرون الفساق والمجانين والمعتوهين والبهاليل⁴ أحياء، يحظون بمكانة عالية وبمعاملة جيدة دون أن تطلب منهم البركة أو الزيارة⁵. ومن المعلوم أن القطب

¹ - عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 108

² - عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، مرجع سابق، ص 118.

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 478 .

² - عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، سلسلة الدراسات الكبرى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص50

³ - Guin.L. Notices sur la famille des Robrini de Cherchel. Rev Afr. N°17. 1873. OPU. Alger. 1986. P: 449.

⁴ - Pierre Dan.R.P.Fr. Histoire de Barbarie et de ses corsaires. des royaumes et des villes d'Alger de Tunis.de Salé et de Tripoli. 2^{ème} édition revu et augmenté par le même auteur. Pierre Rocalet imprimeur et libraire. Paris. 1648. P: 271

⁵ - Alfred Bel. Coup d'œil sur l'Islam en Bèrbèrie. Op. Cit. PP:37 38 .

والأوتاد والنجباء¹... يتجسدون في مجنون أو رجل طالح² لأن لهم بعض الألفاظ
الربانية التي تؤهلهم للولاية، ولإجراء الكرامات على أيديهم مثل العلماء و الشيوخ³، و
إذا ما اعترض عليهم الفقهاء فإن العامة تصدهم. وهكذا ظهر التناقض بين الإسلام
كحقيقة ناصعة وبين واقع المسلمين⁴ الجزائريين الذين أصبحوا مسلمين في شهادة
الميلاد، لا يتفاعلون في مجتمعهم بحقيقة إسلامهم، وهو - التناقض - في عرف
الحقيقة خيانة لطبيعتها، وغمط لأهميتها سواء كان غلواً في تقويمها أم خطأ من
قيمتها".¹.

لقد أثارنا ما كتبه الدكتور مصطفى حجازي في كتابه التخلف الاجتماعي،
عندما أكد على أن ظاهرة التخلف تتميز بالدينامية والتماسك، وقصور في الفكر
النقدي، وصعوبة السيطرة الذهنية على الواقع بكل "تبدياته". وهذا العجز أو
القصور لا يقتصر في مجال واحد بل يشمل العجز إزاء ظواهر الطبيعة، والحياة،
وقيود النفس، وأعراف العشيرة، والإلتزامات الشرعية²، والعلاقات، وما يبدو عليها
من غموض، وتناقض، وتداخل، بحيث تبدو له أقوى من طاقته على الاستيعاب،
لذا يتوسل الإنسان لمخلف المقهور، الوسائل السحرية والخرافية
والمناسباتية في صيدلية الشيخ/المرابط/الولي/ صاحب البركة يطلب عندها الدواء،

1 - الغرام بالكلمات يُفقد الإنسان فاعليته وتصبح هناك فجوة بين الكلام والعمل، أدركها الاستعمار
واستثمرها، فتحوّلت إلى عادة ثقافية تفرغ العمل الجاد وتجهض قوى التغيير. أنظر: علي القرشي،
التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر،
القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1986م، ص175.

2 - Edmond Dousté. Magie et religion dans l'Afrique du nord

3 - IDEM. P: 43

4 - عصام محمد علي عدوان، مشكلات العالم الإسلامي الثقافية والفكرية والدينية ومعالجاتها في فكر مالك
بن نبي، بحث مقدم إلى مؤتمر "الإسلام والتحديات المعاصرة"، المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة
الإسلامية، في الفترة: 2-2007/4/3م، غزة، أبريل/ 2007، ص 270.

1 - مالك بن نبي، وجهة العلم الإسلامي، مرجع سابق، ص 80.

2 - المجيد الصغير، تجليات الفكر المغربي (دراسات ومراجعات نقدية في تاريخ الفلسفة والتصوف
بالمغرب)، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2000، ص 129.

وهو بهذا التصرف يحصل على دواء لا يشفيه بل يميته لأنه لا يناسبه¹، وتجعله يحجم عن كل جديد، ويتجنب كل تجربة قد تساهم في تغيير وضعه، لذلك تجده لا يحرك ساكنًا. وإنما ينتظر الولي المخلص الذي سينتشله مما هو فيه. فيحمل ثقافة الحظ والحظوة وإمكانات النجاح السريع، والتفسيرات غير المنطقية لسد هذا الغموض والحيرة والعجز والقصور² في الجمع بين المميزات والعيوب. ويصبح أسير الظروف المحيطة به، حائرًا ومتعبًا أمام شتاتها، يعاني من صعوبات في الانتقال من مرحلة التفصيلات إلى مرحلة التنسيق الكلي بينها. و من اضطراب منهجية التفكير وذهني السببية المبسطة، بمعنى أن سببًا واحدًا أو عدة أسباب تؤدي إلى نتيجة معينة، وبالتالي يخلق بين هذا السبب أو الأسباب علاقة مغلقة تعزلها عن بقية الأسباب والنتائج. ذلك أن هذه المفاهيم والآراء في الأوساط الجزائرية لا تتأسس في عالم الأفكار وإنما في عالم الأشخاص¹، حيث تتجسد الأفكار في شخص فتعكس أخطأه على الفكرة ومن ثم على المجتمع.

إن الإنسان المتخلف في هذه الحالة يبدي تذبذبًا شديدًا، فيقع صاحبه في الفوضى والعشوائية والتخبط وإن كان من بين فئات المتعلمين، ويففز من مرحلة أولية إلى مرحلة نهائية. ولا يُجشّم نفسه عناء الجهد الفكري الضروري لتحليل والتصدي للواقع، والخروج بتصورات متماسكة عن الواقع خوفًا من الفشل. فيفقد تكيفه مع الحياة الاجتماعية ويصبح غير مؤمن بدوافع الحياة الاجتماعية². والبلد المحروم من مظاهر الحضارة والمدنية يقرط في تكديس الأشياء بشكل تبذير وإسراف. والبلد المنتشع بالأشياء يهرب منها بسبب ألفته له "فالمجتمع المحروم يستسلم لسيطرة عالم الأشياء التي حُرّم منها، والمجتمع المكتظ يتمرد على

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص 46.45.

² - هذا القصور ليس وليدًا لخلل عضوي أو انحطاط تطوري كما يذهب إلى ذلك الكثير من الفرنسيين، بل هو نتاج بنية اجتماعية متخلفة، تتناسب مع درجة القهر المفروض على الإنسان وجمود البنية الاجتماعية التي يعيش فيها.

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، مرجع سابق، ص 164.

² - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، مرجع سابق، ص ص 99-106.

سيطرتها، ولكنهما بهذا الانفعال المزدوج يواجهان نفس الداء: هو طغيان الشيء الذي تختلف أعراضه، وإن اتفقت نتائجه النفسية وهي: أن الشيء يقصي الفكرة من العالم الثقافي ويطردها من ضمير كل من الشعبان والمحروم على السواء¹. وهكذا "ينقلب الإنسان المتخلف ما بين التشاؤم والتفاؤل تبعاً للحظة الراهنة، يفرض في تفاؤله أمام الظفر العابر، ويفرض في تشاؤمه أمام الانتكاسة الآنية. أما مكانياً، فالإنسان المتخلف تجزيئي، يعجز عن النظر إلى أبعد من دائرته الضيقة. إنه عاجز عن الشمول، وعن استشفاف آفاق بعيدة، ووضع خصائص المحيط المباشر في أطر أكثر اتساعاً وشمولية"². لأن مشكلتنا ليست في نقص الأشياء ولا طبيعة الأشخاص، وإنما مشكلتنا في فكرنا¹، وفيما يسودنا من عادات وما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من نقائص تعترى كل شعب نائم"². إن بعض الأفكار المميّنة أسلمتنا إلى المرض والتخلف، ولأننا لم نتخذ الفكرة هادية فقد تخبطنا في فوضى من التقليد، وحيث يكون التقليد تتسحب الفكرة"³. والأفكار المميّنة جاءتنا من الأفكار المميّنة التي جاءتنا بدورها من تركة ثقافية لم تُصَف⁴.

إن الكثير من الكتاب جعلوا من الكرامة علماً قائماً بذاته، ومادة لا غنى عنها للمؤرخ وعالم الاجتماع والأديب والباحث على السواء، كلّ يستجد بها في مادته. يدرسها ويحللها ويفك رموزها ويبحث في بيئتها ومحيطها وعلاقتها بصاحبها. ويعتبرونها رافداً من روافد التراث الثقافي الذي حملته الذاكرة في شكل قصص تروي بالرمز سمو ورفعة صاحبها عن كل ما يشارك به العوام من صفات ملحوظة، و إيمان البطل الديني بقدرته على الاقتراب التدريجي والشديد من الله،

1 - المرجع نفسه، ص ص 110-111.

2 - د. مصطفى حجازي، المرجع السابق، 2007، ص 82.

1 - مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، بيروت: المكتبة العصرية، 1959، ص 12-13.

2 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 37.

3 - مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، مرجع سابق، ص 10-11.

4 - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، مصدر سابق، ص 197.

والمعرفة بأسرار الغيب، والقدرة على تلقينها أتباعهم¹، ومن ثمة أخذ طبيعة إلهية توفر له إمكانية التشبه بالله من حيث الإرادة الحرة والقدرة المطلقة² التي صُبغت بعنصر الدهشة والاستغراب والغرابة والمفاجأة والمعاني الباطنية على نحو مشوق³ لتدجين الزوايا والتقليل من تأثيراتها، أصدر الاستعمار الفرنسي مجموعة من القرارات تتعلق بالزوايا وأملاكها منها قرار 07 ديسمبر 1830 القاضي بربط أوقاف وأملاك الزوايا بمصالح الحكومة الفرنسية، وقرار 31 أكتوبر 1838¹ القاضي بمراقبة المؤسسات الدينية والتربوية وأمر الملكية الصادر بتاريخ 21 أوت 1839 الحاث على رصد مصادر التمويل للمؤسسات التربوية، وقرار 27 نوفمبر 1903² الذي يحدد مراقبة مباني هذه المؤسسات، ومراقبة كل من الشيخ والوكيل والمقدم والشاوش مراقبة دائمة ومشددة، تستند في التحقيق على: المعلومات عن نشاط الزاوية من النواحي الاجتماعية والعلمية من حيث التدريس وحتى الختان والحفلات.. وقد قدم الرائد إدوارد دونوفو* خدمة جليلة لفرنسا بتأليفه كتاب "الإخوان" سنة 1845، و صفات الأشخاص المسؤولين عن الزوايا ونوعيتهم*،

¹ - ناصر الدين سعيدوني، مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية، نموذج بلاد القبائل، نشر في: International congress on Learning and éducation in the ottoman world.

Istanbul. 12-15 April 1999. P: 29.

² - علي زيغود، مرجع سابق، ص 31.

³ - ناهضة ستار، بنية السرد القصصي، مرجع سابق، ص 52.

¹ - Code de l'Algérie 1830-1898 P: 13.

² - Code de l'Algérie . IBID. P: 11 .

* من مواليد 1809 بفرنسا، تخرج من المدرسة العسكرية واشتهر بإتقانه اللغة العربية، كلف بمهام رئيس المكتب العربي بباتنة سنة 1847، وقسنطينة سنة 1858. وتسيير مقاطعة الجزائر سنة 1870. وافته المنية سنة 1871.

* قصد إسناد مسؤولية قيادة الزاوية إلى المخلصين لنوايا السلطات الفرنسية التي قال أحد قياداتها: " لقد أذلنا الدين الإسلامي، وبلغ الأمر أن لا يَعمَ إمام و فقيه إلا إذا شارك في أعمال الجاسوسية الفرنسية، ثم عليه كي يرتقي في الدرجة أن يثبت قدرا كبيرا من الحماس والإخلاص". أنظر موقع : http// almahdy. net.

والمعومات حول انتمائهم المذهبي¹، و مكانة إقامتهم وحالتهم المالية، و المستوى التعليمي و الدراسي، و العلاقات العائلية و القرابة، و مدى تأثيرهم في نفوس الأهالي، و أسماء الأعراش التي يؤثرون عليها و مرديها الجماعة التابعة لها، و عدد المردين للزاوية و شيخها، و الأوقاف التي يتلقون منها الصدقات و الهدايا و الهبات.

— الأشخاص الذين يتلون جمع الأموال، و متابعة صرف التموين إن كان يذهب إلى الزاوية أو الأساتذة أو الطلبة أو إلى المسجد، و حصة كل منهم.²

اعتبرت فرنسا شيوخ الزوايا متعصبين و جهلة. يزجون التوسع الاستعماري، و ينشطون دوما و بدون كلل في نشر الأخبار التي تخل بالأمن الاستعماري بالجزائر، و حَبَّكِ الدسائس و المؤامرات الحاقدة* ضد سيطرتها، كما يمثلون "المؤامرة في كل مكان"¹، و يشكلون راية قائمة يَتَفُّ حولها كل نائر عدو لفرنسا مستعد لمناهضة حكمها و الثورة² عليها، لأن في أوساطها "تنشأ الدسائس و تعلوا الأصوات الحاقدة ضد سيطرتها و ترتل الآيات القرآنية الخالدة و الداعية إلى الجهاد"³، و بمعنى آخر كانت تشكل مظهرا "من مظاهر المقاومة الفكرية التي كانت ثرية و متعددة و لها الفضل في بعث الوعي السليم في أوساط الشعب الجزائري، و قد تمكنت من حفظ التوازن للشخصية الجزائرية في عمقها العربي الإسلامي"⁴

أدرك الإستعمار الفرنسي قوة مؤسسة الزاوية، فانتهج أسلوبا متطورا لإدماجها ضمن استراتيجيات الاحتواء و التجنيد و المراقبة الشديدة دون المواجهة.

¹ - Code de l' Algérie. Algérie. Tome II. P: 29.

² - Code de l'Algerie 1830-1898 P: 29.

¹ - Jean-Louis Planche. Sétif 1945. histoire d'un massacre annoncé. Chihad Edit. Alger. 2006. PP: 102.103.

³ - صالح فرкос، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال (المراحل الكبرى)، دار العلوم للنشر و التوزيع، (2005 الجزائر، 2005، ص 279.

⁴ - أحمد عمير اوي، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى للطباعة و النشر، الجزائر، 2004، ص 117.

وهو الأسلوب الذي مكنه من التحكم في القاعدة المادية للزاوية، دون أن يمس بشرعية تواجدتها الفعلي، لأن بقاء الزاوية ممتلئة لكافة مقوماتها البشرية والاقتصادية كان يخدم في كثير من الأحيان المصالح¹ الإستعمارية، باعتبارها إحدى الضرورات السياسية لتوازنه العام. لذلك سخر جميع قنصلياته² في مختلف دول العالم لمراقبة ورصد تحركات "مُقدّمي" الطرق الصوفية، وانتقى بطريقة دقيقة بعض الجزائريين (المتقاعدين الراغبين في حج بيت الله الحرام، الذين كانوا يشتغلون في وظائف مدنية وعسكرية لدى الإدارة الفرنسية) تمثلت لتتبع حركات وسكنات وجميع نشاطات العلماء ومقدمي الزوايا¹. كما تلقى ضباط المكاتب العربية أوامر من الحاكم العام سنة 1947 لجمع المعلومات² المتعلقة بأنشطة الزوايا وأتباعها، وتحليلها وتعليلها لتشروع في تطبيق سياسة شاملة قاسية وزجرية لإضعاف كل مبرر للاحتجاج والمقاومة³. تمثلت في تشييت واستمالة⁴ زعماء بعض الأعراس والشخصيات ذات النفوذ (سياسة فرق تسد) ، ومتابعة شيوخ الزوايا ومراقبتهم وإرهاقهم بشتى الأساليب، وتكريس الحزازات والحساسيات، واختلاق مسببات الإختلاف بينها وبين جمعية العلماء المسمين من جهة، وإثارة نار الفتنة والتنافس والشقاق بين الزوايا من جهة أخرى. وقد أثمرت هذه الإستراتيجية في جعلهم سجناء نظام جامد⁵. فعلى على سبيل المثال اشتد الصراع في الزاوية التكوكية السنوسية

¹ - Abdallah Laroui. Les origines sociales et culturelles du Nationalisme Marocaine. Op. Cit. P: 133 .

² - CAOM 2U 23. (Correspondance entre l'ambassade de France à Tripoli et l'administration coloniale à Alger sur les adeptes.

¹ - C.A.O.M. 10 APOM- Mémoire du C.H.E.A.M.

² - A.W.O, B 4476, direction des affaires musulmanes, 5^{ème} bureau, N° 104-AMS. Alger. le 10/07/1941.

³ - Lettre du Maire du Mercier Lacombe au sous préfet de SBA. DU 22/08/1925. N° 91.

⁴ - صالح فركوس، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844-1871، منشورات جامعة عنابة، 2007، ص 273.

⁵ - Jean Claude Vatin. Op. Cit. P: 164.

بمستغانم بين الأخوين "عبد القادر بن تكوك" شيخ الزاوية وشقيقه "محمد بن تكوك" الذي رغب في اقتسام الإيرادات المالية للزاوية مناصفة مع شقيقه. وبسبب استفحال النزاع بينهما، فقد استقبالهما والي وهران بمقر العمالة بتاريخ 11 نوفمبر 1949، وخصَّهما بجلسة صلح أفضت إلى اتفاق وُدِّي تمثّل في اعتراف عبد القادر لأخيه محمد بحقه في النشاط اليومي للزاوية بما في ذلك التدريس¹، وتأكيد شيخ الزاوية على ارتباطه وولائه للاتحاد الفرنسي - الإسلامي. وسيتكرر نفس النزاع مرة أخرى بالزاوية التيجانية بين الأخوين "بن عمور" و "الطيب" حول اقتسام إيرادات وهدايا المبالغ المالية الخاصة بتطوان وفاس بالمغرب الأقصى. وقد وجّه "بن عمور" لشقيقه "الطيب" تهمة تبذير أموال المريدين لخدمة مصالحه الخاصة. غير أن المصالح الفرنسية لم تتدخل في هذا الصراع لأنها رأت فيه نزاعا عائليا؟¹. وفي تلمسان قام الشيخ "بن تونس" بتأسيس زاوية جديدة سنة 1945 بسبب دخوله في صراع شرس ضد "البوديليمي" و الشيخ "العشعاشي" كي يضمن تمويلا جديدا لزاويته، ويساند بعض المترشحين في الانتخابات البلدية بتلمسان². وانتقدت السلطات الفرنسية المؤتمر السنوي التقليدي للزاوية "البوعبدلية" ببطيوية بين 08 و 10 أوت 1952، الذي حضره 3500 مريد، منهم الشيخ "المهدي البوعبدلي" مفتي الشلف و"بلعربي قادة"، النائب السابق في المجلس الجزائري، والشيخ عاصم الحاج قادة بن عمروش ممثل جمعية الطرق الصوفية شمال إفريقيا³. ولجأت أحيانا إلى ضرب الطرف الأقوى في المواجه ة، وتعيين رجال الدين المحايدين

¹ - C.A.O.M. 5149: Agent du Culte. Mosquées. Fêtes. Confrérie (Alaouia et Snoussia). (1937-1955).

¹ - C.A.O.M. 16 H 53. (Tidhanja-Zaouia d'Ain Mahdi..

² - C.A.O.M. 93 / 4493

³ - C.A.O.M. 91// 41 75 Op.cit.

الأصدقاء والأحباب¹ الذين أصبحت لديهم من السطوة والنفوذ الشيء الكثير².
ومنحت المساعدات³*

والهبات والهدايا والأوسمة والنياشين* لمن أصبح منهم "رجال الثقة"⁴، وأبدى
مظاهر الولاء⁵ والطاعة لفرنسا، ولم يتجاوز "الخطوط الحمراء"*، وسخر نفسه
لخدمة أغراضها* وأبلغ القاييد عن جميع التحركات بالعرش. فأصبحت هناك طرق
صوفية صديقة وموالية وعميلة، أعجبت بمبادئ الحرية والديمقراطية التي تتغنى بها
فرنسا¹، فانخرطت مباشرة في الآلة الإستعمارية. وهذا ما تؤكد الرسالة المؤيدة إلى
رئيس دائرة مستغانم التي بعث بها فرع "الجمعية الوطنية للزوايا" الذي أشرف على
تنصيبه المدعو "بلمكي" في الغرب الجزائري والتي جاء فيها: "يشرفنا أن نطلعكم
بالسير الحسن للأوضاع على مستوانا، وإننا نصلي كل يوم من أجل النصر"².

أصبحت كثير من الزوايا مجرد أداة غير مستثناة من دواليب الإدارة
الفرنسية، مع ما ينطوي عليه هذا المنظور من ضرب صريح لاستقلاليتها
المفترضة أو لجنوحها المحتمل نحو تمثل سلوك سياسي منفرد³. ويظهر لنا هذا
جليا في الطريقة التيجاية والزيانية التي أيدت فرنسا في حربها ضد ألمانيا في
الحرب الكونية الأولى وأعلنت أنها متمسكة بدولة فرنسا المحبوبة المحسنة⁴.

1 - أحمدية عميرايوي، من تاريخ الجزائر الحديث، ط2، دار الهدى، عين مليلة، 2004، ص 107.

2 - شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص 1058.

3 - أنظر ملحق رقم 27.

* حصلت بعض الزوايا على مساعدات مالية سنوية بلغت قيمتها 50 ألف فرنك فرنسي. وخضعت شركة
السكك الحديدية من تذاكر السفر في معسكر بنسبة 50 % بمناسبة الملتقى الذي نظمته الطريقة القادرية
لمريديها سنة 1932. أنظر: C.A.O.M. 1 K 502 و Réveil de Mascara. N° 3515 du 25/03/1945. & Enseignement Musulman (écoles coraniques. Zaouïas. medersa)
1945-1955. culte musulman 1944-1953.

4 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، مرجع سابق، ص 205.

5 - A.W.O. B 2260. direction des affaires musulmanes. C.I.E. N° 1786 Cie. Alger.
le 16 Juillet 1942

1 - Mohamed Tegua. l'Algérie en guerre. O.P.U. Alger. P: 64.

2 - A.W.O.B. C.I.E Oran. N° 478 du moi de mai 1940.

3 - موقع ديوان أصدقاء المغرب، مرجع سابق.

4 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، مرجع سابق، ص 92-93.

وقدّمت الزوايا التي عقدت مؤتمر الها برئاسة شيخ زاوية الهامل الشيخ مصطفى القاسمي في أفريل 1939م، لائحة للحكومة الاستعمارية أيدوا فيها قانون 8 مارس المشؤوم الذي يعد ضربة قوية للدين الإسلامي في الجزائر¹. ووجهوا نداء إلى الجزائريين قبيل الحرب الكونية الثانية: "إلى أبنائنا، أدوا واجبكم تجاه فرنسا بكل صفاء وتفان، كما أدى أجدادكم واجبهم في 1870، وآبائكم وإخوانكم في 1914... وهكذا ستساهمون في ضمان مستقبل أفضل لكم ولأولادكم، وحماية شرف وسمعة فرنسا، وبذلك يكون لكم شرف المساهمة في انتصار السلم والحرية والديموقراطية في العالم..."¹

بينت دراسة العديد من الوثائق أن بعض الزوايا في عمالة وهران ومهما كبر حجمها وتوسع نطاق نفوذها، ظلت رهينة الخيارات الفرنسية ومقيدة بحاجتها الدائمة لدعم السلطة التي كانت الضامن لتمتعها بمختلف الامتيازات والهكاسب المادية والروحية، والمصالح التي توفرها لها ، وأحيانا لحمايتها من تهديدات القبائل أو تحرشات الثورة. وهو الوضع الذي يجعل منها مجرد أداة غير مستثناة من دواليب الإدارة الفرنسية، مع ما ينطوي عليه هذا المنظور من ضرب صريح لاستقلاليتها المفترضة أو لجنوحها المحتمل نحو تمثل سلوك سياسي منفرد ، رغم ما قد يتوفر لبعضها من إمكانيات مادية ودعم المؤيدين من أتباعها والمنتسبين إليها².
بفعل ذلك، تمكنت الإدارة الاستعمارية من مراقبة الزوايا مراقبة محكمة وكألية للحيلولة دون تمكنها من القيام بمشاريع إصلاحية ونهضوية، وفهمها لتطورات روح العصر قصد إفراغها من محتواها ومهامها الحضارية التي قامت

¹ - رد عليهم الشيخ ابن باديس قائلا: " قد أيسْتُ من صلاحهم وبرئتُ إلى الله منهم ومن عملهم". أنظر: آثار الإمام ابن باديس، ج 6، ص ص 313-314.

¹ - Revue de l'Afrique française. 1939. P: 83.

² - موقع ديوان أصدقاء المغرب، مرجع سابق.

بها عبر التاريخ، وتحويلها إلى مجرد طقوس¹ و سجل تجاري يضمن لقمة العيش ويدر على أصحابه الأموال، وإلى أماكن لزيارة الأضرحة والتبرك بها*. تقدم لها الأضحيان والقرابين، وتزرع فيها السلوكات الخرافية والأساطير والمعتقدات الشعبية² المتشعبة بالطقوس البدائية الغامضة وبقايا المعتقدات القديمة، والبدع الدينية والخرافات والأباطيل والدجل والشعوذة والعادات الوثنية البالية المتمثل في تقديس الجن والأولياء (القديسين)، وروح الإتكالية والقدرية الانهزامية الماحقة لإرادة الإنسان والتي تؤمن بقدرية الاستعمار الفرنسي، وأن ما أصاب البلاد من تأثر وظلم هما لمصلحة لا يعلمها إلا الله، فما إلى العبد تخيير وتدبير. فالله يعلم ما للعبد من مصلحة فيه وقد يصحب التعسير والتيسير. إذن فالضعف باب إلى التصوف¹ ولا حاجة للإنسان لثورة الإنسان على الظلمة، وإنما الواجب هو الهروب إلى الآخرة² والصبر على ظلم السلطان³. لذلك سكت عنهم أهل السلطة، وصرخ في وجوههم الشيخ الطيب العقبي غاضبا: "لقد ظهر في القطر الجزائري في هذا الزمان بدع كثيرة واعتقادات فاسدة قام بها أناس... ما هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا. يأملون العوام بالاستمرار على عوائدهم المحدثثة الشنيعة التي هي مهادنة للدين القويم"⁴.

زار شيوخ الزوايا الكثير من مدن الغرب الجزائري، سواء لتأسيس زوايا فرعية كالزواوية العليوية التي أشرف على تدشينها الشيخ "عدة تونس" بمعسكر، والتي سيكون لمقدمها الشيخ "الحاج بن علي بوزيد" الدور الكبير والفعال في بعث حركة التعليم بالمنطقة، وأحيانا من أجل جمع الأموال حيث زار الشيخ "الطالبي

1 - أحمد محساس، مرجع سابق، ص ص 57-67.

2 - علي زيعور، مرجع سابق، ص 21.

1 - زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج 1، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ص 41.

2 - من أساليب هذه الهروب نحو الآخرة، الأوراد اليومية التي يجب على المرید ذكرها.

3 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 49.

4 - محمد مريوش، مرجع سابق، ص 65.

مولاي الحسن" شيخ الطريقة الحمداوية معسكر سنة 1949¹، لجمع "الزيارة، وتارة من أجل المجاملة مثل الزيارة التي قام بها سنة 1949 مقدم الطريقة القادرية مصحوبا ب 650 من مريديه مستغانم للقاء شيخ الطريقة "بلحول قدور"².
في يوم معلوم من السنة يعلن المنادي أو البرّاح كما يسمى محليا عن موعد الزردة خلال جولة تقوده إلى كل قرى المنطقة وأسواقها مشيا على الأقدام لإعلام الناس بموعدها حيث تحصل الزاوية على منتجات الناس من التين، و الزيتون، والزبيب والعسل، والدجاج، والماعز¹ والزبدة والعسل والأغنام... وتخصص الزيارة لأحفاد الشيخ⁸، حيث يفد إلى المكان آلاف من الناس من مختلف الأعمار لقضاء يوم كامل من الترفيه في جو المدائح وقرع الطبول والأهازيج والرقص، وتقديم أطعمة متنوعة من اللحوم والكسكس والفواكه الطازجة والمجففة وغيرها. أو أن يمر المقدم على الفقراء لجمع الزيارة².

د - جمعية العلماء المسلمين:

أدركت الجمعية واقع التخلف الذي كانت تعيشه الأمة الجزائرية والذي كان يعمق الهوة بينها وبين المعمر الفرنسي، وأدركت أيضا أن ثقافة الجزائريين كانت في مأزق وبين مفارق الطرق³، وأن من شر ما يفرزه التخلف سيطرة الخرافات ليرجع الإنسان مظاهر قهره وتخلفه إلى أسباب غيبية، وغياب الأهداف البعيدة، والتمزق الاجتماعي في المجتمع المقهور ، الذي لا يحسن سوى دفع الضرائب،

¹ - A.W.O. 1411.Mascara. Affaires locales 1950. 25/03/1949.

² - A.W.O. 1427. Mascara. Affaires locales 1949. 19/10/1949.

¹ - ناصر الدين سعيدوني، مؤسسة الزوايا، مرجع سابق، ص7

² - Alfred Bel. Coup d'œil sur l'Islam en BèrbèrieOp. Cit. P: 29

³ - عبد الرحمن منيف، بين الثقافة والسياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، ط2، 2000، ص 5.

والقيام بواجبات الجندية¹. لذلك جعلت من التراث العربي الإسلامي، المرجع الفاعلة في حلق التكوين الشباني، وغرسها عن طريق المخيمات الكشفية وبرامج التدريس والكتابات الصحفية، والعمل الدعوي والخطابي في المناسبات والمساجد والنوادي والجمعيات ونحوها² لنهوض الشامل بمقومات الشخصية الوطنية³ وبعث السلفية الصحيحة.

المناهج والبرامج التربوية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

- المناهج التربوية: اهتمت الجمعية بالمناهج والطرق التربوية التي تتلاءم وقدرات التلميذ على التلقي والاستيعاب الجيد لمقرراتها الدراسية. فكان التعليم في مدارسها مختلطا يضم البنين والبنات رغم ما واجهه من مشاكل وعقبات في مجتمع محافظ على رواسب ثقافته وأعرافه الشعبية التي تقلل من أهمية تعليم المرأة رغم جهود الدعاية الإصلاحية لتصحيح هذه الأفكار السلبية¹. لذلك ركزت جهودها على تخفيف البرامج وعدم التوسع في العلم والاقتصار على تدريس المبادئ الأولية المتمثلة في "التثقيف العقلي والتكوين الفكري والتهديب الخلقى"² مراعاة لقدرات التلميذ العقلية والإدراكية. وفي هذا يقول الشيخ الإبراهيمي: "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في تربية النشء هي أن لا نتوسع له في العلم وإنما نربيه على فكرة صحيحة مع قليل من العلم، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلاميذنا"³. ويؤكد ابن باديس ذلك حين يقول "إننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها عن علم وبصيرة وتمسكا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النصح

¹ - رابح تركي، ابن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969، 154.

² - أحمد مريوش، دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنية الجزائرية ما بين 1952-1931، مجلة الرؤية، العدد 2، ماي جوان 1996، ص 124

³ - J.Desparmet. Naissance d' une histoire de l Algérie In : A.F. Juillet 1933. P: 387.

¹ - Amar Helal. Le Mouvement Réformiste Algérien (les hommes et l'histoire)1831-1957, office des publication universitaires Alegria. 2009. P:143.

² - سامية جفال، المرجع السابق، ص 252.

³ - المرجع نفسه، ص 252.

والإرشاد وبتّ الخير، والنّبات على وجهٍ واحدٍ، والسير في خط مستقيم... ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسيّ لدخلناه جهراً، ولضربنا فيه المثل بما عُرف عنّا من ثباتنا وتضحيتنا، ولقدنا الأمة كلّها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهلّ شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وأن نبُلغ من نفوسها إلى أقصى غايات التأثير عليها؛ فإنّ ممّا نعلمه ولا يخفى على غيرنا أنّ القائد الذي يقول للأمة: إنّك مظلومة في حقوقك وإنني أريد إيصالك إليها؛ يجد منها ما لا يجده من يقول لها: إنّك ضالّة عن أصول دينك وإنني أريد هدايتك، فذلك تلييه كلّها، وهذا يقاومه معظمها أو شرطها، وهذا كلّه نعلمه؛ ولكنّا اخترنا ما اخترنا لِمَا ذكرنا وبيّنا، وإنّا - فيما اخترناه - بإذن الله لماضون وعليه متوكلون"¹.

المواد المقررة في التعليم:

- التعليم الديني والخلقي: لم تكثف الجمعية "بتصحيح الصلاة وبيان نواقض الوضوء"² لدى مجتمع بدا وكأنه خارج لتوه من مجتمعات القرون الوسطى³، بل سعت إلى أبعد من ذلك عندما اعتمدت في برامجها على الربط بين الأصالة والمعاصرة، وتكوين الأمة تكويناً صحيحاً من حيث الأخلاق الفاضلة والتفكير الصحيح، ومقاومة الأوهام والردائل، وبتّ روح الوئام والتفؤل بين المتساكنين على خطة الإسلام ضمن الكتاب والسنة وأثر السلف الصالح⁴، وتوظيف العقل، ومحاربة الجمود الفكري، وإعادة مجد العروبة والإسلام، والإستعارة من الغرب أحسن ما عنده من تقنيات ونماذج ثقافية ما دامت لا تتصادم مع العقيدة الإسلامية وقيم الإسلام⁵. ومقاومة الهمجية الاستعمارية التي عملت على تفكيك الروابط الاجتماعية وإثارة الفتن

1 - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، جريدة الصراط السوي، العدد 15، ص 4.

2 - أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 67.

3 - سعيد فهمي، حركة عبد الحميد بن باديس ودورها في يقظة الجزائر، ط 1، دار الرحاب بيروت، 1983، ص 90.

4 - إبراهيم أبو اليقضان، وادي ميزاب، عدد 103، 10 أكتوبر 1928.

5 - كمال عجالي، الطيب العقبي أديبا، المرجع نفسه، ص 362.

الداخلية والقبلية بغية تمزيق الأمة وإضعاف وحدتها لتحقيق أكبر المكاسب الممكنة¹.

شمل التعليم الديني في القسم التحضيري تحفيظ التلاميذ قصار السور من القرآن الكريم، وتوبييتهم على العادات الحسنة كالنظافة والنظام وحب العمل وبر الوالدين. أما القسم الابتدائي، فيتم فيه تحفيظ التلميذ القرآن الكريم من سورة البروج إلى سورة نوح خلال السنة الأولى، ومن سورة نوح إلى سورة الجمعة خلال السنة الثانية، إضافة إلى تفسير القرآن وإيقاظ العواطف الدينية لتربية التلميذ عليها¹. ويواصل التلميذ في القسم المتوسط تعليمه باللغة العربية، لغة القداسة وال تواصل بين المجتمع الجزائري. لأن كل من يبتعد عنها "ابتعد عن عبادة الله فسوف يذوق أشد العذاب والنكال"²، ويتعلم واجباته نحو الله والأسرة والمجتمع³، وحفظ القرآن الكريم من سورة الجمعة إلى سورة الرحمن، ويتلقى دروس فقه المعاملات مثل البيع والنكاح والطلاق والحضانة، وتفسير القرآن وتجويده، والحديث النبوي الشريف، والعقيدة، والآداب والأخلاق الإسلامية⁴ لتحرير وجدانه من الاستعمار الثقافي الفرنسي.

- القراءة: في ظل السياسات الاستعمارية، والمدرسة الكولونيالية التي

تغلغت في فراغ المجتمع الجزائري لتتبادل التأثير بين الأيديولوجية الاستعمارية القائمة على الوحشية والقوة الغالبة، والتعليم الفرنسي الذي يشرعن الهيمنة والتواجد الفرنسي في الجزائري عبر أجيال متتالية ومتلاحقة، كان المعلم ون يشكون فقر الكتب المدرسية التي كادت تكون معدومة، وكانت تستورد من الشرق العربي⁵، من

1 - أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص ص 174 - 177.

1 - مصطفى عشوي، المدرسة الجزائرية إلى أين؟ دار الأمة، الجزائر، 1991، ص ص 17-48.

2 - مبارك الميل، الشهاب، سبتمبر 1936.

3 - مصطفى عشوي، المدرسة الجزائرية إلى أين، مرجع سابق، ص 54.

4 - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص ص 331-332.

5 - عبد الباقي جوهر، البصائر، العدد 65، 1949/01/31، ص 7.

مصر ولبنان، وتونس والمغرب¹. فصار الذي يصل الجزائريين منها لا يفي لتنظيم البرنامج المقرر، فيضطر المعلم للتقريب والتلخيص والكتابة والتصحيح². لذلك اضطر المعلمون إلى استخدام طرق جديدة في مجال التعليم، تتمثل في طبع الأرقام الحسابية، وحروف الهجاء المرگبة والمفردة على صحائف من الموقو، والأرقام الحسابية وسور من القرآن بالحرف الغليظ، وجمل تتضمن معاني مستقلة في العبادات والعقائد والفرائض¹ بهدف تربية ملكة الذوق القائم على بناء العقل وتثبيت الأذهان وتلقي الكبار والصغار المعارف الضرورية لتصحيح ونقد المظاهر الدينية غير العقلانية². والبعد كلما أمكن عن لوم الطفل ونقده، وعقابه بعدوانية. والسماح له بحرية التعبير عن أفكاره، والتفاعل أكثر مع الأشخاص والعناصر المحيطين به دون خوف أو تردد يؤثر على شخصيته وسلوكه الاجتماعي³، وعلى توازنهم واستقرارهم من الناحية الانفعالية. لذلك كان المعلم في مدارس الجمعية: "يسيطر عذره بحسب الإمكان، ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصح وتلطف، لا بتعنيف وتعسف، قاصداً بذلك حسن تربيته، وتحسين خلقه، وإصلاح شأنه. فإن عرف ذلك لذكائه بالإشارة، فلا حاجة لصريح العبارة، وإن لم يفهم إلا بصريحها أتى بها وراعى التدرج في التلطف" يعي أن الخطأ والقصور صفتان ملازمتان لكل متعلم وقلما ينفك عنهما⁴. وتشجيعه على إيضاح القيم الخاصة بالأمانة والصراحة واحترام الآخرين وعزة النفس، وإظهار ما هو صواب وما هو خطأ من ممارسات وتصرفات، والمبادرة والمهارات في اتخاذ القرارات، ومحاولة استقصاء المجهول،

1 - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 286.

2 - عبد الباقي جوهر، البصائر، العدد 65، 1949/01/31، ص 7.

1 - سجل مؤتمر جمعية العلماء، نادي الترقى، الجزائر، مطبعة دار الكتب، الجزائر، 1982، ص ص 94-103.

2 - فاني كولونا، الأنتلجنسيا في المغرب العربي، ط 1، دار الحدائثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984، ص 289.

3 - موقع infpe. edu. DZ

4 - محمد بن إبراهيم بن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم، مصدر سابق، ص 50

وحثه على العلم. تذكيره بفضائله وفضائل العلماء¹ من خلال تعويذه على القراءة وتوجيهه لما يفيد. ليكون المرء ابن عصره في فكره وفي عمله وفي تجارته وفي صناعته وفي تمدنه وفي رقيه²، وبغرض محو الأمية³، التي جعلت السواد الأعظم من الجزائريين عبارة عن كائن فاقد لكل وسائل الصحة، وجسما نحيلًا هزيلًا دقت عضلاته، ودب ظهره وتقرطحت رجلاه، واعوجت رقبتة ويدها وساقاه، وتقوس رأسه وغارت عيناه¹. شبابه جاهل أكلته الشوارع² والآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل والفراغ، وكل ما يحرمه الشرع وينكره العقل وتحجزه القوانين الجاري العمل بها³. لأن "عمر الإنسان أنفس كنز يملكه، ولحظاته محسوبة عليه، ولكل لحظة تمر معمورة بعمل مفيد فقد أعد حظه منها وربحها، وكل لحظة تمر فارغة فقد غبن حظه منها وخسرها... فالرشيد هو من أحسن استعمال ذلك الكنز الثمين... فعمّر وقته بالأعمال، والسفيه من أساء التصرف فيه فأخلى وقته من العمل"⁴.

كانت طريقة التعليم تعتمد في عمومها على شرح النصوص وعلى طرح الأسئلة وتلقي الأجوبة، وتجمع بين الحفظ والفهم بمعنى أنها لم تكن تقتصر على طريقة الحفظ والتلقين بدون فهم كما كان شائعًا في ذلك الوقت. وإنما كانت تؤكد على الفهم حتى بالنسبة للمستويات الأولى أين ينبغي أن تعطى بعض الشروحات التي تتناسب مع قدرات التلاميذ وإمكانياتهم بدلًا من حشو أذهانهم بمحفوظات لا يفقهونها ولا يفهمونها⁵.

¹ - أبو زكرياء محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المجموع شرح المهذب، ج1، مصدر سابق، ص 30.

² - الشهاب، العدد 49، السنة الثانية، 23 أوت 1926.

³ - فاني كولونا، مرجع سابق، ص 289.

¹ - محمد الغسيري، مصدر سابق.

² - عبد الحميد بن باديس، الشهاب، ج 1، المجلد 14، مارس 1936.

³ - محمد البشير الإبراهيمي، سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 73.

⁴ - الشهاب، الجزء، 2 المجلد 7، مارس 1931.

⁵ - المرجع نفسه، ص 233.

- اللغة العربية: بما أن الاستعمار أفقد المجتمع الجزائري لغته¹، فقد أولت

الجمعية الاهتمام الكبير للغة العربية، وخصصت لها الجزء الأكبر من الحجم الساعي مقارنة بباقي المواد الأخرى التي يتعلمها التلاميذ في مختلف مراحل التعليم الثالث (15.5 ساعة في المرحلة التحضيرية، و 11 ساعة في المرحلة الابتدائية، و08.5 ساعة المرحلة المتوسطة).

اعتمدت السياسة التعليمية للجمعية على تلقين التلاميذ قواعد اللغة العربية التي تتضمن تعليم الحروف الهجائية والمحادثة والإملاء والمحفوظات والإنشاء، في أسهل التراكيب وتمكينها بالتمارين التطبيقية لتكوين ثروة لغوية لدى التلاميذ. وتقويم النطق لديهم وتعليمهم تركيب الجمل ومعاني الكلمات والاشتقاق النحوي، وإصلاح اللهجات التي حرّفتها العامية الفرنسية عن سبيلها العربي وعلى هيئتها ومخارجها. والتشجيع على الكتابة بأحرفها، والتكلم بها أمام الناس¹. وكان تعليم القرآن الكريم ومبادئ الفقه الإسلامي على الطريقة التجديدية للحركات السلفية الإسلامية، والحديث والتفسير من كتب الحديث الصحيحة وأمّهات التفسير²، وإرشاد الطالب إلى كيفية القراءة المسترسلة وطرائق البحث في التاريخ، والاجتماع، والأدب، ودراسة أمّهات كتب التراث الإنساني والعربي قديمه وحديثه³. فبدونها لا يستطيع المرء أن يعرف مبادئ دينه. لهذا أفردت مدارسها مجموعة من الكتب منها: الجزء الأول والثاني من كتاب "مبادئ القراءة الرشيدة"، وكتاب "كيف أكتب" في مادة الإنشاء، و"الجديد في المحفوظات"، و"القراءة المصور"، و"النحو الواضح"، و"الإنشاء الصحيح". ولم تنس الجمعية يوماً أن استعمال اللغة العربية لأغراض دينية، إنما يساعد على مقاومة التبشير في القطر الجزائري الذي كاد أن ينجح وثمر

¹ - عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان، مرجع سابق، ص 9.

¹ - سجل مؤتمر جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 65.

² - المصدر نفسه، ص ص 65-67.

³ - المصدر نفسه، ص 60.

"ويأتي بنتائج أكثر مما يأتي به في أقطار أخرى لعدة اعتبارات، أولاً: تقادم عهده، وثانياً: صولة الاستعمار الذي يحميه، وثالثاً: فشواً الجهل والامية والفقر في الأمة التي هي فريسة التبشير، ورابعاً: انتشار الطريقة... وخامساً قعود علماء الدين عن المقاومة وسكوتهم عن المعارضة... ولعمري كيف تستطيع أن تقاوم جمعيات منظمة من ورائها أمم غنية تغدق عليها المال، مجهزة بالجيوش الوفيرة من الرهبان والراهبات والأطباء والممرضات"¹.

- **الخط العربي** : يظل الخط العربي عند العلماء هو الرابط القومي للحضارة العربية، وركيزة أساسية في ثقافتنا الإسلامية ، وهو التركيبية المنفردة في الجمال والأناقة و القواعد الهندسية والمساحات المدروسة. يعبر عن أعماق التأثيرا في الوجود الروحي و الإبداعي للإنسان العربي ، وعن تطور الأمة وأصالة تراث يحفل بكل أشكال العلم والمعرفة، وقواعد تميزه عن غيره من الخطوط. وهو الخط المستقيم (لثقافتنا) المشرقة الذي نعتز بها كأمة جزائرية ، والذي لم يكن منحرفاً يوماً ما أدنى انحراف. وهو أكثر إنتشاراً من اللغة العربية¹ التي منحتة المهابة والقداسة باعتبارها "اللسان المبين الذي حفظه الله مع الذكر الحكيم²"، المهلتحم أشدّ الالتحام بالعقيدة التي تعتبر الرابطة الأساسية للأمة، ومتجذرة في الدين لما لها من أثر وتأثير في ضبط قيم وقواعد واتجاهات وسلوكات الأفراد. ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾³.

- **الحساب والهندسة و علوم الطبيعة**: كانت من التوجيهات والمقررات المعتمدة في البرنامج التربوي للجمعية حيث ضُمَّن الكثير من المواد العلمية التي من

1 - أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 196 - 197.

1 - فتحي جمعة، اللغة الباسلة، ط5، دار النصر للنشر والتوزيع، 2000، ص 200.

2 - محفوظ حافظ، اللغة العربية في مؤسسات التعليم العام والعالي، الموسم الثقافي السادس لمجمع اللغة العربية الأردني، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، الأردن، 1988، ص 85.

3 - سورة العلق، الآية 5.

شأنها التنقيف "العقلي والتكوين الفكري والتهديب الخلفي" ¹، وما يكون مفيدا للملكة العقلية. ومن أهم الكتب التي اعتمدت في هذه المادة، كتاب "الجديد في الحساب" الذي يتكون من خمسة أجزاء.

- اللغات الأجنبية: حثت في برامجها على تعلم اللغات الأجنبية، لأن العلماء

كانوا يدركون القيمة التربوية للتعليم اللائكي، واعترفوا طواعية بالخدمات التي قدمتها المدرسة الفرنسية للجزائر ¹، وأدركوا أن الوحدة الوطنية لا يمكن أن تتحقق في ظل لغة واحدة. وهذا ما عبر عنه عبد الحميد بن باديس عندما قال: "توجد في هذه البلاد لغتان شقيقتان على شاكلة الإخوة والوحدة الضرورية لأولئك الذين ينطقون بها...إنهما العربية والفرنسية، ونأمل في أن تتعاون السلطات المسؤولة والشخصيات التي تتمتع بالوسائل المادية حتى تحقق تعليما مزدوجا فرنسيا وعربيا يستفيد الجميع من ثمراته" ² لأن كل أمة ترغب في التقدم والخروج من مآسي التخلف عليها "أن تستثمر ثمار تلك العقول الناضجة وتكتنه ذخائر الأحوال الجارية، أن تكون عالمة حية من لغات أوروبا. وكل أمة جهلت جميع اللغات الغربية، فإنها تبقى في عزلة عن هذا العالم، مطروحة في صحراء الجهل والنسيان من الأمم المتمدنة التي تتقدم في هذه الحياة في سرعة لم يسبق لها مثيل" ³. وقد كانت الجمعية أكثر فقها للواقع عندما جعلت اللغة العربية أداة للتعليم، وجعلت اللغة الفرنسية مقورا دراسيا في حدود إمكانياتها لتؤكد كما يقول علي مراد على انفتاحها في سياسيتها اللغوية على اللغات الحاملة للعلوم فقال: "هكذا نرى بأن المذهب الثقافي الإصلاحية لم يكن من الوجهة القبلية منغلقا على كل ما هو أجنبي على العروبية. فالعديد من الشخصيات الإصلاحية (وهي ذات صيت وشأن) الواعية بعدم فعالية

¹ - سامية جفال، مرجع سابق، ص 252.

¹ - علي مراد، الحركة الإسلامية الإصلاحية في الجزائر من 1925 إلى 1940، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، تر: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 422.

² - المرجع نفسه.

³ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ص 225.

الأحادية اللغوية العربية الصرف في المجتمع الجزائري الحديث، بذلوا كل ما في وسعهم لتزويد أبنائهم الشخصيين بتكوين فرنسي متين.¹

لم يخف عل الجمعية أن اللغات تدرّس لتحقيق عدد من الأهداف منها أن الجمعية أدركت أن الدافع أصبح تقليدا² لتمييز طبقة الصفوة على العامة، وأن لا صوت لمن لا يكتب بالفرنسية. ولعل أهمها تمييز طبقة الصفوة على العامة. لذلك حين دعت إلى الانفتاح على اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفرنسية، أرادت أن تكون الثنائية العربية الفرنسية ثنائية مدرسية علمية (تدرس في المدرسة فقط) لا ثنائية ثقافية مجتمعية (اللغة الفرنسية الحاملة للثقافة). أي تعليم اللغة العربية كلغة التفاعل الاجتماعي والاستعانة باللغة الفرنسية ليظل الجزائريون بعيدون كل البعد عن فرنسا "في لغتها وفي أخلاقها وفي عناصرها وفي دينها"¹. ويقظون من خطر الاستعمار، ومستشعرين طريقة تفكيره.

- **الأشغال اليدوية والتمارين الرياضية:** لم تكن توجيهات مدرسة الجمعية في تربية الجانب الجسمي مجرد شعارات وإنما ترجمتها فعليا في مناهجها التربوية، حيث خصصت جزءا كبيرا لممارسة التربية البدنية بتأسيس نوادي رياضية وفرق الكشافة الإسلامية. ومن أهم التوجيهات التي كانت تقدم للتلميذ:

- حافظ على صحتك فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك، ولن يتم الحفاظ عليها وتنميتها إلا عن طريق النظافة والتغذية والرعاية الكاملة².

كانت القوة مطلبا مهما، وفضيلة من الفضائل التي اعتنى بها رجال الجمعية وعلمائها. والقرآن نفسه عندما يستعمل لفظ القوة، يقصد بها صدق العزيمة وصلابة الإرادة. ومتى اجتمعت القوة والأمانة في شخص معين كان ذلك أحرى

1 - المرجع نفسه، ص 424.

2 - المرجع نفسه، ص ص 207-208.

1 - عمار طالبي، ابن باديس حياته وأثاره، مرجع سابق، ص 383.

2 - عبد الكريم بوصفصاف، الفكر العربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص ص 433 - 434.

بالقيام بعمله على الوجه الأكمل . إذن ففوة الفلاح تكمن في بدنه، وقوة الصانع تكمن في معرفته بصنعتة ومهارته فيها، والمدرس تكمن قوته في معرفته بتخصصه وحسن تعليمه¹، وهكذا فإن القوة في كل مهنة بحسبها قوة ومعرفة واثقانا.

- تجنب العفونة فإنها مصدر جرائم الأمراض ومثار نفور وبغض لطلعتك، ومجلبة سب لجنسك ولدينك الشريف.

- نظف بدنك ، نظف ثوبك تبعث الخفة والنشاط في نفسك وتنبل في عين غيرك وتجلبه إلى الاستئناس بمعاشرتك.

- حافظ على حياتك ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك.

- حافظ على عقلك فهو النور الإلهي الذي منحتة لتتهدي به إلى طريق السعادة في حياتك فاحذر كل " متعيلم " يزهديك في علم من العلوم فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة وخدم علماء الإسلام - بالتحسين والاستنباط - ما عرف منها في عهد مدنيتهم الشرقية والغربية حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوربا اليوم.

- **دروس المشاهدة و التاريخ والجغرافيا**¹ : رغم أن الاستعمار الفرنسي حظر على الجمعية تدريسها، إلا أنها جعلتها مادة أساسية في مقرراتها، وفرضت على التلاميذ تعلمها ابتداء من المرحلة الابتدائية. لأن التاريخ والجغرافيا كانا عند جمعية العلماء مرجعية فاعلة في منهاج التكوين المدرسي²، وأصبحت المدرسة وسيلة ووظيفية لبناء طلاب الغد تحت شعار "حب الوطن من الإيمان" بالتضحية في سبيله وحب ترابه وتراثه والاعتزاز به والارتباط الوثيق به ، بهدف الوحدة

¹ - المرجع نفسه، ص 62-63 .

¹ - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص ص 177-280.

² - أحمد مريوش، دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنية الجزائرية ما بين-1952 1931، مرجع سابق، ص124

والتماسك ونبذ الخلافات التي تهدد الوحدة الوطنية. يقول الإبراهيمي: "لا يماري في لزوم الاتحاد إلا قصير النظر في العواقب، أو خادم لركاب الاستعمار من حيث يدري أو لا يدري، أو مدخول النسب في الوطنية، أو مغطى البصر في العصبية الحزبية، أو سيء العقيدة في الإسلام و العروبة، انهم في إخلاصه لهما"¹. وفي سبيل تحقيق ذلك، بذلت جهودا كبيرة انتهت بتأليف مجموعة من الكتب في التاريخ الوطني، اعتمدت كمقررات دراسية في:

1 - المرحلة الابتدائية:

أ - السنة أولى: تمكنت الجمعية من اجتياز الاعتماد على الكتب والمقررات التي كانت تجلبها من دول المشرق العربي (مثل موجز تاريخ العرب قبل الإسلام، ومختصر السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين) إلى إصدار كتب من تأليف علمائها الأجلاء مثل كتاب "الجزائر" لأحمد توفيق المدني، و"تاريخ الجزائر القديم والحديث" في جزأين لمبارك الميلي، و"تاريخ الجزائر العام" لعبد الرحمن الجيلالي¹ لبعث التراث العربي والإسلامي الجزائري، ونقل ثقافة المجتمع من جيل إلى آخر تمكنه من تعلم قيم ومعايير الجمعية، تسمح له باستخدامها - ثقافة المجتمع الجزائري - كمرجع للتعريف بهويته. وترشده في سلوكه، وتساعد التلميذ أن يتعايش سلوكيا مع أفراد مجتمعه، وأن يستوعب الواقع الوطني استيعابا موضوعيا نافذا يتيح له أن يتحرك في مجتمعه ومع وبه في اتجاه صياغة جديدة للحياة تحقق للمجتمع واقعا أفضل من واقعه المماثل².

ب - السنة الثانية: اعتمد على كتاب موجز تاريخ الأنبياء، وتاريخ الإسلام في الجزيرة العربية، لإعادة الروابط الأخوية والروحية للجزائريين مع العالم

¹ - محمد البشير الإبراهيمي: دعوة مكررة إلى الإتحاد، عيون البصائر، العدد 15، 1947، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ت، ص ص 337-338.

¹ - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص ص 334 - 335.

² - رابح تركي، دراسات في التربية الإسلامية، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1978، ص 190.

العربي والإسلامي، لترسيخ الانتماء العربي الإسلامي، وتنشئة جيل يحب كل ما هو عربي - إسلامي، ويبغض كل ما هو فرنسي، وذكر الغزو الخارجي للجزائر قبل الإسلام، والفتح الإسلامي للجزائر¹.

2 - المرحلة المتوسطة: اعتمدت الجمعية على محاور أهمها: التاريخ

المأثور (تاريخ الخلق وعامة الأنبياء والرسول خاصة)، وتاريخ الإسلام (سيرة النبي ﷺ والخلافة الرشيدة، فضلا عن دروس في الخلافة الأموية والعباسية والحروب الصليبية والثورة الفرنسية)، وتاريخ الجزائر (الفتوحات الإسلامية، والاستتجاد بالأتراك، والحملة الفرنسية على الجزائر، ومقاومة الأمير عبد القادر الجزائري، وحروب العصابات). يتدرج التلميذ في ذلك إلى أن يصل إلى تاريخ الجزائر في القرن العشرين¹. وهذا ما كان يدب الرعب في قلوب الفرنسيين، لأن التعليم الذي كانت الجمعية تسعى إليه ينشئ التلميذ على مبدأ: "نحب من يحب وطننا ويخدمه ونبغض من يبغضه ويخدعه ويظلمه... ونخلص لكل من يخلص لهو نناوى كل من يناوئه من بنيه وغير بنيه"². وعلى إحياء حلقة كانت مفقودة³ بين الجزائر والمشرق حضاريا وسياسيا، ولقد استعمل العلماء لذلك سلاح الهجوم اللغوي والعقدي ضد فرنسا، وتحول التاريخ عندهم إلى معاداة للغرب كما نشروا بين أطفال المدارس فكرة الخروج على التقاليد البالية والإقليمية الضيقة والانتماء إلى الإسلام⁴ العالمي. ويستشهد أغستين بيرك في ذلك على التعليم في مدرسة دار الحديث بتلمسان ومدرسة الفلاح بوهران⁵. هذا وقد دُعمت هذه البنية الوطنية بمقررات تلقن الناشئة المحفوظات و الأناشيد الوطنية المفعمة بالحماس الوطني والقومي يرددها طلبة مدارس الجمعية في المناسبات المختلفة منها:

¹ - مصطفى عشوي، مرجع سابق، ص ص 50-51.

¹ - المرجع نفسه، ص 65.

² - احمد الخطيب، مرجع سابق، ص 235

³ - J.Desparmet. Op. Cit. P: 387.

⁴ - محمد عزت الطهطاوي، مرجع سابق، ص 85.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، مرجع سابق، ص 252.

يا بلادي يا بلادي أنا لا أهوى سواك

قد سلا الدنيا فؤادي و تفانى في هواك¹

أو:

شعب الجزائر مسلم و إلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجه رام المحال من الطلب
يا نشء أنت رجأونـا و بك الصباح قد اقترب
خذ للحيـاة سلاحها و خض الخطوب ولا تهب²

كرست الجمعية لمادة الجغرافيا حصتين لمدة ساعتين في الأسبوع، لما لها من أهمية كبيرة في بناء الفكر الوجدوي في المنطقة، وتوسيع مدارك المعرفة الجغرافية. وأفردت لها مقررات مكتوب على غلافها الخارجي الشعار الذي يلخص الثقافة الشخصية الحضارية³ "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا". وقد تضمنت هذه المادة مجموعة من الدروس أهمها: دروس خاصة بجغرافية الجزائر⁴ (تصميم خرائط محلية لمختلف مناطق الوطن، وتضاريس الجزائر ومعالها حدودها)، صاحبها القيام برحلات استكشافية للوقوف عند الواقع الجزائري، وغرس حب الجزائر في قلب التلاميذ، والتأكيد على انفصال الجزائر عن فرنسا تاريخيا وطبيعيًا، وتنفيذ ادعاءاتها برومنة romanisation الجزائر ووصل الأحفاد بالأجداد

¹ - أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد، ط3، الدار العربية للكتاب، 1984، ص34

² - من جميل ما قاله الشيخ عبد الحميد بن باديس في جوان 1937 تلك القصيدة التي سماها "تحية المولد الكريم"، لكنها اشتهرت بمسمى آخر هو نشيد شعب الجزائر مسلم. وقد بلغت أبياتها الأربعين على مجزوء الكامل. أنظر: الشهاب ج4، 13 ربيع الثاني 1356 هـ/11 جوان 1937

³ - عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، ج 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994، ص 744.

⁴ - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص340 .

الرومان.¹ ليتتكر التلميذ لهويته التي تحقق الوحدة والانسجام بينه وبين أفراد مجتمعه¹، ويتصل من تراثه الذي ينتمي في نظره إلى أمة متعصبة، ويُعدّل سلوكه لما يقتضيه المجتمع الجديد فيصبح معتدلاً² وصالحاً وناضجاً نحو الأشخاص الآخرين بالمفهوم الكولونيالي، ولا يشعر أبداً بهويته العربية الإسلامية، وانتمائه الأمازيغي الجزائري.

الإضافة إلى جغرافية الجزائر، وباعتبار أن "الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي شلة من المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان ذلك الدين"³، كان التلميذ يدرس دول المغرب العربي المجاورة (تونس والمغرب الأقصى)، وجغرافية الوطن العربي الإسلامي⁴ لربط الجزائر بالعالم العربي والإسلامي الذي حاولت فرنسا سلخها عنه.

تدرجت الجمعية في غرس المفاهيم الوطنية من الوطن الأم الجزائر إلى وطن الجوار دول المغرب العربي إلى الوطن الأبعد فالأبعد. لهذا كان التلميذ يدرس جغرافية العالم، ويتعرف على المبادئ العامة للجغرافيا، مثل الأرض وشكلها وحجمها، ومختلف تضاريس الكرة الأرضية، وكيفية معرفة الاتجاهات الأربع على الأرض والخريطة معا⁵. معتمداً في ذلك على كتب خاصة منها ما كُتب بأقلام وطنية مثل "جغرافية القطر الجزائري" للأستاذ توفيق المدني⁶.

إن النجاح الباهر والكبير الذي حققته مدارس الجمعية على مستوى عمالة وهران، جعل الإدارة الفرنسية تورد في تقرير سري لها في الخمسينيات، أن العلماء يمثلون أكبر خطر على الاستعمار الفرنسي ووجوده بالجزائر، لأن شعبا مدارسه

¹ - أحمد بن نعمان، مرجع سابق، ص 230.

¹ - Slimane Cheikh. L'Algérie en armes ou le temps des certitudes. Casbah. Edit. Alger. 1998. PP: 14-17.

² - نعت وصف لمن يسالم ويهادن فرنسا.

³ - محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، مرجع سابق، ص 33.

⁴ - مصطفى عشوي، مرجع سابق، ص 57.

⁵ - مصطفى عشوي، مرجع سابق 1991، ص 57.

⁶ - رابح تركي، مرجع سابق، ص ص 178-279.

عبارة عن خلايا سياسية، والإسلام الذي يمارسونه هو مدرسة حقيقية للوطنية التي مكنتهم من التأثير الكبير والعميق على العائلات الكبرى والأثرياء وأصحاب المال، وإن أكثر من 40% من السكان معهم¹. لهذا بدأت تكثف من أخلاقياتها السيئة المتمثلة في مضايقاتها لهذه المدارس ومعلميها لنتيها عن الاستمرار في مسارها . وذلك بتوجيه تهم التشويش ومعاداة الاستعمار الفرنسي، وضخ الحقد والخوف لدى الطرفين لإثارة أتباعهم لمعاداتها خاصة في الأرياف. لأن حالة الاضطهاد الذي كانت تعيشه الثقافة الجزائرية، اضطهادا داخليا يساهم فيه أبناء هذه الثقافة، واضطهادا خارجيا تغذيه الثقافة الفرنسية الاستعمارية بصورة مباشرة أو غير مباشرة. لها أبعاد تاريخية وأبعاد إيديولوجية وأبعاد نفسية وأبعاد سياسية واقتصادية بما يساهم في تدميرها تدميرا ذاتيا. وهي نقاط ناشئة حسب رأينا من انعدام التمييز والتفكير والعقلنة.

لم تكثف الجمعية بذلك بل دخلت في صراع مرير مع الطريقة الذين اعتبرتهم مجرد أصحاب مصالح مستقرة ، هيمنوا على الحياة الاجتماعية والثقافية لمدة طويلة²، وسارعوا إلى تحذير الإدارة الفرنسية من الخطر الداهم³ لجمعية العلماء المسلمين، بعدما أكدت التقارير الفرنسية السرية أنه كلما أشرف أحد رجالاتها على تجمع في أحد المساجد إلا وحضره مناضلون سياسيون من مختلف التشكيلات السياسية الوطنية بما فيهم بعض المسؤولين المحليين من الحزب الشيوعي⁴، وهم يعلمون أنّ "المسألة مسألة الأمة كلها، لا مسألة جمعية العلماء وحدها"⁵، وطالبوا بالتضييق على رجالها وإكراههم على التخلي عن جمعيتهم¹،

1 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 103.

2 - علي مراد، مرجع سابق، ص 66.

3 - وظفت فرنسا العديد من الزوايا لمعارضة التيارات السياسية والإصلاحية في الجزائر منذ 1920 .
أنظر: أبو القاسم سعد الله، المصدر نفسه، ج4، ص ص 50-51.

4 - Bulletin Mensuel de Presse Indigène d'Afrique. Aout 1934. Microfilm.

Bibliothèque de Hamma .

5 - محمد خير الدين، للحقيقة والتاريخ في الزوايا، البصائر، العدد 124، 29 جويلية 1938، ص 2.

وإبعادها عن المساجد الرسمية والأوقاف، لذلك عُقد مؤتمر "جمعية اتحاد الزوايا الدينية لإفريقيا الشمالية" سنة 1948، الذي ترأسه الشيخ "غلام الله الحاج محمد". وأجمع المؤتمر فيه على توحيد كلمتهم، وتحويل الحبوس إلى المفتين، ودعوا الحكومة الفرنسية إلى إنشاء لجنة تنفيذية مؤقتة تسهر على الأوقاف وتتولى شؤون المساجد وموظفيها، واعتبروا أن فصل الدين عن الحكومة الفرنسية، مسألة منافية للتقاليد الإسلامية¹. لأنهم كانوا يرون في أنفسهم الأولى في تعمیر وتسيير المساجد والحبوس لأنهم أهل الطهارة والدين. وأن الجمعية "الوهايية" مناهضة للدعاية الفرنسية، وتشكل خطرا على النظام الداخلي. لأنهم يلقون في المساجد خطبا سياسية بعيدة عن الوعظ الديني² بدعوى الإرشاد الديني. لقد كان وا يقارعون الاستعمار بدعوى "نسخ الأحكام الإسلامية وعبث بحرمة المعابد وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأمية، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير و تفكير"³، رغم أنهم أكدوا في مبادئ الجمعية أنهم غير معنيين بالسياسة وليس معنى ذلك أنهم غير مهتمين بالسياسة. يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله في هذا الصدد: "والإصلاح بالمعنى الشامل قد يبدأ بالثقافة أو بالدين أو بالمجتمع و لكنه في نهاية الأمر يغطي كل مظاهر الحياة في مجتمع ما بما في ذلك السياسة... الإسلام كما هو معروف دين ودولة، ولا يمكن أن نتحدث عن الإصلاح في الإسلام مجردا من معنى الدولة وهذا حتما هو عين السياسة"⁴.

وجدت الجمعية في الزوايا أحد ثلاث أهم الآفات التي تهدد الجزائريين حيث كتبت الشهاب تقول بأن الجزائريين يعانون من ثلاثة أعداء: العدو الأول هم

¹ - آثار الإمام ابن باديس، ج 5، ص 394.

¹ - الإبقاء على قانون 09 ديسمبر 1905 القاضي بفصل الكنيسة عن الدولة، وقانون 27 سبتمبر 1907 القاضي بفصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية، وتقنين الخطب الدينية، وإبقاء المساجد تحت إرادة مدراء الشؤون الأهلية.

² - Ali Merad. Op. Cit. PP: 130-131.

³ - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، مطابع الشرق، بيروت، ص 22.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 89.

المعمرون "الذين اكتسحوا أوطاننا باسم الاستعمار المادي"¹، وتوصلوا باسم فرنسا إلى ما لا يرتضيه أبداً أبناءؤها، الثاني هم رجال الزوايا"² أو الاستعمار الروحاني الذي يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب والمتغلغلون في جميع أوساطه، والمتجرون باسم الدين والمتعاونون مع الاستعمار عن رضا وطواعية"³. "الذين امتصوا أمخاخ العجزة الغفل من الجاهلين، الثالث بعض القياد الذين لم يرحموا أهل البدو، وهم عيال الله من الفقراء والمساكين"⁴. ومن جهة أخرى، ومن خلال تشخيصها لحالة الجزائر الثقافية المتدهورة التي تعاني منها، وجدت أن البلاء المنصبّ عليها يكمن في "جهتين متعاونتين عليه، أو بعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويفسدان عليه دينه ودنياه، استعمار مادي وهو الاستعمار الفرنسي..."⁵. وانطلاقاً من هذا التشخيص، انطلقت الجمعية في دعوتها الإصلاحية من محاربة الاستعمار الثاني الذي رأت فيه أعظم بلاء أصاب هذه الأمة لأنه يهدد كيانها بصفة مباشرة حتى استعصى على العلاج"⁶. لذلك هاجم منصور لخضر عضو الجمعية بمنطقة سيدي بلعباس "الشعوذة التي تمارسها الطرقية"⁷، بغية تثبيط الهمم المتوتبة تبريد للحمية الفائرة، وفي التبريد من الأضرار ما أيسره - في مثل أمتنا - معاودة الهجوع وهي قريبة عهد به، مع كثرة الأيدي المهدئة، وتجاوب النغمات المهددة، لإعادة النائم إلى نومه"⁸. كي يظل المجتمع الجزائري يخضع خضوعاً لا مشروطاً للشيخ الذي يستغل باسم الدين، أموال الناس وعقولهم، وينزل

1 - البصائر، العدد، 113، 13 ربيع الأول 1357هـ، 13 ماي 1938م، ص ص 2-3.

2 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر - مصدر سابق، ص 220.

3 - المصدر نفسه، ص 220.

4 - الشهاب، العدد 117، 31/10/1927، ص ص 13-14.

5 - محمد البشير الإبراهيمي، مصدر، ص 220.

6 - البصائر، العدد، 113، مصدر، ص ص 2-3.

7 - A.W.O . Rapport de police du 03/05/1950. N° 525. carton 6987. dossier Oulémas

8 - البصائر، العدد 173/172، مصدر ص 2.

في قلوبهم الرعب والخوف¹. وخاض الشيخ مزهودي إبراهيم مفتش مدارس الجمعية حرباً شرسة ضد الطرقية في عمالة وهران². وخاصة عند زيارته لمعسكر سنة 1954 أين وجه إليها تهمة إبقاء الجماهير المسلمة في الجهل، لأنها الشر والباطل والمنكر والضلال والطريقة المشؤومة التي لا تبالي بالتجديد الديني والروحي والثقافي الذي كانت تسعى إليه الجمعية. وفي نفس الفترة قاد الشيخ الإبراهيمي من سيدي بعباس، حملة قوية ضد الأفكار المرابطية التي ظلت عائقاً أمام تقدم وتطور المجتمع الجزائري³، خاصة وأن تصفية الأفكار الميَّنة (الموروثة)، تعتبر الأساس الأول لأية نهضة حقه⁴. وأكد على الأساليب الإستعمارية لهذا المحتل الذي يصر على تعيين أئمة لا يستطيعون قراءة خطبة ورثوها عن آبائهم أو أجدادهم إلا بصعوبة، بغض النظر أن يبتكر أحدهم "خطبة تتناسب مع الزمان والمكان"⁵، وكيف "أوغل رؤساء البدع وأئمة الضلال منهم في "الاتصاف بأوصاف الربوبية"⁶، و"إرهاقهم للأمة واستغلالهم الجمهور المستعبد لهم والمسخر لشهواتهم باسم الدين حتى باتوا "يعتقدون في شيوخ المرابطين على أنهم واسطة تقربهم إلى الله"⁷، "ولم يقفوا في استثمارهم لجهوده وامتصاص دمه ... فكان من حقه أن يستفيق

¹ - عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931 - 1945، دائرة الدراسات التاريخية، جامعة قسنطينة، 1983، ص 197.

² - لم تعلن الجمعية الحري على كل الزوايا بل عند زيارة الشيخ ابن باديس زاوية غلام الله آل سيدي عده بتيارت أطلعوه على بعض تأليف جدهم، قال: رأيت منها كتاباً قد ملئ بأحاديث البخاري ومسلم ومسائل الفقه كان يدرسه للناس فأعجبت به، وقلت: هكذا نحب لمن يُريد أن يكون شيخاً أن يكون، وهكذا نحب أن يكون إرشاد مشائخ الطرق بالحديث وتعليم مسائل الفقه. أنظر: آثار ابن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص 254.

³ - A.W.O Rapport de police du 11/08/1951. N° 08768. carton 6987. dossier Oulémas.

⁴ - زكي مبارك، مرجع سابق، ص 24.

⁵ - مصلي التونسي، الإمامة والخطابة عندنا، الشهاب، ج 1، العدد 93، قسنطينة، 1927/09/21، ص 8.

⁶ - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 351.

⁷ - مبارك الملي، رسالة الشرك ومظاهره، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1966، ط2، ص 102.

ويحاول التملص و لتخلص من برائن أولئك المفترسين و الطواغيت المعتدين ومن أظلم ممن يحاول إبقاء الأمم و الشعوب، خاضعة لسلطة غيه و سلطان جوره و بغيه، دون أن تنتبه في يوم من الأيام¹.

إن مشكلة المجتمع الجزائري أنه كان يعيش مرحلة مرضية تنتقل فيها الجرثومة (الأفكار المرضية) من جيل إلى جيل، فنتج نموذجا الأصلي (الفاقد) بلا مناعة، أي أنها ستنتج أفكاراً وأشخاصاً وأشياء فتاكة². فكانوا (الطريقون) كمسيلم الكذاب³، غايتهم " النفوذ! والشهرة! والسمعة! والمكانة! فهل أبقوا من مظاهر السلطان والسيادة والكبرياء والعظمة والاستيلاء شيئاً؟ هذه هي غايتهم: أن يبقوا سادة على الناس، وأن يبقوا الناس مستعبدين لهم. أين هي التربية؟ أين هو التعليم؟ أين هو نشر الإسلام؟ أين هي مقاومة المفسد والشور؟ أين هو الوعظ والإرشاد؟ هذه كلها أمور لا ذكر لها عندهم، لأنهم يخافون منها على سلطانهم⁴ لأنهم أتباع الاستعمار وحيواناته الطغاة⁵ الذين نأوا بالفكر والفهم في معرفة الأشياء والوجود أشواطاً بعيدة، أو لأن النثر في طبيعته الحالية يميل إلى الوضوح⁶.

هذه الصياغة في الكتابة، وهذا الزجر والردع الشبيه بالعقوبة، وهذا الهجاء الذي انتهجه الشيخ العربي التبسي والشيخ العقبي في حربهما على الطريقين في كثير من عناوين مقالاتهما مثل: "لقد سمعنا باطلك فأين حقاك"⁷ وقوله: "إن كنت حاملا

1 - أحمد مريوش : الشيخ الطيب العقبي و دوره في الحركة الوطنية الجزائرية ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، ص 450.

2 - زكي مبارك، مرجع سابق ، ص ص 202-203-206.

3 - عيون البصائر، مصدر سابق، ص 287

4 - آثار ابن باديس، إعداد د. عمار الطالبي، ج 5، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997، ص ص 61-162.

5 - بوصفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء الجزائريين المسلمين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945)، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1981، ص 190.

6 - كمال عجالي، الطيب العقبي أديبا، رسالة دكتوراه الدولة في الأدب الحديث، جامعة قسنطينة، معهد اللغة والأدب العربي، 1997-1998، ص 439.

7 - العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، جمع وتعليق: د. شرفي أحمد الرفاعي، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1981، ص 81.

فلدي غلاماً¹. و"قد ضل من كان مثل هذا يهديه"²، و"قولوا وأقول"³، وطالبا أن يعرض الطرقيون "يعرضوا كتاباتهم إلى علماء المعاجم اللغوية والصناعة النحوية، فإنه أصاب اللغة العربية منهم، ما لو علمه سيبيويه في قبره والأصمعي في مضجعه لقاما من تحت التراب، ورفعاً قضية في إحدى محاكم الجنايات على هؤلاء الكتاب الذين أفسدوا لغة العرب والإسلام"⁴.

عاب الكثير من الكتاب على الجمعية اشتغالها بالردّ على الطرقيين وبدلّ جهد كبير في ذلك، على حساب مباحث العلم والصناعات، مقللاً من أهمية عملها هذا، وعلى هؤلاء أجاب الإبراهيمي: "وقد يظنّ الظّائون وتنتطق ألسنتهم بهذا الظنّ، أنّ هذه المنكرات التي نحاربها ونشتدّ في حربها هي قليلة الخطر، ضعيفة الأثر، وأننا غلونا في إنكارها، وأنفقنا من الأوقات والجهود في حربها، ما كان حقيقاً أن يصرف في ناحية أخرى أهمّ، كالإصلاح العلميّ؛ وفات هؤلاء أنّ اللوازم القريبة لتلك المنكرات التي تشتدّ الجمعية في محاربتها التزهيد في العلم وإفساد الفطر وفشل العزائم، وقتل الفضائل النفسية، وإزالة التّقة بالنّفس من النّفس، وتضعيف المدارك وتخدير المشاعر"⁵.

انطلاقاً من هذه المواقف ، لن نستغرب إن طالب أعيان مدينة تلمسان الحكومة الفرنسية بطرد الشيخ الإبراهيمي من المدينة وتحويله إلى مدينة سطيف ، وإن أبدى الطرقيون تخوفاً كبيراً من انتشار الفكر الإصلاحي الذي كان ملتزماً "بالقضايا الوطنية أشد الالتزام ... يكتبون عنه ويتحاورون حوله ، ربما كل حوارهم

1 - المصدر نفسه، ص 89.

2 - المصدر نفسه، ص 105.

3 - كمال عجالي، الطيب العقبي أديباً، رسالة دكتوراه الدولة في الأدب الحديث، جامعة قسنطينة، معهد اللغة والأدب العربي، 1997-1998، ص ص 445-446.

4 - العربي التبسي، مصدر سابق، ص 85.

5 - سجل مؤتمر جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 61.

حواله يطول أشهراً معدودات"¹. فعمدوا (الطرقيون) إلى تأسيس عدة جمعيات² منها "جمعية رؤساء الطرق الدينية" التي تأسست سنة 1937 برئاسة مصطفى القاسمي رئيس الطريقة الرحمانية، بتشجيع من إدارة الشؤون الإسلامية التي يرأسها ميلو³، والتي قامت بزيارة إلى معسكر وغيرها من مناطق عمالة وهران. وجمعية "الزوايا والطرق الدينية لشمال إفريقيا" التي خطب في مؤتمرها التأسيسي الشيخ شنتوف عدة قائلًا: "بصفتنا رجال دين لا يحق لنا الخوض في السياسة ولا يجب أن نتهمنا الإدارة بالتهم التي وجهتها إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"⁴. ورابطة الزوايا ورؤساء الجمعيات الدينية⁵ التي تأسست بمنطقة سيدي بلعباس بتاريخ 26 ديسمبر 1939م. وجمعية التربية والتعليم القرآني في 05 مارس 1953 بمعسكر، لمنافسة مدرسة الأمير عبد القادر التي أشرف على افتتاحها أحمد توفيق المدني، مما أثر نسبيًا في جمع التبرعات. وجمعية التربية الدينية والتعليم القرآني لصيانة المقابر وبناء قاعات للتعليم المدرسي وتنظيم التظاهرات الثقافية بمعسكر⁶.

اشتد التنافس في الأعياد الدينية، لأن الجمعية دأبت على تكوين مراكز وتعيين شهود لإثبات رؤية شهر رمضان في عمالة وهران، فعينت سنة 1951 كل

¹ - عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبية في الجزائر (1931-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 88.

² - انتقد علماء الإصلاح هذه الجمعيات، واعتبروها مجرد اجتماع: تنور فيه الحقود وتنمو بسببه الضغائن من طائفة من المسلمين على طائفة أخرى، بسبب التعرض فيها إلى العلماء المصلحين والتهجم عليهم، ونُبِّزهم بالوهَّابية. أنظر: البصائر، العدد 112، 6 ربيع الأول 1357هـ، 6 ماي 1938م، ص ص 6-7.

³ - عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى مرجع سابق، 1983، ص 203.

⁴ - المرشد، العدد 45، 18/05/1951، ص 2.

⁵ - A.W.O. Dossier 2260. Note sur la section locale de l'association des zaouias à SBA du 01/03/1940. N° 13.

⁶ - .W.O. 8P 196. Bulletin des Questions Islamiques 1948-1956 .

من سعيد الزموشي وحبیب رقیق¹. فی حین نجد أن الطریقین كانوا لا یلتفتون إلى جمعیة العلماء بقدر ما كان همهم هو الاستقلال بقراراتهم. ففی 1945 ضرب الشیخ "سنتوف عدة" شیخ زاویة سیدی بن عبد الله، فتوى مفتی وهران عرض الحائط، عندما أعلن أن بداية العید ستكون یوم 24 أوت 1946 دون استشارة مفتی معسكر. وقد علق مبارک المیلی على هذا الموقف قائلاً بأن: "الناس صاروا یصلون ولا یخشعون إلا بین یدی من یتبركون بهم، ویشحون فی إخراج الزكاة، ویتسابقون إلى الوفاء بما ینذرون للمزارات والمقامات، ولا یصومون رمضان على أساس الحجة الشرعیة فی ثبوته وانقضائه، ولكن على أساس أوامر الرؤساء الروحیین من المرابطین و الطریقین"²

احتدم الصراع بین سنوات 1948 و 1956 حول موضوع "فصل الدین عن الدولة" الذی تم طرحه من جدید فی المادة 56 من دستور 20 فبرایر 1947³ لئلا یمنع من علاقة مباشرة بالأوقاف والمساجد الرسمية والمفتین⁴ الرسمیین. وقد ضمنت الجمعیة هذه المطالب ضمن برنامجها تحت ذریعة أنها من أهم أسس الجمهوریة الفرنسیة⁵. مع العلم أنه تم تطبیق هذا المبدأ على الدیانتی ن: اليهودیة التي أقامت

1 - البصائر، العدد 157، 1951/05/28، ص 2.

2 - عبد الکریم بوصفصاف، جمعیة العلماء المسلمین الجزائریین وعلاقتها بالحركات الجزائریة الأخرى، مرجع سابق، ص 1025.

3 - C.A.O.M. 91. 4133. projets de réforme. statut de l'Algérie. dossiers documentaire Divers projets de statut Texte de loi Coupures de presse. notes de renseignements 1947.

4 - المفتی منصب دینی من المناصب الشریفة فی الدین، یقع مقر صاحبه بالمسجد. یُختار المفتی من بین الأئمة البارزین، یؤدی بالناس صلاة الجمعة ویعلمهم التوحید ویصدر الفتوی. وهو "المجتهد... العارف بالأدلة العقلیة المثبتة لوجود الله... وأن یشکک (صاحبها) عارفاً بأدلة الأحكام وأنواعها... وأن یشکک عدلاً ثقة، یقع تحت مسؤولیته کل من الإمام والخطیب والمؤذن وقراء القرآن" إلا أن سلطاته كانت محدودة خلال الحقبة الاستعماریة. ویذهب الأستاذ أبو القاسم سعد الله بأن عدد المفتین بلغ فی أواخر العهد الفرنسی خمسة وعشرون مفتیاً. أنظر: أبو القاسم سعد الله: تاریخ الجزائر الثقافی، الجزء الرابع، مرجع سابق، ص 362.

5 - أحمد الخطیب، جمعیة العلماء المسلمین الجزائریین وأثرها الإصلاحی فی الجزائر، المؤسسة الوطنیة للكتاب، الجزائر، 1985، ص 192.

بيعا لها بمنطقة سيدي بلعباس¹. والمسيحية التي انتشرت كنائسها بسيدي بلعباس المدينة، وبوشبكة، وسيدي خالد، وتيرة، وسفيذف، وسيدي علي بن يوب، وسيدي ابراهيم، وسيدي لحسن، وسيدي حمادوش، وعين البرد، وزليفة²، واستنتت منه الدين الإسلامي الذي ظلت "تحتكر معابده وشعائره وتمتهن رجاله وتبتلع أوقافه. فلا مسجد إلا ما فتحته، ولا إمام إلا ما نصبته، ولا مفتي إلا ما حنفته أو ملكته، ولا شيخ طريقة إلا ما (سلكته)، ولا حاج إلا من حجته أو نسكته، ولا صائم ولا مفطر إلا على يد لجننتها، ولا هلال إلا ما شهد برويته (قاضيها)³.

دأبت جمعية العلماء على بعث أساتذتها إلى عمالة وهران ليوجهوا عامة الناس إلى الإصلاح على الطريقة العلمانية⁴، مما أسهم في توعية نشاطها وتكثير سواد أنصارها، ونشر أفكارها بين عامة الناس ومستتيرهم على حدّ سواء. فبعد وفاة ابن باديس زار الشيخ البشير الإبراهيمي منطقة سيدي بلعباس بتاريخ 08

فبراير 1943م، التي أشتهر سكانها بالانتماء إلى زوايا مختلفة منها القادرية والعيساوية والدرقاوية والسنوسية⁵. وعند استقباله من طرف راق بلقاسم وعبد الدايم محمد وثابت محمد والإخوة لالوت، اقترح عليهم بناء مدرسة بالمدينة. فبدأت عملية جمع التبرعات بلغت قيمتها 150.000 ف⁶ لشراء أرض وبناء المدرسة قرب مدرسة⁷ Laperrine. ابتاعت الجمعية العقار من السيد Olio Ausil Jean

¹ -Léon Adoue. Op. Cit. P: 155

² - Léon Bastide. Précis de l'histoire et de géographie de Bel-Abbés et son arrondissement. Oran. Imp. 1881. P: 295

³ - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 84.

⁴ - استخدم هذا المصطلح، د. عبد المالك مرتاض في بحثه المعنون ب: دمجية العلماء: الأسس، والمبادئ، وجبهات النضال. ويقصد بهذه النسبة المختصرة "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين".

⁵ - Léon Adoue. Op. Cit. P: 155.

⁶ - A.W.O. Dossier F24(3). Rapport sur le bruit concernant le projet de construction du Medersa à SBA. du 27/03/1943.

⁷ - A.W.O. Dossier F24(3). Rapport sur le projet de construction d'une école. du 05/03/1943.

Joseph بمبلغ 80.000 فرنك، وسُلم مشروع بناء المدرسة إلى المؤسسة المدنية العقارية المسلمة التي انتهت من تشييدها سنة 1944¹ حيث احتوت خمسة أقسام، يضم كل قسم أربعين تلميذاً². وفي ربيع 1948 بعث الشيخ البشير الإبراهيمي الشيخ محمد خير الدين إلى عمالة وهران لتدشين بعض المدارس وتنظيم الشعب وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد. فزار منطقة سيدي بلعباس التي أغلقت مدرستها الإصلاحية، وعزل مديرها، وانقطع الاتصال بين جمعية العلماء والجمعية المحلية لسيدي بلعباس، فاقترح هذا الأخير جديد جمعية المدرسة، وعادت الأمور إلى طبيعتها³.

في 19 مارس 1949 زار الشيخ الإبراهيمي معسكر وعقد اجتماعا بناوي "الشبيبة الأدبية الأهلية" لحث السكان وأنصار الإصلاح والمحسنين منهم على تقديم التبرعات لشراء أرض ثمنها مليون ومائتي ريال⁴ لبناء مدرسة، وألقى الشيخ "محمد القباطي"⁵ مدير المدرسة الإصلاحية لمنطقة سيدي بلعباس خطبة على أتباعه بمناسبة عيد الأضحى جاء فيها: "إن مناسبة عيد الأضحى هي مناسبة لإحياء سنة سيدنا إبراهيم عليه السلام، لتقديم القرбан لله تعالى مثل كل المسلمين في العالم، ولكن علينا التفكير في إخواننا المعتقلين في السجون الاستعمارية"⁶، ودعا سكان منطقة مغنية وأبناءه للالتحاق بالتعليم. وفي سنة 1952 أشرف الشيخ البشير الإبراهيمي عن تدشين "مدرسة التربية والتعليم" التي اشتملت على خمس حجرات،

¹ - تحولت سنة 1948م إلى ثانوية يديرها السيد فانديل. أنظر: Jacques Gandini. Op. Cit. P: 77.

² - A.W.O. Dossier F24(3). Op. Cit.

³ - محمد خير الدين، مصدر سابق، صص 229 - 231.

⁴ - A.W.O. 1411. Affaires locales 1948. 23/03/1949

⁵ - من مواليد 19 / 12 / 1907 بمدينة الغزوات بتلمسان، حفظ القرآن على والده وأخذ مبادئ اللغة العربية والفقهاء إلى أن التحق بجامعة القرويين المشهورة وتحصل على الشهادة العلمية منها، تعين في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأخذ الكثير على يد العلامة عبد الحميد بن باديس وتنقل بين عدة مدن أشرف الشيخ لتنشيط عدة محاضرات. وافته المنية يوم 14 أوت 2010.

⁶ - C.A.O.M.5 | 135. Op. Cit .

وبلغ عدد تلامذتها نحو ثلاثين ومائتي تلميذ بين ملازم وغير ملازم، بينما اشتملت مدرسة التقدم على نحو خمسين وثلاثمائة تلميذ . تولت جميعها إلى جانب التعليم ، مهمة الوعظ والإرشاد وبتث الوعي القومي الوطني بين أوساط السكان، لذلك سرعان ما أفلها المستعمر في بداية حرب التحرير ، وألقى بمعظم أساتذتها في غياهب السجون. وفي سنة 1952 زار الشيخ السعيد الزموشي مستغانم ، وأصدر فتوى حرم فيها بيع أراضي الجزائريين للأوروبيين¹.

في سنة 1954 تنقل الشيخ محمد خير الدين إلى عمالة وهران أين ألقى خطابا بمقر جمعية الفلاح² تحدث فيه عن فصل الدين عن السلطة، و دعا إلى ضرورة عودة الأحبلس (الأوقاف) إلى المساجد، وأكد أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عازمة على انتزاع هذين المطلبين باستعمال كل إمكانياتها المتاحة عبر التجمعات، والصحف، وإرسال الوفود والبرقيات. وزار بلدة بني صاف حيث إفتتح بها" مسجد بني صاف"³.

5 - نقد المنهاج التعليمي في المؤسسات التعليمية التقليدية:

أسهبت كتب التربية الحديثة في سرد عيوب التربية التقليدية؛ إذ ألصقت بها جملة من العيوب، ولعل من أهمها:

- تركيز المنهج على المحتوى فقط الذي يتضمن معلومات عامة يكتسبها جميع التلاميذ والكتب الدراسية تخاطبهم جميعا بأسلوب واحد، والمفروض أن يهتم المنهج بالفروق الفردية بين التلاميذ بسبب اختلاف صفاتهم الفردية وخصائص

¹ - A.W.O. 6987. Rapport de police sur l'activité de l'association des Oulémas 12/03/1952.

² - تأسست "جمعية الفلاح" الوهرانية الإصلاحية على يد أهالي وهران في 5 مارس 1937م.

³ - محمد منيع، افتتاح مسجد بني مصاف وخطاب الشيخ خير الدين، جريدة البصائر، العدد 3، 283 سبتمبر 1954، ص 7.

نموهم وأسلوب تعلمهم وطريقة استقبالهم واستيعابهم للمعلومات¹. لكن هذا المبدأ لا يُؤخذ في الاعتبار عند تأليف الكتب الدراسية وعند استعمال الوسائل التعليمية وعند ممارسة الأنشطة وعند القيام بعملية التدريس، ولا تراعى وجهة نظر المعلم، والتلميذ، وأولياء الأمور² الذين يُعتبرون ركنا هاما من أركان العملية التربوية وهم بذلك يَهْمَلون جانب الفروق الفردية³ بين التلاميذ، معتقدين خطأ - في نظرنا - أن المعلومات التي يكتسبها التلاميذ تؤدي إلى تعديل سلوكهم . علما أن المعرفة وحدها ليست كافية لتوجيه السلوك الإنساني نحو ما يجب أن يفعله الفرد، بل لا بد من إتاحة الفرصة للممارسة والتدريب على السلوك المرغوب فيه بالترغيب والتكرار والتشجيع والتحذير لتعليم المتعلمين كيفية الوصول إلى أعماق الفكر والحقائق والمعارف وتحقيق مفهوم التعلم الذاتي والتعلم المستمر (تعليمهم صيد السمكة بأنفسهم)⁴، وليس الشفقة عليهم.

- إهمال المنهج القديم كل نشاط يؤدي إلى المهارات والخبرات والأنشطة الإنسانية الأخرى التي تتم خارج حجرة الدرس، وطمس روح التفكير العلمي

¹ - تعرض المنهج التقليدي لجوانب أخرى ولكن بطرق غير موفقة ولم يعطها القدر الكافي من الرعاية والاهتمام، بل عالجها بطرق قاصرة وغير صحيحة وغير كافية.

² - لا ننكر أبداً أن المنهج التقليدي في الكتابات والمساجد والزوايا والمدارس الحرة، قد راعى تفاعل التلميذ الجزائري المسلم مع مجتمعه و بيئته المحلية والثقافية، وإعداده إعداداً روحياً سليماً يكفل له أن يتحلى بفضيلة الاعتدال والشجاعة واحترام المجتمع الذي وُلِدَ فيه، ومُثِّلَه العليا الصالحة، وغرس فكرة الخير والشر في ذهنه، حتى يَشَبَّ على ما يجب أن يُحِبَّ، وكرهية ما يجب أن يكره، وأن القيم العليا مطلقة ثابتة لها حق السيادة، لأنها أزلية وخالدة ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق العقل المتسامي المجرد عن كل ما يتعلق بشهوة الإنسان. وعليه فإن الحياة الخلقية لا تتعارض فيها مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة. ففلسفة مجتمعه القائمة على روح الإسلام تقرر خلود هذه القيم الروحية، وتؤكد عموميتها على الأفراد جميعاً. عكس المدرسة الحديثة التي تبني الفرد على أساس "يحق للفرد أن يحدد اعتقاداته بنفسه" لأن الخبرة الذاتية للفرد والنجاح الفردي هما الأساس للأخلاق، وليس تراكم التراث الثقافي للإنسانية، أو لمصلحة المجتمع وقيمه، فهي بذلك تؤكد التنافس، وتنمي الفردية والنجاح الفردي والمنفعة والبقاء للأقوى.

³ - إن الاهتمام بمراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ ليس معناه عدم وجود خصائص مشتركة بينهم في كل مرحلة من مراحل نموهم فالواقع أن هناك قدراً كبيراً من النواحي المشتركة بين لتلاميذ في كل مرحلة، وهو الذي يمكننا من وضع الخطط والمستويات العامة والتدريس إليهم كجماعات.

⁴ - مثل صيني.

والابتكار وعدم الاعتماد على النفس. وأهمل تنمية الاتجاهات والميول الإيجابية .
وأعتبر النجاح في الامتحانات التي تركز على الحفظ لقياس تحصيل التلاميذ هي
الأساس. وعليه أهمل اعتماد الطالب على نفسه وميله إلى الاعتماد على المدرس في
شرح المادة وتبسيطها ليحفظها.

- كثرة المواد الدراسية وضخامة مادتها، حتى أن الدارسين من الجيل
السابق يفتخرون بأنهم حفظوا المتون وقصائد الشعراء العظام في المرحلة الابتدائية،
أو حفظوا القرآن الكريم ولم يبلغ سنهم العاشرة، وأن فشل الطالب في أي ناحية من
نوحى حياته ما هو إلا نتيجة فشله في حفظ دروسه.

- غياب الرؤية الإستراتيجية والتخطيط العلمي والإبقاء على الطرق التقليدية
التي تركز الذهنية القروسطية وتشجع على الإلتباع والتلقين . لأن المحور الأساسي
الذي تدور حوله طرق التدريس هو التحفيز، والترديد، والتكرار ، والاستظهار،
وإغفال استخدام الوسائل التعليمية في هذه المدارس التي انتشرت في الكثير من
المناطق بفضل مجهودات رجال الإصلاح و المحسنين من الجزائريين¹. وفي هذا
تحجيم لدور المعلم الموجه والمرشد، والمخطط للبرامج. حيث يشرح المدرس أو
الفقيه الدرس ويبسطه للطلبة² ليقوموا بحفظه. لأن الحفظ أساس الدراسة حيث يبدأ
الطالب³ بحفظ القرآن من الأسفل إلى الأعلى، ثم حفظ أمهات الكتب والمختصرات.
وهي طريقة حجر على فكر التلميذ، وظاهرة لا تساعد على اكتساب العقل النقدي
الجدلي*، والطالب في أفضل أشكاله صورةً طبق الأصل من الموضوع* . وهو
إضافة إلى ذلك أسلوب تلقيني تسلطي في طبيعته يعتبر النقد اعتداء على المحرمات
والمقدسات التي يجب أن لا تمس. وأحادي في اتجاهه من المعلم الذي يعرف كل

1 - محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر في الجزائر، القطاع القسنطيني، ج1، ط1،
شركة دار الأمة الجزائر، 1999، ص 68.

2 - السعيد عقبة، مرجع سابق، ص 53.

3 - القندوز.

* هذه الخاصية هي نوعٌ من الانتحار.

* تختفي في هذه الحالة شخصية المقلد في شخصية المقلد.

شيء، إلى الطالب الذي يجهل كل شيء. فسلطة المعلم لا تناقش، حتى أخطأه لا يسمح بإثارتها، ليشكل الكتاب والمسجد والمدرسة حلقة من حلقات القهر والتسلط

الفصل الثاني

الثورة الجزائرية والتحرر الثقافي:

1 - النظام التعليمي:

إنّ الإبقاء على هيمنة الثقافة الكولونيالية معناه بقاء الجزائر بين يدي رجال يقومون بدور الشرطي الثقافي الاستعماري في مختلف المجالات. ومن هنا نجد أن الثورة التحريرية عملت جاهدة على نشر التعليم العربي وجعل اللغة العربية لغة التعليم والإدارة والاتصال بالمواطنين¹. لذلك اعتمدت على المؤسسات التعليمية التابعة لحزب الشعب وجمعية العلماء المسلمين من كتاتيب قرآنية ومساجد وزوايا ومدارس حرة كي تحافظ على الهوية الجزائرية الوطنية*. وبادرت إلى تنظيم دروس لمحو الأمية باللغتين العربية والفرنسية، وشيدت عددا من المدارس على الحدود الغربية والشرقية لتعليم اللاجئين.. وقد أكد السيد "شريف سيسيان" وهو من الطلبة الجزائريين الذين استقدموا من مصر وسوريا، بأنهم تمكنوا خلال سنتين من تعليم حوالي عشرين ألف (20.000) طفل جزائري.

أقرت الثورة برنامجا تعليميا عاما يحدد²:

- عدد التلاميذ في كل قسم بأربعين تلميذا.

- تحديد ساعات العمل بثمانى ساعات موزعة بين الفترتين الصباحية

والمسائية.

¹ - عبد الرحمن سلامة، التعريب في الجزائر "ماضي وحاضرا ومستقبلا"، منشورات وزارة الثقافة والرشاد القومي، دمشق، 1976، ص 30.

* معظمها كانت تمول من الرصيد المالي والنضالي لجبهة التحرير الوطني.

² - الهادي درواز، من تراث الولاية السادسة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص ص 163 164.

- وضع رزنامة لأيام الراحة الأسبوعية، والعطل الدينية والوطنية، وتتمثل

في:

أ - العطل الأسبوعية: يوم الجمعة ومساء يوم الإثنين.

ب - العطل الدينية والوطنية:

- يوم واحد لغرة محرم والفتاح نوفمبر و8 ماي.

- ثلاثة أيام للمولد النبوي الشريف

- أسبوع لعيدي الفطر والأضحى¹.

المواد المدرسة وكيفية توزيعها على أيام الأسبوع حسب أعمار التلاميذ:

قواعد النحو والصرف، والمواد الشرعية، والقرآن الكريم، ومبادئ التربية الإسلامية التي تشمل قواعد الإسلام وكيفية الوضوء وأوقات الصلاة، وعدد الركعات في كل صلاة إضافة إلى السيرة النبوية، والتربية السياسية، والحساب، والتاريخ والجغرافيا² (لإبراز تلاحم الشعب الجزائري، والقضاء على الخلافات القبلية والعشائرية)³، والتدريب العسكري، وحفظ الأناشيد الوطنية لتهديب المواطن سلوكيا وتأهيله وزرع القيم الوطنية لديه وضمان كما يقول سعيد بن عبد الله "ثلاث وظائف للثورة: التكوين النفسي للمجاهدين، لأن كل مناضل كان ملزما بتطبيق أحكام الشريعة السمحاء بسبب تعلق الشعب بها، وتدعيم الإيمان والنظام من خلال الجهاد الذي عنوانا للثورة، وتحفيز التفاف وتعبئة الجماهير الشعبية حول جبهة التحرير الوطني كي تتمكن الثورة من توقيف السير العادي لإدارة الاحتلال⁴.

1 - عبد الرحمن سلامة، مرجع سابق، ص 30

2 - لحسن بومالي، قيام الثورة الجزائرية والتعبئة الجماهيرية في الفترة ما بين 1954-1956، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2001، ص 347.

3 - المرجع نفسه، ص 304.

4 - سعيد بن عبد الله، جهاز عدالة جبهة التحرير الوطني، المجاهد الأسبوعي، عدد 1265، الجزائر، نوفمبر 1984، ص 20.

2 - تأسيس اللجان الشعبية لتوظيف المعلمين:

طبقاً للنظرية النقدية التي ترى المدرسة بوصفها إمكانية ثقافية وفاعلية تربوية يمكنها أن تمثل دور الفاعل الثقافي المنشق الذي لا تجدي معه المصالحة لأنها تتلم الثقافي وتفقد فاعليته، وتجمد الاجتماعي وتشل حركته، وبالتالي فعلى المدرسة والمعلم أن يكونا خالقي لغة وصانعي رواية تحاول قول الحق في وجه السلطة¹. ما يعنى أن المعلم الحقيقي لديه رؤية نقدية للمجتمع الذي ينتمي إليه، وللمجتمع الإنساني الأوسع، فلا ينغلق على ذاته، ولا يندمج في السائد والرائج، وإنما يأخذ من التجارب المتنوعة بلا عقد ولا حساسيات، ليناقشها ويسألها من منطلق الفهم والتفهم والثقة بالذات والقدرة على الفعل؛ لأنه لن يمارس دوره الثقافي والسياسي والاجتماعي، ما لم يدرك أن هذا الدور لا بد أن يكون لصالح المجموع، وضد الاستعمار في الوقت نفسه، فإن ما يؤدي إلى تقدم مجتمع ما، هو الصور المستقبلية التي يبنها معلمو مجتمع عن مستقبل هذا المجتمع، ويعتقها القسم الأعظم من مواطنيه. فدور المعلم الإيجابي - في كل الأحوال - هو الإضافة والتطوير والتنوير والتقدم، والتأسيس للأرضية الثقافية لمشروع التغيير.

نظراً لأهميته ومكانته الاجتماعية والدينية، كان محط الأنظار من الثورة الجزائرية. وكان تلامذته ومريدوه يتسابقون بفخر واعتزاز لخدمته. ولم يكن أحد من المجتمع يتجرأ على مناداته باسمه، بل وأضفى عليه (المجتمع) عدة ألقاب نبيلة منها الشيخ أو المعلم أو سيدي أو سي فلان². وغالباً ما كان يفتي الناس في بعض المسائل الدينية (الصلاة، الزواج، الطلاق، الميراث، الم زاعات، بل وفي بعض الأمراض النفسية والعضوية³).

¹ - المرجع نفسه ، ص19.

² - IDEM. P: 219

³ - يلجأ إليه عند المس بالجن أو العقم أو الجنون أو مرض الأطفال.

- عندما ترغب إحدى العائلات المحافظة أو الميسورة في تعليم أبنائها ، تستجد بأحد المعلمين المعروفين ، ويكون رب الأسرة مسؤولاً عنه مسؤولية مطلقة أمام الإدارة الفرنسية¹.

- سعت الثورة إلى تغيير الواقع الثقافي والاجتماعي للطلاب الجزائري، بتنوع التخصصات التي كان يحصل عليها في إطار المنح²، سواء عن طريق المنظمات الطلابية أو حكومات الدول المختلفة. فتم توجيه بعض الطلبة إلى أوروبا الشرقية منها بلغاريا التي استقبلت الطلبة ذوي التخصصات الزراعية، ورومانيا التي استقبلت الطلبة الموجهين إلى التخصصات المرتبطة بالتقنيات البترولية وتشيكوسلوفاكيا التي استقبلت طلبة الدراسات التقنية المختلفة³، واستقبلت الولايات المتحدة الأمريكية الطلبة في تخصصات المهندسين والتقنيين والاقتصاد واستقبلت ألمانيا وسويسرا طلبة الطب والمدارس المتعددة التقنيات. أما بلجيكا وهولندا وبريطانيا و إيطاليا و إسبانيا وروسيا والهند وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية، فاستقبلت الطلبة في شعب الهندسة والتقنيات والاقتصاد⁴.

كما استقبل الطلبة ذوي التخصصات الأخرى مثل الحقوق والآداب والترجمة⁵ في بعض الجامعات العربية، منها المغرب الأقصى أين لعب الطلبة الجزائريون دورا هاما في التقارب الثقافي والسياسي الجزائري المغربي حيث كانت الإذاعة المتنقلة "قرب الحدود الجزائرية المغربية والتي استقر بها المطاف في مدينة الناظور المغربية، تبث نشاطاتها بمعدل ساعتين يوميا، ساعة بالعربية وساعة بالقبائلية. وفي سنة 1959 توسع البث ليصبح ست ساعات*. كما أسس الطلبة

1 - إيفون تيران، مرجع سابق، 2007، ص 227.

2- أنظر ملحق رقم 24.

3 - A.W.O. Boite N° 75. déclaration du comité directeur De l'UGMEA relative à la grève des étudiants

4 - عمار هلال، مرجع سابق، ص 45

5 - A.W.O. Boite N° 75. Op. cit.

الجزائريون في سورية سنة 1955 "لجنة الطلبة الجزائريين"¹ ومجلة "النشرة الثقافية" التي تضمن عددها الأول سبعة مواضيع تعرف بالثورة الجزائرية². ثم أصدروا مجلة "الكفاح المغرب العربي"، التي صدر منها خمسة أعداد³.

جدول الطلبة الجزائريين في مؤسسات التعليم بدول المغرب العربي في مختلف التخصصات ⁴									
اسم البلد	آداب و لغة عربية	سياسية و اقتصادية	حقوق و علوم	علوم	طب وصيدلة	هندسة	الطور الثانوي	أطوار مختلفة	المجموع
المغرب الأقصى	12	27	6	0	0	0	350	0	395
تونس	16	24	7	2	1	499	2	551	

في صيف 1956، أسس الطلبة الجزائريون في مصر "رابطة الطلبة الجزائريين" بشارع رقم 6 بنك مصر أين تتواجد رابطة الطلبة المغاربية⁵. ومن أهم الطلبة الذين تولوا المسؤوليات الهامة بها: عبد الرحمان مهري وعبد القادر نور وأحمد بلعيد وعلي مفتاحي⁶*. كما أسس الطلبة الجزائريون بتونس نشرية الثمرة الأولى (سنة 1937 والثانية 1947): أصدرتهما جمعية الطلاب الجزائريين

1 - عمار هلال، نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954 ، المرجع نفسه، ص73 .
2 - يحي بو عزيز، مع تاريخ الجزائر في ملتقيات الوطنية والدولية، مرجع سابق، ص 106 .
3 - عمار هلال، نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة ، مرجع السابق، ص 90 .
4 - المرجع نفسه، ص 80 .
5 - المرجع نفسه، ص 96 .
6 - صالح فر كوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية للاحتلال الفرنسي المقاومة المسلحة 1830 - 1962، دار العلوم، 2012 .، ص418
* يعتبر النشاط الإعلامي (الإذاعي = إذاعة صوت العرب) من أهم النشاطات التي قام الطلبة الجزائريين بالقاهرة. أنظر: رابح تركي عمامرة، "صوت الجزائر من إذاعة صوت العرب في القاهرة، الإعلام ومهامه أثناء الثورة"، الملتقى الوطني الأول للإعلام والإعلام المضاد، 2009 ، ص. 195 .

الزيتونيين، حيث تضمنت الثانية منها مقالات أدبية وسياسية وقصائد شعرية نذكر منها:

الأستاذ مصالي الحاج	- دور الشبيبة المثقفة
الأستاذ الحبيب شلبي	- نهضة الجزائر المعاصرة
الأستاذ محمد الحبيب	- عبوة عن تاريخنا
الأستاذ عمر مالك الليبي	- نحن طلاب بالعزة والكرامة
الأديب مرزوقة رئيس الجمعية	- الهجرة وفوائدها
الأديب محمود عميار	- الشباب الجزائري
الأديب الطاهر براهيمية	- مبلغ الإحساس الوطني في الجزائر
الأديب محمد الإبراهيمي	- ابن باديس ووحدة الشعوب
الأديب ثابت الأزهري	- مسؤولية المجتمع الجزائري
الشاب قاسم مولود ¹ *	- نتيجة الصبر والكفاح

قائمة أسماء طلبة القطاع الوهراني الجزائريين بالمملكة العربية السعودية ²	
وهران	جلول بن حسان
مستغانم	علاوة أحمد بلقدور
مستغانم	بن عليلش عبد الرحمن
تلمسان	خيضر جونيدي بن محمد
تلمسان	جلول عبد الله بن عبد القادر
قائمة أسماء طلبة القطاع الوهراني الجزائريين بالمملكة العربية السعودية ³	
وهران	جلول بن حسان
مستغانم	علاوة أحمد بلقدور

¹ - عمار نجار، الثمرة الثانية، جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، النشرة السنوية، مطبعة التليلي، تونس، 1947م، ص 6.

* لا أحد يغيب عن باله صوت الطالب عيسى مسعودي في المجال الإعلامي.

² - بشير الفرحي كاشة، مرجع سابق، ص 58.

³ - المرجع نفسه، ص 58.

مستغانم	بن عليلش عبد الرحمن
تلمسان	خضير جونيد بن محمد
تلمسان	جلول عبد الله بن عبد القادر

عملت جبهة التحرير الوطني على حلّ المشاكل الاجتماعية وتقديم

المساعدات المادية والمعنوية للطلبة، تمثلت في الكتب — حيث تحملت الثورة أعباء توفير مكتبة هامة للطلاب في سوريا — والملابس والمواد الغذائية، وتنظيم مصالحتهم الاجتماعية مثل الإيواء و الإطعام والنقل والتسجيل والكشف الطبي وتوفير الأدوية¹، والمشاكل الخاصة مثل عقود الزواج. وقد أجزت للطلبة الجزائريين مسكنا جماعيا في سوريا، أطلقت عليه اسم "دار الجزائر" رغبة منها في جمع شملهم. وكان لهذه الدار نظام داخلي خاص، إذ كان الطالب يدفع مبلغ 15 ليرة اشتراكا شهريا، لتناول "وجبات الفطور والغذاء في هذه الدار، كما تتكلف الدار بغسل وكي ملابسهم، وتوفير لهم الفراش والغطاء، وصيانة وتنظيف غرفهم، إلى غير ذلك من الخدمات الاجتماعية التي تتطلبها الحياة اليومية الطلابية"². وأسّس القائد عميروش غرب مدينة تونس دارا بحي "داندان" وقر للطلبة المأوى والمأكل والنفقات والملبس. ليتابعوا دراستهم في معاهد الزيتونة.

أعفت الثورة الطلاب الجزائريين بمصر وسوريا من دفع الرسوم

الدراسية، وبفضل الجهود التي قامت بها جبهة التحرير الوطني، تحملت الكويت

التي أسس بها الطلبة الجزائريون رابطة الطلبة الجزائريين بالكويت سنة 1956م³

تكاليف الطالب الجزائري من لباس ومصاريف قدرت ب 60 روبية شهريا. وكانت مصر تدفع له 08 جنيها، وخصصت له سوريا منحة شهرية قدرها 140 ليرة،

¹ - توفيق المدني، مرجع سابق، ص 478.

² - عمار هلال، مرجع سابق، ص 104.

³ - Amar Hellal. Le mouvement réformisme Algérien. les hommes et histoire 1831-1957. OPU. Alger. 2000. P: 284

والعراق 12 ديناراً شهرياً¹. أما الإغاثة الجامعية العالمية فقد وفرت للطلبة الجزائريين مساعدات مختلفة، تتمثل في الأطعمة والملابس والأدوية². هذا ولم تغفل الثورة التحريرية النشاطات الثقافية لرفع المستوى الفكري للطلاب وربطه بقضيته وهويته العربية الإسلامية من خلال الندوات والمحاضرات الوطنية والفكرية التي كانت تقدم أسبوعياً في القاهرة³.

قائمة أسماء طلبة القطاع الوهراني الجزائريين بسوريا ⁴	
معسكر	ولد عوالي بن عبد الله ⁵
معسكر	ولد عوالي محمد
معسكر	إيقاش مرتاضة
معسكر	طرقان العربي
معسكر	سام منور
معسكر	بن عابد بن زيان
معسكر	الصم المنور ⁶
تلمسان	زنداقي عبد الرحمن
تلمسان	بغداددي جمال الدين
تلمسان	فريحي الطيب
عين تموشنت	أبو القاسم النعيمي
قائمة أسماء طلبة القطاع الوهراني الجزائريين بسوريا ¹	
معسكر	ولد عوالي بن عبد الله ¹

¹ - توفيق المدني، مرجع سابق، ص ص 474-479.

² - P: 195 . Op. Cit. Farouk Benatia.

³ - عمار هلال، مرجع سابق، ص 88.

⁴ - A.W.O. liste nominative des étudiants Musulmans originaires de l'arrondissement d'Oran séjournant dans les pays arabes. le 9avril 1955.

⁵ - A.W.O. lettre de sous - préfet de Mascara à M^r le préfet d'Oran (S.L.N.A)

⁶ - A.W.O. Boite 6987. liste des étudiants. Op. Cit.

¹ - A.W.O. liste nominative des étudiants Musulmans originaires de l'arrondissement d'Oran. Op. Cit.

معسكر	ولد عوالي محمد
معسكر	إيقاش مرتاضة
معسكر	طرقان العربي
معسكر	سام منور
معسكر	بن عابد بن زيان
معسكر	الصم المنور ²
تلمسان	زنداقي عبد الرحمن
تلمسان	بغداددي جمال الدين
تلمسان	فريحي الطيب
عين تموشنت	أبو القاسم النعيمي

3 - استعمال اللغة العربية في التدريس:

دعت جبهة التحرير الوطني الجماهير إلى الالتفاف حول نداء الفاتح نوفمبر الداعي إلى إقامة دولة جزائرية ذات سيادة ديمقراطية اجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية. وحيث أن استعمال اللغة العربية كان جزءا لا يتجزأ من المقومات الوطنية، فقد دفعت غيرة بعض قائد الولايات إلى منع استعمال اللغة الفرنسية، والتخاطب بها. بل وفرضوا غرامة مالية قدرها عشرون سنتيما على كل كلمة يتلظظ بها³. وبذلك تكون الثورة قد نجحت في إثراء قاموس التخاطب اليومي بين المواطنين والمجاهدين بمصطلحات تتداول يوميا على الألسنة مثل: الشهيد، الحراسة، التقارير، المجاهد، المسبل، المسؤول السياسي، الهجوم، الاشتراك، مجلس الدوار، الخبيث، الشرطي والدركي...

¹ - A.W.O. lettre de sous - préfet de Mascara à M^r le préfet d'Oran (S.L.N.A).

² - A.W.O. Boite 6987. liste des étudiants. Op. Cit.

³ - الأخضر جودي بوطمين، اللغة والثورة، مجلة أول نوفمبر، ع 36، الجزائر، 1979، ص 37.

الفصل الثالث

المسرح الجزائري:

1 - واقع المسرح الجزائري في عمالة وهران:

تتبع الكثير من المبدعين الآثار الإبداعية التي خلفها المبدعون، فاهتموا بالشعر، وأفردوا له مصنفات مخصصة لأنه الأكثر تفاعلا مع الثورة. وأولوا اهتماما للقصص والروايات التي ظهرت في تلك الفترة. لكن معظم هؤلاء أهملوا المسرح ومكانته بين هذه الأنماط التعبيرية، سواء كان ذلك بذريعة نذرة النصوص التي كتبت في هذه الحقبة، أو بسبب تشتت هذه النصوص بين المجالات التي كانت تكتب في مختلف الدول العربية التي استقطبت الجزائريين مثل تونس الشقيقة، أو لأن معظم الذين كتبوا هذه النصوص المسرحية ليسوا من رجال المسرح لأنهم لم يكونوا مثقفين محترفين، و لم يتخرجوا من الثانويات والمدارس العليا¹، بل هم فنانون توقف معظمهم عن تعليمه في الشهادة الابتدائية، و مارسوا المسرح عن طريق الهواية، ولم تكن لهم اهتمامات سابقة بهذا الميدان بسبب تضيق الخناق الفرنسي على كل نشاط أدبي يهدف إلى شحذ العزائم وغرس الروح الوطنية في نفس المجتمع الجزائري، أو لأنهم حرّموا من المشاركة في العروض التي كان يقدمها الفرنسيون، أو إجحامهم عن المسرح الفرنسي الذي كان عبارة عن قصص حب وغراميات أو نصوص تسخر من الجزائريين، وتحاول تشويه تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم.

1- كانت هناك استثناءات قليلة منها الفنان محمد فرعون بسيدي بلعباس، الذي كانت عائلته مقربة من السلطات الاستعمارية، وكان مثقفا ثقافة فرنسية ومن حملة الشهادات العليا، تربطه علاقات مع الشباب الأوروبي سمحت له بتأسيس فرقة مسرحية سنة 1931، حملت اسمه وضمت إليها فرنسيان وثلاثة إسبان. كانت تنشط بسينما كوليزي سابقا، المركز الثقافي بن غازي ال شريخ حاليا. قدمت أولى مسرحياتها "الحقيقة" و "البخيل" باللغة الفرنسية. أنظر: إدريس قرقوة، الحركة المسرحية في سيدي بلعباس ورحلة البحث عن الذات، مكتبة الرشد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 27.

أدركت الباحثة الفرنسية "أرليث روث" أول باحثة ناقشت دكتوراه حول المسرح في الجزائر، نقص التكوين لدى الرعيل الأول من المؤلفين الدراميين الذين "اقتصروا على تقبل فكرة تمثيل بعض السكاتشات وإدماج هذه الإنتاجات في عرض يتضمن أغاني ورقصات قدموها تحت اسم أعراس عربية"¹ * لذلك بقي المسرح شعبي و"بعيدا عن رجال الأدب، حتى أن بعض هؤلاء حينما جربوا الكتابة المسرحية، لم تكن نصوصهم صالحة للتقديم... كان بعض هذه النصوص يوضع شفها بواسطة أحد الممثلين ثم تجري كتابته في وقت لاحق من قبل زملائه... ولهذا ارتبط النص المسرحي ارتباطا عضويا بالعرض وبالعرض فقط"² ، و لم يجِدِ التجاوب المطلوب". لأن الجمهور * - العدد السلبي - كان أميا ولا يتردد على قاعات المسرح، فكان يجد صعوبة في فهم وتذوق النصوص الكلاسيكية بلغة عربية. لذلك فإني مثل هذا المسرح سيفقد بريقه وقيمه الفنية فيما بعد³.

إن الرسالة المسرحية تتطلب عددا من الشفرات التي يجب فكها، مما يتيح للجمهور العامي الذي لم يكن فقط مهياً بشكل جيد، بل ولا يملك كل شفرات فرصة الاستماع إلى المسرح وفهمه، وهو الأمر الذي يدعو إلى الدهشة كما تقول أن أوبرسيفيلد. حيث لا يمكننا أن نفهم مسرحية ما دون أن نفهم لغتها أو إشارات القومية أو المحلية، أو دون أن نملك شفرتها الثقافية أو غير المستخدمة¹. والواضح أن الغالبية الكبرى من المشاهدين الجزائريين كانوا جميعا على قدر كبير من الجهل والفكر البسيط والبداءة الشعبية، ومرجع ثقافية ريفية، وعلاقة محدودة وقصيرة المدى الزمني بالمدينة. كما أنهم تعودوا على التجوال العادي في الأسواق، وفرجة المداح كل أسبوع فيها الأسواق. يقفون عفوا عند حلقة أو أخرى من دون أن يعيوا

1 - الجزائر نيوز، مواطن الاستعارة أو ترسيخ الثقافة الشعبية في المسرح الجزائري، 22 / 02 / 2014 * لأن المحاولات المسرحية الأولى كتبت بالفصحى.

2 - امحمد عقيدتي، واقع وآفاق المسرح في الجزائر، دنيا المسرح، مجلة إلكترونية متخصصة في المسرح.

* خاصة إذا علمنا أن الجمهور هو الناقد الرئيس للعمل المسرحي.

3 - Charles Taillart. Op. Cit. P: 499.

¹ - المرجع نفسه، ص 18.

هذه العملية أو بيرمج ونها وه م خارجين من بيوتهم. بل قد لا بيرمج ون دخول السوق بينما يُطلب منهم أن يلجوا قاعة ع روض وضعت خصيصا لهذا الشأن وعرضت عليه م "رواية" غربية ناطقة بلغة عربية فصيحة¹.

ارتبط جل هذه المسرحيات بال عرض، وغلبت على كتابات مؤلفيها الطابع الأدبي، ولو لم يستطيعوا أن يوائموا بين المعايير الفنية والعلمية للمسرح . لذا فإن المتفرج

بوصفه مرآة تعكس بشكل متكسر العلامة المرسلّة، لن يسمع النص كله، أو أن جزءا كبيرا من المعلومات سوف يمحي لأنه لا لا يملك مفاتيح المتخيّل ن ولا ينتقي المعلومات أي يختارها أو يرفضها.

بالرغم من كون بعض المسرحيين أرادوا أن يجعلوا من المسرح مجتمعا صغيرا لعالم يُذكر الجزائريين بعظمتهم وسُمُوهم، وأن من حقهم ممارسة حياتهم الفردية والاجتماعية دون ضغط أو إرهاب، وهذا ما يؤكد لنا علي سلالي المدعو علالو صاحب مسرحية جحا التي هُزل لها 1500 خلال عرضها²، والتي اعتبرها الكثير من النقاد أول انطلاقة للمسرح الجزائري حين يقول: "كان المسرح في بداياته مرحلة من مراحل اليقظة الوطنية في ذلك الوقت، فلم تكن تلك المسرحيات

المسلية...تسلي فقط جمهورنا ولكن تذكر مواطنينا بعظمة وسمو"¹ أمتهم، وأن يوحوا إليهم بأن هذا العالم الذي يُعاد إنتاجه "هنا بدقة بالغة يشبه إلى درجة الالتباس العالم الذي"² يعيشون فيه والذي يحيا فيه آخرون أكثر حضا منهم. فكتبوا نصوصا

1 - أحمد حمومي، التراث الشعبي و المسرح تجربتان من الجزائر، إنسانيات، العدد 12، 2000، ص 23.

2 - نور الدين عمرون، المسار المسرحي الجزائري إلى سنة 2000، شركة باتنتيت، باتنة، ط 1، 2006، ص 92.

1 - علي سلالي، عبد الرحمن علولة، شروط المسرح الجزائري - مذكرات عن فترة نشاطه المسرحي ما بين 1926-1932- تر: أحمد منور، منشورات التبيين الجاحظية، سلسلة الدراسات، الجزائر، 2000، ص 94.

2 - أن أوبرسيفيلد، مرجع سابق، ص 50.

مسرحية متنوعة من حيث القضايا والأشكال والتجارب، يمكن أن نقول عنها أنها "نصوص وظيفية" كُتبت من أجل العرض بدارجة مطعمة بالكلمات الفرنسية، تعبر المجتمع الجزائري البسيط¹، وليس للقراءة أو النشر². وهذا ما دفع حسن يوسف المغربي عن التساؤل: "ما الذي كانت تحتاجه ثقافتنا... كي تتحول إلى نسق مسرحي عوض النسق الشعري؟".

إن ال وضع المزري والمؤلم الذي كانت تعيشه الجزائر على الصعيد الثقافي المتسم بانتشار الأمية في الأوساط الشعبية، لم يكن يسمح باستمرار تجربة المسرح الناطق بالفصحى في زمن لم "يسبق للم سرح الجزائري في تاريخه أن قدم ع ملا واحدا بالفرنسية"³. ومع ذلك فإن هذا الوضع لم يمنع الجزائريين من توظيف والمزج في التعبير عن قضاياهم بين الطابع الكوميدي والغناء والموسيقى واللغة الدارجة. اللغة المحكية والمشاركة بين الفئات الشعبية الكادحة المختلطة

بالأمازيغية والفرنسية والإسبانية. ثقافة الرّحبة و الحمام و الطحطاحة والساحات العامة والمقاهي والأسواق¹ التي لا تخضع لقوانين تضبطها وتحكم عباراتها لأنها تلقائية، تتغير بتغير الأجيال وتغير الظروف المحيطة بهم².

كُتبت العامية لمسرح مرتبط بذوق الجماهير الشعبية البدوية البسيطة غير المتقفة، للتأثير في وجدانه ومشاعره لجعله يتعاطف ويتفاعل مع أحداث المسرحية ويشترك فيها بطريقته الخاصة. وشغلت (العامية) في المسرحيات مستويات لغوية متعددة، لأنها استُخدمت كلغة الملوك وبعض الشخصيات العادية أو التافهة، ووُظفت

1 - صالح لمباركية، المسرح في الجزائر - دراسة موضوعية وفنية - ج 2، دار الهدى، عين مليلة، ط 1، 2005، ص 156.

2 - المرجع نفسه، ص 32.

3 - مخلوف بوكروح، ملامح عن المسرح الجزائري، مجلة آمال، العدد 05، وزارة الثقافة، الجزائر، 1982، ص 13.

* استطاع بعض الكتاب افتكاك لغة المستعمر وتسخيرها في مقاومته فكانت بمثابة غنيمة حرب تُردّ سيوف الاستعمار إلى نحره. أنظر: احسن ثيلاني، المسرح الجزائري والثورة الجزائرية، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 102.

1 - محمد كمال الدين، العرب والمسرح، دار الهلال، القاهرة، 1975، ص 20.

2 - خولة طالب الإبراهيمي، مرجع سابق، ص 196.

كوسيلة للهروب من الرقابة التعسفية التي فرضتها السلطات الفرنسية على المسرحيات التي كتبت بالفصحى بجة أنها تهدد الوجود الفرنسي في الجزائر. يقول المسرحي علي سلاي (علالو): "كنت أكتب باللغة العامية المفهومة من طرف الجميع ولكن ليس باللغة السوقية الرديئة، فهي لغة عربية ملحونة ومنقاة"¹.
 المفارقة أن الكتابة بالعامية السهلة التي تتميز بمرونتها وسلاستها وبساطتها التي تخلو من النحو والصرف والبيان، ومن أي تكلف في الاستمتاع بها أو إيصال وفهم معظم ما ينطوي عليه الحوار من معانٍ بواسطتها، كما تتميز أيضا بوقعها المؤثر على مختلف شرائح المجتمع الجزائري الذي أحبها وتفاعل معها لِمَا تحمل في طياتها من أمثال وحكم ودلالات² في إحياءاتها ومعانيها المرتبط أحيانا بالرمز الأسطوري وواقع الطبقة الجزائرية البسيطة والفقيرة مما ضمن لهذا المسرح النجاح والاستمرارية. وسلّط الضوء على الصراع اللغوي الإيديولوجي الذي يدور بين المدافعين عن اللغة العربية الفصيحة³ بجزالتها وفخامتها (المتصّعة والمتكفّفة) التي تشير إلى المستقبل وإلى تثقيف الجمهور، والوسيلة الوحيدة للتعبير عن حقيقة المسرح الذي يجب ألا "يُدّس" باستخدام "لغة الشارع" لأنه يعالج الواقع ويعكسه ويساهم في اجتماع الناس حول خطاب "يكون محرّضا... ويقدم الفرنسيين في صورة ساخرة"¹.

عارض واستصغر أبو القاسم سعد الله اعتماد هذه العامية في المسرح الجزائري لأنها: "أضرت باللهجة الجزائرية المشتركة، نظرا لِمَا فيها من العُتّة ومن تعويج الفمّ والهبوط في التعبير أحيانا"²، لكنها لاقت نجاحا كبيرا واستقطابا للجمهور العريض الذي يبقى العنصر البعيد الأساسي في التواصل المسرحي. لأن "الفكرة

1 - أحمد بيوض، المسرح الجزائري 1926-1986، مطبعة الجاحظية، الجزائر، 1989، ص 23.

2 - دلالات الأسماء على سبيل المثال: حنبل، يوغرطا، رحمة، جحا، بوحديبة، زعيط معيط.

3 - من المسرحيات التي كتبت باللغة العربية كانت مسرحية: "الناشئة المهاجرة عام 1947" لمحمد الصالح رمضان والتي يدور موضوعها حول الهجرة النبوية وقد مثلت لأول مرة في تلمسان.

1 - Arlette Roth. le théâtre algérien. F. Maspero. Paris. P: 15.

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5 مرجع سابق، ص 423.

تبين مدى نجاح المبدع في اختياره هذه اللغة أو تلك، فيمكن لكاتب أن يوفق باللغة الفصحى أو باللغة العامية والتبيان الدقيق يكون بالدراسة والفحص والقراءة¹.

كتب المؤلفون معظم مسرحياتهم بالعامية القريبة من الفصحى لمسرحنة شخصياتهم، ولأنها لغة التواصل في الحياة اليومية ولغة الوجدان الشعبي المحلي، والتأثير الذي يتلقاه المتفرج دون أن يشعر به، واستمدوا موضوعاتهم من التاريخ المغرب القديم (مسرحية حنبعل لأحمد توفيق المدني، ويوغرطة وروما لعبد الرحمن ماضي، والكاهنة لعبد الباقي ناقلي)²، والتاريخ العربي الإسلامي، والثورة الجزائرية مثل مسرحية الخالدون والعهد لعبد الحليم رايس)، والواقع الاجتماعي اليومي (مسرحية خديعة الغرام للطاهر علي الشريف)، وامرأة الأب لأحمد بن ذياب)، والبيئة الجزائرية (الغنية بالتراث والآداب والتقاليد الشعبية المحلية، والفنون التعبيرية الشعبية، والبطولات الجزائرية)، ومن الحكم الشعبية والأمثال، والحكايات والأساطير التي يزخر بها الأدب العربي والجزائري للحيلولة "دون الاحتفاء بالثقافة الاستعمارية أو الغوص فيها"¹. وكما يقول Vitez "كل شيء يمكننا أن نصنع منه مسرحاً"²، وكل شيء قابل للتسرح إذا تم بطريقة متحررة وغير مقيدة بعنصري الزمان والمكان، ودون أن تتعارض أحداثها مع الواقع.

لقد ظل المسرح الجزائري خلال هذه الفترة في منتصف الطريق بين المكتوب والشفهي، بين التقاليد الشعبية والثقافة العامة³. وعليه نستطيع أن ندرك كيف حاول الكاتب إدراج الممارسة المسرحية ضمن الوسائل التثقيفية الشعبية⁴،

1 - محمد التوري، مسرحيتان بوحدة، زعيط ومعيط ونقاز الحيط، طبع برج الكيفان، ط 1، الجزائر 2000، ص 11.

2 - صالح لمباركية، مرجع سابق، ص 137.

1 - صالح لمباركية، المسرح في الجزائر النشأة والرواد والنصوص حتى سنة 1972، دار الهدى، الجزائر، ص 38.

2 - أن أوبرسيفيلد، مرجع سابق، ص 23.

3 - عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، تر: سليم قسطون، دار الحدائق، بيروت، 1984، ص 108.

4 - عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، مرجع سابق، ص 2314.

وكيف سيتوارى " الكاتب " (الصوت المهمّش أو التابع) في المسرح، وكيف أنه سيكتب لكي يتكلم الآخر بدلا منه، ليس فقط الآخر ولكن مجموعة من الآخرين يتبادلون الكلام. عندئذ لن يكون بإمكاننا أن نفك شفرة المسرح (اللغوية، الإدراكية، الاجتماعية، الثقافية، الحالة النفسية، الرغبة، الما قبل، المابعد، الذات الفاعلة، المرسل إليه) بوصفه عملية إسرار، أو تعبير عن "شخصية" و"أحاسيس" و"مشكلات" المؤلف، إذ أن كل المظاهر الذاتية تتم إحالتها بوضوح إلى أفواه الآخرين... إن الكاتب بإرادته يرفض الحديث باسمه، ولا يريد التعبير عن ذاته وإنما عن شيء ما¹.

2 - الفضاء المسرحي وأهم المسرحيات في عمالة وهران:

إسهاما منا في التعريف بدور المسرح قبل وإبان الثورة التحريرية، ومواكبته لأحداثها، وخلق الثورة لمسرح ثوري عبّر بصدق وتلقائية عن طبيعة المرحلة التي عايشها¹ حيث أوردت جريدة صوت الأحرار مقالا تحت عنوان: "تسليط الضوء على إسهام المسرح الجزائري في الثورة التحريرية". جاء فيه بأن قادة الثورة التحريرية قاموا بنزع الرصاص من أسلحتهم أثناء إحدى العروض المسرحية خوفا من إطلاق الرصاص نظرا لجدية العروض وأن عناوين العروض التي كانت تقدم أثناء الثورة التحريرية وقبلها كانت عناوين تحوي رسائل واضحة على غرار "فاقو" و"الكذابين"، و"بني وي وي"، و"قدور الطماع"، و"زواج بوبرمة" لرشيد بلخضر، و"مضار الخمر والحشيش" لمحمد العابد الجليلي، و"علاش رايك تالف" لمحمد الثوري، و"امرأة الأب" لأحمد بن زياب، و"الصراع بين الحق والباطل" لعلي رحوم، و"البوزريعي في العسكرية"، و"جحا" لعلالو، وغيرها من العناوين².

1 - أن أوبرسيفيلد، مرجع سابق، ص ص 25-26.

1 - Hassan Remaoun. L' Algérie histoire. Société et culture. Ouvrage collectif. CASBAH. Edition Alger. 2000. P: 218..

2 - الأحرار، تسليط الضوء على إسهام المسرح الجزائري في الثورة التحريرية، العدد 4877، الجمعة 21 فيفري 2014.

وسنقتصر في بحثنا هذا على تقديم بعض النصوص المسرحية التي كتبت ونشرت خلال هذه الفترة التي نحن في صدد دراستها.

1 - مسرحية جحا والمرابي: استلهم الكاتب والمخرج والممثل المسرحي

محي الدين باشتارزي¹ مسرحيته* من التراث الذي تعددت وجهات النظر حول كيفية استثماره وطرق توظيفه، ومجالات الاستفادة منه². وخاصة شخصية جحا التي عرفها الكبار والصغار، وأعجبوا بأحاديث وفكاهة وطرافة ونوادير حكاياته.

من الجدير بالذكر أن باشتارزي في نقده لجوانب الحياة الاجتماعية على

لسان جحا، إنما كان يرى في ذلك التهكم الساخر ضربا من الثأر السلمي أو

القصاص العادل أو الجزاء الاجتماعي الذي تنتقم به الجماعة أو الأمة لنفسها من

الخارجين على معاييرها ومثلها وقيمها قولا وفعلا وسلوكا، بغية الدفاع عن الذات

العامة، وحفاظا على تماسكها، وتعصيда لهويتها الوطنية. ذلك أن النوادر

الجحوية بتركيزها على الجانب السلبي في الحياة والمجتمع، لا تنتقم أو تهجو

فحسب، بل تعالج وتخفف من التوتر الداخلي، وتشعر بالتححرر من الواقع، والتحلل

من الحياة الجدية، عن طريق الهزار والتفكه والمزاح، وتحد من مخاوف الجماعة أو

الأمة، وتعيد اعتبار الذات للذات¹.

أنجزت مسرحية "جحا والمرابي" في قاعة الأوبرا وهران بتاريخ 17 مارس

1933، ويتمحور موضوعها حول جحا الرجل الطيب وربّه اليهودي المرابي

المخادع.

¹ - يرى الدكتور عبد القادر جغلون أن إنتاجه يقدر بـ 15 مسرحية و600 أغنية في حين يرى علالو أن مسرحياته تقدر بـ 20 مسرحية. وقد تردد محي الدين باشتارزي كثيرا على مدينة تلمسان التي تأسس بها فرقة "النجم الإسلامي التلمساني"، وعلى مدينة مستغانم وسيدي بلعباس التي أنشأ بها الفنان محمد فرعون أول فرقة مسرحية بالمنطقة سنة 1931. أنظر: Quotidien d'Oran. du 03/10/2004. N° 2969.

* كتب أعماله بالعامية اعتقادا منه أنها أقرب إلى الجمهور الجزائري .

2 - عثمان حشلاف، التراث والتجديد في شعر السياب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص11.

1 - الجزائر نيوز، المرجع نفسه.

طلب جحا من اليهودي أن يعطيه ألف قطعة نقدية على أن لا يقبل أقلّ منها. لكن اليهودي أراد أن يختبر جحا فألقى إليه ب 999 قطعة. فقبلها جحا وخاطب اليهودي: أنت مدين لي بقطعة. انزعج اليهودي وأدرك أن جحا تلاعب به، فطلب منه إن يعيد إليه ماله باعتبار أنه كان يمازحه. فما كان من جحا إلا أن رد عليه: متى رأينا مرابيا يعطي 999 قطعة نقدية ليمزح !؟. يطلب المرابي من جحا أن يرافقه أمام القاضي، فيشترط عليه جحا أن يبتاع له حمارا يركبه ولباسا يليق بمقام القاضي.

إننا سننظر إلى شخصية اليهودي انطلاقا من مسرحية باشتارجي التي وصفها بالمرابي وأطلق عليه أوصافا أصبحت عرفا في تقاليدنا مثل (ليهودي نعلو ربي)¹.

استقر يهود الجزائر في "غالبية الحواضر الكبرى والمتوسطة الجزائرية... وذلك بسبب تحوّل اجتماعي جوهري طرأ على الطائفة قبل حوالي 8 قرون جعلها في غالبيتها العظمى طائفة حضرية"¹. ويروي لنا السيد امحمد لمقامي في مذكراته عن صورة اليهودي في المخيلة الشعبية بتلمسان قائلا: "عزمت على ترك مكاني في الحافلة ... لأحد الشيوخ الذي نعتُّه بالعم وقد كان يرتدي عمامة لونها بنفسجي ناصع، لكنني فوجئت بأحد الشيوخ ينهني ويخاطبني وهو يصرخ في وجهي غاضبا: "الله يعمي لك العينين"، هذا ماشي عمك". ولم أدرك إلا بعد، ومن طويل أن بعض سكان تلمسان يهود من أصل بربري"²

الشخصية اليهودية ومنطق السمات المميزة من خلال مسرحية جحا

والمرابي:

1 - عزوي امحمد، شخصية اليهودي ودلالاتها، قراءة في ثلاثة نصوص شعبية، جامعة فرحات عباس سطيف.

1 - المرجع نفسه.

2 - محمد لمقامي، مصدر سابق، ص 73.

إن البحث في الشخصية اليهودية يقول إدريس مقبول: " هو بحثٌ في غور الإنسان الماكر " بنصّ الدين والأدب والتاريخ، واستِطلاع لكشف أعماقه التي يُسيطر عليها في بعض الأحيان التُّزوع الشيطاني المارد على الحقّ والخير والجمال، الطالب للباطل المشيع لقيم الفُبح والسوء ¹ والكذب والخيانة والمجون والعمالة و الفساد، و الذل والخنوع والخضوع بدل التمرد والثورة . والهمويّة والارتزاقية، وأنّ تتحوّل الدوالّ في عرفها وتقاليدها وسلوكها اليومي عن مدلولاتها الحقيقيّة، فيصير العدو صديقاً، ويتحوّل الشرُّ إلى خير مُطلق، ويستحيل المستعمر إلى صاحب حقّ، وهي آليّة ذاتُ خطر كبير ² . يتوارث أعضاؤها الخبرات في مجال تخصصهم الوظيفي عبر الأجيال ويحتكرونها بل ويتوحّدون بها، لينتهي الأمر باكتسابهم هويّتهم ورؤيتهم لأنفسهم من خلال هذه الوظيفة لا من خلال إنسانيتهم الكاملة ¹ . وإنّ البحث في الشخصية اليهودية هو بحثٌ يرمي إلى التعرف عن قُرب كيف تُفكّر وتُدبّر هذه الشخصية، وكيف تَبني منطقتها بالمغالطة والالتفاف على حقوق الآخرين، كيف تستيحيح حُرّمات الآخرين، كيف تُتقن بناء منظومة الكذب ببراعة، وكيف تحتمي بشرنقة المظلومية لتعاود الإغارة على ضحاياها أصحاب الحق ² .

2 - مسرحية بني وي وي: تدور أحداث المسرحية حول شخصيتي: سي

اللومي وسي بلقاسم، الرجل الأمي الذي حقق ثروة كبيرة من جراء اشتغاله بالتجارة، فراوده الطمع للاشتغال بالسياسة والتطلع إلى منصب أعلى. بينما كان سي اللومي أميراً عربياً، لكنه كان رتبياً يميل إلى البيروقراطية. والحقيقة أن

1 - إدريس مقبول، الشخصية اليهودية في أدب باكثير، رؤية تحليلية تداوليّة، من أبحاث مؤتمر "علي أحمد باكثير ومكانته الأدبية"، تحت رعاية رابطة الأدب الإسلامي العالمية، القاهرة في 18-21 جمادى الآخرة 1431هـ / 1-4 يونيو حزيران 2010

2 - عبد الله المسيري، دفاع عن الإنسان، دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة، دار الشروق، ط2، 2006، ص 22.

1 - المرجع نفسه، ص 11.

2 - إدريس مقبول، مرجع سابق.

المسرحية كانت موجهة لنقد المنتخبين (بني وي وي، الأمير، البروقراطية، التطلع إلى المنصب أعلى) الذين مارسوا أسلوب الكفاح اللفظي بكامل إرادتهم واختيارهم، ودعتهم إلى الإتحاد والوحدة.

تفطنت فرنسا إلى الأهداف الخفية لمحي الدين باشطارزي "الفكاهي الترفيهي والسياسي التوعوي"¹، وللرسالة التي حاول أن يمررها إلى المتلقين في المسرحية لذا سارعت إلى إصدار قرار منعها من العرض.

3 - مسرحية آه يا الخير: ألفها عبد القادر الغالي، وعرضت في 7 جانفي

1952 في وهران بمساعدة مصطفى كاتب. تتمحور المسرحية حول الأخوين حميد والسي محمود.

اشتهر السي محمود بكونه من الفلاحين الأثرياء. له زوجة تدعى فتيحة، وخادمين هما مبروك ومبروكة. بينما عُرف شقيقه حميد بكونه سكيراً ومتسكعاً، يوجد عليه أخوه بالخيرات ويغدق عليه بالنعيم. لكن حميد حاول إغواء فتيحة زوجة أخيه التي قاوت وتصدت إلى جميع محاولاته، إلى أن اهتدى إلى فكرة التخلص (قتل) من أخيه وسلب جميع ممتلكاته ليفرض عليها الأمر والواقع ويجبرها على الانصياع لشهواته ومآربه. وقد أنهى عبد القادر الغالي المدعو بقويدر مسرحيته بإصابة حميد بشلل تام ودائم نتيجة إصابته بصاعقة في حين استعاد شقيقه السي محمود بصره وعافيته.

4 - مسرحية عطل: ترجمها السيد أحمد توفيق المدني¹، وعرضت في

وهران في 7 ماي 1952 تدور وقائع المسرحية حول عضو في مجلس الشيوخ في مدينة البندقية، له ابنة الحسب والنسب، تدعى ديمونة التي تمثل الطهارة. فهي

¹ - أحمد بيوض، المسرح الجزائري نشأته وتطوره 1926-1989، منشورات التبيين الجاحظية، الجزائر، 1998، ص 63.

¹ - صاحب مسرحية حنبعل. أنظر: أحمد توفيق المدني، حنبعل، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1950.

شخصية بسيطة عاشقة رومانسية، وهي في نفس الوقت مسلوقة القوة ولا واعي لها لمجابهة الظلم إلا التحمل الكبير والتسامح المطلق، والتي هي من شيم الحب .

كان العديد من الرجال يتمنون الزواج بها، غير أنها لم تر من بين هؤلاء الرجال إلا رجلا أسود البشرة - من قادة جيوش البندقية - من أصل مغربي، يسمى عطيل الذي كان شخصا بسيطا جدا، محبا ورومانسي إلى أبعد الحدود، شديد الثقة بالآخرين؛ حيث وضع ثقته المطلقة في أمانة ياغو.

كان عطيل شخصية حساسة وقوي الإرادة، يحضر إلى منزل الجميلة "دزيمونة"¹، ويحكي لوالدها عن معاركه الذي خاضها وعن صولاته وجولاته. أحببت دزيمونة عطيل وانفقا على الزواج سرا رغم الفارق بالسن وبالعرق وبالمكانة الاجتماعية، ولكن هذا السر لم يدم طويلا حيث عرفت البندقية بذلك الزواج، والحب العنيف والعميق بينهما مما أدى إلى غضب والدها متهما إياه بالاستعانة بالسحر والشعوذة لإقناع ابنته بحبه . ولكن عطيل برأ نفسه قبل أن يعين قائداً على الجيوش التي ستتحرك إلى قبرص لملاقاة أعداء البلد، فانطلق الجيش وعلى رأسه عطيل ورفقته زوجته دزيمونة. وتبدأ الأحداث هناك حيث يبدأ حامل الرايخ ياغو الذي يمثل فظاعة النفس البشرية وما تحمله من سوء وأنانية وخبث ودهاء، وانتقام، ومنتهى التلذذ بتعذيب المرأة التي يحبها إذ لم تبادل له حبا بحب. يكن كل الكره والحقد لقائده عطيل لأنه اختار القائد كاسيو نائبه وهو مازال حاملا للراية.

أفلح (ياغو) في أن يدبر مكيدة¹ لـ (كاسيو) الأمر الذي يؤدي بكاسيو إلى فقدان وظيفته، فيشجع دزيمونة كي تتوسط له عند زوجها ، مما يلفت نظر عطيل ويثير الشكوك في قلب ه حين أظن في الحديث عن أخلاق المرأة الإيطالية

¹ - المرجع نفسه، ص71.
¹ - وليام شكسبير، عطيل، تر: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1980، ص 18

المتحضرة التي يجهلها عطيل الغريب عن هذه البيئة. فيكشف له أن الخيانة جزء من طبيعتها، فهي لا تعرف الوفاء لزوجها¹.

ملأت الغيرة العمياء قلب عطيل واقتنع ب أن زوجته على علاقة بصديقة كاسيو دون أن يحاول أن يتحرى الحقيقة. فيقرر الانتقام لشرفه² وللمثل العليا التي انتهكتها زوجته، ويعزم على وضع حد لحياتها بيده. يدخل غرفتها ويقبلها قبل الوداع ويقتلها بطريقة مأساوية كبيرة وتلفظ هذه الزوجة الطاهرة أنفاسها الأخيرة وهي لا تعلم ما الذنب الذي ارتكبته.

تجري الأحداث ضمن أجواء تتنازع فيها قوى الخير والشر. فالأسود لا يعني وصفا أساسيا على قاعدة التمييز العرقي ولكن السواد والبياض هو حتى داخل العرق ذاته سواء كان أبيض أم أسود³. إن السواد والبياض في الذات الإنسانية وأغوارها العميقة. والعبودية لا تقتصر في المسرحية بلون البشرة وإنما تقتصر بالفعال السوداء والشريرة، لهذا كان ياغو الأبيض عبدا بسبب أفعاله، وكان عطيل الزنجي قائدا نبيلًا بسبب أخلاقه ومروءته وحساسيته. كما أن الفرق كبير بين الضعف الإنساني للإنسان العادي، وبين الخبث الذي هو محور الشرور البشرية ومصدر قوتها ألا وهي الغيرة من شخص آخر لا يتناسب شكله ومظهره مع زوجته التي تحبه حباً كبيراً.

5 - مسرحية هرثاني¹ : حظيت قاعة مسرح وهران يومي الأربعاء

والخميس 16 و 17 يناير 1957 بعرض مسرحية هرثاني لرائد الرومانسية فيكتور

هيغو¹.

1 - مرجع نفسه ، ص 72.

2 - وليام شكسبير، مصدر سابق، ص 199.

3 - المصدر نفسه، ص 199.

1 - أحدثت المسرحية عند عرضها معركة بين الكلاسيكيين وأعدائهم الرومانسيين، وكأننا عندما نقف على أسباب اقتباس وتمثيل وتقديم المسرحية أمام الجمهور الجزائري، سنلمس بأن المقتبس أراد أن يوظف الزمن المرتبط بالزمن التاريخي الذي ينقلنا عبره إلى الصراع بين الماضي (المعمر) والمستقبل (الجزائري المسلم). وهذا ما زاد المسرحية تشويقا وإحساسا بالرغم من تغيير المكان. خاصة وأن

تدور أحداث هذه المسرحية في ربوع الأندلس حيث يصف لنا هيجو فاتنة الإسبان دويña سول التي حوّل قلبها وجمالها ثلاثة من العشاق ، أولهم شيخ متصاب يدعى دي سيلفا، والثاني دون كارلوس الذي أصبح إمبراطوراً منتخباً تحت اسم شارلكان، والثالث هرناي الثائر الشاب الخارج عن القانون ، والمعارض السياسي لسلطة دون كارلوس. والملفت للنظر أن ما كان يجمع بين الملك والثائر دي سيلفا، هو غرامهما بالحسنة دونيña سول المغرمة بدورها بهرناي وحده، حتى وإن رغب عمها الدون روي غوميز في أن يتخذها زوجة له.

يتفق الشيخ روي غوميز وهرناي على اغتيال الملك شريطة أن يحق للشيخ أن يأمر الشاب هرناي بالانتحار متى شاء باستخدام بوق أهداه إليه. لكن دون كارلوس الملك اكتشف المؤامرة والمتآمرين، وفي الوقت الذي كان يهجم فيه بمعاقبتهما، يصله خبر انتخابه إمبراطوراً... فيشعر بسموه فوق تلك الصغائر وترهات الشباب، ويقرر العفو عن المتآمرين وعلى رأسهم هرناي، بل ويرد إليه أملاك أبيه، كما يمنحه حق الزواج من دونيña سول. وفي لحظة اقتراب الحبيين من الزواج، ينفخ الشيخ في بوقه فينتحر هرناي ومعشوقته، ولا يلبث الحاسد الثاني أن يلحق بهما نادماً حسيراً منتحراً (فشل النضال السياسي) على جثتيهما.

المسرحية مليئة بالأحداث والمناورات والهوامات والتحالفات والتصرفات الشخصية لك الأحزاب السياسية في الجزائر التي كانت غير ثابتة ومتماسكة، ورهينة لواقعها، وأهوائها وحريرتها وتضخم ذاتيتها التي تدفعها إلى سوء التصرف¹. تعيش حالتها الفردية السوداوية المستسلمة لِقَدَرها ، وتفقد الأخلاقيات الصارمة، وتعيش صراعات وتناقضات تتمثل في التمزقات الداخلية، والإستقلال عن الواقع والظرف.

المسرحية وظفت رواسب الصور الشعبية المتداولة، ليدرك المتلقي أن الاستعمار والصراع من أجل المبدأ والتراب هو قضية كل العصور والأمم التي تعاني من الظلم والاستبداد.
¹ - من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية، ولد 26 فبراير 1802م في بيزانسون بمنطقة الدانوب شرقي فرنسا، عاش في المنفى خمسة عشر عاماً، خلال حكم نابليون الثالث، من عام 1855 حتى عام 1870. توفي في باريس في 22 مايو 1885.

1 - تعيد فرنسا استذكار فيكتور هيجو من خلال عرض قضية هرناي.

6 - مسرحية "بيغماليون": ل "برنارد شو"¹ بوهران في 11 مارس 1957،

تبدأ المسرحية برهان يقوم بين العالم الأرستقراطي "هنري هيغنز" المتخصص في دراسة الأصوات، وصديق الكولونيل "بيكرنج" على فتاة هي "إيزا دولتيل"، بائعة الزهور السوقية، المنعدمة، المشاكسة، ابنة الوحل والوضيعة غير المدنية.

عالج محمد التوري من خلال المسرحية، الأسطورة بطريقة مبتكرة تعانق بيننا الملحمة الجزائرية. لي عبر من خلالها عن آرائه السياسية، وتحدث عن هموم الإنسان المعاصر، وتدريب الفتاة المتواضعة الجذور التي تجد نفسها منخرطة في وسط المجتمع المخملي المتجرد من عواطفه، كما تدين المسرحية أفكار و ممارسات وتصرفات الطبقة الارستقراطية غير اللائقة التي تحقر الجنس البشري وبتنظر إليه باعتباره جرما ماديا تستطيع الاستهانة به². لا تجد الإنسان في الإنسان، بل ينتفي

فيها العقل لصالح التقليد. لذلك ألغت المشاعر والأحاسيس والإنسانية¹ من حياتها ورفضت رؤية أبناء الطبقات الفقيرة (الرواسب الاجتماعية) تكتسب عادات غير مألوفة لديها، وأن قيمة الإنسان تبدو في بناء حياة أصيلة بعمله، لا بما يملك من دماء زرقاء وأموال. وأن تصبح ندا لها لأنه من المستحيل ردم الهوة بين الطبقة الدنيا والطبقة العليا، وإلا هُزّت أركان المثل الأعلى للمجتمع الراقى، وتصور تناقضاتها حين استخدمت لغة غير لائقة في حين كانت تعلم اللياقة والذوق للآخرين. إنها تبدو مغرقة في أنانيتها فلا تهتم إلا بذاتها وما حققته من انتصارات، وتقول شيئا لا نلثم نفسه بها وتفعل شيئا آخر أو بتعريفها من المشاعر الإنسانية حين يطالب العالم هيجنز مديرة منزله بأن تخلع كل ملابس إيزا وتحرقها وأن تأخذها وتغطفها بصابون الزفر إذا لم تتفع طريقة أخرى.

1 - ولد في 1856 /06/26 وتوفي في 1950/11/2، يعد أحد أشهر الكتاب المسرحيين في العالم، وكان أحد مفكري ومؤسسي الاشتراكية الفابية. شغلته نظرية التطور والوصول إلى السوبرمان.

² - ي. كاريكين، دوستوفسكي، إعادة قراءة، تر: خليل كلفت، بيروت، 1991، ص 9.

¹ - موقع الأدب العالمي، مرجع سابق.

8 - مسرحية بوحدة: هي مسرحية اجتماعية فكاهية تسيطر على المخيلة

الشعبية، امتازت بطابعها التراثي أراد من خلالها محمد التوري أن يصور لنا عالمين متناقضين ومتصارعين هما: عالم الخير والوفاء، وعالم الطمع الجشع والدجل. وكأننا أمام مسرح ديالكتيكي يمكّن المتلقي من إدراك التناقضات المثيرة التي يعيشها في حياته اليومية دون روتوش أو تزويق، وتجعله ينتقد واقعه البسيط بأسلوب ساخر¹، ويعالج مواضيع الفساد الاجتماعي والأخلاق السيئة التي تهدف إلى زعزعة وهدم المجتمع، وتفصح المعاناة الاجتماعية التي تعاني منها شريحة الناس البسطاء وتوجيههم للبحث عن مصالحهم المهضومة من قبل القوى الاحتكارية في المجتمع. تدور أحداثها حول بعض الشخصيات التالية:

1 - بوحدة: نكتشف من خلال اسم الشخصية أن المسرحية كتبت بالعامية،

لغة الشارع الجزائري الفقير التي زاوجت بين الدارجة السوقية والكلمات النابية أحيانا (الهايشة، كالفرد، الحلوف، بغل، باباك، كاو) والمفردات الفرنسية (السيبطار، الشَمْبِيُونَا، كاباري*، تياتر*، قوش*، لالوتري*، كوما*)). فهناك فرق بين بوحدة والأحذب. فالأحذب إشارة عادية إلى عاهة أو عيب خلقي في جسد الإنسان، أما بوحدة فهو توصيف احتقاري يثير الاشمئزاز والتمييز لشريحة معينة من المجتمع وإن كانت تمتلك قدرات فكرية، لكنها تظل محل إشارة واحتقار من المحيط.

بوحدة: رغم أنه رجل مشوه الخلقة، فقد أظهره الكاتب بأنه رجل فقير، مؤمن بالقضاء والقدر، حليم ومثابر، ميال إلى التضحية والصبر على الأذى. يمتاز بسمو أخلاقه ورجحان عقله وحصافة رأيه "يازوليخة نسيبك بوحدة عالم جليل"¹ ،

1 - حسن عطية، الثابت والمتغير - دراسات في المسرح والتراث الشعبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

1990، 97.

* cabaret

* théâtre

* gauche

* lottery

الرجل الذي باع بيته وصرف كل أمواله لعلاج ابنته، وهمُّه الوحيد إصلاح المجتمع ونبذ الآفات الاجتماعية كالشعوذة، والخرافات، والسرقة، وشرب الخمر.

ليس من الصدفة أن ينشد محمد التومي على لسانه بَيْئِينَ شِعْرِيَيْنِ في مقاطع من المسرحية لحقتين مختلفتين من الزمن. حقة يقول في شاعر الرومانسية أبو القاسم الشابي:

أنت يا شاعر فلذة من فؤادي تتغنى وقطعة من وجودي¹
ثم يعود بنا إلى الماضي البعيد الذي يختار منه بحنكة وبراعة بيتا شعريا
لعنرة العبسي الذي يقول فيه:

و لا تختر فراشا من حرير و لا تبكي المنازل والبقاعا²
أراد الكاتب أن يظهر لنا المظاهر الخداعة التي سادت المجتمع الجاهل في ظل الاستعمار الفرنسي الذي طغى عليه الطمع والجشع وحب الذات والمصالح الخاصة والعجز في الغور في نفس الإنسان. مجتمع أنساه الاستعمار خصال "إيلي" المرأة "المتقفة"، زوجة بوحدة "المشوه" التي لم تنفر من عاهة زوجها الذي خسر ماله، ورفضت الطلاق من ماضيها الذي حوله المستعمر إلى محذب ومشوه يثير الضحك والنفور. لقد تغير بعض الآباء - شريحة من المجتمع - لكن المرأة ظلت وفيت لقيم وعادات وتقاليد أجدادها.

تدل لغتها الأقرب إلى الفصحى على قوة شخصيتها ورزانة عقلها، فقد أراد محمد التومي أن يقدمها للمشاهد بالمرأة التي تسنلهم حوارها التربوي من القرآن الكريم الأحاديث النبوية "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"¹، والحكم والأمثال الشعبية المستمد من قصص الأجداد وبطولاتهم وأمجادهم. وهي خصال

combat*

¹- محمد التومي، بوحدة، طمع وتحقيق حسين نذير، المكتبة الوطنية الجزائرية، 2007، ص 16.

¹- نفس المصدر، ص 3.

²- نفس المصدر، ص 48

1 - حديث شريف

المرأة الجزائرية التي ترفض تقمص شخصية والديها، وتسلب الآباء على الأبناء والتحكم في مصيرهم وحرمانهم من أن يعبروا بحرية مطلقة عن كينونتهم لتحديد مصيرهم كما ترفض العادات السيئة التي انتشرت وطغت على المجتمع الجزائري. المرأة التي تجسد المعيار الأخلاقي الذي كان سائدا في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، والتي ستتجلب لنا مستقبلا المجاهد الذي ينشد مكارم الأخلاق ويقف في وجه إغراءات الآخر - الاستعمار الفرنسي - مهما تنوعت وكثرت..

3 - حَمُوُّ بوحديبة وحماته زوليخة: مثال للأناية والطمع والانتهازية والجشع

ومصلحة الخاصة، اللذان يريدان بيع ابنتهما من أجل المال، لأن المال في نظريهما يغطي كل العيوب¹.

لغة الحماة العجوز الأمية والجاهلة، عامية بسيطة تدل على طمعها ووضعها

الاجتماعي. ينشد الصهر وزوجته "الأنا" بتوسيل ابنتهما، لذلك يطالبان صهرهما المفلس تطليق ابنتهما لتزويجها من رجل التاجر والغني الفاسق الذي لا تهمة سوى الثروة. يشترك الحماة والحماة معا في ضعف شخصيتها، فزوليخة مغلوب على أمرها من طرف زوجها الشيخ المتسلط الذي سرعان ما يرضخ بسهولة لمطالب زوجته عندما تلح عليه بحوارها البسيط " يا حبيب غطنا دروق رانا ندمنا، وربي يحاسبنا إذا خلينا بنتنا تقاسي طول حياتها...الفايدة خلينا من كثرة الكلام، كون رزين أو ميّز بعقلك"¹. لأن أحد المتسولين نشر خطأ خبرا مغلوطا مفاده أن بوحديبة ربح مبلغا ماليا كبير قدره خمسة ملايين فرنك في اليانصيب، فحاول والدا زوجته البحث عنه لكنهما لم يجدها لأنه كان مريضا في المستشفى.

4 - الدجال: رمز الدجل والشعوذة والكذب والنصب على الشعب الجاهل

الفقير. يبيعهم الأدوية المغشوشة والمضرة زاعما أنها تشفي من مختلف الأمراض. فارق حرفة الدجل على يد بوحديبة الذي سامحه لما أرادت الشرطة حبسه، فوجد

1 - محمد التومي، مصدر سابق، ص 24.

¹ - محمد التومي، مصدر سابق، ص ص 16-17.

عملا قارا في المستشفى أين سيلتقي مرة ثانية ببوحدة طريح الفراش، ليعتري به إلى أن شفي من مرضه.

5 - الملاك: لغته العامية تدل على وضعه الاجتماعي السوقي، خسر أمواله

في شرب الخمر والقمار في الحانات التي كان يخالط فيها الفرنسيين. فاز في إحدى البطولات بمبلغ خمسة آلاف فرنك أهداها لبوحدة لكراء بيت يجمعه وزوجته وفاء له مقابل الدرس الذي لقنه إياه، حيث جعل منه شخصية سوية تحوز على بطولة¹.

3- عبد القادر ولد عبد الرحمان كاكي ومسرح المداح بمستغانم (نموذج):

يعتبر عبد القادر ولد عبد الرحمن الملقب بكافي من أهم المسرحيين الجزائريين الذين جمعوا بين التأليف والتمثيل والإخراج، والذين جربوا مجموعة من الأشكال المسرحية الغربية والعربية على حد سواء، إن تجريبا وإن تأصيلا. وقد استوعب عبد الرحمن كاكي مجموعة من التجارب المسرحية العالمية، كافتتاحه على مسرح اللامعقول، ومسرح العنف، ومسرح بريخت*، وكوميديا دي لارتي، ومسرح المداح* والحكواتي، ومسرح الحلقة¹.

تأثر عبد الرحمن كاكي في مسرحيته "أفريقيا قبل العام الأول" بشكل الحلقة والأسلوب البريختي، الخلفي² ومُشاكلته لتقاليد الحكواتية لدى العرب. وفي هذا الصدد، يقول الباحث الجزائري الشريف الأدرع عن فن الحلقة عند عبد الرحمن كاكي: "كل هذا ينجز في حلقة، ومن هنا إطلاق "سرح الحلقة" على عرض المداح

¹ - نفس المصدر، ص ص 16-17.

* هو يوجين برتولد بريخت فريدريش قام بتغيير اسمه لاحقا إلى برت بريست ثم استقر على لقب برتولد برخت، أمانى من أشهر من أشهر مؤلفي المسرح في القرن العشرين. ولد في 10 فبراير 1998 في أوغسبورغ جنوب ألمانيا. من أشهر مسرحياته "رجل برجل" و "أوبرا القروش الأربع" و "دائرة الطباشير القوقازية" و "أيام الكومون" و "الأم الشجاعة" وغيرها. توفي 14 أوت 1956 عن عمر يناهز 58 عاما في برلين.

* يسرد المداح أو القوال الحكايات الشعبية البطولية والدينية في الأسواق والأماكن الجماعية، وغالبا ما تميل هذه الحكايات إلى الأسطورة والخرافة الشعبية. تتميز بالموعظة الحسنة ودعوتها إلى عمل الخير وتقادي أعمال الحق والشر.

¹ - جميل حمداوي، المسرح الجزائري والفضاء الركي والسينوغرافي، 10 ديسمبر 2010.

² - أحمد كمال زكي، دراسات في النقد الأدبي، دار الأندلس، مصر، 1980، ط 2، ص 42.

وفنه عموماً، نظراً للشكل السينوغرافي للعرض الذي يكون بحسب تجمع المتفرجين، وهو إما أن يكون حلقياً، أو يشبه حدوة حصان¹. إنه "عمل إبداعي يفترض الصنعة ويوحى بأنه حقيقي، وهو يعرف أيضاً بكونه فناً مزدوجاً يقوم على العلاقة بين مكونين هما النص من جهة والعرض الذي يشكّل غائية المسرح من جهة أخرى"².

انطلاقاً من هذه القناعة اعتمد العمل الإبداعي لعبد الرحمان ولد كاكاي على توظيف التراث الشعبي للإستفادة منه وشحنه بقضايا سياسية واجتماعية لتبرير رسائل مشفّرة تحمل المتلقي على "المشاركة الفعلية والوجدانية"¹، وتجعله يخاطب نفسه ويعي حاضره وما يدور.

أهم مسرحيات ولد عبد الرحمن كاكاي خلال الفترة المدروسة		
- دم الحب	1951	- عبد الرحمان كاكاي
- تاريخ الزهرة	1953	- تاريخ الزهرة
- الدكتور منير	1953	- جول رومان - اقتباس عبد الرحمان كاكاي
- الشبكة	1957	- عبد الرحمان كاكاي
- مضار التدخين	1958	- تشيكوف (الروسي) - اقتباس عبد الرحمان كاكاي

¹ - جميل حمداوي، مرجع سابق.

² - ماري إلياس، مصدر سابق، ص 29.

¹ - عبد الله أبو هيف، المسرح العربي المعاصر رؤى وتجارب، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، ب.ت، ص 27.

بلوتوس (الروماني) - اقتباس عبد الرحمان كاكي	1958	- السفر
- الإنجليزي موليير - اقتباس عبد الرحمان كاكي	1958	- سماسرة الزواج ¹
- الكاتب يوجين يونيسكو - عبد الرحمان كاكاي	1958	- الأميرة الصلحاء
- اقتباس عبد الرحمان كاكي	1958	- نهاية اللعبة
- الكاتب كارلوس غوزي - اقتباس عبد الرحمان كاكي	1960	- ديوان القراقوز ¹

يخضع توظيف التراث الشعبي في المسرح إلى جملة شروط منها:

1 - الدوافع الوطنية: إن التأسيس للمسرح الجزائري يعني البحث عن

الهوية والذات الجزائرية. وقد عرفت حركت التأسيس عند كاكاي حضورا كبيرا في أعماله المسرحية الذاتية أو المقتبسة التي استلهم مواضيعها من البيئة الجزائرية والتراث المحلي الذي ينطوي على إحياءات ورموز، ليقدم ما يتوافق وطبيعة ذوق جمهوره لعله يلغي المسافة النفسية بينهما، ويشد انتباهه إلى الحرية والتحرر،

¹ - تعالج موضوع ارتفاع تكاليف الزواج ، وما ينجم عنه من مشاكل متنوعة تؤدي إلى تفكيك الروابط الأسرية.

¹ - قام بعرضها مرة أخرى على الجمهور الفرنسي بباريس سنة 1964، فنالت إعجاب النقاد والمهتمين بشؤون المسرح. وقد عقب على ذلك قائلا بأن: " المعمرين الفرنسيين كانوا في غاية الغياب عندما سمحوا بتقديم هذا العرض".

والعلاقة بين السيد والمسود، والقهر، والترهيب، والظلم والاستبداد، والدعوة إلى التغيير والعمل على التجديد... فيصبح العمل الفني المكتوب إبداعا يعالج "موضوعات تمس صميم حياة الناس في إطار شعبي فلكلوري، ومن خلال حكاية أو حكايات بسيطة حميمة تتصف بذكائها...وميلها...إلى...الفكاهة والمرح، وإلى ذلك، فإن كلا منهما، يحمل دلالة اجتماعية أو سياسية أو ثقافية مميزة"¹. تجعل المشاهد يتخذ موقفا فكريا ومبدئيا، للثورة على الاستعمار والقوانين الجائرة التي وضعها هذا الأخير تتطلب وعيا سياسيا واجتماعيا وفعلا ثوريا. لهذا كان ولد عبد الرحمان كاكي: "يزود المشاهد من وقت لآخر بالحقائق اللازمة عن المواقف التي أمامه ليختار بينها"¹.

2 - الدوافع السياسية: بما أن المسرح مظهر من مظاهر الثقافة الجزائرية،

فقد راح المسرحي الجزائري يبحث في الواقع السياسي المعاش في الجزائر، هذا الواقع الذي حفر عميقا في وجدان ولد كاكي فاستطاع تطويع التراث الشعبي في أعماله الفنية باستخدامه اللغة العامية لغة المداح والقوال والسوق والحلقة. ولم ينظر إليه كمادة خام تنتمي إلى الماضي، بل أصر على التعامل معه كموقف وحركة مستمرة يُحمّله أبعادا سياسية، ويساهم بشكل كبير في تغيير² الواقع الجزائري وتطويره. ساعده ذلك على عرض مسرحيات ترتبط مواضيعها بالواقع المعاش للجزائريين، محاولا ربطها بواقع المتلقي الذي يرغب في التفاعل معه ومخاطبته ومحاورته وتحقيق تواصل³ حي وناجح بينهما. خاصة وأن المسرح حفل واحتفال ومهرجان يلتقي فيه الناس بالناس، لأنه عيد جماعي.

¹ - نصر الدين البهرة، مرجع سابق، ص 213.

¹ - رونالد جراي، بريخت، تر: نسيم مجلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ص 91.

² - حورية حمو محمد، تأصيل المسرح العربي بين التنظيم والتطبيق في سورية ومصر، اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص 153.

³ - بن دنية بن نكاع، مرجع سابق، ص 375.

3 - الدوافع النفسية: إن شعور الكاتب المسرحي بالاغتراب في مجتمع

تنتشر فيه مظاهر القلق والظلم والطغيان يجعل الإنسان يشعر بأنه غريباً وبعيداً عن بعض نواحي واقعه الاجتماعي، وشعوره بالعزلة واللاجدوى، وباختلاف ذاته عن الآخرين وما يصاحبه من شعور بالفخر والرضا، وبديهي أن اختفاء هذه المزايا من العمل يخلق شعوراً بالاغتراب عن النفس. وافتقاد الإحساس بالعلاقة بينهما لكونه تعرّض لرضوض نفسية نتيجة انتزاعه من بعض الأشياء أو الناس الذين يحبهم (الوطن، العمل، الأم، الحب، أو القوى الغيبية، أو المجتمع). إنه انعكاس لتصدعات وانهيئات في العلاقة العضوية بين الإنسان وتجربته الوجودية، الذات/الموضوع، الجزء/الكل، الفرد/المجتمع، الحاضر/المستقبل¹. ويكون الصراع فيه مع القوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لتحديد موقفه التاريخي مما يدور حوله، ويكون مغترباً عن هذا الموقف لأنه لا يتحقق، فيبقى الإنسان مستهلكاً مسلوب الذات. ولكي لا يشعر الإنسان بالاغتراب تجاه تاريخه فإنه ملزم بتحرير التاريخ من الاغتراب، بمعنى إحداث تغيير في مجرى التاريخ، وهذا يتم بأن يدخل الإنسان في تحديد مسار التاريخ ويتحرك به ومعه.

3 - الدوافع الفنية: المتمثل في رفع شعار واحد هو التأسيس لمسرح

جزائري مستمد من التراث . يؤكد انتماءهم وهويتهم ويعبر عن واقعهم المعيش، ويستفيد من تجربة الغير لكنه يظل جزائرياً بلغته ومضمونه ومحتواه وتراثه. وهذا ما نلاحظه بالفعل في المسرحيات التي اقتبسها ولد كاكي حيث قام بتغيير مواقف كثيرة واستبدل أسماء شخصيات غربية بأسماء جزائرية بما يتوافق ومواقفه. فالمرأة الطيبة التي تنتازل عن شرفها من أجل الصالح العام تخالف العرف والتقاليد الجزائرية ولا يقبلها المتفرج، لذا عوضها بالمرأة الطيبة التي فقدت بصرها واستتجدت بالأولياء الصالحين. من جهة أخرى، قدم عبد الرحمن كاكي مسرحية

¹ - قيس الزبيدي، مسرح التغيير، مقالات في منهج بريخت الفني، دار ابن رشد، لبنان، 1978، ص 27.

تراثية أخرى تحت عنوان: "ديوان القاراقوز"، مستعملا فيها المنهج البريختي لأنه كان أقرب إلى لبرتولد بريخت والحكواتية العرب، مع استدعاء فن الحلقة ومداح الساحات العمومية. وهذا، ما نراه جليا في مسرحيته "القراب والصالحين"، التي تتحدث عن خرافة الأولياء الثلاثة والمرأة العمياء التي كان يقصها المداحون في الأسواق. وعلاوة على ذلك، يمكن القول بأن ه كان يعتمد على استحضر لغة ذات طابع تراثي تحوي الكثير من الرموز والمرونة والإيحاءات والدلالات العميقة القادرة على تحريك مشاعر الجمهور، والتي لا يرفضها عقل يؤمن بكثير من الخرافات والأساطير، كما كان يستعمل بكثرة الفضاء التراثي الغني الذي "يعني بالدرجة الأولى التأصيل وتحقيق الذات والهوية، وإحياء تراث الأجداد والآباء والافتخار بآثارهم ومجدهم التليد"¹، وذلك بتشغيل خيال الظل، واستعمال الستار الكاشف كما في مسرحيته الاحتفالية: "قاراقوز"، والتي قال عنها الدكتور أمين العيوطي: "لم يكن خيال الظل بأقل حفا من كل تلك الأشكال، وهي الشكل الذي يقوم على تمثيل المخيلين بالصوت لشخصهم الظلية التي يحركونها من وراء الستار، ويعتمد على عرض نماذج تربطها قصة بسيطة، وتعتمد على المهازل والأساطير الشعبية وألف ليلة وليلة. كان هذا هو الشكل الذي بعثه من جديد ولد كاكي في الجزائر في مسرحية "كراكوز"².

إن المتأمل في مضمون مسرح هذه الفترة يجد أن:

- أن المسرح "تصوير للواقع وتعريفه قصد الكشف عنه لإصلاح ما هو

فاسد وتقويم ما هو معوج، ومنه كان المسرح منذ الأزل مرتبط بالثورة، ثورة

الإنسان على القهر والظلم وأشكال الشر ومحاولة الاقتراب من الخير والعدل

والمساواة"³. لأنه عمل إبداعي يفترض الصنعة ويوحى بأنه حقيقي.

¹ - صالح لمباركية - المسرح في الجزائر دراسة موضوعاتية وفنية، مرجع سابق، ص 226.

² - جميل حمداوي، مرجع سابق.

³ - عبد الحليم رايس، مسرحيتان: أبناء القصبه ودم الأحرار، مطبعة برج الكيفان، ط 2، 2000، ص

- حظي "المسرح الملحمي بتقدير كبير في الوطن الجزائري لأنه يوظف مفاهيم كثيرة منها الثورة، الاستبداد، الطبقة الكادحة، حرب التحرير، الرفض سعياً من رواده إلى تأسيس مسرح جزائري شعبي ملتزم بقضايا الشعب وهو يزرع تحت نير الاحتلال. يقول مخلوف بوكروح: "مسرحنا اليوم سيكون معبراً عن الواقع الثوري وسيكون خادماً للحقيقة في أصدق وأعمق معانيها"¹.

- أن المسرح سيساهم بشكل كبير في تقويم الشخصية الوطنية¹، وتعبئة الجماهير للمطالبة بحقوقهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحققهم في حرية التعليم والكرامة الإنسانية.

- استخدام الأسلوب المباشر والتلميحات السياسية بنبذ الاستبداد والظلم الاجتماعي والتمييز الذي عانى منه الجزائريون من طرف الإدارة الفرنسية

والمعمرين والمنتخبين المزيفين².

- إضفاء الطابع الجزائري الأصيل على العرض المسرحي من مختلف جوانبه، سواء في ما تعلق باللغة المستعملة في الحوار المسرحي، وهي لغة دارجة شعبية جزائرية، قريبة من الفصحى وبعيدة عن الركافة والابتذال، ما يدل على وعي رواد المسرح الفكاهي بقضية الصراع اللغوي . إضافة إلى سمات الإنسان الجزائري (العصا البدوية الجزائرية، الشوارب التي ترمز إلى الرجولة، والشاش الجزائري على الرأس الذي يرمز إلى العروبة والإسلام..) وشكل لباسه المعبر عن شخصيته الشعبية البسيطة، الذي يُظهر سذاجة ولكنه يُخفي ذكاء خارقاً.

- ارتباط مضمون المسرحية " بالنضالات التي خاضها الإنسان الجزائري من أجل إثبات هويته الثقافية وشخصيته الوطنية. فهو مسرح ملتزم ترجم المطالب

1 - مخلوف بوكروح - إلى المسرح الجزائري - مجلة الأقاليم، العدد 06 (خاص)، العراق، 1980، ص 15.

1 - مخلوف بوكروح، ملامح عن المسرح الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 15.

2 - نور الدين عمرون، مرجع سابق.

الوطنية، وهو مسرح شعبي بتوجهه إلى الأغلبية الساحقة من السكان عن طريق الجولات التي كانت تقوم بها الفرق الجزائرية. وبمحتواه وموضوعاته المستقاة من الحياة اليومية، وهو مسرح وطني بموقفه من الأحداث التي كانت تعيشها الجزائر من خلال الانتقادات الموجهة للسلطات الفرنسية بصورة غير مباشرة عن طريق الإيحاءات والإيماءات والتلميحات. وتتمحور الموضوعات التي كان يعالجها المسرح الجزائري أثناء فترة الاحتلال حول نقد بعض العادات والتقاليد الاجتماعية والمظاهر السلبية المتفشية في المجتمع¹.

- الصراع بين القوي والضعيف، والخير والشر، والفرد والمجتمع، وبين الجنسين الذكر والأنثى في المخيلة الشعبية التي تستمد أرقامها من التراث الشعبي.
- التركيب الاجتماعي للمجتمع الجزائري سواء من الناحية الطبقية أو الثقافية ..

- دعوة المجتمع الجزائري إلى اكتشاف مشاكله الاجتماعية والاقتصادية والسياسية باعتبار المسرح وسيلة من وسائل التغيير.

1 - مخلوف بوكروح، مرجع سابق.

الفصل الرابع

التراث الشعبي والرياضة في عمالة وهران:

1 - التراث الشعبي:

إن العمل على دراسة التراث العربيمن أغان وأمثال وحكايات تروي البطولات، هو إبقاء على السمات الوطنية للشعب الجزائري، وربط حاضره بتراثه، ومساهمة في معركة المصير التي خاضها ضد الإستعمار الغاشم في معركة المصير، و"الاهتمام بالتراث هو استجابة طبيعية لإحساس مجتمعنا بذاته، واستكمالاً لملاحمه"¹. يحمل أسماء متعددة منها الميزان، واللغة، والكلام، والقول، والشعر، والقصيدة، والعَيْطي في كثير من مناطق تلمسان مثل سبدو. صَاحَبَ الحركة الوطنية والثورة التحريرية لتعبئة الجماهير وربطها بأصولها وثورتها، والتعبير عن مأساتها بالكلمة الملزمة، الشعبية والبسيطة، الحاملة لأبعاد الإنسان النفسية والاجتماعية والسياسية بغرض إحداث نوع من الصدمة عند المستمع.

أ - فن القول (الأهزوجة) والأغنية البدوية :

تمثل الأهزوجة تراثاً شعبياً جزائرياً قديماً يراعي استخدام الأسلوب البلاغي، من جناس، وطباق، وتشبيه، واستعارة، وكناية². تتميز بخصائص و صفات كثيرة منها: اللباس التقليدي (العمامة أو كما تسمى الرزّة، والبرنوس . والملاحظ أن الاستعمار الفرنسي جعل منه الزي الرسمي للقياد حتى يحول دلالاته من رمز للمقاومة الشعبية الجزائرية إلى العمالة للاستعمار الفرنسي) ، أو العباءة الجزائرية البيضاء اللون التي "ورثتها لنا بيئة تميل روحها إلى التنعم والهدوء"، والبُلُوزة الوهرانية والشدّة، والبندير والقلال والقصبّة)، وأن تكون بالعامية وشعبية. ترافقها

¹ - لطفي الخوري، وحدة التراث الشعبي في الوطن العربي، مجلة التراث الشعبي، العدد 09، 1970، ص 1970.

² - العربي دحو، بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص 143 .

الألحان والموسيقى البسيطة على طريقة الصناعة الموسيقية¹. مجهولة الأصل لأنها

"نشأت بين العامة من الناس في أزمنة ماضية وبقيت متداولة أزمانا طويلة. وفي هذا

النوع من الأغاني لا يهتم الناس بمؤلف ولا ملحن"².

تمسكت الأزوجة بحق المرأة الجزائرية في الجهاد. فلم تعد مهمتها تقتصر على القيام بشؤون البيت والعمل على تماسك الأسرة¹، بل وبلفكاء روح الحماس في صفوف الجيش ورعاية ضحايا الحرب. فلا غروَ إذن أن تصور لنا حقيقة بغضها ورفضها الشديد للمستعمر الذي لم يعد يُثنيها عن مرادها بل على العكس تماماً، أُجِّجَ صدرها. فتفجرت ثورة وقوة من أجل الحق، وجعل من آلامها حافزاً قوياً لتجاوز العقبات وتشجيع المجاهدين على إحياء الروح الوطنية في ضمائر الجماهير الشعبية وتجنيدها. بل ويذهب بها الخيال إلى تصوير حقيقة² هزيمة الجيش الفرنسي وصورته السوادوية التي تمثّل الصراع والحركة، وتدلّ على حالة الفوضى والضياع، وتعكس النفسية السيئة التي كان يشعر بها، والتعب الذي يجتاح نفوس جنوده المرهقة، وتشنت قبعات جنوده في المعركة لأنهم لا يستطيعون أن يثيروا ريحا أو يمزقوا سحابة³، وتتحداهم بل وتتحرش بهم بسخريتها المعهودة وثقتها بنفسها وهي تُسائلُ أحد الفرنسيين: "لماذا يضيق صدرك وينقبض فؤادك؟ ولماذا تحس دائما ألما خفيا مُبهما قد نعّص عليك العيش وسلبك لذة الحياة؟ وكيف لا وأنت... وسط الدخان والطين، تحيط بك هذه العظام البالية، بدلا من أن تكون وسط الطبيعة الحيّة، التي خلقها الله لينعم بها الإنسان"⁴.... "كم أود لو تركتم تلك اللعبة التي تسمونها... والتي تعودتم على ممارستها هنا... دعوني أسألكم مرة واحدة من

1 - عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص 758 .

2 - فوزي العنتيل، بين الفلكلور والثقافة الشعبية القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1978، ص 245.

1 - خضراء بلامي، المرأة والثورة، صفحات من التضحية والمعاناة، مجلة أول نوفمبر، العدد 148، الجزائر، 1996، ص 23.

2 - محمد غنيمي هلال، مرجع سابق، ص 414 .

3 - مارلو كريستوفر، مرجع سابق، ص 33.

4 - عصام بهي، مرجع سابق، ص 303.

أنتم؟... لن أسمح لمجرد شخصية أن تأتي لتسألني من أنا... لا ينبغي أن تعتمد اعتمادا كبيرا على حقيقتك كما تبدو لك اليوم. فحقيقتك اليوم يمكن أن تصبح كحقيقتك بالأمس... مجرد وهم من أوهاام الغد"¹.

إننا "في الواقع يمكن أن نعتبرها استثناءات استثنائية"¹. لأن المعمّر يدعي الحرية والإنسانية المضلّة لكي يمارس التألّه والتميز والتجاوز والتفاضل والطغيان والاستعلاء والازدراء والإلغاء والنذالة والدمار بلا شفقة. يشجّب عمل المقاوم ليثبت أنه إله الرجل الأبيض خلق الجزائريين للاستعباد والخوف والخنوع وإرغامه م على العمل الشاق.

هكذا بعد الكثير من المعاناة، تغنّت² بعاطفة صادقة³ تستثير الهمم لتتقل لنا من جيل إلى آخر بعفوية وبساطة، وبكلمات شعبية عامية تتميز بقصر الجمل، والجاذبية اللحنية والإيقاعية التي تهز الوجدان، وتثير العاطفة المقترنة بثراء جمالي⁴. تتقل لنا ثورة الغضب، وبطولات جيش التحرير السياسية⁵ والعسكرية التي تفنك بالأعداء. فقالت:

أزيش التحرير فايت منـا المورطي⁶ والعشاريات
راكوا تعايرونا بالطنوكة⁷ والمورط راه عند الرياس⁸

1 - من مسرحية: وست شخصيات تبحث عن مؤلف. أنظر: نهاد صليحة، المدارس المسرحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 1994، ص ص 110-111.

1 - من مسرحية: أوبو في الأغلال. أنظر: د. نهاد صليحة، مرجع سابق، ص 119.

2 - في مختلف المناسبات، وخاصة الأعراس التي تجتمع فيها العوائل والأقارب والجيران لتمرير رسالتها.

3 - جَنْدِي أَوْ جَنْدِيَّةٌ وَالصَّدُوقُ وَالصَّدُوقُ وَالنِّيَّةُ

4 - فوزي العنتيل، بين الفلكلور والثقافة الشعبية، مرجع سابق، ص 245

5 - وَيَنَّاكَ يَا دِيغُولَ بَكْلَامَكْ تَرْضَى تقرير المصير شكيتك محتوم

حَكُمُوا عَلَيكُمْ الدُولَ جَمِيعَ البَلَدِي مقال الروس قيلت أمتورخ مرسوم

اجتمعوا في إيفيان عنكم شهدي مابين الوفدين هذا الشي معزوم

في توقيف النار عندك تتعدى والشرط اللي بينا يبقى متموم

6 - Mortier وتعني سلاح الهاون

7 - لقوله تعالى: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. سورة البقرة، الآية 249.

8 - الزعماء

رافدين القرطاس في وسط الما¹ أولاد الدزاير يا الزعمـا
تستاهلوا ترقدوا فوق الريش يا الزعما أصحاب الزيش²
الطيارا مولاة الرياشة طيحها الزعيم بوفلجة¹ .
لعل القيود التي فرضها الاستعمار الفرنسي على كل ما يرمز للاستقلال
والحرية، والعدوان والقهر " أكسب الحرية تطلعا أعنف إلى فرص الانطلاق
والتحليق، ولو وجدت المجال لمدت الجناح كالمطائر فتح له باب القفص، فإذا بها
تنطلق صارخة مدوية...تعطيك صورة عن تفاعلها الداخلي من طول الكبت وتحس
من ورائها ببركان على وشك الانفجار"²
يا المجاهدُ نَبْغِيكَ³ وَبُدْمِي نَقْدِيكَ وَ مَا نَقْرَطُ فَيْكَ.
الجندي خويـا ماتعديش عليـا
تشوفك فرنسا وتقتلك بالغدرة
الجندي خويـا

إنها تبيت الليل تحرس المجاهدين، وتترقب قدومهم⁴ بفارغ الصبر لتخدمهم
وتشجعهم على الأخلاق الفاضلة، والصبر، والوفاء، والتحدي، والثبات، والاعتزاز
بالنفس، والاتكال على الله، وتقديس الحرية، وتحريضهم على القضاء على هذا
المستبد، وبكلمات بسيطة ورائعة تصف لنا الأزوجة وصية الابن لأمه وهو على
أبواب الانخراط في العمل الثوري، كما تصف لنا هرولة الشباب وثباتهم في نجدة
المجاهدين:

1 - الماء.

2 - الجيش.

1 - يزلي، عمار، مرجع السابق، ص 195 .

2 - صالح خرفي، "صفحات من الجزائر: دراسات ومقالات" 1962-1972، الشركة الوطنية، الجزائر،

1974، ص 175

3 - أحبك وأقدرك

4 - غي القارة وتساءؤبة أنا زيش التحرير فات غشبة

يا م¹ عَلاش² تَبَكِّ عَلَيَّ³ وَلَدَكْ ضَحَى عَلَيَّ الحَريَّة
روحي وأعمالي للوطنية أو حبّ الجزائرِ واجِبْ عَلَيَّ

وتدعوهم إلى التضامن والتعاون لتحرير الوطن لأنهم نجوم في السماء
تضيء أرض الجزائر. وهنا في هذا المقام تمزج - الأهزوجة - الذاكرة الشعبية
بالأسطورية فتمنح البطل المقاوم أو الشهيد أبعادا أسطورية، وتحاول أن تقربه من
أبطال الملاحم، وكأنها بذلك ترتقي بالإنسان الجزائري. فلم يعد من قبيل المبالغة أن
يشعر بالحرارة العاطفية المتدفقة عندما يستمع إلى صرخاتها وهنأفاتها الحماسية التي
تحولت إلى شحنة تذكر الجنود ببسالتهن المعهودة ليتحرروا من الخوف ، وبان
يواجهوا هجوم العدو بشجاعة:

أنا نا الليل الليل والرقاي¹ عندي ونا عاسّة في طريق الجنود
أمين تكلّم الـبارود أو كخاف أنا على الجنود
يا نانا هوّد يا الرّئيس مّجبل يانا يانا ما ائهوّدشي العسّة فالطريق

زيدوا يا أولاد الدزاير زيدوا واللي دارها ربي الساع تكون

أ الساكنين الجبل بلا ما راها التقوى عند مولانا
عاونهم يا العزيز ربي راهم يداقوا² في الجبال³
يعاونكم يا المجاهدين إليّا كنتو مع خويّا
النار تقدي¹ والشركيلة آ بلحسن زيّر الثّزيمة

1 - يا أمي

2 - لماذا

3 - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». سورة آل عمراء، الآية

1 - ساعة المنبّه

2 - يجاهدون

3 - المرجع نفسه، ص 160.

يَا الْوَاعِشُ أَوْلَادَ الْعَمِّ كَالنُّجُومِ كَيْتَاتَمُ
هَا هُومًا جَاوُهَا هُومًا جَاوُ الشَّائِرَةَ لِعَابِينَ الْبَارُودِ
آغَارِ الْبَارُودِ مَا فِيكَ أَحْكَامُ أَيَّا نَهَاوُدُو لَبْنِي صَافِ الزَّيْنِ
مِينَ أَنْقَابِلُو فُوقَ الْكُرَاسِ بِنَ بَلَّةَ خَيْرُ مِنْ جِينِينَ—َار*
أَنْتُمْ جَاهِدُوا وَأَنَا أَنْغَنِّي حَتَّى نَتَلَقَاوُ فَالْحَرِيَّةِ¹.

ومن فرط حبها للمجاهدين، توجه نداءها وصرختها إلى قائد أركان الولاية الخامسة "الهوري بومدين" تلح عليه فيها بمعرفة أعمق وأشمل، وبشدة وعاطفة صادقة على قيادة المجاهدين بتريث، وأن لا يخاطر بهم حفاظا على أرواحهم الغالية فتقول:

أبومدين رايس الحريّة مَشِّي خُوتَكُ غِي بِالنَّوِيلِ

شاب رأسها وهي ما تزال في رعيان شبابها عندما علمت بقرصنة الطائرة التي تقل زعماء الثورة الجزائرية الخمسة: أحمد بن بلة، والحسين آيت أحمد، ومحمد بوضياف، ومحمد خيضر، والصحفي مصطفى الأشرف في حدود الساعة منتصف النهار من يوم 22 أكتوبر 1956 فقالت:

كي شيبيني هذا الأخبار فرنسا قبضوا الزعما

بكاء الشهيد: لعل "هذا التصميم العنيد على الحرية الناصعة غير المشوبة، والاستقلال الكامل غير المنقوص، والنصر المظفر غير المشبوه... كلف الثورة سنوات أزيد من عمرها، وأرواحا أكثر، ودمًا أشد غزارة في مسيرتها الدامية"² التي لم تفارق مخيلتها، كما لم يفارق حزن الأم والزوجة والأخت وهي تبكي على

1 - تشتعل

* الجنرال ديغول.

1 - الإستقلال.

2 - صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 271.

فراق زوجها وابنها وأخيها أو جارها البطل المجاهد الذي لم يخفه خط شال وموريس¹، فمات قهرا دون أن يشعر به أحد رغم أنه صاحب قضية، فكان موته خسارة كبيرة. ومن فرط البكاء عليه، ومن شدة ما ندبته، ابيضت عيناها حتى صارت خنساء الجزائر تستعطف الشهداء ليغفروا لها إن هي غفّت عن دمائهم أو قصّرت في مساندتهم.

في جمال هذه (الرمزية) التي استخدمتها "كوسيلة لاختراق حجب الغيب والنفاذ إلى عوالم لا تتوصل إليها الحواس..و. تعتبر عم ما يستحيل التعبير عنه"¹*. أفاضت في بث الشوق والحنين من الهجران والحرمان والوصال²، فجاء شعرها نبيئاً موجعاً ومريراً، وعاطفة جامحة غير قابلة لأية ترويض وأعز من أي لجام³، وشوقاً لرفيق الدرب الذي يبقى حيا دائما في دم الأحياء. ومن هنا فقد أعطت البعد الدرامي للقصيدة، وجعلتها أقرب إلى الإنسان الجزائري ولو كان أميا. وجعلته يمزج بين الأرض، والمجاهد والشهيد. يحن إلى تراثه، وإلى أبطاله الأسطوريين الذين يتمنى عودتهم أو وجود أمثالهم لإكمال المسيرة. فمهما فعل الاحتلال، ومهما قتل من الأبطال سيولد من أرحامهم أبطال جدد يكملون المسيرة:

1 - العوين أنفوتوا تحت سلوكا
يا والسلك والمنية شعل أتخاربوا
هاكذا نبغي الزعاما أيديروا
لأننا أولاد نهار صدوا الخدادا

أو كان يديروا خيوط السيمياء
أنا مين أتكلّم البارود كينخاف على نا على الجنود.
قاع سلك الحددا قلّعوه
ومشاو يجبو سلاح اللبيان

¹ - د. نهاد صليحة، مرجع سابق، ص 8.

* يصبح الرمز هنا كما يقول الفيلسوف والناقد أرنست كاسيرر في كتابه فلسفة الأشكال الرمزية: "وسيلة لتخزين وحفظ التجارب... بحيث تكتسب صفة الدوام التي لا يمكن للخبر الإنسانية أن تنمو دونها".
أنظر: د. نهاد صليحة، مرجع سابق، ص 9.

² - صالح خرفي، صفحات من الجزائر، مرجع سابق، ص ص 176 - 177.

³ - المرجع نفسه، ص 183.

خويرة تَبْكُ تشيب¹ الاعراش
حمو الجندي ما يراقبهاش
ما نمشط ماندير الحن—
وغير إلى جاني ولد أم

أو:

ما نفرح ماندير الحن—
أ الدارق شق الجبل تعالـى
أ الدارق شق الجبل تعالـى
لا تبك لا تـوِّ عقلـك
أنحزن عليك يالعشاريـة
لو كان ما جاني الحال بعيد
ما دريشي العين أبكـات
أن هار اللـي امشـى بنـ علال
العين تبكي والقلوب أمجرحة
يامَّ والمجاهدين في الجنة
الله يرحم الشـهـادا
هادّ الوطن أنسقا بـدم
هما اللـي جابو الحريـة
يا سامحونا في دمكم اللـي ضاع
وغير إلى جانـي ولد أم
أمك راها سارت¹ حالـة
غزيلك راها في هانـة
إلى مات خيك راه في الجنة
هودي مولاك من راس الجبل
دم الجندي نرفدو فالمنديل¹
يا القندوسي أرباعتك جات
ما اضربشي الثـير فلجبال
دمننا يجري² أو دايـر ساقية
ونا أبكيت واعميت عنيـا
على دمهم لقت الغابـة
الرجال وزاد قاع أعلا
يا ما والله يرحم الشـهـادا
يا الخـاوة يا الشـهـادا

1 - هذا المشهد لتلك المرأة الجزائرية المفجوعة على بلاد سلبت، وعلى استشهاد الابن والزوج والأب والجار الذين لن يكررهم الزمن، عمق مأساتها، وجعلنا نتخيل الصورة الموحجة للبطل المضرج في دمانه، فتسمعه الأذان موسيقى ونغما منتظما يحرك شعورنا، ويلازمنا في كل إيماء وحركة نقوم بها. أنظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ط 4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972، ص 7.

1 - أصبحت

2 - الدماء التي تسيل باستمرار (أو دايـر ساقية) تجعل المتلقي يحس ويشعر بعمق آلام ومأساة المجتمع الجزائري.

لافيو¹ تضرب والرصاص يطير أنا

تَسْتَهْلِي قَصْرِينَ فَالْجَنَّةَ الْكَرْشُ اللَّيِّ جَابَتْ الشُّهَادَى
يا خوتِي مِينْ إيجي عَنْدَكُمْ وَلِيدِي والله يَتَّقَلْ مُوَأَزِينْ—ي
يَامَّ وَالْمَجَاهِدِينَ فَالْجَنَّةَ² وَنَا أَبْكَيْتْ وَاعْمَيْتْ عَيْنِيَّ
الشُّهَادَا اللَّيِّ مَاتُوا عَلَيْهَا أَوْ رَاهُمْ فِي جَنَّةِ رَضْوَانْ
مَالِكْ مَا جِيئْشْ أَوْ لَدْ مَا ظَنَيْتْ رَاكْ طَوِيرْ فَالْجَنَّةَ
يَانَانَا أَمِيْمَتَه تَبْكِي وَخِيْمَتَه تَشْكِي يَا نَنَا
أَخِيَا الرَّاشِي فَتَقَعْ—أَدِي وَكِيْمَتِكْ¹ قَاغْ مَا تَبْرَشِي
أَنَّايفَكْ أَوَاذْ الشُّوَلِي² اللَّيِّ مَاتْ فِيكْ الرَّأيسْ بِنِ عِلَال

أصبحت تعاني من المرض بسبب شدة حرصها على حياة وسلامة

المجاهدين:

راني مريضة أو ما تبراشي وأنا سبابي غير المجاهدين.
آمن يتكلم الب—ارود أوكيئخاف أنا على الجنود

لم نستطع الأزوجة أن نقف على الهامش بل من واجبه أن تعدو القافلة
وتتفع الركب، وتتغذى طاقة الكفاح في نفوس المواطنين³ لهذا لم نتوقف لحظة واحدة
عن بكاء ورتاء شدة الهول وفضاعة المستعمر الغاشم الذي لم يرحم جزائريا سواء
كان رجلا أو امرأة، كبيرا أو صيبيا⁴، لأن المستعمر الذي يدفعه الربح لا الوطنية

¹ - الطائفة.

² - لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنْ اللَّهُ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. سورة آل عمران، الآية 169-171.

³ - حُرقة فراقك

⁴ - سميت المنطقة باسم أحد القادة الفرنسيين وهو "Chouly"، تقع شمال - شرق مدينة "تلمسان". يحيط بها كل من سيدو وسيدي بلعباس وسعيدة.

⁵ - أنيسة بركات درار، أدب النضال في الجزائر، مرجع سابق، ص ص 61 62.

⁶ - الصَّيْبَانَاءُ مَاتُوا وَاشْ دَارُوكُمْ الْبِلَادُ أَخْلَاتْ وَلُجْبَالُ شَحَالُ بَكَاتْ.

هو وحش كاسر وهمجي، يتخذ في أتون المعركة قرارات تجعله على استعداد دائم لافتراس كل من يمد يده إلى حريرته، كما أنه سبب العنف الهائج وهو خالقه¹.

حتى القافلة سرّكلوها¹ قالوا قتلوها هادؤ الفلاقة
حتى الدقيق كّفوه² والسكر زيادة

كما تبكي صورة المجاهد الباسل الذي تغنت به، والذي ضحى بالمال والولد، وبالنفس والنفيس³ من أجل الجزائر. فتصف وقوعه أسيرا في يد العدو الفرنسي بكلماتها "السحرية التي تغمر الأبيات بروح القوة المتفائلة... التي تحدو المواقف البطولية في الثورة إلى مزيد من الاستماتة والتضحية"⁴:

يا خُوتي راني مذلول بين مَثَنا وخريف قَدَمُـو خويـا للسَّيلِـون⁵
يا بن الخنزير⁶ لا تُزَيِّرْ عَلِيَه الكوردة⁷ يَدِيَه مَخْنِثِين ما مَوَّالِقْشْ بَنَمْرَمِيد
يا لكافر سامحنـي نَنَطَّرْ ونَشُوفْ قَلِيل⁸ مسلسل راسو مكشـوف
لآلة سِكْسِيونْ مُسَنَّدْ عطشان قال ما طقناش نضربو من صَهْدْء الحُمان

في هذه الظروف الصعبة، والقهر الاستعماري، والقتل الجماعي المتعمد، والقسوة والظلم، وصيد الجزائريين في قراهم وأريافهم، كانت الأزوجة أصلح قناع

1 - كان كبار المسؤولين السياسيين الفرنسيين على علم واطلاع وتنسيق مستمر مع العسكريين في العديد من مراكز التعذيب. أنظر: Paul Aussaresses. Services Spéciaux en Algérie 1955-1957. Perrin. 2001. P: 75

1 - حاصروها وطوقوها

2 - دلالة على مافعله المعمّر الفرنسي بالجزائريين للانتقام منهم بتجويعهم وبعثرة قوت يومهم.

3 - أَخْلَأُو المَالْ مَع لُوْلَادِ أَطْلَعُوا للجبل يُجاهدوا

4 - صالح خرفي، مرجع سابق، ص 276.

5 - السجن.

6 - اعتمد الشاعر في الأزوجة على عدة مصطلحات تدل جميعها على المعمّر الفرنسي، منها: الكافر، فرنسا، ديغول، أولاد لعلج، لا ليجو.

7 - الحبل

8 - مشتضعف

للمواجهة وأسلم سلاح للمبارزة لأنها كانت مشحونة بالعواطف والمشاعر الملتهبة¹، فتعرضت بالذكر إلى السلوك الإجرامي الفرنسي في المناطق المحرمة التي غالبا ما كانت ترمز إليها بكلمة "لحدّادة". هذه المناطق التي كان الهدف منها قطع "جيش التحرير عن قواعده الشعبية والدعم اللوجيستيكي الضروري له (أغذية، تجنيد، أدلاء، معلومات..)¹، وللحيلولة دون أي تسرب أو التحام لعناصر جيش التحرير الوطني بالمواطنين ضد التواجد الفرنسي على أرض الجزائر.

إلياً قلتو عين الصفرا حدادا والزعاما حوسوها بنهار

يا الرياس اللي ماتوا في لحدادا وين كئتو يا زيش التحرير

إعلان الحرب على عملاء فرنسا (الخونة): إن سادية المعمر هي التي جعلته

يُخلُّ بحواسه على أمد طويل وبصورة واسعة منظمة، وقد أجاد التعبير عنها الشاعر والناقد الفرنسي شارل بودلير قائلا: "لقد عملت جاهدا على تنمية جنوني وكم كنت أحس بالرعب والفرح"² تجاه الإنسان الجزائري، رجل أو امرأة شاب أو شيخ لأنهم مجرد شخصيات" تنتمي إلى الحياة ولا تنتمي إليها في نفس الوقت. إنها مثل تلك الأشياء التي كان بيكاسو "يغتالها" (في تعبيره) حتى يتمكن من تحقيق الكلية والشمول في تصويرها"³. والمضحك والداعي إلى السخرية من شخصية المعمر / الإقطاعي كما يحلو لبريخت أن يصوره، هو جمعه بين الاتزان والمرض، فيصبح المعمر إنسانا طبيعيا حين يشرب الخمر ويسكر، ويتحول إلى وغد متوحش وضار عندما يعود إلى وعيه. والجميع يعلم أن الحالة الطبيعية هي الوعي وليس الخمر. إن خيانة الوطن تعود إلى ضعف الوازع الأخلاقي في نفوس الخونة وأعوان الاستعمار لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ

1 - صالح خرفي، صفحات من الجزائر، مرجع سابق، ص 182.

1 - Michel Cornaton. Les Camps de regroupement de la guerre d'Algérie. L'harmattan. Paris. 1998. PP: 62-63.

2 - نهاد صليحة، مرجع سابق، ص 21.

3 - المرجع نفسه، ص 107.

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ¹ الذين نجحت فرنسا في تكوين فئة منهم. لأن "المواطن كان ممزقا

بين تعلقه بمبادئ الثورة الفرنسية التي كان لها... صدى كبيرا في نفوس الجزائريين
يبعث فيهم الأمل في التمتع ببعض مكاسب الثورة الفرنسية من حرية وإخاء
ومساواة*، وكان يغذي هذا الأمل مشاركة الجزائر في ضريبة الدم الذي
سفكته... ولكن الوقائع الصارخة كانت تحطم هذا الأمل وتزاحمه بخيبات مريرة
فتولد في نفسية المواطن. عواطف متباينة متصارعة... تدغدغها الوعود المعسولة
وتحطمها الوقائع المريرة¹.

أَحْرَكِي مَالِكُ مَالٍ كَأَنَّ
وَالْحَرَكِي وَالْكَئِبُ² فِي طَبْسِي كَلَاؤُ
أَحْرَكِي مَالِكُ مَالٍ كَأَنَّ
جَلَابَةِ الْحَرَكِي إِخْلَاسُ أَحْمَارِنَا
كِي نَدِيرُكَ يَا حَبِيبِي لِحَبِيبِ جَاتِ
وَجَابَهُ يَا بِيَاعِ دِينَ هـ
كِي نَدِيرُكَ يَا حَبِيبِي لِحَبِيبِ جَاتِ
وَجَابَهُ يَا مَرَانِ دِي
الْبِيَاعِ شَحَالِ يَدُورُوا
وَيُوصَلُو لِخَبَارِ اللَّيْرُو
وَإِنَّ أَقْضَى الْخَبِيثِ كِيرْتَدَةٌ³

يَا لَجْمَاعَةَ اللَّيْ هُوُودُو اللَّيْرُو
اللِّي عَاهَدُوا بِالْمُوتِ مَا وَلَاؤُ
الله الله يَا اللَّيْ مُسْلِمِينَ
أَوْ غَيْرِ الْكَافِرِ خَارِجِ مَنْ الدِّينِ
أَبِي عَاهِدِ الْجَنُودِ وَاعِرِ
وَاللِّي تَخْطَاهُ يَمُوتُ دَلِيلِ
الله يِعَاوَنُكُمْ يَا الْمَجَاهِدِينَ
العَقْبَةُ طَوِيلَةُ وَالسَّلَاحُ ثَقِيلِ
هَادُوا هُمَا الْمَجَاهِدِينَ
عَاهَدُوا مَا خَلْفُوا قَالِدِينَ
بِيَاعَهُمْ بِالرُّوبِلَانِ¹ أَيْدُورُ
أَنَارِي هَاذَاكَ هُوُ قَدُورُ

1 - سورة الأنفال، الآية 27.

* أثارنا ما قاله الكاتب محمد فريد أبو حديد: "من ذا الذي يجرو أن يسمى كل شيء باسمه الصحيح؟ إن القليلين الذين... بلغت بهم البلاهة أن باحوا بمكونات صدورهم للعامة والغوغاء، كان جزاؤهم أن قُتلوا أو صلبوا أو أحرقوا". أنظر: محمد فريد أبو حديد، مرجع سابق، ص 309.

1 - صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 298.

2 - الصورة القبيحة للحركي، فهو والكلب سيان لا يختلفان

3 - استسلم للعدو قصد خدمته

يا ثُومِي يا الغارقَ فـلـجِبـالَ بَعَتِ الجنة واشربتُ النارَ²
ما تبكيش يا لميمَ— ما تبكيش على ابنك الشهيد
تبكِي مَرَّتِ القومِ— اللَّيِّ بَاعَ دِينُو لُرُومِ—

لو كان ما جاني الحال بعيد دم الجندي نرقدو فالمنديل¹
ما دريشي العين أبكـاتـ يا القندوسي أرباعتك جات
أَنْ هَارَ اللَّيِّ امشَى بِنَ علال مَا اضربشِي الثَّيرَ فـلـجِبـالَ
العين تبكي والقلوب أمجرحة دَمْنَا يَجْرِي¹ أو دَايِرَ سَاقِيَةِ
يَامَ والمجاهدين في الجنة وَنَا أَبْكَيتَ واعميت عنيَا
الله يرحم الشَّهـادا على دَمَهُمْ لَقَحَتَ الغابـة
هَذَا الوطنُ أنسَقَا بِنَدَمَ الرُّجَالِ وَزَادَ قَاعَ أَعْلَا
هما اللَّيِّ جابو الحريـة يا مَا والله يرحم الشَّهـادا
يا سامحونا في دَمَكُمُ اللَّيِّ ضاعَ يا الخـاوةَ يا الشَّهـادا

سلبتها ويلات الحرب وفقدان الأحبة فرحة العيد وجماله الذي انتظرتة،
وقلبت أفرأحها إلى أتراح ومجالس للعزاء، والأحزان، وكأننا أمام المتنبى وهو
يقول:

عيدُ بأية حالٍ عُدتَ يا عيدُ بَمَا مَضَى أَمْ بِأَمْرٍ فَيَكُ تَجْدِيدُ
أَمَّا الأحيـةُ فالبيداءُ دونَهُمُ قَلَّيتَ دونَكَ بييدا دونها بييدُ²

1 - طائلات العدو الفرنسي التي كان يستعملها في قصف وترويع وتقتيل الجزائريين.
2 - « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . سورة البقرة، الآية
16.

1 - الدماء التي تسيل باستمرار (أو دَايِرَ سَاقِيَةِ) تجعل المتلقي يحس ويشعر بعمق آلام ومأساة المجتمع الجزائري.

2 - قصيدة لأبي الطيب المتنبى تحت عنوان "واحر قلباه"

جاء العيد مضرجا بدماء الشهداء لأنه ينزف دما وألما وبكاء وعويلا ودمارا وموتك وفقدت الليالي أنسها، وأصبحت تتزف رشقات الرصاص وآهات المجتمع الجزائري وهو يصرخ على وقع الأهزوجة وهي تقول:

يانا لا تُعِيدُوا لِاتِّدِيرُوا الحنة النار تقدي وتسرّكيلة أنا

يحرمون منها إذا تمردوا على السلطة. وبحكم مؤثرات التربية الشعبية التي يغلب عليها طابع البيئة البدوية القائم على أساس المعاشية والتجربة والتأمل. قرضوا الشعر، واختلطوا بمختلف الطبقات الاجتماعية في المدن الكبيرة والصغيرة. تنقلوا في الأسواق وغنوا لغيرهم من الشعراء في الأعراس والحفلات والمقاهي والأحياء الشعبية مثل الطحطاحة بمنطقة سيدي بلعباس والمدينة الجديدة* بوهراڤ وتلمسان وغيرها من مدن عمالة وهران ، أين كان السكان الجزائريون يلتقون للحديث عن همومهم ومشاكلهم ومشاكلهم اليومية، وطغيان الاستعمار الفرنسي، ويوميات الثورة، وأحيانا لتلقي الأوامر. باعتبار هذه الأماكن كانت تتواجد في أحياء شعبية فقيرة بعيدة عن مساكن المعمرين.

الأغنية البدوية: تطرقت الأغنية الوهرانية في مقاهي الطحطاحة ، على يد مطربين أمثال الشيخة "الوشامة"، والشيخة "الجنية"، والشيخة "الريميتي" التي اشتهرت بأغنية "لاكامل" (La camelle) التي لاقت رواجا كبيرا بسبب تعرضها إلى اليوميات الأليمة للعمال الجزائريين الذين كانوا يشتغلون في مؤسسة "لاكامل" التي شيدت ميناء وهران ، والشيخ "حمادة" رائد الأغنية الوهرانية، و "عبد القادر خالدي" و"دريش أحمد تيجاني" المشهور باس أحمد وهبي ، إلى الغزل والمرأة والشهامة والهجرة والثورة التحريرية والتدمر من الاستعمار البغيض¹.

¹ - شقرون غوتي، الأغنية البدوية الثورية بين فترتي الثورة والإستقلال " 1954-1962، منطقة الشولي- جمع ودراسة- رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم: الثقافة الشعبية، تلمسان، 2004-2005، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ص ص 86-87

من أبرز شعراء ومطربي الطابع البدوي الذين واكبوا الواقع في جميع
مناحيه، فجاء شعرهم مرآة صافية عكست بصدق عواطف الشعب وكفاحه. ورأوا
أن "العودة إلى التراث الشعبي تعني بالدرجة الأولى التأسيس وتحقيق الذات
والهوية، وإحياء تراث الأجداد والآباء والافتخار بآثارهم ومجدهم التليد"¹. فكانوا
بذلك لسان الشعب الذي يعبر عن آلامه وطموحاته وأحلامه¹. من هؤلاء الشاعر
"أبن حراث أحمد" المولود سنة 1923م، بمدينة سيدي بلعباس، المناهض للتجنيد
الإجباري في صفوف الجيش الفرنسي، و "ولد الزين"، و "مصطفى بن إبراهيم"،
و"ولد المنور المستغامي"، و"سعيد المنداسي" و"ابن مسايب"، و"بن سهلة"، و"ابن
تريكي" من تلمسان، ومحمد التاغزوتي، شيفر عين تادلس.

أما مطرب الأغنية البدوية قوعيش محمد بن عبد الله الذي اشتهر ب "الشيخ
حمادة"²، والذي سجّل اسمه بأحرف من ذهب في عالم الأغنية البدوية. وغنّى لكبار
شعراء البدوي، وتعرّف عن قرب على شعراء الأغنية الشعبية والأندلسية، منهم
الشيخ سعيد لولو اليهودي والشيخ عبد الرحمان، ومشايخ الشعر الملحون الذين غنى
الكثير من قصائدهم. كما غنى لأبرز شعراء تلك الفترة كمصطفى بن براهيم وعبد
القادر الخالدي، وغنّى معاً لأول مرة أغنية "يا الميلود" في أداء ثنائي فريد من نوعه
أبهر الحضور، ولم يتكرر بعدها ذلك الثنائي في مسيرة.

التقى الشيخ حمادة بالشاعر والفنان القدير الشيخ المدني، وابن قانون، وابن
طبجي المستغامي صاحب رائعة "عبد القادر يا بوعلا" م. فصقل الشيخ حمادة

¹ - صالح لمباركية، المسرح في الجزائر، مرجع سابق، ص 226.

¹ - أنيسة بركات، أدب النضال، مرجع سابق، ص 147.

² - إسمه الحقيقي "قواش محمد"، من مواليد 1889 ببلاد طواهرية التي تبعد عن مدينة مستغانم بحوالي
18 كلم.. عمل منذ صباه في مزارع المعمرين، وعانى الأمرين من ظلمهم واضطهادهم، وتحمل
المسؤولية العائلية بعد وفاة والده عبد الله وهو صبي، وكان يعبر عن همومه وأحزانه وظروفه الاجتماعية
العسيرة أثناء ساعات العمل بمزارع المعمرين، مرددا مقاطع من قصائد كبار شعراء البدوي، التي كان
يتغنّى بها كبار فناني ذلك العصر. توفي يوم الأربعاء 9 أفريل 1968 بعدما ترك بصماته في الحياة
الثقافية الجزائرية، وأنتج أكثر من خمس مئة تسجيل.

موهبتة الفنية بالنهل مما يسمعه في "السويقة" بحي تجديت بمستغانم، عندما كان يلتقي سنويا مختلف شعراء المنطقة، بمن فيهم شعراء مازونة، حيث تلقى آخر ما جادت به قرائح هؤلاء، في جو تنافسي بين المبدعين في الشعر الملحون . ويُشهد للشيخ حمادة، أنه الأواطي الذين اقتحموا عالم القصيدة الشعبية وغن وها بالطابع البدوي بـ "القصبة" و"القالل" والانتقال بذلك بالأغنية البدوية من عوالم الأرياف إلى عوالم المدينة والحضر، بشهادة الفنان الكبير عميد الأغنية الشعبية معزوز بوعجاج. ومن أشهر أغانيه "خلخال عويشة"، و"يا أهل الفن الفاسي"، و"غرايبي نحكيهم"، و"الوصية"، و"هاجو لفكار"، و"العيد الكبير"، و"يا لوشام"، و"بنات البهجة"، و"يابوي كيراني"، و"يوم الخميس واش أداني". بعد أن توقف عن الغناء وجدّد أبنائه في ثورة التحرير وهم الشارف، عبد القادر وأحمد.

عانى مطرب الأغنية البدوية "المدني محكوكة" من تحرش السلطات الإستعمارية بسبب أغنيته "عبد العزيز عبد القادر عبد المالك" خصّ بها "الأمير عبد القادر". ومن أهم المطربين الذين ذاع صوتهم في هذا الميدان، "الجيلالي العباسي" المولود بسيدي بلعباس سنة 1913 والمتوفي سنة 1988. درس بالكتاب وتلقى تشجيعا كبيرا من الشاعر "أحمد بن حراث"، أهتم بتسجيل أغانيه بنفسه. أما عبد القادر بوشريط "المعروف بالشيخ" المقلش، المولود بسيدي بلعباس سنة 1934 من أم إسبانية وأب جزائري، فلا تزال أغانيه...مثل أغنية "يا زينة ديري لاتاي" وأغنية "علمني نقرى" وأغنية "خلوني نبكي على رايي". من أهم ما يُتغنى به إلى يومنا هذا.

إن الدارس للأغنية البدوية يكتشف بأنها فن غنائي إبداعى متميز، وأدب شعبي يندرج ضمن الفنون الشعبية المختلفة عن الأغنية الحضرية التي تقل فيها الصورة الفنية، ويغلب عليها طابع البحث عن الألفاظ التي تناسب الغناء والطرب، وترضي حاجة المجتمع الحضري (الغزل، والمرأة وأنوثتها والحياة الماجنة..) الذي

لا يهتم كثيرا بالقبيلة والفروسية والقيم الأخلاقية، قدر اهتمامه بالمتعة والطرب والتمتع بالحياة¹، على خلاف الأغنية البدوية التي أولت إهتماما بالغا بمدى تمسك السكان بأصالتهم وهويتهم الطبيعية والثقافية، ورفضهم الذوبان في المجتمع الأوروبي الدخيل بعاداته وتقاليده وأفكاره. فغنوا في الأماكن العامة، واختلطوا بغيرهم في الحفلات والأعراس . ليعبروا بطبوعهم الفنية المتميزة والمتمثلة في اللباس التقليدي¹ والخيمة "صحبة بعض الآلات الموسيقية التقليدية المعروفة والبراح والراقصة، والرقصات الشعبية التي لا يُسمح للأجانب بالمشاركة فيها . لطبيعة أخلاقياتها، وبسبب طبيعة النظم القرابية المغلقة في ولائها وانتمائها في المجتمع الجزائري التي لا تزال فعالة في الحياة بوصفها نسقا ثقافيا يسعى الفرد للمحافظة عليه لأنه يُديم وجوده المستمر في المجتمع . ولأنها تعبّر عن القيم الاجتماعية التي يكتسبها الفرد منذ صغره.

2 - النوادي الرياضية والجمعيات الثقافية:

تأسست العديد من النوادي الرياضية في عمالة وهران، وهي المنطقة التي كانت الأكثر خضوعا للاستيطان الكولونيالي. نذكر منها: جمعية مدينة معسكر في مارس 1913² ، ونادي مولودية وهران أو المولودية الحامدية الإسلامية الوهرانية (MCM Oran) الذي تأسس في 1 يناير 1917 الموافق لليلة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف. لكنه اختفى سنة 1940 بسبب الحرب العالمية الثانية، ثم عاد للظهور مرة أخرى في 14 ماي 1946 في محل الحلاقة عند سي أحمد في

¹ - بن الشيخ التلي، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة، مرجع سابق، ص399

¹ - يقول مالك بن نبي: "إنه لمن الغباوة أن ننكر اليوم مشكلة الزي المناسب لرجل النهضة ونسائها، ولكننا نكون أكثر غباوة إذا ما استسلمنا في ذلك إلى التقليد البحث، بلا التفات إلى مقتضيات أحوالنا من حيث دستور الجمال، وضيقتنا الاقتصادي، والقيام ببعض الواجبات كالصلاة مثلا". : أنظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 123.

² - Département d'Oran. Série continue. 3295. Déclaration de sociétés 1901-1946.

حي الحمري حيث جرت مراسيم تأسيس الفريق في مدرسة قرآنية (مسجد أبو بكر الصديق) بساحة شارع ليرواز بالحمري بحضور الشيخ سعيد الزموشي الذي كلفه الشيخ سي الطيب المهاجي بهذه المهمة والذي يُعتبر أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، وقد دعا الشيخ سعيد زموشي لهذا الفريق بالنجاح والتوفيق وبأن يكون مثل يقنّدى به من طرف الشبيبة الجزائرية . وفي مدينة وهران أيضا، أسس النادي الرياضي لحرية وهران (CALO)¹ في 7 أوت 1921، والاتحاد الرياضي الإسلامي الوهراني U.S.M.O الذي نشأ في 01 ماي 1926 من خلال انضمام واندماج مجموعة من الجمعيات تحت إدارة السيد الصايم سليمان . ولم يتخلف أبناء مستغانم عن تأسيس أول فريق مسلم سمي الفريق الرياضي المستغانمي (C.S.M) ما بين 1927/1928، ثم ما فتئوا أن أسسوا الترجي² الرياضي الهستغانمي سنة 1940³ الذي لم تسمح له الإدارة الاستعمارية بالتقّي إلى المستويات العليا حتى لا يستعمل لأغراض سياسية (وطنية). و أسس العباسيون النادي الرياضي لمدينة بلعباس (SCBA) في 07 فبراير 1933، حيث فاز سبع مرات ببطولة شمال أفريقيا⁴ رغم أنه جاء في ظروف عسيرة مع بداية الوعي الوطني العربي الإسلامي أيام الكشافة الإسلامية ونجم شمال إفريقيا وجمعية العلماء.

¹ - (CAOM). AOM 13 480. Roland Hernandez Auvray, Livre d'or du football pied-noir et nord-africain : Maroc. Algérie. Tunisie. Toulon. Presses du Midi. 1995.P: 31. D'autres sources penchent pour le Club des Joyusetés d'Oran en 1894.

² - الترجي أو التمني لرؤية الجزائر حرة ومستقلة من الاستعمار البغيض الذي طال أمده بعدما أهلك الحرث والنسل لمدة 132 سنة.

³ - كان يلعب إلى جانب فريقين أوروبيين هما الرياضي المستغانمي S.C.M I الذي تأسس في سنة 1916، والشباب الرياضي لحي سان شارل (J.S.S.C).

⁴ - Daniel Rivet. le Maghreb à l'épreuve de la colonisation. Paris. Hachette littératures. 2002. P: 35.

لم يتخلف أبناء مستغانم عن تأسيس أول فريق مسلم سمي الفريق الرياضي المستغانمي (C.S.M) ما بين 1927/1928، ثم ما فتئوا أن أسسوا الترجي¹ الرياضي المستغانمي سنة 1940¹ الذي لم تسمح له الإدارة الاستعمارية بالتقّي إلى المستويات العليا حتى لا يستعمل لأغراض سياسية (وطنية). و أسس العباسيون النادي الرياضي لمدينة بلعباس (SCBA) في 07 فبراير 1933، حيث فاز سبع مرات ببطولة شمال أفريقيا² رغم أنه جاء في ظروف عسيرة مع بداية الوعي الوطني العربي الإسلامي أيام الكشافة الإسلامية ونجم شمال إفريقيا وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري . إضافة إلى الاتحاد الرياضي لتيارت (USM Tiaret)، واتحاد مدينة تموشنت (USMT)، وسريع النادي المسلم لغليزان (Rapid Club Musulman de Relizaine)، وفريق كرة القدم لمدينة الغزوات الذي أدرج من بين أحسن فرق خلال دورة كرة القدم لمقاطعة تلمسان ، وفريق مغنية الذي امتاز بلاعبين مشهورين مثل اللاعب أحمد بن بلة اللاعب السابق في صفوف ألمبيك مارسيليا الفرنسي الذي أحرز على كأس فرنسا آنذاك وكان بدون شك من أقوى الفرق على المستوى الأوروبي.³

نظرا لظروف نشأة هذه النوادي الجزائرية في بيئة استعمارية، فإنها لم تستطع تأسيس نوادي و فرق متكونة فقط من رياضيين مسلمين عرب لا غير، لسببين رئيسيين وهما نقص في الميزانية ، والتميز العنصري من قبل المستعمرين.

¹ - الترجي أو التمني لرؤية الجزائر حرة ومستقلة من الاستعمار البغيض الذي طال أمده بعدما أهلك الحرث والنسل لمدة 132 سنة.

¹ - كان يلعب إلى جانب فريقين أوروبيين هما الرياضي المستغانمي S.C.M I. الذي تأسس في سنة 1916، والشباب الرياضي لحي سان شارل (J.S.S.C).

² - Daniel Rivet. le Maghreb à l'epreuve de la colonisation. Paris. Hachette littératures. 2002. P: 35.

³ - الرياضة في مدينة الغزوات من سنة 1945 إلى سنة 1954. أنظر موقع: <http://novembre1954.over-blog.com>

لذلك انضم إليها لاعبون من أصول فرنسية وإيطالية وإسبانية . وفي نفس الوقت صرحت السلطات الإستعمارية بتكوين فرق مالطية ويهودية و"صهيونية"¹. ساهمت النوادي الجزائرية في غرس القيم الوطنية والدينية، والألفة بين الأهالي من خلال اللباس الاسلامي المتمثل في ربطة العنق الحمراء والشاية عليها هلال ونجمة، وترديد نشيد "وطني الجزائري"¹. كما كانت غطاء لنشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري الذي تغلغل مناضلوه فيها² للتأكيد على هويتهم الوطنية. لذلك بدأت المقابلات الرياضية بين الفرق الأوروبية والإسلامية تتجه نحو المواجهات والعنف في المدرجات، وتسببت في مشاكل متعددة لرؤساء الدوائر ومحافظي الشرطة والسلطات الفرنسية. إذ يكفي أن ينتصر فريق مسلم على فريق أوروبي في الملعب كي تأخذ المباراة أبعادا أمنية خطيرة تختلف عن الدلالات الرياضية في المنظور الاستعماري. كما تأخذ دلالات سياسية، ودوافع وطنية بسبب انتماء بعض اللاعبين إلى حزب الشعب الجزائري، وعلى سبيل المثال ترديد الفريق المسلم لعين تموشنت USMT نشيد "من جبالنا" في المباراة التي جمعته مع الفريق الأوروبي لمدينة بني صاف سنة 1945³.

في هذه الظروف واجه فريق اتحاد العاصمة الفريق اليهودي "غاليا سبور الجزائر"، واستقبل "نادي مارسى لكومب"⁴ "Wacml" برئاسة عرباوي محمد يوم 04 أبريل 1954 فريق "Réveil d'Oran" الذي يمثل يهود وهران وينشط تحت شعار اليهودية. لكن المباراة عرفت مواجهات وأحداث قبل وأثناء وبعد المقابلة

¹ - Alfred Wahl. Le football durant l'ère coloniale française. in CAOM et Association des Amis des Archives d'Outre-mer (AMAROM). L'empire des sports. catalogue de l'exposition. Aix-en-Provence. 1992. P: 44.

¹ - Préfet d'Oran. SLNA. N° 635. Aout 1950 .

² - M. Kaddache. histoire. T 1. Op. Cit. P: 475.

³ - CAOM. Département d'Oran. Série continue. 2955 Op. Cit. le 18/12/1945.

⁴ - دائرة سفيزف حاليا. تبعد حوالي 40 كلم عن سيدي بلعباس.

بحكم احتلال اليهود لفلسطين سنة 1948، وأصبحت هذه المقابلة حديث العام

والخاص. وكان جميع الأنصار الأهالي عازمين على الفوز في هذه المقابلة

معتبرين ذلك دعما ومساندة لإخوانهم الفلسطينيين.

بدعوى تطوير الرياضة في المستوطنة الجزائرية والمساهمة في اندماج

وانصهار الطرفان ، وتقريب أوساط الأهالي من السلطات الفرنسية للقضاء على

هويتهم العربية الإسلامية والحيلولة دون يقضة أي نزعة وطنية على الإطلاق،

ولبلوغ ما تعتقده السلطات الفرنسية هدفا نبيلاً لا تكتفه أية شائبة¹، وضعت الإدارة

الفرنسية توقيتاً إلزامياً للتربية البدنية في المدارس التربوية البدنية:

- التعليم الابتدائي: ساعتان ونصف ساعة خلال أربع أو خمس حصص.

- التعليم الثانوي: ساعتان في المدرسة وثلاث ساعات أخرى في الهواء الطلق.

- التكوين المهني: أربع ساعات في الأسبوع.

- التعليم العالي: نص مرسوم 275 فبراير 1953 على إلزامية التربية البدنية.

- مدارس السباحة: توفرت الجزائر على ثلاث مدارس موزعة على العمالات

الثلاث، إحداهما في وهران جهزت بالمسبح البلدي.

- مدرسة ألعاب القوى: تأسست ثلاث مدارس: اثنتان في الجزائر، ومدرسة واحدة

في وهران.

- مدرسة التزحلق على الجليد.

- مدرسة كرة السلة وكرة اليد.

- تأسيس مركز بوهران سنة 1954، ضم 26 مدرسة رياضية سنة

656، مكنت 896 تلميذا من متابعة دروسهم. منهم 80 % تعلموا السباحة.

¹ - CAOM. Département d'Oran. Série continue. 2955 . Incidents entre Européens et Musulmans 1929-1950. le Conseil d'administration de l'USMO au Gouverneur général de l'Algérie. Oran le 29/08/1935

وحصل 736 تلميذا على شهادتهم مقابل 500 شهادة في قسنطينة و 736 في الجزائر العاصمة. وفي نفس السياق أصدرت السلطات الإستعمارية تعليمتين الأولى بتاريخ 22 ماي 1930، والثانية في 31 أكتوبر، اللتان فرضتا حصة ثلاثة لاعبين أوروبيين على الأقل، ثم حصة خمسة لاعبين في الفريق الأهلي الذي يلعب المباراة فعليا.

وفق هذه التعليمات أصبح النادي الأولمبي لكرة القدم لمدينة وهران (Olympique football club d'Oran) يتكون في معظمه من لاعبين إسرائيليّين، وهو الطريق الذي سار عليه نظيره "الإتحاد الرياضي المسلم الوهراني" الذي لم يجد بدا من استقدام ثلاثين يهوديا حصلوا على الجنسية الفرنسية. مع العلم أن القوانين الرياضية التي أصدرتها فرنسا في الجزائر لم تلزم الفرق الرياضية الإسرائيلية باستقدام وإدماج واستيداع لاعبين أوروبيين في صفوفها. وكان بإمكان اليهود تشكيل فرق لا تضم إلا لاعبين يهود، يشاركون في بطولة الغرب الوهراني، والدوري والمقابلات الرياضية دون تدخل رسمي من الإدارة الفرنسية¹. وهنا نطرح السؤال التالي: ألم يكن هذا القرار مرتبطا بحكومة فيشي ومعاداتها للسامية؟ ونيتها في تجريد اليهود من المواطنة الفرنسية!، وإلا كيف نفسر إلزامية الفرق الجزائرية باستقدام لاعبين أوروبيين وإعفاء الفرق اليهودية من ذلك؟!.

ازدهرت الرياضة الجماعية، كرة القدم و كرة السلة و في الرياضات الفردية الملاكمة، السباحة، العدو، و السباق على الدراجات، حيث لمعت أسماء جزائرية على قوائم المتنافسين الرياضيين في:

- الملاكمة: برز الملاكم "سفوني قدور" في الوزن دون المتوسط، والذي فاز عدّة مرّات على الملاكم بالمونت ". وفي الوزن الخفيف هزم الملاكم "بعوش محمد" الملاكم الفرنسي من أصل ايطالي المدعو "بابا لاردو". و قد كان هذا الانتصار

¹ - CAOM. Département d'Oran. Série continue. 2955 le Chef de la Sûreté du département au préfet. Oran le 29/03/1936.

بالنسبة لسكان مدينة الغزوات سياسيا أكثر من رياضيا. وفي الوزن المتوسط، كان الملاك "حسناوي هواري" العدو الدودا للملاك "قوميز" ذو الأصل الإسباني.

- السباحة: من أشهر السباحين الماهرين، "معلم عبد القادر" و "السباح ماصا" من الغزوات.

- سباق الدراجات: يعتبر "المدعو بعيوي" من أحسن الدراجين المتسقين. شارك عدّة مرات في دورة تلمسان لسباق الدراجات ، وفاز بالعديد من الجوائز. والمدعو "نهار" من مدينة تلمسان، و"حدّوش" من سيدي أعمار، و " براق أحمد" الذي كان يعمل بمحطة ديغون للبنزين.

- رياضة العدو: تركت بصماتها في دفتر الرياضات، (سباق، رمي، وقفز) على يد "حمدون سليمان" المدعو "سبرينت"، الأحسن سباقا في السرعة، و"البشير" الملقب "كيريمبو"، و"بعوش محمد"¹.

تميزت عمالة وهران خاصة منذ الثلاثينيات بمعالم نهضة تعليمية، دينية، دروس، محاضرات، فتح المساجد والكتاتيب القرآنية لتغطية النشاطات الدينية وجعلها أمكنة تلتقي فيها القوى الوطنية. لنقل التوجهات الهوياتية وثبيتها عن طريق بث الروح الوطنية في الجزائريين. وبدعوى القيام بأنشطة رياضية وموسيقية، أسست جماعة من الجزائريين نادي الراشدية العباسي لخلق التمايز داخل المجتمع الاستعماري الذي مارس الإقصاء². وأسوا في مدينة تلمسان "جمعية أحباب البيان" سنة 1934. وفي 5 مارس 1937م أسس الأهالي بمدينة وهران "جمعية الفلاح" الوهرانية الإصلاحية التي كان مجلسها الإداري الأول يتكون من "حاج الشيخ أحمد" رئيسا، يشتغل عاملا في جريدة Oran-matin، ونائبه "قودسي هواري" (موظف في البريد)، و"محمد إبراهيم المولود" (مدرس ا حرا)، و"بريسيني بلعباس" أمينا عاما (يشتغل في البريد)، ونائبه "نافي حمو" (عاملا في البريد)، و"سمغوني أحمد" مقتصدا

¹ - <https://www.google.dz>

² - L'Echo d' Oran du 04/05/1922. N° 19236.

عاما (تاجر ا)، ونائبه "رقيق حبيب" (عاملا يومي ا)، و"عصماني بن عيسى" (عاملا يومي)، و"مكي عبد القادر" (موظف ا في البريد)، و"بن عبد الله هواري" مساعد (عاملا يومي)، و"لشلاش بغداد" مساعد (عاملا بالمقهى)، و"بلهائشي محمد مساعد (عاملا يومي)، و"جبار هواري" مساعد (عاملا يومي ا). وبدافع من جمعية العلماء المسلمين أسست جمعية الفلاح مدرسة الفلاح الواقعة في حي المدينة الجديدة بوهران¹.

¹ - جريدة الخبر اليومي، 30 نوفمبر 2014، العدد 7628.

مخازن

— أوضحت الدراسة أن الجزائريين عانوا من تدني مستواهم المعيشي (استفحال البطالة وسوء التغذية والأمراض والجهل)، فأدركوا أن أوضاعهم الاجتماعية والثقافية لن تتغير، بسبب :

1 - تكريس الاستعمار الفرنسي منهجا اقتصاديا يعتمد على سلب ونهب خيرات الجزائر، عادت عليه بأرباح وعائدات وثروات كبيرة بسبب الاعتماد على الوسائل والتجهيزات الحديثة للهيمنة الكاملة على السوق الجزائرية.

2 - استعانت الإدارة الفرنسية بجيش من الباحثين السوسولوجيين والأنثروبولوجيين المنظرين للحركة الاستعمارية، لتتحول من خلالها الظاهرة الاستعمارية إلى واقع حتمي يتقمص كل نشاط وعمل اجتماعي أو ثقافي.

3 - موقف المثقفين الفرنسيين الذين كانوا منقسمين بين اليمين واليسار.

4 - لجوء الإدارة الفرنسية إلى المدارس التطبيقية الفلاحية والتقنية، القليلة التكاليف المادية بسبب حاجة المستوطنين إلى استغلال اليد العاملة المحلية البسيطة والرخيصة. المتخصصة فلاحيا ومهنيا وصناعيا في المجالات التي لا تتطلب شهادات مدرسية، بل تقنيات بسيطة في الزراعة والكهرباء والطلاء لخدمة مصالح المعمرين والعمل في القطاعين الخاص والعام، والمساهمة في سد حاجيات الاقتصاد المحلي.

5 - قيام المؤسسات التقليدية المتمثلة في الكتاتيب القرآنية والزوايا وجمعية العلماء المسلمين والتعليم المسجدي بدور المقاومة الثقافية والسياسية والاجتماعية والدينية والتعليمية لمواجهة المدرسة الفرنسية الاستعمارية.

- أرغم الجزائريون في ظل هذا الكابوس الخطير (تدني المستوى المعيشي والثقافي) إلى الهجرة نحو:

1 - المدن في عمالة وهران، التي أفضت إلى تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية. تمثلت في تريفيف المدينة (التحضر الزائف)، وانتشار أحياء الصفيح التي انتشرت بها ظاهرة "ثقافة الفقر" والأمراض الاجتماعية والصحية بأشع صورها. مثل الجذري. ووفيات الأطفال، والقمل، والكوليرا، والإسهال، والحمى التيفودية، والتهاب الرئة، وعدم قدرة سكان الأرياف على الذهاب إلى المدن للقيام بالفحوصات اللازمة. زادت مأساة الرقابة السياسية والعسكرية، وقلة الاستثمارات الحكومية في القطاع الصحي، وتعمق اللامساواة تبعاً للسياسة الاستعمارية "فرق تسد". ف لم يجد الجزائريون بُدًا من اللجوء إلى زيارة الأضرحة، و الطب التقليدي (التداوي بالأعشاب) الذي أثبت نجاعته، وفرض نفسه كطريقة من طرق التكيف مع الارتفاع الشرس في معدلات تكاليف التطبيب وانتشار الأمراض المزمنة.

2 - الهجرة الخارجية لضمان لقمة العيش. حيث اكتشف الجزائريون هناك مدى تباين الفكر الفرنسي عن الفكر العنصري لأوروبي الجزائر. فانخرطوا في الجمعيات الثقافية والاجتماعية والسياسية الفرنسية.

- أدرك الاستعمار الفرنسي الدور الكبير الذي قامت به المرأة الجزائرية عبر التاريخ. لذلك استعان بنظيرتها الأوربية المبشرة والممرضة، ووظف مجموعة من الأعلام لدراسة تأثيرها في المجتمع الجزائري، والأسباب التي جعلته يعجز عن اختراقها. فسن مجموعة من القوانين منها: قانون 20 سبتمبر 1947 الذي يمنح المرأة الجزائرية حق الانتخاب، وإصلاح نظام الوصي في 11 جويلية 1957 الذي يمكّنها من أن تكون وصية بصفة آلية على أبنائها إذا هجرها زوجها، وأن يكون لها

الحق في اختيار زوجها، و قانون 05 / 02 / 1958 الذي أصبحت بموجبه حوالي

أربعة ملايين امرأة جزائرية تتمتع بحقوقها السياسية لإنجاح استفتاء 28
سبتمبر 1958.

— خلصنا إلى علاقة الطب و التبشير بخدمة الحركة الاستعمارية ، و الأمراض
المنتشرة في المجتمع الجزائري المسلم، و الأسباب و الدوافع التي جعلته يلجأ إلى
التداوي بالأعشاب، و زيارة الأضرحة. لذلك أولت الثورة التحريرية المباركة اهتماما
و عناية بتنظيم القطاع الصحي و إعطائه طابعا مؤسساتيا. حيث قامت بتخصيص
دورات تكوينية بسيطة و سريعة للمرضين ، و جلب الأدوية مثل البينيسيلين و السلفاميد
و الميكروكروم و الكحول و الضمادات... رغم الرقابة الصارمة و الضغط النفسي للذان
كان يمارسهما الاستعمار الفرنسي على الأدوات المتعلقة بالعمليات الجراحية
و التضמיד، و التي لا يمكن الحصول عليها إلا بمشقة الأنفس، لأنها لا تقدم إلا بوصفة
طبيب و تحت رقابة صارمة. . فجدت الطلبة بعد إضرابهم المشهود ابتداء من 19
ماي 1956، و سهرت على إنشاء مدارس للتكوين. و قد تمكنت في نهاية المطاف من
تكوين إطارات كفاءة تجاوزت مرحلة الإسعافات الأولية، لتقوم بإجراء عمليات
جراحية مستعجلة، صعبة و معقدة و في ظروف سيئة.

— أكدت جبهة التحرير الوطني قدرتها على خوض و فرض معركة استنزاف ضد
السلطات الاستعمارية الفرنسية. مما أدى إلى فشل سياسات الإصلاح التي قامت بها
الحكومات الفرنسية المتعاقبة، منها مشروع "سوستيل" و "لاكوست" و "قسنطينة"،
و استغلال البترول الجزائري الذي كان في نظر السلطات الفرنسية المنقذ من خطر
الثورة التحريرية، سواء بتقديم و عود باستحداث مناصب عمل للجزائريين، أو

بالضغط على جبهة التحرير الوطني من خلال طرح مشاريع فصل الصحراء عن الجزائر.

- لم يكن القصد من وراء المشاريع والإصلاحات الفرنسية المختلفة، سوى إنعاش اقتصاد الاستعمار الفرنسي الهش، و تفكيك البنية الاجتماعية للجزائريين، ومحو مقومات شخصيتهم العربية الإسلامية، ومحاولة (السلطات الفرنسية) احتواء وتحديد الزوايا والمساجد، والأحزاب الوطنية التي وضعتها تحت الرقابة الشديدة ، وامتصاص غضب الشعب الجزائري، وثنيه عن الثورة الجزائرية. بتكوين جزائريين يستفيدون من هذه المشاريع اجتماعيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا، يوالون الاستعمار ويكونون حجر عثرة في وجه الثورة الجزائرية.

- واجهت الإصلاحات الفرنسية رفضا قاطعا ومعارضة شديدة من قبل بعض أوروبيي الجزائر، لما تشكل في نظرهم من خطر على مصالحهم وتواجدهم في الجزائر.

- ظل الاستعمار الفرنسي يؤكد أن مطالب الجزائريين خاصة بين سنوات 1945-1962، لم تكن سوى مطالب اجتماعية واقتصادية لا غير، وأنها باستجابتها للحد الأدنى من هذه المطالب ستحد من الثورة.

- ألهمت الثورة التحريرية مشاعر المثقفين الجزائريين الذين حملوا شعار الرفض للهمجية الاستعمارية في كل تجلياتها. فاصطبغ نتاجهم بالفعل الثوري وجسّدوه في مختلف الممارسات الكتابية السائدة من رواية ومسرح وخطابة وشعر وجمعيات ثقافية ورياضية. ساهمت جميعها في مقاومة الاستعمار الفرنسي بلغته، و نشر الوعي الوطني، والدعوة للوحدة الوطنية والحفاظ على الهوية الجزائرية، وإعلان الحرب على فرنسا، وعملائها الخونة.

الإمام

حصص المواد الغذائية الموزعة على الزوايا في الغرب الجزائري خلال الحرب العالمية الثانية ¹						
الزيت	الشاي	البن	السكر	إسم الزاوية	مقر الإقامة	المستفيد
10 لتر	05 كلغ	05 كلغ	15 كلغ	القادرية	أولاد الخير	الشيخ ابن الأحول
10 لتر	05 كلغ	05 كلغ	15 كلغ	الدرقاوية	معسكر	شنتوف عدة
10 لتر	05 كلغ	05 كلغ	15 كلغ	السنوسية	بوقيرات	بن تكوك ع/ القادر
10 لتر	05 كلغ	05 كلغ	10 كلغ	الرحمانية	سعيدة	الشيخ إبراهيم
10 لتر	05 كلغ	02 كلغ	05 كلغ	الطايبية	وهران	الشريف الوزاني
10 لتر	05 كلغ	05 كلغ	15 كلغ	الشاذلية	تيارت	غلام الله
10 لتر ²	05 كلغ	05 كلغ	10 كلغ		مازونة	سي هني محمد

ملحق رقم 01

متوسط العمر المتوقع عند الولادة في السنوات 1948-1951 ³		
المسلمون	غير المسلمين	
44	60	الذكور
49	67.2	الإناث
46.5	63.4	الجنسان معا

ملحق رقم 02

¹ -A.W.O. B 2260. préfecture d'Oran. le 31 mai 1941

² - A.W.O. B 2260. Additif à la liste précédente. préfecture d'Oran. le 31 mai 1941

³ - études du Secrétariat social. Op. Cit. P: 28

عدد الأطفال المتدرسين في الأقسام الابتدائية حسب العمالات 1954 - 1955 ¹							
نسبة الأطفال المسلمين في سن التمدرس %	عدد التلاميذ المسلمين في سن التمدرس	نسبة الأطفال المتدرسين %	عدد التلاميذ في سن الدراسة	المجموع	المسلمون	غير مسلمين	الأقسام الابتدائية
18	440.000	26	500.000	131.411	80.618	50.793	عمالة وهران
من 6 إلى 10	660.000	21	700.000	148.411	107.877	40.534	عمالة الجزائر
13	805.000	15	825.000	123.948	104.622	19.326	عمالة قسنطينة
15	1.905.000	20	2.025.000	403.770	293.117	110.653	المجموع

ملحق رقم 03

تمدرس الفتيات المسلمات (1954 - 1955) ²			
النسبة %	عدد الإناث المسلمات	عدد التلاميذ المسلمين	العمالات
26	29.265	112.612	الجزائر
33	28.096	85.045	وهران
22	24.087	109.080	قسنطينة
2605	81.448	306.737	المجموع

ملحق رقم 04

¹ - études du Secrétariat social.Op. Cit. P: 52

² - études du Secrétariat social. Op. Cit. P: 55.

حالة الدراسة في 18 مدينة يفوق عدد سكانها 20.000 ساكن (1951 - 1952) ¹							
سكان المدن							
النسبة %	عدد التلاميذ	عدد الأطفال في سن الدراسة	المجموع	المسلمون	غير المسلمين	عدد المدن	العمالات
70	68.652	97.000	583.000	293.000	290.000	3	الجزائر
77	72.195	93.000	560.000	290.000	270.000	8	وهران
50	40.645	80.000	406.000	278.000	128.000	7	قسنطينة
66	181.492	270.000	1.549.000	861.000	688.000	18	المجموع

ملحق رقم 04

نسبة فئات الشباب في وهران ²					
شباب بين 21 - 24 سنة	مراهقون بين 18 - 21 سنة	متدرسون بين 13 - 18 سنة	متدرسون بين 6 - 13 سنة	الأطفال في المنزل بين 0 - 6 سنة	
3400	4.100	7.400	12.100	12.500	ذ. المسلمون
3.100	3.700	6.900	11.200	11.600	إ. المسلمات
3.800	4.600	7.600	11.500	13.000	ذ. المسيحيون
3.700	4.400	7.400	11.000	12.5000	إ. المسيحيات
800	900	1.500	2.300	2.600	ذ. اليهود
800	900	1.500	2.200	2.500	إ. اليهوديات
15.600	18.600	32.300	50.300	54.700	المجموع العمودي

ملحق رقم 05

¹ - études du Secrétariat social. Op. Cit. P: 55.

² - études du Secrétariat social. Op. Cit. P: 328.

فائض المواليد على الوفيات خلال 1950 - 1955 ¹						
1955	1954	1953	1952	1951	1950	
2.384	2.514	2.365	2.439	2.209	2.424	السكان غ. المسلمين
4.552	3.755	2.735	3.026	2.444	1.885	السكان المسلمون
6.936	6.269	5.100	5.465	4.653	4.309	المجموع
65.6	59.8	53.7	55.4	52.5	43.7	نسبة المواليد المسلمين (%)

ملحق رقم 06

نسبة الوفيات لكل 1000 نسمة ²				
غير مسلمين	مسلمون	غير مسلمين	مسلمون	
62	148	77	156	أقل من سنة
9.6	59	11.6	55.2	سنة واحدة
4.9	20.4	5.0	19.1	2 سنة
2.2	10.2	2.5	10.5	3 سنوات
1.8	6.1	1.9	7.1	4 سنوات

ملحق رقم 07

¹ - études du Secrétariat social. Op. Cit. P: 327.

² - études du Secrétariat social. Op. Cit. P: 33

المستوى المعيشي في الجزائرية ¹		
مسلمون	7 مليون ريفي	أقل من 100 ف . ف
	500 ألف حضري	
مسلمون	100 ألف ريفي	من 100 إلى 200 ف . ف
	900 ألف حضري	
مختلطون	300 ألف معظم من الحضر	من 200 إلى 500 ف . ف
معظمهم أوروبيون	800 ألف معظم من الحضر	من 500 إلى 1.000 ف . ف
أغلبهم أوروبيون	150 ألف ريفي	+ 1.000 فرنك فرنسي
	400 ألف حضري	

ملحق رقم 08

توزيع المستخدمين في القطاع الصحي ²				
القابلات	الصيدلة	أطباء الأسنان	الأطباء	
122	153	101	369	وهران
27	30	22	80	مستغانم
07	10	04	13	تلمسان
17	16	11	39	سعيدة

ملحق رقم 09

¹ - études du Secrétariat social. Op. Cit. P: 136.

² - Statistiques générales de L'Algérie. Op. Cit. P: 97

رخص بناء السكنات الجديدة ¹		
عدد الغرف في السكنات الجاهزة	رخص البناء الممنوحة	السنة
300	48	1945
480	80	1946
450	72	1947
1.150	125	1948
2.080	240	1950
3.900	460	1951
4.050	470	1952
6.700	475	1953
4.700	345	1954
7.900	575	1955
2.500	225	1956

ملحق رقم 10

توزيع السكنات حسب العملات 20%			
أهداف مشروع قسنطينة إلى غاية سنة 1963	1959 - 1958	1957 - 1945	
42	45.5	55	الجزائر
21	29	34	وهران
30	25.5	11	قسنطينة

ملحق رقم 12

¹ - études du Secrétariat social. Op. Cit. P: 331.

² - Elsenhans Hartmust. La guerre d'Algérie 1954-1962 la transition d'une France à une autre. Editions Publsud. Paris. 1999. P: 707.

المتتبعون (الجمهور) المسلم	المتتبعون (الجمهور) الأوروبي	نوع الرياضة ¹
100	900	كرة اليد - كرة السلة - الكرة الطائرة
1.000	2.000	- الملاكمة - المصارعة
2.000	4.000	كرة القدم
500	12.000	مصارعة الثيران

ملحق رقم 12

¹ - études du Secrétariat social.Op. Cit. P: 338.

النخبة الفرنسية (الأقدام السوداء) المولودة بعمالة وهران¹

المؤلف	الكتاب
Claude nal: né à Oran et ancien du Lycée Lamoricière	- Un jeune Homme d'Honneur
Bernard Zimmermann: né à Oran en 1940. Ancien du lycée Lamoricière, il a été instituteur en Algérie jusqu'en 1966	- Une amitié algérienne
Joseph Boumendil: Oranais, ancien élève du Lycée Lamoricière	- Elissa ou le mystère d'une écriture
Aline Cespedes	- Vignes
Jean-Paul Victory:.	- Histoire de ma famille: la vie de mes ancêtres en Algérie
Nicole Louette-Mazoyer: Née à Oran en 1938.	"- Olive était Pied-noir" à Oran
Philippe Bouba	- L'arrivée des Pieds-Noirs en Roussillon, en 1962
Jean Luc Monneret: Un ancien du Lycée Lamoricière s'intéresse aux livres saints des 3 grandes religions	- Les grands thèmes du Coran en 2003
Alain Boulc'h: compose et chante ses souvenirs de jeunesse en l'Algérie et Mers et kébir dont il est originaire.	- Alain de Mers el kébir
José Castano:	- s'est intéressé plus particulièrement au problème des disparus au moment de l'indépendance.
Roland Leber: né à Oran en 1937. ancien du Lycée	- sous la plume" . C'est l'histoire des émigrés "allemands" arrivés en Algérie au XIX° siècle.

¹ - <http://home.nordnet.fr/jcpillon/piedgris/Auteurs/auteursoranais.html>

Lamoricrière. Pierre Salas	- Il était une fois notre "Là-bas"
Daniel Abecassis	- "Un autre regard" qui présente une vision des évènements d'Algérie à travers le regard d'un enfant. (il n'avait que 4 ans en 1954)
Denis Nuñez	- "Le Chemin de l'Oued" À travers ce récit se fait revivre, l'amour que portaient à cette si belle Algérie.
Yvick Herniou	- Sidi Brahim
Juan Ramon Roca	- Espagnols en Algérie (mémoires d'une émigration)
Marie-Hélène Carbonel	- Maria Casarès
Sèrgy Javaloyès	- L'Ora de partir
Christiane ferrovicchio	- "Mnésis". " MARA, l'amère". "Le Manuscrit" - Une tempête, - Le feu, - Un drame humain, De l'action, - Du suspense
Reda Bekhechi: ancien élève du Lycée Pasteur	- Les Heures de braise
Luce Caggini	- "Jeux d'Amphores": : Histoire d' une chrétienne née sur la terre arabe & Un sourire de mon ami le lion
Louis Garrigos	- L'adolescent ocreux de l'Oranie
René Fonroques	- Valmy d'Algérie
Joseph Vasquez	- Soudain le 5 juillet 1962: un documentaire, un témoignage.
André harrar	- J'avais 20 ans en Algérie française.
Nicolas Vernot et Jean-Paul Fernon	- des communes de l'Algérie Française.

Paul Hairault	- De Santa Cruz à Ste Blandine.
Caroline Clergeau	- Les Raisons de la Colère.
Danièle Legrain & Paul Messerschmitt	- L'enfant déprimé.
Henri Belasco	- La Cité Petit: Des souvenirs de petite enfance de ce quartier perdu d'Oran entre 1942 et 1946.
Bernard Zimmerman & Michel Laxenaire	- Retours de mémoires sur l'Algérie: qui donne une vision tout à fait originale de la période 54-62; vécue par des "membres du petit peuple pied noir".
Alain Rodriguez	- S'inventer un soleil: parle d'un jeune instituteur pied-noir affrontant le terrible dilemme du choix d'une Algérie Algérienne, celle de son frère, et d'un Algérie Française, la sienne !
Denis Guenoun: Auteur oranais né Oran à en 1946 et aujourd'hui professeur de philosophie à la Sorbonne.	- Un sémite
Fatema Bakhäi	- La scalera
Marie Gil	- Oran et l'Oranie: Un livre de plus de 1000 photos .
Attias	- La Saga de l'eau
Henri Garrido	- les fiancés de Santa Cruz
Angèle Koster	- Le goût amer du Laurier Rose & Algérie terre de silences.
Jean Paul Taddei	- les secrets douloureux que nous cachent les dieux.
Jean Louis Lorenzo	- La Mémoire Des oliviers
Henri Belasco	- L'ombre de Saturnin
Amédée Moreno	- Le Parler des Pieds Noirs d'Oran et d'Oranie

Claude parado	- Pourquoi ne pas les conter ?
Emilienne Muzard	- Le gout de la Mouna
Stéphanie Tabois	- Terrain
Bernard Viot: a mis en musique un poème .	- La Chanson du Pied Noirm.
Marc Testud	- L'oued de ma mémoire.
Mario Ferrisi	- Lucie et Leïla & Yakouren
Michel Diaz	- Qu'est-ce donc que l'espèce Pieds-Noirs ?
<u>Cléo Chateau</u> . Lina Hayoun et Effy Tselikas	- Les lycées français du soleil
Rémy Madoui	- J'ai été fellagha
Raphaël Delpard	- Les Oubliés de la Guerre d'Algérie" & 20 ans pendant la guerre d'Algérie & l'Histoire des Pieds-Noirs d'Algérie.
Jacques Ferrandez.	- Carnets d'Orient
Raymonde Boyer	- La colline aux hirondelles
Jean Teil	- Madame, faites comme tout le monde, prenez l'autobus: la vie d'un couple d'instituteurs métropolitains affectés dans le bled à la rentrée d'Octobre 1954.
Claude Mouton-Raimbault	- Pierre De L'Homme - De l'Algérie Française à l'Expiation.
Liliane Raspail	- La Chaouiïa d'Auvergne
Kader Medhi	- La Misère Joyeuse & Sidi-Bel-Abbés au temps du Petit Paris.
Emile Serna	- a souvent donné des conférences concernant la présence espagnole à Oran

النعوت والإطلاقات المهينة للجزائريين في عمالة وهران

<p>"قرد" و "بوذيل" و "القط" و "بومعزة" و "حلوقة"¹ و "جربوع" و "بوعرة" و "فيران" و "الننين" و "هايشة" و "بوقرون" و "بوجحش" و "نعجة" و "الديب" و لخروف "فكرون" و "تيس" و "بوجردة" و "بقّة" و "الناموس" و "تعامة" و "ضربان" و "قنفود" و "زاوش" و "بوحجلة" و "حمّام، فلّوس، وثمّس، وشادي و خربوش² و بغلي، بوحماري، وجحش، بوخنشوش³، جمل و نحيلة و "جاجة"⁴.</p>	<p>ألقاب حيوانات وحشرات</p>
<p>"بوسنة" و "بوكراع" و "بوكرش" و "بوكعالة" و "بوشلاغم" و "بوشارب" و "بن دراعو" و "محروق الراس" و "بوطويل" و "بورقبة" و "بوراس و بونيف"</p>	<p>ألقاب لأعضاء الجسم</p>
<p>"بهلول" و "خرّخاش" و "بوترعة" و "بوزوبية"⁵ "مجنون" و "سكران" و "الخامج" و "غدار" و "كركار" و "بن عريان" و "حفيان" و "درداخ" و "حشمان" و "ممنّخ" و "بنادم" و "بوجلاخة" و "كّنان" و "منحزم" و "قراج"⁶ و "حوّش" و "خوان" و "قرقابو" و "ب" و "شكارة" و "برميلة" و "الصوفاج"</p>	<p>ألقاب للسخرية</p>

1 - أنثى الخنزير.

2 - صغير الأرنب.

3 - مقدمة رأس الحيوان

4 - دجاجة.

5 - القمامة.

6 - بمعنى مرآب.

<p>،"الجيفة" و"قادوس"، "بُوْطٌ" و"حراق" و"قرمود" - "مُوسَوَس" - "رَمَّاش" - "ماكُريا" و "ماكُرو"¹ - "دَرْبُوكة" - "دَقَّا"² - "بوخْثونة".</p>	
<p>"لعوج" و"لعرج" و"لقجع" و"لحول" و"لعور"³ و"لقرع" و"لعمش" و"لكوش" و"لقرطاس" و" بوراس" و"بوجبهة" و"لطرش" و"بوعين" و" بوشنافة" و"زحاف" و"بُووَدَن" - "بوسن"⁴ - "بودراع" - "بوصبيع" - "بوركبة" - "عقون" - "مَرَّاد"⁴ "قحَّاز".</p>	<p>ألقاب عاهات جسدية</p>
<p>"مُمو" - "مَرَّاد"⁵ - "بَز" - "مازوزي" - "صغير" "لكبير" - "شارف" - "شيباني" - "الشايب" "جدي".</p>	<p>ألقاب مرتبطة بمراحل نمو الإنسان</p>
<p>"خباز" - "صَبَابُطِي" - "غراس" - "نقاش" "سمار" - "حوّات" - "تاجر" - "بّاي" - "مَعْلَم" - "كِيّاس" - "كاتب" - "روان" - "حراش" "حراث" - "صيّاد" - "قلاّب" - "حداد" "خياط". "دباغ" و"شاوش" و"فلاح" بومنجل و"بوينيدر" و"طباخ" و"طبّال" و"بوطبل" و</p>	<p>ألقاب مرتبطة بالمهن</p>

1 - المرآب.

2 - بمعنى الباب في أقصى شمال غرب الجزائر، ويعني أيضا الدُرَج.

3 - عدت في هذه الدراسة إلى أرشيف بلدية سيدي بلعباس وإلى ألقاب تلاميذ بعض الثانويات وطلبة الجامعة - كلية العلوم الإنسانية - فوجدت العجب العجاب.

4 - المشئي زحفا.

5 - الطفل الذي يحبُّ

<p>"عطار" و "درّاز" و "بوطارفة"، "كابّران"، ئيَاطي¹ - "عَسّاس" - "بِوَاب" - "رَدّام"، "كُؤَاش" ² - "بِوَالَة" - "دَلَال".</p>	
<p>"مسكين" - "زوالي" - "غني" - "فقير" - "حصّال" - "سلاك" - "القايم" - "راقد" و "العاقل" و "الواعر" و "الساهل" و "الساكت" و "هدّار" و "زعفان" و "ضحاك" و "بگاي" و "غضبان" و "ظريف" و "برّدان" و "هربان" - "محقور"، "ساجي" - "العربي" - "بورومي" "فاهم" - "عارف".</p>	<p>ألقاب ذات دلالات متناقضة</p>
<p>"مومن" - "مسلم" - "عابد" - "زاهد" - "ساجد" - "مجاهد" - "محارب" - "مرحوم" - "طالب" - "بوسبحة" - "رمضان" - "مرابط" - "الحاج" - "حجاج" - "إمام" - "الشيخ" "المرابط" ت"وب لله" - لوط - فرعون.</p>	<p>ألقاب ذات دلالات دينية</p>
<p>"بوسيف" - ب"وخدمي" - "بوسكين" - "بوقادوم" - "بوشاقور" - "بوكابوس" "بورصاصة" - "بوقنبولة" - "بوزويجة" "بوكارابيلا" - "بوزبوجة" - "بوخشبة" "بوهراوة" - "زلاط" و "بوزرواطة" و "محارب" و "بوموس" - "قنّال" - "مقتول" - "بوشية" "دبّاح" - "بومدفع" - "بوشقرّة" - "دبّاح".</p>	<p>ألقاب مرتبطة بالأسلحة</p>

1 - معناها حدّاد.

2 - بمعنى خبّاز

<p>"الوهراني" - "سعيدي" - "مستغالمي" - "عباسي" تلمساني" - "نعيمي" - "مازوني" - "سفيذف" - "جاوي" - "بطيوي" - "رزوي" - "دوايدي" - "فاس"ي - "وجدي" - "مكناسي" - "مغربي" - "مصري" - "التونسي" - "السوداني"¹ .</p>	<p>ألقاب مرتبطة بالمولد والقطر</p>
<p>"سهلي" - "جبل"ي - "تلي" - "ربيع" - "صحراوي" - و"العشبي" و"لزاز"² وثابطة - مقرمان³ - كرّوشة⁴ - كرمة - بودالية- توتة - بودلعة - زنين - مريوة - بوتفاحة - بوكابوية - مايونيز - بوزيتونة - فخار - حديد - ذهبي .</p>	<p>ألقاب مرتبطة بالطبيعة والنباتات والمواد الأولية</p>
<p>بلخيرة - بن عيشة - بن عائشطا - بن حليلة - بوفاطمة - بوسعدية - بومليكة - بن شريفة - بن زازة - بن زينب - برحمة.</p>	<p>ألقاب ذات دلالات نسائية⁵</p>
<p>لبيض - لحرمر - لزررق - وردى - لكحل - لشهب - لصهب - لزررق العين - كحل الراس أسود- لسمر - لشخم⁶ .</p>	<p>ألقاب مرتبطة بالألوان</p>

1 - الشكر الجزيل إلى السيد "فقيه مصطفى"، موظف ببلدية سيدي بلعباس، فرع الحالة المدنية وكذا "كمون محمد" على المساعدة التي قدمها لي في هذه الدراسة.
2 - نبتة توضع على جسم الإنسان المريض لامتصاص الماء منه.
3 - اسم عشبة.
4 - نوع من الشجر.
5 - لقب بعض العائلات بألقاب نسائية تدل على انتساب الابن لأمه لتلمح فرنسا أن الابن له أم فقط، أي أنه ابن غير شرعي.
6 - رمادي.

<p>بوطاجين و- طويجين - قدرة - كسكاس - غربال - طيفور و "غراف" و "مغارف" و "بيدو" و "مساك" و ميدونة¹ و مهراز.</p>	<p>ألقاب مرتبطة بالأواني</p>
<p>" زعفران " و " حرمل " و " كمون " و " كركب " و " قليو " و " زعتر " و فول و زعيتر " و حرور " و " فيجل " و " شيح " و " كابويا " و " قرؤم " و خبزة، حبالي² مسؤس و لأكروت³ و لعجين.</p>	<p>ألقاب مرتبطة بأدوات الطهي</p>

ملحق رقم 15

- Galisson. Robert. De la langage à la culture par les mots. Paris. Clé internationale.

- محمد زكي شافعي، التنمية الاقتصادية، الجزء 1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1997.

1 - إناء من الحلفاء
2 - البين الجاف المرمد في القمح اللين كي لا يتعرض للتلف.
3 - اللمة

تعداد الشباب في مراكز إعادة التربية بالعمالات الثلاث ¹				
القطاع	أصول السكان	وهران	الجزائر	قسنطينة
عمومي	مسلمون	540	1.620	716
	أوروبيون	110	380	45
خاص	مسلمون	120	1.220	90
	أوروبيون	155	925	105

ملحق رقم 16

¹ - Christian Sanchez. La protection de l'enfance : regards De quelques institutions Protection judiciaire de l'enfance en Algérie : Le secteur associatif (1945-1963.). Revue d'histoire de l'enfance « irrégulière ». N° 1. 1998. P: 1998.

النعوت والإطلاقات المهنية للجزائريين في عمالة وهران	
<p>قرد، بُوذيل، أَلْقَط، بومعزة، حَلُوفَة، جربوع، بوبعرة، فَيْرَان، التَّنِين، هَائِشَة، بوقرون، بوجحش، نَعَجَة، الديق، لخروف، فكرون، تيس، بوجرادة، وَبَقَّة، الناموس، نَعَامَة، ضَرْبَان، قَنَفُود، زَاوُش، بوحجلة، حَمَام، فُلُوس، تَمْس، شادي، خربوش، بغلي، بوحماري، جحش، بوخنشوش، جمل، نُحَيْلَة.</p>	<p>ألقاب حيوانات وحشرات</p>
<p>بوسنة، بُوكرَاع، بُوكرش، بوكعالة، بُوَشْلَاغَم، بُوشارب، بِن دراعو، مَحْرُوق الراس، بُوَطْوِيل، بورقبة، بوراس، وبونيف.</p>	<p>ألقاب لأعضاء الجسم</p>
<p>بهلول، خَرْخَاش، بوترعة، بوزوبية، مجنون، سكران، الخامج، غَدَار، كركار، بِن عريان، حفيان، درداخ، حَشْمَان، مَنْتَفِخ، بِنَادَم، بُوَجْلَاخَة، مَنْحَزَم، قَرَاَج، حُوْش، خَوَان، قرقابو، بوشكارَة، برميّلة، الصوفاج، الجيفة، قادوس، بُوْط، حراق، قرمود، مَوْسُوْس، رَمَّاش، مأكريّا، مأكرو، دَرْبُوَكَة، بوخنونة.</p>	<p>ألقاب للسخرية</p>
<p>لعوج، لعرج، لقجع، لحوّل، لعور، لقرع، لعمش، بكوش، فرطاس، بوراس، بوجبهة، لطرش، بوعين، بوشنافة، زحّاف، بُووَدَنْ، بوسن، بودراع، بوصبيّع، بوركبة، عقون، قحّاز.</p>	<p>ألقاب عاهات جسدية</p>
<p>مُمُو، مَرَاد¹، بَز، مازوزي، صغير، لكبير، شارف، شيباني، الشايب، جدي.</p>	<p>ألقاب مرتبطة بمراحل</p>

¹ - الطفل الذي يحبُّ

	نمو الإنسان
خباز، صَبَابُطِي، غراس، نقاش، سَمَّار، حوَّات، تاجر، بئاي، مُعَلِّم، كِيَّاس، كاتب، رَوَّان، حرَّاش، حراث، صيَّاد، قلاب، حداد، خياط، دباغ، شاوش، فلاح، بومنجل، بوبنيدر، طبَّاح، طَبَّال، بوطبل، عطار، درَّاز، بوطارفة، كابران، ثيَّاطي ¹ عسَّاس، بواب، ردام، كُوَّاش ² ، بوبالة، دلال.	ألقاب مرتبطة بالمهن
مسكين، زوالي، غني، فقير، حصَّال، سلاك، القايم، راقد، لعائل، الواعر، الساهل، الساكت، هَدَّار زعفان، ضحاك، بگاي، غضبان، ظريف، برِّدان، هربان، محقور، ساجي، العربي، بورومي، فاهم، عارف.	ألقاب ذات دلالات متناقضة
مومن، مَسَلِّم، عابد، زاهد، ساجد، مرحوم، طالب، بوسبحة، رمضان، مرابط الحاج، حجاج، إمام، الشيخ، المرابط" - فرعون.	ألقاب ذات دلالات دينية
بوسيفب، بوخَدَمِي، بوسكَّين، بوقادوم، بوشاقور، بوكابوس، بورصاصة، بوقنبولة، بوزويجة، بوكاراييلا، بوزبوجة، بوخشبة، بوهرارة، زلاط، بوزرواطة، بوموس، "قَتَّال، مقتول، بوشية، دبَّاح، بومدفع، بوشقرة، دبَّاح.	ألقاب مرتبطة بالأسلحة
الوهراني، سعدي، مستغالمي، عباسي "تلمساني، نعيمي، مازوني، سفيزف، بطيوي، رزيوي، دوايدي، فاسي، وجدي، مُعَرَّبِي، مصري، التونسي، السوداني، تركي ³ .	ألقاب مرتبطة بالمولد و القطر
سَهْلِي، جَبَلِي، تَلِّي، ربيع، صحراوي، العشبي، لَزَّاز ¹ ،	ألقاب مرتبطة

1 - معناها حداد.

2 - بمعنى خباز

3 - الشكر الجزيل إلى السيد "فقير مصطفى"، موظف ببلدية سيدي بلعباس، فرع الحالة المدنية وكذا "كمون محمد" على المساعدة التي قدمها لي في هذه الدراسة.

بالبطبيعة والنباتات والمواد الأولية	تَابِطَة، مَقْرَمَان ² ، كَرَوِشَة ³ ، كَرْمَة، بُوْدَالِيَة، تُوْتَة، بُوْدَالَاعَة، زَيْن، مَرِيوَة، بُوْتَفَاحَة، بُوْكَابُوِيَة، مَائُونِيْز، بُوْزِيْتُوْنَة، فَخَار، حَديْد، ذَهَبِي .
ألقاب ذات دلالات نسائية	بَلْخِيْرَة، بِن عِيْشَة، بِن عَائِشَطَا، بِن حَلِيْمَة، بُوْفَاطْمَة، بُوْسَعْدِيَة، بُوْمَلِيْكَة، بِن شَرِيْفَة، بِن زَاوَة، بِن زَيْنِب .
ألقاب مرتبطة بالألوان	لَبِيْض، لَحْمَر، لَزْرَق، وِرْدِي، لَكْحَل، لَشَهَب، لَصَهَب، زَرَق العَيْن، كَحْل الرَاسِ أَسْوَد، لَسْمَر، لَشَخْم ⁴ .
ألقاب مرتبطة بالأواني	بُوْطَاجِيْن، طُوِيْجِيْن، قَدْرَة، كَسْكَاس، غُرْبَال، طِيْفُوْر، غُرَاف، مَغَارِف، بِيْدُو، مَسَاك، مِيْدُوْنَة ⁵ وْمَهْرَاز .
ألقاب مرتبطة بأدوات الطهي	زَعْفَرَان، حَرْمَل، كَمُون، كَرَكْب، قَلِيُو، زَعْتَر، حَرُوْر، فَيْجَل، شِيْح، كَابُوِيَا، قَرُوْم، خَبْزَة، حَبَالِي ⁶ مَسُوْس، لَآكْرُوْت ⁷ ، لَعْجِيْن .

ملحق رقم 17

- 1 - نبتة توضع على جسم الإنسان المريض لامتصاص الماء منه.
- 2 - اسم عشبة.
- 3 - نوع من الشجر.
- 4 - رمادي.
- 5 - إناء من الحلفاء
- 6 - التبن الجاف المرمد في القمح اللين كي لا يتعرض للتلف.
- 7 - الأجمة

توزيع المستخدمين في القطاع الصحي بعمالة وهران سنة 1959 ¹				
القابلات	الصيدلة	أطباء الأسنان	الأطباء	
122	153	101	369	وهران
27	30	22	80	مستغانم
07	10	04	13	تيارت
17	16	11	39	تلمسان

ملحق رقم 18

¹ - GGA. Service de statistique générale. Tableau de l'économie algérienne. statistiques générales de l'Algérie. Alger. 1958-1960.

قائمة

المصادر

والمراسل

القسم الأول : قائمة المصادر

الوثائق الأرشيفية الفرنسية:

- Rapport Mensuel sur l'activité politique musulmane dans le Département d'Oran (Janvier 1953 au décembre 1954).
- Roland Hernandez Auvray, Livre d'or du football pied-noir et nord-africain : Maroc, Algérie, Tunisie. Toulon. Presses du Midi. 1995. D'autres sources penchent pour le Club des Joyeusetés d'Oran en 1894.
- Confrérie Derkaouia- Chadilia- Habria- Ziania Alaoui- Affaire diverses (1889-1945) (1887-1952).
- Correspondance entre l'ambassade de France à Tripoli et l'administration coloniale à Alger sur les adeptes.
- Direction des affaires musulmanes. 5^{ème} bureau. Alger. le 10/07/1941.
- Le football durant l'ère coloniale française. in CAOM et Association des Amis des Archives d'Outre-mer (Amarom. L'empire des sports. catalogue de l'exposition.
- Notes et études Documentaires. Situation et évolution de L'Algérie pendant l'année 1948. du 15 Octobre 1949.
- Rapport de Mr. Leheureux 1923. 27H23. Aix-en-Provence.
- Rapport du M^r Corbusier à la séance du plan de la région d'Alger .
- Rapports Semestriels. Surveillance des confréries du département. Alger. classement par communes (1920-1929) .

- Agent culte musulman. recensement des personnalités religieuses musulmanes victimes du terrorisme 1962. état nominatif du personnel du culte musulman.
- Recensement de poste vacant 1956. agréments administratifs en faveurs des agents du culte musulman. action du F.L.N sur les agents du culte musulman 1960.
- Central (GC) Bulletin Mensuel des Questions Islamiques. 1954-1955.
- Agent du Culte. Mosquées. Fêtes. Confrérie (Alaouia et Snoussia). (1937-1955).
- Exposés faits aux cycles d'études du C.I.E. Central (1936-1940) .

الأرشيف الوطني باللغة الفرنسية:

- Additif à la liste précédente. préfecture d'Oran. le 31 mai 1941.
- Alger. direction des affaires musulmanes du 05/09/1941.
- Ain Sefra de Mostaganem. du 23 Mai 1946.
- Bulletin Mensuel des Questions Islamiques (1947-1957) (Rapports Mensuels des Services des Liaisons Nord- Africaines).
- Bulletin Mensuel des Questions Islamiques 1954-1955.
- Bulletin Mensuel de Presse Indigène d'Afrique. Aout 1934. Microfilm. Bibliothèque de Hamma.
- Correspondance du GGA à la Direction de l'économie algérienne portant les catégories et genres d'activités interdits aux juifs d'Algérie. le 11/01/1941.

- Correspondance du gouverneur général de l'Algérie du préfet d'Oran au sujet de l'ouverture d'une école supérieur. Formatrice de cadres d'état civils et militaires en Algérie. Le 16/07/1951.
- Département d'Oran. Incidents entre Européens et Musulmans 1929-1950. le Conseil d'administration de l'USMO au Gouverneur général de l'Algérie. Oran le 29/08/1935.
- Département d'Oran. le Chef de la Sûreté du département au préfet. Oran le 29/03/1936.
- Direction des affaires musulmanes. Alger. le 16 Juillet 1942.
- Direction du plan: le plan de Constantine. Alger. 1960.
- Dossier affaires sociales et culturelles. Rapport: Hygiène et santé. 1951.
- Ecoles Coraniques dans l'arrondissement de Mascara. 1952.
- Enquête de Khemessat: questionnaire du 28 Juin 1937.
- Enregistré à Mascara le 06/02/1914.
- Enregistré à Mascara le 27/03/1914.
- Enregistré à Mascara le 1914. Etude de M^r Paradi Victor. Notaire à Palikao (Oran).
- Liste nominative des étudiants Musulmans originaires de l'arrondissement d'Oran séjournant dans les pays arabes. le 9avril 1955.
- L'Organisation Familiale en Oranie. 1959.
- Note sur la situation des écoles Coraniques en Oranie du 21/12/1937.
- Préfecture d'Oran. CIE. du mois de Mars 1945.
- Préfet d'Oran. SLNA. N° 635. Aout 1950.

- Projets de réforme. statut de l'Algérie. dossiers documentaire Divers projets de statut Texte de loi Coupures de presse. notes de renseignements 1947.
- Rapport de police sur l'activité de l'association des Oulémas 12/03/1952.
- Rapport de Service Régional des Mines. N° 246. Inventaire des Mines Carrières. Salines du Département de Mostaganem. Oran. 26 Novembre 1962.
- Rapport du M^r Corbusier à la séance du plan de la région d'Alger.
- Rapport du préfet d'Oran du 21-09-1937.
- Rapport du Préfet. Exposé général de la situation.-Etat des vœux. Session ordinaire-Oct1964.
- Rapport: Enseignement du second degré. 1959.
- Rapport mensuel. Février 1947 Etude du développement économique de l'ouest Algérien. Institut pour l'étude et développement de l'industrie en Algérie sedia. Nov 1959.
- Rapport sur Equipement Sanitaire et Hospitalier. Centre Hospitalier Régional de Sidi Bel Abbés. 1959.
- Rapport sur Hôpital civil de Hammam-Bou-Hdjar. 1959.
- Rapport sur Hôpital Civil d'Ain Témouchent. 1959.
- Rapport sur les constructions scolaires de la commune mixte de Nedroma. Le 26/05/1952.
- Rapport sur le bruit concernant le projet de construction du Medersa à SBA. du 27/03/1943.
- Rapport sur le projet de construction d'une école. du 05/03/1943.

- Registre de copie de lettre (1925-1947). ACML. et lettre du maire de Mercier Lacombe au S/Préfet de SBA. du 17/06/1947. concernant la situation des ouvriers agricoles dans les fermes de la commune de Sfisef.
- Région économique de l'Algérie. séance de mars 1957. situation actuelle en chalus.
- Renseignement d'Etudiants Algériens en Egypt. Alger le 16 Mars 1956.
- Rey. Malibeu. Rapport à l'occasion du cinquantenaire de l'université d'Alger. 1955.
- Statistique sur les élèves admis Au Bac du département d'Oran. Session Juin 1954.
- Lettre de sous - préfet de Mascara à M^r le préfet d'Oran (S.L.N.A).
- Préfecture de Mostaganem. 3^{ème} Division. 1^{er} Bureau. La commission Départementale du Plan de Mostaganem. Mostaganem 20Juin 1959.
- Lettre du Maire du Mercier Lacombe au sous préfet de SBA. DU 22/08/1925.
- Lettre du S/Préfet de S.B.A au préfet d'Oran. Du 07-02-1921.
- Note sur la section locale de l'association des zaouias à SBA du 01/03/1940.

الوثائق والمنشورات باللغة الأجنبية:

- Algérie-développement 1959. Service de l'information de la Délégation Générale du Gouvernement en Algérie. Imprimerie Baconnier. Alger. 1959.

- Algérie. Quelques Aspects de problèmes économiques et sociaux. éditée sur l'instruction du Lacoste. Robert. imprimerie officielle. Alger. 1956.
- Annuaire statistique de l'Algérie. Imprimerie Minerva. Alger. 1936-1947.
- Annuaire Statistique de L'Algérie. Imprimerie Minerva. Alger. 1954.
- Annuaire Statistique de l'Algérie de 1954. Imprimerie V.Heintz. Alger. 1954.
- Annuaire Statistique de l'Algérie (1956-1957). Imprimerie Minerva. Alger.
- Annuaire Statistique de l'Algérie. Alger. 1961.
- Anonyme. « Conclusions générales du rapport présenté au nom du Conseil Economique par M. Robert DELAVIGNETTE et avis formulé par le Conseil Economique dans sa séance du 28 juin 1955 ». (13 octobre 1955). Ronéotypé par E.S.N.A. Paris.
- Cahiers du Centenaire de L'Algérie. N° XI la France et les Œuvres Indigènes en Algérie. Exposé sous la direction de Jean Mirante. 1^{ère} édition. Orléans.
- Délégation générale du gouvernement en Algérie "Plan de Constantine (1959-1963). projet de rapport général. deuxième partie. "les voies du développement" 31 mars 1960.
- Département d'Oran. Déclaration de sociétés 1901-1946.
- D.G. de finances. Service de statistique générale. Résultats Statistique Du Dénombrement de La Population. effectué le 31 Octobre 1948. Volume I. Population légale ou de résidence habituelle.

- Direction des services économique: école d'agriculture Sidi Bel-Abbés. Oran. Imp. Heintz frères. 1933.
- Direction du plan et des études économiques. plan de Constantine 1959-1963. Alger.
- Discours prononcé par Jacques Soustelle. Gouverneur Général de l'Algérie à la séance solennelle de l'assemblée Algérienne le 23 février 1955.
- Documents Algériens. synthèse sur l'activité Algérienne. N° du 01/01/1974 et 31/12/1974. Alger. Imprimerie Officielle. 1948.
- Éléments sur les structures socio-économiques de l'Algérie communication au XXIV congrès international de sociologie. Alger 25 au 30 Mars. 1974.
- Emploi irrégulier de la main d'œuvre étrangère Oran. Arrêté. N° 6881. du 29 Juillet 1949.
- Jacques Breil. Etude de démographie Quantitative. Rapport du H.C.C. T 2. La population en Algérie. Document Française. 1^{ère} éd. imprimerie nationale. Paris. France. 1957.
- Jeune Chambre économique. d'Alger. Le problème de l'enseignement en Algérie. Imprimerie Baconnier. Alger. 1960.
- Institut national d'études démographiques. les Algériens en France. PUF. Paris. 1955.
- Les Investissements agricoles. In Plan de Constantine. Décembre 1960.
- Mandès France. Programme d'Actions Algérie. Au congrès National des 3-6 Novembre 1955. Parti Républicain-Socialiste. Paris. 1955.

- Maxime Champ: Documentation Générale à caractère sociale. Documentation et Enquête Algériennes N° 05. Centre de Documentation et d'Enquête en Afrique du nord. Alger. Janvier 1957.
- Nadir MarOuf. Statut de la paysannerie à travers l'évolution Socio-juridique des structures agraires. IN . Congrès Internationale de sociologie. T III. Alger. Algérie. 1975.
- Rapport de gestion de l'exercice 1949. Imprimerie La Typo-Litho et Jules CARBONEL réunies. Alger.
- Rapport présenté au congrée coloniale des ingénieurs agricoles. Paris. France.
- Rapport de Service Régional des Mines. N° 246. inventaire des Mines Carrières. Salines du -Département de Mostaganem. Oran. 26 Novembre 1962.
- République Algérienne démocratique et population (R.A.D.P). Commissariat national de recensement de la population (C.N.R.P) Recensement de la population. 1966.
- Résultat statistiques du dénombrement de la population effectué le 31 Octobre 1954. imprimerie Victor Heintz. Alger. 1954
- T. Siari. Khemessat et différenciation sociale dans les compagnes algériennes in actes du 3^{ème} congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb. Oran 26 Novembre 1983.
- Textes et Décisions In Plan de Plan de Constantine. Mars 1962.
- Une expérience de déplacement de population. les centres de regroupements en Algérie. Annale de Géographie. Paris. Nov-Déc. 1962.

الشهادات الحية:

- أولعيد عبد الوهاب، (على قيد الحياة)
- بلحاج السادات، (على قيد الحياة)
- سعدي حليلة، (على قيد الحياة)
- شحرور نبية، (على قيد الحياة)
- فقير ميهوب، (على قيد الحياة)

المصادر باللغة العربية:

- جوان غليسي، الجزائر الثائرة، تر: خيرى حماد، ط 1، منشورات الطليعة، بيروت، لبنان، 1961.
- سعد فؤاد زغلول، الجزائر في معركة التحرير، دار الكتاب الشرقية، تونس، 1957.
- سعد فؤاد زغلول، عشت مع ثوار الجزائر، بيروت، دار العلم للملايين، 1960.
- فرانز فاون، معذبو الأرض، بيروت، دار الطليعة، 1963.

المذكرات:

- علي كافي، مذكرات: من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946 - 1962، الجزائر، دار القصة للنشر 1999.
- محمد لمقامي، رجال الخفاء، مذكرات ضابط في وزارة التسليح والاتصالات العامة، تر: علي ربيب، منشورات ANEP، 2004.
- مريم مختاري، سيرة مجاهدة، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، د.ت.
- طالب الإبراهيمي، مذكرات جزائري، أحلام ومحن، ج 1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006. (مذكرات)

القسم الثاني : قائمة المراجع

المراجع باللغة العربية:

أ - المراجع العامة:

- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900 - 1930)، ج 2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 3، 1983.
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، ج 3، ط 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.
- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ط02، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ط1، دار النشر، بيروت، لبنان، 1958.
- أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ط 1، مكتبة وهبة، 1401هـ.
- أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، دار هومة، الجزائر، ط1، 2007.
- أحميدة عميراي ، آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1954)، الجزائر، 2007.
- الأخضر جودي بوالظمين، لمحات من ثورة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 2، 1978.

- إدريس قرقوة، الحركة المسرحية في سيدي بلعباس ورحلة البحث عن الذات، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.
- العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع وتعليق: د. شرفي أحمد الرفاعي، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1981.
- العربي دحو، بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.
- الهادي درواز، من تراث الولاية السادسة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- امحمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1994.
- حسن عطية، الثابت والمتغير دراسات في المسرح والتراث الشعبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.
- حنيفي هلايلي، امتداد الحرب الأهلية الإسبانية في الجزائر، تاريخ منطقة سيدي بلعباس 1830-1962، الجزء الثاني، مكتبة الرشاد للنشر والطبع والتوزيع، الجزائر، 2005.
- حورية حمو محمد، تأصيل المسرح العربي بين التنظير والتطبيق في سورية ومصر، اتحاد الكتاب العرب، 1999.
- خليفة الجندي وآخرون، حوار حول الثورة، المركز الوطني للتوثيق والصحافة والإعلام، ج 3، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، 1986.
- صالح بلحاج، تاريخ الثورة الجزائرية، الجزائر، دار الكتاب الجديد، 2008.
- صالح خرفي، "صفحات من الجزائر: دراسات ومقالات" 1962-1972، الشركة الوطنية، الجزائر، 1974.
- صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال (المراحل الكبرى)، دار العلوم للنشر والتوزيع، (2005 الجزائر، 2005).
- صالح فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية للاحتلال الفرنسي المقاومة المسلحة 1830-1962، دار العلوم، 2012.

- عبد الرحمن سلامة، التعريب في الجزائر "ماضي وحاضرا ومستقبلا"، منشورات وزارة الثقافة والرشاد القومي، دمشق، 1976.
- عبد القادر حلّمي علي، جغرافية الجزائر، دراسة طبيعية واقتصادية وبشرية، مطبعة الإنشاء، دمشق ط2، د ت.
- عبد الكريم بوصفصاف، الفكر العربي الحديث والمعاصر، دار الفكر، عمان، 2009.
- عبد المالك خلف التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 71، 1983.
- علي خلاصي، قسبة مدينة الجزائر، ج 2، دار الحضارة لطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2007.
- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية إلى النهاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
- عمار هلال، أبحاث وآراء ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
- فوزي العنتيل، بين الفلكلور والثقافة الشعبية القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1978.
- فوزي سعد الله، يهود الجزائر موعد الرحيل، ج 2، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 2005.
- كلود ليوزو، جيل منصورون، الاستعمار والقانون والتاريخ، الجزائر، 2007.
- كمال عجالي، الفكر الإصلاحي في الجزائر، العقبي بين الأصالة والتجديد، مطبعة مزوار، الوادي، الجزائر، 2005.
- محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر في الجزائر، القطاع القسنطيني، ج1، شركة دار الأمة الجزائر، ط1، 1999.
- محمد صاري، شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، المطبعة العربية، غرداية، 1987.
- محمد عابد الجابري وآخرون، الأنتلجانسيا في المغرب العربي، إشراف عبد القادر جغلول، دار الحدّثة، بيروت، 1984.

- محمد غنيمي هلال، في النقد المسرحي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1955.
- محمد قنانش ومحفوظ قداش، نجم الشمال الإفريقي، 1926-1937: وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1984.
- محمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، ط 1، دار هومة، الجزائر، 2007.
- مصطفى الخشاب، دراسة المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972.
- مصطفى عشوي، المدرسة الجزائرية إلى أين؟ دار الأمة، الجزائر، 1991.
- ناصر جابي، الجزائر: الدولة والنخب، دراسات في النخب، الأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية، منشورات الشهاب، 2008.
- يحيى بوعزيز، الثورة في الولاية الثالثة 1954-1962، دار الأمة للطبع والنشر، الجزائر، ط1، 2004 .
- يحيى بوعزيز، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.
- يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.
- يحيى بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية: 1830 - 1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985.
- يحيى بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.

ب - المراجع المتخصصة:

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، ط1، 1998.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1998.

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1954، ج 7، دار البصائر، الجزائر، 2007.
- أنيسة بركات درار، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985.
- أحسن ثليلاني، المسرح الجزائري والثورة الجزائرية، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.
- أحمد بيوض، المسرح الجزائري 1926-1986، مطبعة الجاحظية، الجزائر، 1989.
- أحمد بيوض، المسرح الجزائري نشأته وتطوره 1926-1989، منشورات التبيين الجاحظية، الجزائر، 1998.
- محمد التومي، مسرحية بوحدة، طبع وتحقيق حسين نذير، المكتبة الوطنية الجزائرية، 2007.
- مصطفى بوتفوشة، العائلة الجزائرية، التطور والخصائص الحديثة- تر: دموي أحمد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- رابح تركي، ابن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعلم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969.
- رابح تركي، دراسات في التربية الإسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 2، 1978.
- سعيد فهمي، حركة عبد الحميد بن باديس ودورها في يقظة الجزائر، ط 1، دار الرحاب بيروت، 1983.
- سعيد مربي، التغيرات السكانية في الجزائر 1936-1966، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- صالح لمباركية، المسرح في الجزائر - دراسة موضوعية وفنية - ج 2، دار الهدى، عين مليلة، ط 1، 2005.

- صالح لمباركية، المسرح في الجزائر النشأة والرواد والنصوص حتى سنة 1972، دار الهدى، الجزائر.
- الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، موفم للنشر، الجزائر، 1993.
- عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2007.
- عبد الكريم بوصفصاف، جهاد المرأة الجزائرية في ولاية سطيف، المنظمة الوطنية للمجاهدين، جويلية 1997.
- عبد الكريم بوصفصاف، جهاد المرأة الجزائرية في ولاية ميلة 1954-1962، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2009.
- عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء الجزائريين المسلمين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945)، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1981.
- عبد اللطيف ابن أشنهو، تكون التخلف في الجزائر، محاولة لدراسة حدود التنمية الرأس مالية في الجزائر بين عامي 1830-1962، تر: مجموعة من الأساتذة، الجزائر، 1979.
- عبد الله أبو هيف، المسرح العربي المعاصر رؤى وتجارب، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، د ت.
- عبد الله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1995.
- عبد الحليم رايس، مسرحيتان: أبناء القصبة ودم الأحرار، مطبعة برج الكيفان، ط 2، 2000.
- عدة بن داهة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962، ج 1، الجزائر 2008.
- عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكك الاقتصادي الاجتماعي 1830-1960، تر: جوزيف عبد الله، بيروت، دار الحداثة، ط 1، 1983.

- عمار بوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا، دراسة تحليلية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975، الطبعة الأولى، الجزائر
- عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج 1، م 2، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، 1997.
- عمار هلال، نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954، لافوميك، ب ت.
- محمد طالب، من أيام حرب التحرير، ج1، نشر ابن خلدون، تلمسان، 2003.
- نهاد صليحة، المدارس المسرحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 1994.
- نور الدين عمرون، المسار المسرحي الجزائري إلى سنة 2000، شركة باتنيت، باتنة، ط 1، 2006.

المراجع المترجمة:

- ألفرد بل، الطرق الإسلامية في الشمال الإفريقي: من الفتح العربي حتى اليوم، تر: عبد الرحمان بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
- عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، تر: سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت، 1984
- عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسولوجية، تر: عباس فيصل، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان، ط2، 1962.
- عبد اللطيف بن أشنهو، الهجرة الريفية في الجزائر، تر: عبد الحميد أتاسي، المؤسسة الوطنية، المطبعة التجارية، د ت.
- غي بارفلي، النخبة الجزائرية الفرانكونية (1900-1962)، تر: محمد سعدون وآخرون، دار القصة، الجزائر، 2007 .
- مغنية الأزرق، نشوء الطبقات في الجزائر، تر: سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1980.

- أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، تر: حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972.
- أريك فروم، الخوف من الحرية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ج 1، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، تشرين الثاني 1972.
- الجيلالي صاري، الكارثة الديموغرافية 1867-1868، تر: عمر المعراجي، طبعة خاصة، وزارة المجاهدين، منشورات ANEP، الجزائر، 2008.
- الجيلالي صاري، محفوظ قداش، المقاومة السياسية 1900-1954، الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، سلسلة "الجزائر في التاريخ"، رقم 5، تر: بن حراث عبد القادر، ط 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.
- العربي ايشبودان، مدينة الجزائر، تاريخ عاصمة، تر: جناح مسعود، دار القصبية للنشر، الجزائر، 2006.
- إيفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (المدارس والممارسات الطبية والدين 1830 - 1880)، تر: محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصبية للنشر، الجزائر، 2007.
- بيير بورديو وجان كلود باسرون، إعادة الإنتاج - في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم - تر: د. ماهر تريمش، ط 1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007.
- جوزويه دي كاسترو، جغرافية الجوع، تر: زكي الرشيد، طباعة الألف كتاب، دار الهلال، القاهرة، مصر، 1991.
- جون بول سارتر، مواقف مناهضة للاستعمار، تر: محمد معراجي، منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، 2007.
- خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، تر: محمد يحياتن، د ط، دار الحكمة، الجزائر، 2007.
- علي سلاحي، عبد الرحمن علولة، شروط المسرح الجزائري - مذكرات عن فترة نشاطه المسرحي ما بين 1926-1932 - تر: أحمد منور، منشورات التبيين الجاحظية، سلسلة الدراسات، الجزائر، 2000.

- علي مراد، الحركة الإسلامية الإصلاحية في الجزائر من 1925 إلى 1940، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، تر: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007.
- فلاديمير ماكسيمينكو، الأنتلجانسيا المغاربية - المثقفون أفكار ونزاعات - تر: عبد العزيز بوباكير، ط1، دار الحكمة، الجزائر، 1984.
- فيكس ليون، الجزائر حتف الاستعمار، تر: عايدة وسهيل إدريس، دار العلم للملايين، بيروت، ب ت.
- أمارتيا صن، الهوية والعنف، تر: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 352، 2008. (مرجع مترجم)
- فاني كولونا، الأنتلجنسيا في المغرب العربي، ط 1، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984. (مرجع مترجم)
- هنري كلود، أندري برينان، إيف لاکوست، الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، تر: محمد عيتاني، منشورات مكتبة المطرف، بيروت، د ت. (مرجع مترجم)

المراجع باللغة الأجنبية:

- Abdallah Laroui. L'histoire du Maghreb : Un essai de synthèse. Centre culturel arabe. 2001.
- Abdelatif Ben Achenhou. Formation de sous développement en Algérie. Essai sur les limites du développement du capitalisme. 1830-1962. 6^{ème} édition. Alger. O.P.U. 1976.
- Abdelatif Ben Achenhou. L'exode rural en Algérie . Alger. ENAD. 1979.
- Abdelghani Magherbi. La paysannerie Algérienne face à colonisation. Edition (E.N.A.P). Alger. 1973.

- Ahmed Ben Khaled. Chroniques médicales algériennes. les années de braises . Edition Houma. Alger. 2006.
- Ahmed Henni: "Etat surplus et société en Algérie avant 1830" Ed. Enal. 1986.
- Ahmed Mahsas. Le mouvement révolutionnaire en Algérie. De la 1^{ère} guerre mondiale à 1954. Edit. Barkat. Alger. 1990
- Amar Helal. Le Mouvement Réformiste Algérien (les hommes et l'histoire)1831-1957. office des publication universitaires Alegria. 2009.
- André Nouschi. L'Algérie Amère 1914-1945. Edition de la maison des sciences de l'homme. Paris. 1995.
- André Nouschi. La Naissance du nationalisme Algérien.1914-1954. Paris. Minuit. 1962.
- André Noushi. Le sens de certains Chihhres. Croissance Urbaine et Vie Politique en Algérie (1926-1936). In mélanges à Charles André Julien. Paris. Puf. 1964 .
- André Noushi. Maurice Agulhon. la France de 1940 à nos jours. Paris. Nathan. 1942.
- Annie Rey-Goldzeiguer Aux origines de la guerre d'Algérie, 1940-1945. De Mers-El-Kébir aux massacres du Nord-Constantinois. Éditions La Découverte. coll. Textes à l'appui. 2002.
- Annie –rey-goldzeinguer. le royaume arabe. 1861-1877. Alger. 1977.
- Arlette Roth. le théâtre algérien. F. Maspero. Paris. S.D
- Benjamin Stora. Histoire de l'Algérie coloniale.1830-1954. ENAL. Alger. 1966.

- Benjamin Stora. Les sources du Nationalisme Algérien. Parcours idéologiques. origine des sécteurs. Paris. l'Harmatan. 1989.
- Benjamin Stora. il venait d'Algérie. l'immigration Algérienne en France 1912. éditions Fayard. Paris. 1992.
- Bernard Augustin. Enquête sur l'habitation rurale des indigènes. Alger. S. D.19
- Blandine Destremau et Pierre Salama: Mesure et démesure de la pauvreté. éd: PUF. 1^{ère} éd. Paris. 2002.
- Bouba-Mohamedi Tabti. La société Algérienne avant l'indépendance dans la littérature. Lecture de quelques romans. O.P.U. 4^{ème} édition. Alger. Algérie. 1986.
- Caroline Brac De La Perrière. Derrière les héros...Les employées de maisons musulmanes en services chez les Européens à Alger pendant la guerre d'Algérie. 1954-1962. collection Histoire et perspective méditerranéennes. 1^{ère} édition. l'harmattan. Paris. 1987.
- Charles De Gaulle. Discours et message avec le renouveau 1958-1962. Blanc. Paris. 1974.
- Charles De Gaulle. mémoire d'espoir. le renouveau 1958-1962. Paris. livre de poche. Plon. 1970.
- Charles-Henri Favord. Les documentations de tribune libre. La révolution Algérienne. Plon Paris. 1959.
- Charles Robert. Ageron. Histoire de l'Algérie Contemporaine. T1 et 2. de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954. PUF. Paris. 1979.
- Charles Robert. Ageron. les Algériens Musulmans et la France. 1871-1919. T2. Paris. P.U.F. 1968.

- Chérif Rahmani. la croissance urbaine en Algérie. Alger. 1982.
- Claude Collot. Les institutions algériennes pendant la période coloniale. Edit du C.N.R.S. Paris. OPU. Alger..
- Daniel Rivet. le Maghreb à l'épreuve de la colonisation. Paris. Hachette littératures. 2002.
- Djamila Amirane. Les femmes Algériennes dans la guerre. 1^{ère} édition. Plon. Paris. France.
- El Moudjahid. N^o 04. Règlement intérieur FLN-ALN. Année 1957.
- Elsenhans Hartmust. La guerre d'Algérie 1954-1962 la transition d'une France à une autre. Editions Publsud. Paris. 1999.
- Farouk Benatia. Les actions humanitaires pendant la lutte de libération 1954-1962. éditions dahlab. Alger.1999.
- Ferhat Abbas. La Nuit Colonial. Guerre et Révolution de l'Algérie. Paris.
- Ferhat Abbas. Le jeune Algérien 1930. Ed. Garnier. Paris. 1981.
- Francis Jeanson et Collette Jeanson. L'Algérie hors la lois. ENAG. 1993.
- Francis Jeanson. la Révolution Algérienne. problèmes et perspectives. Felsinelli Editore Milano. 1962.
- Georges Oved. La gauche française et le nationalisme Marocain. 1905-1955. T1. Paris. L'Harmattan. 1984.
- Georges Reutt. la région agricole de Sidi Bel-Abbes- Oran - imprimerie Heintz-frères 1949.
- Georges Reutt. Quelques aspects de l'économie rural de l'arrondissement de Sidi Bel Abbes. 1947.
- Germaine Tillion. l'Algérie en 1957. Minuit. Paris. 1957.

- Gilbert Meynier. Mohamed Harbi. Histoire Intérieure du F.L.N 1954 – 1962. Casbah Edition. Alger. 2003.
- Hassan Remaoun. L'Algérie histoire. Société et culture. Ouvrage collectif. Casbah. Edition Alger. 2000.
- Henri Alleg et autres. La guerre d'Algérie. T 1 et II. de l'Algérie des Origines à l'Insurrection. éditions Temps actuels. Paris. France. 1981. Temps actuels. Paris. France. 1981.
- Ivan Illich. Une Société sans école. Seuil. Paris. 1971.
- Jacques Chevalier. Nous Algériens... 1^{ère} édition. Paris. Clamann - Levy. 1958.
- Jacques Gandini. Sidi Bel Abbès de ma jeunesse 1935-1962. édition Jacques Gandini. Nice. 1988.
- Jacques Soustelle. Aimée et Souffrante Algérie. Plon. Paris. 1956.
- 48- Jean Claude Vatin. L'Algérie politique. Histoire et société. P.F.N.S.P. Paris. 1983.
- Jean Lacouture. De Gaulle. Le temps qui court. Seuil. Paris. 1965.
- Jean Lebens ."sociologie de la pauvreté". édition Gall iman. paris. 1978.
- 51- Jean Léon L'Africain. description de l'Afrique. T1. Traduit par Epaulard Adrien. Maisonneuve éditeur. Paris. 1946.
- Jean-Louis Planche. Sétif 1945. histoire d'un massacre annoncé. Chihad Edit. Alger. 2006.
- Jean Mirante. La France et les œuvres indigènes en Algérie. Pub. Du comité nationale Métropolitain du centenaire de l'Algérie. Alger.
- Jean Planchais et Patrick Evens. la guerre d'Algérie dossier et témoignages. haplonic. Alger. 1990.

- Jean Serra. Le problème démographique Algérien. dans. la lutte des Algériens contre la faim. ouvrage collectif. éditions du secrétariat social d'Alger. Mai 1954.
- L. Abid. l'école de médecine d'Alger 150 ans d'histoire de 1857-2007.(étude non publier).
- Léon Adoue. La ville de Sidi Bel Abbes. histoire. légende. anecdotes. Imp. René Roidot.
- Léon Bastide. Précis de l'histoire et de géographie de Bel-Abbés et son arrondissement. Oran. Imp. 1881.
- Léon-Etienne Duval. Au nom de la vérité. Algérie. 1954-1962. 1^{er} édition. édition CANA. Paris. France. 1982.
- Lhaouari Touati. économie société et acculturation. l'Oranie colonisé 1881-1937. Nice. 1984.
- M. Janier Emille. Les medersas Algériennes. Centre de hautes études d'administration musulmane. 14 mai 1948.
- Marcel Egretand. Réalités de la nation Algérienne. Paris. édition Sociale. Paris. 1961.
- Marcel Larnaude. Algérie. 1^{ere} édition. Edition Berger Levrault. Paris. France. 1950.
- Maurice Paulard. L'enseignement pour les indigènes en Algérie. Imprimerie administrative. Alger. 1910.
- Michel Drancourt. Bilan économique de V république. Paris. édition de l'entreprise moderne. 1961.
- Michel Launay. Paysans Algériens. Editions du Seuil. Paris. 1963.-

- Mohammed Ben Aissa Amir. l'Histoire Contribution à l'étude de la Santé en Algérie autour d'une expérience vécue en A.L.N. Wilaya V. Réflexions sur son développement. OPU. Alger. 1954.
- Mohamed Guentari. Organisation Politique Administrative et Militaire de la Révolution Algérienne 1954-1962. OPU. Alger. 2000.
- Mohamed Harbi. La Guerre Commence En Algérie. 1954. La Mémoire du siècle. 1^{ère} édition. édition complexe. Bruxelles. Belgique
- Moncer Roussi. population et société au Maghreb (horizon maghrébin). office des publications universitaires. TUNIS. 1983.
- Mostefa Lacheraf. L'Algérie. nation et société. Alger. ENAL. 1983.
- Nabhani Kouriba et autres. Des Africains s'interrogent. 1^{ère} édition. éditions de vieux colombier. Paris. France. 1955.
- Nora Chaouia Benallague. Algérie Mouvement ouvrier et question Nationale 1919-1954. OPU. 2005. Alger
- Paul Aussaresses. Services Spéciaux en Algérie 1955-1957. Perrin. 2001.
- Paul Marty. Le Maroc de demain. Paris. Comité de l'Afrique française. 1925
- Philippe Tripier. Autopsie de la guerre d'Algérie. France Empire. Paris. 1972
- Pierre Bourdieu et autres. Travail et travailleurs en Algérie. Paris. Mouton et Co. 1963.
- Pierre Bourdieu. et Jean-Claude Passeron. La reproduction: éléments pour une théorie du système d'enseignement. Paris. Les Éditions de Minuit. coll. « Le sens commun ».1970.
- Pierre Bourdieu. Question de Sociologie. Ed de Minuit. Paris. 1980.

- Pierre Bourdieu. Sociologie de l'Algérie. Paris. PUF. 1958.
- Pierre Goinard. Algérie. L'œuvre Française. éd Laffont. Paris 1994.
- Radouane Ainad Tabet. Histoire de l'Algérie. Sidi Bel Abbés de la colonisation à la guerre de libération en Zone 5-Wilaya V(1830-1962). ENAG. Alger. 1999.
- Radouane Ainad Tabet. Le 08 Mai 1945 En Algérie (1 place centrale Ben Aknoun. Alger. S. D.
- Robert Aron Julliard. les origines de la guerre d'Algérie. Paris. Edit Fayard. 1962.
- Robert Descloîtres. et Jean Claude Reverdy. Claudine Descloîtres. l'Algérie des bidons villes. le tiers monde dans la cité. 2^{ème} série. documents VI. éditions Mouton & Co. Paris. France. 1961.
- Robert Tinthoin. les artisans de l'Oranie. S. G. A. P. O. T 68. 1^{ère} partie. 1947.
- Robert Tinthoin. L'Oranie: sa géographie. son histoire. ses centres vitaux. librairie Fouque. Oran. 1952.
- Serge Jouin. L'Ecole en Algérie (1830-1962) de la régence aux Centres sociaux Educatifs. Publisud. Paris. 2001
- Slimane Cheikh. L'Algérie en armes ou le temps des certitudes. Casbah. Edit. Alger. 1998..
- Stéphane Gsell. Histoire ancienne de l'Afrique du nord. 1864-1932. BiblioBazaar. 2010.
- Thomas Opperman. le problème Algérien. Maspéro. Paris. 1961.
- Yvonne Turin. Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale. 2 Edition. Alger. Entreprise nationale du livre. 1983.

المقالات باللغة العربية:

- ابن حسين محمد لخضر: «تفكير حول الأوضاع الاقتصادية للطبقة العاملة في الجزائر»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 3، أبريل 1980.
- صالح بن القبي: «مآسي اللغة العربية طيلة الاحتلال الاستعماري ومآثرها»، مجلة اللغة العربية، عدد ممتاز، المجلس الأعلى للغة العربية، 2005.
- عبد القادر فضيل: «محنة اللغة العربية في فترة الاحتلال الفرنسي ومعاناتها بعد الاستقلال»، مجلة اللغة العربية، عدد ممتاز، المجلس الأعلى للغة العربية، 2005.
- أحمد حمومي: «التراث الشعبي و المسرح تجربتان من الجزائر»، إنسانيات، العدد 12، 2000.
- يمينة بشي: «مآثر المرأة الجزائرية خلال قرن من الاحتلال»، المصادر، الجزائر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، العدد الثالث، 2000.
- أحمد مريوش: «دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنية الجزائرية ما بين 1931-1952»، مجلة الرؤية، العدد 2، ماي جوان 1996.
- الأخضر جودي بوطمين، «اللغة والثورة»، مجلة أول نوفمبر، العدد 36، الجزائر، 1979.
- خضراء بلامي: «المرأة والثورة، صفحات من التضحية والمعاناة»، مجلة أول نوفمبر، العدد 148، الجزائر، 1996.
- الحسين بوظيلب: «الهجرة الدولية بالريف الشرقي وانعكاساتها»، مجلة أسيناك، العدد مزدوج، 4-5، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2010.
- مخلوف بوكروح: «إلى المسرح الجزائري»، مجلة الأقاليم، العدد 06 (خاص)، العراق، 1980.
- عبد المجيد التميمي: «مصير المورسكيين من سقوط غرناطة إلى طردهم من الأندلس»، مجلة الفيصل، العدد، 282، السعودية، ذو الحجة 1420هـ، الموافق ل أبريل 2000.

- عمار بوحوش: «سياسة الإدماج ومصادرة الأراضي في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر»، المجلة التاريخية المغربية للعهد الحديث والمعاصر، العدد 12، جويلية 1978، تونس.
- الأمين خان: «إضراب الطلبة التاريخي قبل وأثناء وبعد الإضراب»، مجلة الوحدة، العدد 464، من 17 إلى 23/05/1990.
- لطفي الخوري: «وحدة التراث الشعبي في الوطن العربي»، مجلة التراث الشعبي، العدد 09، 1970.
- مخلوف بوكروح: «ملاحم عن المسرح الجزائري»، مجلة آمال، العدد 05، وزارة الثقافة، الجزائر، 1982.

المقالات باللغة الأجنبية:

- Alfred Bel. «Coup d'œil sur l'Islam en Bèrbèrie». Revue des religions. Jan-Fév 1917. Angers imprimeur et autres. Paris.
- André Gorz. «Gaullisme et Néocolonialisme». In Revue Temps Modernes. N° 179. mars 1961.
- C. G. Gignaux. «le rouge et le noir». in les deux mondes du 15 Fev 1957.
- Christian Sanchez. «La protection de l'enfance : regards De quelques institutions Protection judiciaire de l'enfance en Algérie : Le secteur associatif (1945-1963.) ». Revue d'histoire de l'enfance irrégulière. N° 1. 1998.
- Jacques Frémeaux. «Les SAS. l'armée au service de la population. Guerre d'Algérie». Magazine N° 3. SOTECA. France. Mai/Juin 2002.

- Michel Launy. «Pas d'emploi pour les indigènes. paysans Algériens. la terre. la vigne et les Hommes». **le Seuil**. 1936. in l'Histoire. N° 140. Janvier 1991.
- P. Laumont. «Panorama de l'agriculture Oranienne (élevage et culture) ». Revue mensuelle de la vie rurale en **Afrique du nord**. N° 134. Septembre 1960.
- Yves Courrière. «La médecine dans le maquis». **Historia magazine**. N° 285. 1973.

الجرائد باللغة العربية:

- الأحرار، العدد 4877، الجمعة 21 فيفري 2014.
- الشهاب، العدد 49، السنة الثانية، 23 أوت 1926/الجزء 2، المجلد 7، مارس 1931- ج 1، المجلد 14، مارس 1936- ج 4، 13 ربيع الثاني 1356 هـ/11 جوان 1937.
- المجاهد الأسبوعي، العدد 1265، الجزائر، نوفمبر 1984/العدد، 30 نوفمبر 2014.
- عيون البصائر، العدد 15، 1947، د.ت.
- الجمهورية، العدد 4595، الأربعاء 14 مارس 2012.
- الخبر، العدد 7628، 30 نوفمبر 2014.
- البصائر، العدد 124، 29 جويلية 1938/العدد 62، 3 جانفي 1949/البصائر، العدد 65، 31 جانفي 1949/العدد 3، 28 سبتمبر 1954.

الرسائل الجامعية باللغة العربية:

- الجيلالي بولوفة، نشاط حزب الشعب - حركة الانتصار الحريات الديمقراطية في عمالة وهران 1939-1951، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2001.

- عدة بن داهة، إسهامات منطقة معسكر في المجهود الثوري (1954-1958)، مذكرة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة وهران، 2001.
- عيسى شرايطية، الريف الجزائري في السينما الاستعمارية، الصورة والأيديولوجيا، دراسة سوسيولوجية، مذكرة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 1993.
- مبارك نجاح، خصائص تطور التركيب الاجتماعي-الاقتصادي- في الجزائر (1946-1966)، مذكرة ماجستير في علم اجتماع التنمية، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة وهران.
- محمد بن دارة، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية ما بين 1952-1962، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 1999.
- مصطفى زايد، المحددات الثقافية للشخصية الجزائرية خلال الثورة التحريرية (1954-1962)، رسالة دكتوراه الدولة في علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم الاجتماع، الجزائر.

الجرائد باللغة الأجنبية:

- le Monde du 5.6.7- 10 -1961/07.08-1987/23-11-2000/01-12-2000
- Le point. 14 -05- 1990.
- Oran Républicain: 17-07-1947 / 03-10-2004.
- Le Quotidien d' Oran: 03-10-2004/ 18-09-2006/ 02-12-2008.

الفهرس

مقدمة:	ص01-09.
مدخل:	ص11-20.

الباب الأول: الوضع الاجتماعي للجزائريين في عمالة وهران

1945 - 1962

الفصل الأول: الواقع الديموغرافي في عمالة وهران:

1 - الجزائريون:	ص21 - 30.
2 - الأتراك والكراغلة:	ص30.
3 - الموريسكون:	ص30 - 31.
4 - المغاربة:	ص31 - 33.
5 - اليهود:	ص33 - 37.
6 - الأوروبيون:	ص38 - 39.

الفصل الثاني: الوضع الاجتماعي في الريف والمدينة:

1 - في الريف الجزائري:	ص40-53.
1 - 1 - الخ ماسون:	ص41-43.

- 1 - 2 - العمال الزراعيون والدائمون : ص 43 - 48 .
- 1 - 3 - البروليتاريا الزراعية : ص 48 - 52 .
- 1 - 4 - الأرستقراطية الزراعية الأوروبية : ص 52-53 .
- 2 - في المدينة الجزائرية : ص 54-81 .
- 1 - الأوروبيون : ص 54 .
- 1 - 1 - البورجوازية الأوروبية الكبيرة والمتوسطة : ص 54 - 67 .
- 1 - 2 - البورجوازية الصغيرة : ص 68 - 76 .
- 2 - الجزائريون : ص 76-101 .
- 2 - 1 - البورجوازية الجزائرية الحضرية : ص 76 - 81 .
- 2 - 2 - العمال : ص 81 - 87 .
- 3 - صناعة الفقر في المجتمع الجزائري وانعكاساته : ص 87 - 92 .
- 3 - 1 - الأطفال الجزائريون (عمالة الأطفال) : ص 92 - 107 .
- 3 - 2 - المرأة الجزائرية وواقعها في برامج الإدارة الفرنسية : ص 107-121 .
- أ - الأوضاع الاجتماعية للمرأة الجزائرية : ص 107-116 .
- ب - واقع المرأة الجزائرية في برامج الإدارة الفرنسية : ص 116-121 .

الفصل الثالث: الهجرة الجزائرية:

- 1 - الهجرة الداخلية : ص 122 - 148 .
- 1 - 1 - الجذور التاريخية للهجرة الداخلية : ص 122 - 124 .
- 1 - 2 - أحياء الصفيح : ص 124-126 .
- 2 - 1 - دوافع الإقامة بأحياء الصفيح : ص 126-131 .
- أ - الدافع التاريخي والطبيعي : ص 126 - 128 .
- ب - الدافع الاجتماعي والاقتصادي : ص 128 - 131 .
- 3 - المجتمع الجزائري المدني والتحول الحديدي : ص 131 .

- 3 - 1 - التحولات الديموغرافية : ص131 - 133.
- 3 - 2 - التحولات الاجتماعية والاقتصادية : ص134 - 138.
- 4 - انعكاساتها : ص138 - 140.
- 5 - الطحطاحة، المدينة الجديدة، المقهى، الحمام: الفضاء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في عمالة وهران : ص141 - 148.
- 2 - الهجرة الخارجية : ص148-155.
- أ - أسبابها: ص148.
- أ - أ - الأسباب السياسية: ص148.
- أ - ب - الأسباب الاقتصادية والاجتماعية: ص148 - 154.
- أ - ج - الأسباب العسكرية: ص155.

الفصل الرابع: السياسة الصحية الاستعمارية في القطاع الوهراني:

- 1 - الطب في خدمة الحركة الاستعمارية: ص156 - 164.
- 2- أهم المراكز الصحية الفرنسية في عمالة وهران: ص165 - 169.
- 3 - الوضع الصحي للجزائريين قبل الثورة: ص170-184.
- 3 - 1 - الوضع الصحي للمرأة الجزائرية: ص170 - 171.
- 3 - 2 - الأمراض المنتشرة بين الأطفال الجزائريين المسلمين: ص172 - 173.
- 3 - 3 - الأمراض الأخرى المنتشرة في المجتمع الجزائري: ص173 - 174.
- 4 - التنظيم الصحي خلال الثورة الجزائرية: ص184 - 185.
- 5 - تكوين الممرضين: ص185 - 191.
- 6 - تعبئة الطلبة الأطباء: ص191 - 194.
- 7 - إنشاء المستشفيات ومدارس التكوين: ص194 - 197.

الباب الثاني: الوضع الثقافي للمجتمع الجزائري في عمالة وهران

1962 - 1945

الفصل الأول: إشكالية التعليم ووضعية المؤسسات التعليمية بعمالة

وهران:

- 1 - المدرسة الفرنسية مؤسسة تعليمية أم قناة إيديولوجية: ص 198 - 213.
- 2 - المدارس التطبيقية: ص 213 - 214.
- أ - التكوين التقني: ص 214 - 219.
- ب - التعليم الفلاحي: ص 219 - 248.
- 3 - دور المؤسسات التقليدية في عمالة وهران في مواجهة المدرسة الفرنسية (المقاومة الثقافية): ص 248 - 249.
- أ - الكتابات القرآنية: ص 249 - 259.
- ب الزوليا: ص 260 - 288.
- ج - جمعية العلماء المسلمين: ص 289 - 313.
- 4 - نقد المنهاج التعليمي في المؤسسات التعليمية التقليدية: ص 313 - 315.

الفصل الثاني: الثورة الجزائرية والتحرر الثقافي:

- 1 - النظام التعليمي: ص 316 - 317.
- 2 - تأسيس اللجان الشعبية لتوظيف المعلمين: ص 317 - 324.
- 3 - استعمال اللغة العربية في التدريس: ص 324.

الفصل الثالث: المسرح الجزائري:

- 1 - واقع المسرح الجزائري في عمالة وهران :ص 325 - 329.
- 2 - الفضاء المسرحي وأهم المسرحيات في عمالة وهران:ص 329 - 349.

الفصل الرابع: التراث الشعبي والرياضي في عمالة وهران :

- 1 - التراث الشعبي :ص 351.
- أ - فن القول (الأهزوجة) :ص 351 - 364.
- ب - الأغنية البدوية :ص 365 - 367.
- 2 - النوادي الرياضية والجمعيات الثقافية :ص 368 - 374.
- خاتمة:ص 376 - 379.
- الملاحق:ص 380 - 401.
- قائمة المصادر والمراجع:.....ص 401 - 430.